دمشق والتّراث

د. علي عقلة عرسان

دمشق والتراث : حالتان من تفجر العشق وعناقه ، تخطران وتتماهيان وتنسربان في متون الوقت والقلب ، من شفق الفجر الى تناومات الغسق، ولا تنفكان عن الحضور وتفعيله ، تجمعان المدى والزمن عند عتبة القلب ليزداد بصيرة وابصاراً ، وعبرة واستذكاراً • فاذا ذكرت دمشق ذكرت التراث ، واذا ذكرت التراث برزت لك دمشق بألف حلة قشيبة وحلة، وبألف ذؤابة مليسة وذؤابة ، بينهما وجه جميل أصيل يعمق فيك معنى الحياة وحبها ، ويقيمك معافى في أرض « الريف والحامات والشهوات » بين ماء وثمر وقمر •

لا أعرف بداية موفقة تكون مدخلاً طيباً الى هذه الدارة البهية : دارة دمشق ـ التراث ، وربما لهذا السبب أسلمت قياد نفسي للعشق ، يقودني في مغانيها على هواه ، فأنا المأخوذ من ناصية القلب ، وفي مثل حالتي هذه يسقط كل عتب ولوم •

إن قلت متى بدأ تاريخ المدينة : هل مع الآراميين أم من قبلهم بعقود وقرون ، فلا أصل الا الى ضمائم من تراث تشمخ به جبهة الحجر ، وتسجله طرائق تسجيل البشر ، يقول : منذ ما قبل التاريخ المكتوب كان لدمشق تاريخ • وإذا قلت إنها تعاصر الأموريين وتعتصرهم في خوابيها وتمتد الى ما يقرب من زمن البابليين والسومريين، نهضت التلال الآثارية المحيطة بها ـ الغسول وسواها ـ محتجة على الاجحاف والتجاهل ، معلنة حرب الوثائق على الظلم والجهل ، رافعة أشرعتها المتماوجة في بحر الزمن لتؤكد تواصل التاريخ الحضاري للمنطقة وامتداده من الخطوات الأولى في سهل نطوف ـ قرب أريحا ـ في الألف العاشر قبل الميلاد وامتداداً الى تل حلف في الشمال الشرقي من سورية•

وحين يعجز المرء عن تحديد البدايات ، ويتجاوز تلك العقبة الكأداء ، أو يقفز فوقها ، سالكاً مع الزمن طريقه الطبيعية الهينة ، ملتمساً في التاريخ ما يحدده حرف مكتوب وظل بشري مسكوب في نقش وعمارة وشكل من أشكال الحضارة ، يجد نفسه بين لمسات وبصمات واشارات ومعطيات ، تمتد من الكتابة المقطعية المسارية الى أبجدية أوغاريت ، ومن هذه الأخيرة الى دوامة هذا العصر ، ويجد في

كل ذلك تسجيلاً وتوثيقاً وتحققاً لتلاقح حضاري مع الحضارات والأمم والأقوام : العصر اليوناني القديم والهلنستي والروماني والبيزنطي على أرضية الكنعانية والآرامية والسريانية والنبطية والتدمرية، مغشىً بأصالة أهل المنطقة الذين لم يخرجوا في تكوينهم وانتمائهم ونسيجهم الثقافي والاجتماعي ، عن دائرة الأمم والأقوام التي نبتت من الأرومة العربية أو على جذع تلك الأرومة ، سواء كانت من العرب الذين شرّشوا في المنطقة منذ القديم ، وتفاعلت فيها لهجاتهم و « شفتهم » ، وقيل لغاتهم، أو من تفاعلهم وتواصلهم مع الآخرين في جولاتهم وهجراتهم الداخلية في الجغرافيا والبيئة العربيتين ، دينك الممتدتين في مستنبت الحضارة القديم هذا ، الذي يضاهي الفرعونية القديمة ويجاورها ويحاورها ويأخذ منها ويعطيها ويكوّن معها أرض العلم القديم وسقفه والفضاء الذي بين الأرض والسقف.

وهم يتفاعلون مع الحضارات والأمم والثقافات فيأخذون ويعطون بثقة وتفتح ، وتبقى لهم شخصيتهم ودمشقيتهم ، ويبقى لهم حضورهم الذي يمتد ما امتد بالانسانية تاريخ وحضور حي ، سواء باتجاه الشرق حيث كان زهو الفرس وحجمهم وحضور الهند والصين ، أو باتجاه الغرب حيث أعطت الفتاة « أوربة » أخت القدموسيين وسليلتهم ، للقارة الجديدة اسمها ، وحيث هاجر اليها من نسل « الكادميين » الكنعانيين أو الأموريين عامة ، أقوام أقاموا دعائم حضارة وثقافة لم تكونا بعيدتين بحال من الأحوال عن تأثير هذا الجزء من أرض البشر، الذي كان مهد الحضارة ولم يكن مجرد ملتقى للحضارات كما يحب بعض الغربيين أن يقول .

وهذا هيرودوتس يعيد لهذه المنطقة من العالم فضل نشر الميثولوجيا القديمة في اليونان ومن ثمة في الغرب كله ، فيقول : « وأنا أقرر الآن أن ميلامبوس MELAMPUS – بمعنى الأسود القدمين – ذلك الرجل الحكيم الذي أوجد العرافة ، قد تعلّم من المصريين أشياء عديدة مختلفه ، نقل منها الى بلاد اليونانيين – بعد تعديل طفيف – ما يختص بديونيزوس ، وأنا لا أومن مطلقاً بأن الاتفاق بين شعائر ديونيزوس في مصر وفي بلاد اليونان وليد المصادفة ، والا لانسجمت هذه الشعائر مع طباع اليونانيين ، وما كان دخولها عندهم حديث العهد .ولن أقول أبداً ان المصريين نقلوا هذه الشعائر عن اليونانيين ، لا هي ولا غيرها من العادات ، ولكن من المحتمل جدا – كما يخيل اليّ – أن ميلامبوس تعلم هذه الشعائر من كادموس الصوري ، ومن أولئك الذين هاجروا معه الى البلاد التي تسمى حالياً : بيؤوسيا »(١) .

ويضيف هيرودوتش : « لم يعرف اليونانيون أصل واحد من الآلهة ، ولا تاريخ وجودها القديم جميعاً ، ولا ما هي أشكالها ، لم يعرفوا ذلك الا بالأمس وبالأمس القريب كما يقولون . وأنا أعتقد أن هسيودوس وهوميروس عاشا قبل عصري بأربعمئة سنة لا أكثر – نهاية القرن التاسع ق.م – وهما اللذان دوّنا لليونانيين أنساب الآلهة وسمياها بألقابها ... الخ »(٢) .

وهذا لا يترك مجالاً للشك في أبوة وأمومة ثقافة هذه المنطقة لثقافة الغرب القديمة كما أنه يدعونا الى مزيد من التقصي والبحث والتدقيق للوقوف على الدور الحضاري الذي لهذه الأمة ، التي ينال منها اليوم الضعف ، وينخر فيها السوس، ويرين على ذاكرتها ووعيها الجهل ، ويتأكّلها الاهمال والتدابر وفساد القلب والنية والرأي .

---

١ – هيروتس يتحدث عن مصر – ص ١٤٩–١٥٠ ، ترجمة : د. محمد صقر خفاجة – دار القلم بالقاهرة – ١٩٦٦ .

٢ – هيرودوتس يتحدث عن مصر – ص ١٥٥ – ١٥٦ .

لقد تداخل في دمشق المعبد الوثني القديم ـ معبد حدد وسواه ممن سبقه وتلاه من آلهة هذه البلاد ـ والكنيس ، والكنيسة والمسجد ، وهي بهذا الغنى والتنوع والتداخل ، لم تكن مجرد حاضرة من حواضر العالم القديم التي شاركت في احتضان العقائد والثقافات وساهمت في نمو الوعي والايمان فقط ، وانما كانت سرة الأرض التي شهدت صراع الوثنيات فيما بينها ، وصراعها مع الديانات السماوية ، وصراع الديانات السماوية فيما بينها ثم تآخيها وسبوغ التسامح عليها • فهي جارة انبياء وخدنها ، وهي جنّة الأرض التي نبّه اليها رسل ، وهي الدار التي تعززت فيها رسالة الاسلام بنوعية من التآخي والتسامح مع الديانات السماوية ، لم تشهدها الا مدن عريقة قليلة ، وهي التي تداخل فيها النسيج المعماري والحضاري وحتى الاجتماعي الأقدم والقديم في تكوين حضاري عضوي ثبت شخصية ثقافية نوعية من خلال تراكمية ثقافية مجدية ، كما تداخل فيها القديم مع الجديد والمستجد ، ولكن ذلك المعطى الثقافي والحضاري العام والمتنوع كان يدخل دائماً بوتقة واحدة تصهره وتسبغ عليه في النهاية ثوبه ، الثوب الدمشقي ـ العربي ، ليعطي هوية وخصوصية وشخصية للمدينة يجلوه تراثها ، وليعطي للتراث شمرخة زاهية تجلو هي شخوصه وتحدد هويته وانتماءه •

لقد كان الفتح الاسلامي لدمشق في السنة الرابعة عشرة للهجرة ـ القرن السابع للميلاد ـ فهل تراه دخل دياراً لم تكن العروبة مستقرة فيها ؟! أم تراه وجد من أهل الديار عوناً له ، وترحيباً به ، وتعرفاً عليه ، واعترافاً بأصالة سنديانته في الأرض وعبق ريحانته في الدور والقصور ، وعلى ضفاف بردى ، وفي بساتين الشام الريانة والمزدانة بالذكريات وبوشم الانتماء العربي الصراح ؟!

ربما كانت لذلك مناصفة عاشت دمشق في ظلها قروناً من قبل ومن بعد ، وتكاد تكون علامة عليها ، فيوم سبح خالد بن الوليد ومذعور بن عدي والقعقاع بن عمر في ماء خندق دمشق وكبروا فوق سورها القديم ، وفتحوا الباب الشرقي للجند ، فتحوها عنوة من هذا الجانب ولكن الذين فتحوا لجند يزيد بن أبي سفيان وابي عبيدة بن الجراح أبواب دمشق الأخرى كانوا يصالحون ويميلون ، وربما ينتمون ، وكان اللقاء بين العنوة والصلح ، بين الحرب والسلم ، بين الموت والحياة ، في درب الريحان • ويبدو أن لدمشق حظها الوافر ، في كل العصور ، من ثنائية ملحوظة الوجود والتأثير ، أو من تلك « النصفيَّة » التي تجعل الضدين يلتقيان ويتوقفان وينكسران في آن وذروة ومكان ، ولا أدري أهي خصوصية دمشقية أم هو قانون خفي تفرضه الطبيعة العامة للحياة في مرتكزات التجمع البشري والحضاري !؟! فلدمشق سباسب ريحانها التي تواكب سيوفها الدمشقية الشهيرة ، أو تقطع عنها حدود السيوف ، ولها حريرها وفولاذها الأشهران ، ولها قلعتها الجهمة العصية ، وبساتينها الرضية الرخية ، لها ماؤها وصحراؤها ، جبلها وغوطتها ، عمرها ويزيدها ، فضلاؤها وفجارها ، لها أطباؤها وعلماؤها ، وأدباؤها وشعراؤها ، ولها أيضاً جهّالها وجهلتها ، وكان فيها « الزعران والعوانية والبلاصيّة والغوغاء ومشايخ الحارات وعرفاؤها »(٣) ، لها من تيمورلنك نصيب ومن صلاح الدين ونور الدين الشهيد نصيب ، فيها الأموي والظاهرية والمدارس والزوايا والتكايا قديماً ، والجامعات والمكتبات العامة حديثاً ، وكان فيها أيضاً سوق الخيل وما هو على شاكلته مؤدياً لوظيفته قديماً وحديثاً • ولها نصيب من الزهاد المتصوفة وأهل الرأي على امتداد الزمن وتلون العهود •

٣ ـ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ـ ص ٩٥ ـ تأليف: د. أكرم العلبي ـ منشورات: الشركة المتحدة للتوزيع ـ دمشق ١٩٨٢ •

ومنذ توطدت فيها أول دولة عربية في ظل الاسلام ، أعني الدولة الأموية ، وهي منطلق الحس القومي ومرتكزه ، تخبو جذوته آناً وتشرئب آناً ،ولكنها لا تموت ، وقد تعزز ذلك فيها يوم قاومنا ظلم العثمانيين وحملات التتريك واتفاقية سايكس ـ بيكو ، والاستعمار الفرنسي ، والوجود الصهيوني في جناح بلاد الشام ، وظلت وستبقى منطلق العمل الوحدوي والتحرري والتحريري، على مستوى عربي شامل ، وقد أثبتت في معاركها ومواقفها القديمة والحديثة ، وعياً وصلابة وثباتاً في وجه الظلم والظلام ومخططات الأعداء والطامعين الحاقدين.

أفلا تتداخل ، من خلال هذا القليل الذي المحت اليه ، دمشق مع التراث ؟! أفلا يشكلان لحمة وسدى يصعب الحديث عن نسيج مديني ومدني وحضاري من دونهما ؟!

إن من ينظر الى أبواب دمشق وسورها وتجليات عمرانها داخل السور القديم، والى صخب الحياة وغناها اليوم وتنوعها داخل ذلك السور ذاته ، يشعر بان قلب دمشق هو قلب الحياة، وهو الذي يضخ في قلوب عشاقها دم الحب والاعتزاز بها وبالانتماء اليها .

وان من يسرح النظر ويتأمل فيما استجد داخل سورها وخارجه على مدى قرون ، ويستغرقه عمر المدينة وعمرانها، بالمعنى الخلدوني للعمران، يعجز عن كبح جماح العشق والاعتزاز والزهو ، ويسلم قيادة القلب لقلب يرجو ألاّ يعمى أبداً وألاّ يشيخ أبداً ، ليرى ويدرك ويستمتع ويحب ، ولتتداخل فيه ، كما تتداخل فيمن يعشق ، أمشاج البدايات مع ما انتهت اليه الشام اليوم من عمران ومواقف واستخلاصات ، وليتحقق من أن الجذر الثقافي العربي القديم ـ القديم الذي نبتت عليه جذوع دمشق وفروعها، هو ذاته الجذر الحي الذي ما زال يمد عروبتها واسلامها اليوم بنسغ الرؤية والحياة ، وانه سيبقى قادراً على استيعاب كل معطيات التربة ومستجداتها ، فيتمثلها ويسوغها ويصوغها ويقدمها غذاءً ونمواً وبقاءً لأنواع حضوره اليوم وبقائه المرتجى على الزمن ، حاملاً هوية المكان والزمان والأمة التي كانت دمشق حاضرتها الأحب ، والأعز والأوضح والأصرح ، وستبقى .

فلدمشق ، من ريحانها وياسمينها وجوريها، باقة فيها من حب القلب وخلاصات العقل والوجدان، ما لا يخفى على البصيرة اذا ما عجز عن ترجمته البيان .

ولمجلة التراث العربي التي تحتفي باصدار عدد خاص عن دمشق التحية على اهتمامها ، وعليها نطرح الأمنية بأن تخرج خارج بعض أسوارها لترى كيف يزوبع العصر المدن ويقتحم الحضارات وثوابت الثقافات ، وكيف توجه جهات وبلدان سمومها الى أرواح أبنائنا وأسس بنياننا ، لتتمكن من المواجهة الفعالة بعصرنة الرؤية والأسلوب ونوع الخطاب، ليمتد أعمق وأعرض وأطول جسر التواصل الذي تقيمه بين أجيالنا العربية وتراثها العريق ،وليكون الوعي والايمان والانتماء الأصيل حباً عميقاً ووعياً معرفياً دقيقاً ، للأمة وتراثها ولغتها ومرتكزات الحضارة ومراكزها العريقة التي تنير الطريق اليها ، وتطلق الارادات والعزمات لتشق طرقاً منها الى التقدم العلمي والبناء الحضاري ، والتماسك القومي ، والغنى الروحي ، والحضور الفعال لأمة وحضارة وعقيدة وثقافة كانت مع الأمم والثقافات دائماً في سجال ، تعطي ولا تعرف الغياب المميت ، أو الموت .. الغياب وستبقى كذلك .

والله من وراء القصد ؟

دمشق ٢٠/٣/١٩٩٤ « علي عقلة عرسان »

دمشق حكاية الأزل

سليمان العيسى

عَبَقُ التاريخ ·· يا أمَّ السَّنا !
أمْ نداءُ الشعرِ ·· أمْ أنتِ لديَّا؟

أيُّ خمرٍ ؟ كُلَّما مُدَّت يَدي
صَعَقَتْني الكأسُ ، فارتَدَّتْ إليَّا

أيُّ سرٍّ أنتِ ؟ ننهدُ على
شاطىء السحرِ ·· ويبقى أزَلِيَّا

أيُّ أُنشودةِ مجدٍ ·· أرْضَعَتْ
مولدَ الدهرِ سناها العربيا !

آه ·· يا شامُ ! تَعِبْنا كلُّنا
ومضى لَغْزُكِ جبَّاراً عَصِيَّا

كُلُّنا دونَكِ زَوَّقْنا الرُّؤى
وعشِقْنا ·· وتَغَزَّلْنا مَلِيَّا

* * *

شُعَراءُ الشامِ .. وانْهَلَّ الشّذا
وإذا الحرفُ جُنونٌ من حُمَيّا

أنتِ أعطيتِ .. ولمّا تتعبي
ومشى الكِبْرُ بِبُردَيكِ فَتِيّا

مَرّةً .. وَمْضَةَ سيفٍ فاتحٍ
مرّةً .. عصماءَ تُغوي عبقريّا

كُلّنا فيكِ .. أنَخْنا رَكْبَنا
وسألْنا بَرَدى التاريخِ رِيّا

كُلّنا عندكِ .. ألْقَينا العَصا
ووقَفْنا .. زُرّوا رُدّوا نتَفَيّا !

* * *

آهِ يا شامُ ! تقاسَمْنا الهَوى
فاذا أنتِ الهوى .. رُشْداً وغَيّا

إيذني لي أفتتحها وقفتي
غَزَلاً يَفْرِضُهُ الحبُّ عليّا

أيكونُ الشعرُ إلاّ قَصْفَةً
من جناحَيْكِ .. وينهالُ سخيّا ؟

لا أنا قلتُ .. ولا قالَ فَمٌ
أنتِ مَنْ رَقرَقَنا حرفاً نَدِيّا

مَن سَقانا ..
مَنْ سَبَانا ..
مَنْ حكَى ..

* * *

ثُمَّ ردّدْنا الصّدى حُلْماً غَوِيّا

* * *

يـا قصـيدَ المُبْتَدا والمُنْتَهى
إيذَني لي فيكِ أنسـابُ رويًّا !

لمسـةٌ منـكِ ، ويصحـو عالَـمٌ
من غواياتِ الصِّبـا بـين يـديَّـا

إيذني لي أرتمـي •• يا حلوتـي
في ذراعَيْ حلـوتي طفـلاً نقيّـا

★ ★ ★

تحية خضراء للشام •• تحية لدمشق، ملهمتنـا الأولى ، وعـروس قوافينـا الخالدة ، وملحمة أمجادنا العربية التيما نزال نعيش على ذكراهـا ، ونستظل بِذَراها •

ومن ذا الذي يستطيع أنيتجاوز عاصمة الحب والمجـد والضوء اذا أراد أن يقول شعراً ، أو يغني لحناً ، أو يتقلد سيفاً في معركة ؟

أعترف أني واحد من تلامذة العطروالياسمين ، في مدينة العطر والياسمين ، وأستأذن القارىء لأعود في لمحات خاطفةالى ذكرياتي القديمة •• الى طفولتي •

كيف ارتسمت صورة دمشق الأولى، في رأس هذا الطفل الذي كان يحـاول كتابة أولى قصائده في ظل « شجرة التوت» في قريته الصغيرة الضائعة وراءالأسلاك والضباب فيلواء اسكندرونالغارب عن ذاكرة الأجيال العربية منذ أمد بعيد •

حول مدفأة تتَّقِـد نارها ، ونتحلّقحولها مساءً ، على مفرش من القش ، في ليالي الشتاء الباردة ، كان والدي شاعرالقرية ومعلّمهـا الشيخ أحمـد العيسى ـ رحمه الله ـ يتكىء على وسـادة الىجانبه ، ثم يأخذ بيده نسخة من مجلـة « المجمع العلمي العربي » ، لا أدري كيفوصلت اليه •• الى تلك القرية المهملة النائية ، شمالي سورية ، يأخذ المجلة بكلما عرفنا عنه من حب للكلمة ، وتقديـر لفرسانها ، ويمضي في تصفّحها ، متوقفاًعند بعض الأسمـاء الشهيرة التي كانت تحرِّر فيها •• ثم يتوجه إلينا قائلاً :

هذه مجلة المجمع ·· صرح العرب الشامخ في دمشق ··

وهؤلاء هم فطاحل اللغة والشعر والأدب ··

محمد كرد علي ، عبد القادر المغربي ، التنوخي ، المبارك ، فارس الخوري ، عيسى اسكندر المعلوف ، خليل مردم بك ·· الى آخر القائمة ·

ويتعمّد أن يلفظ أسماء هؤلاء الأعلام بشيء من التفخيم والتعظيم ·

يجب أن تقرؤوا لهم ·· وتعرفوا مايكتبون ، ويحبّرون من روائع ··

كنت أشعر أنه يوجّه كلامه إليّ بالذات حين يتابع قائلا :
ادرسوا مقالات الكتّاب ، واحفظوا قصائد الشعراء الذين يُنشدون في دمشق ·
إنهم ذخيرتنا الجديدة ·· نضيفها الى كنوزنا القديمة ·

وتمضي الأيام ·· ويكبر الطفل ·· ويأتي الى دمشق بعد ضياع وطنه الصغير ، حاملا معه ديوانه الأول ،وعروبته ، وذكريات قريته في أوائل الأربعينيات ·

يأتي مع مجموعة من فتيان العروبة الصغار المتمردين ، المشردين الذين آثروا أن يحتفظوا « بهويتهم » مهما كان الثمن ، ولم يحسبوا لشيء حساباً ·· « هويتهم » العربية المطاردة ، المهددة ،التي قاتلوا من أجلها في وطنهم الصغير « اللواء »··ثم هُزموا ، وسلب «وطنهم الصغير» ففروا الى رحاب الوطن الأم ، مصرّين على أن تظل أقدامهم على الأرض العربية ·· وليكن بعد ذلك ما يكون·

وتستقر الأقدام الصغيرة المشرّدة ،المتمردة ، في دمشق ويستمر الكفاح ·

دمشق ·· في أواخر الثلاثينات ··وأوائل الأربعينات ··

« جُنينة » خضراء واسعة ، ترمي أطراف إزارها الأخضر بين البساتين ، تغوص بيوتها في الخضرة والظل والشجر· يلاحقك عطر الياسمين في أي شارع صغير تمشيت فيه ، حتى إذا ما بلغت ضفة من ضفاف « بردى » ، رأيت « عصفور الجنة » يسقسق بين يديك ماءنقياً صافياً تغترف منه وتشرب ، قبل أن يخالطه كدر ، أو يلوّثه بشر ·

دمشق ·· هذه « الجنينة » الخضراء الواسعة ·· كانت تعرف جيداً كيف تتنمر وتنتفض على « النير » الغريب الذي كان يفرض نفسه على لؤلؤة العرب ، وحورية التاريخ وتتنمر وتنتفض بكل ما تملك من قوة وبأس وأمجاد على « الانتداب » الذي جثم على صدرها حقبة من الزمن ·· الى أن خلعت « النير » الغريب ، وتحرّرت منه الى الأبد ·

وكنا ـ نحن الفتية الصغار ـ نشاطر دمشق ، لؤلؤتنا الخالدة ، عطرها ونضالها ·· نقاتل معها ·· ونأوي مساءً إلى صدرها العربي الذي اتسع وما يزال يتسع للتاريخ ؟

في تلك الفترة بالذات بدأنا حركة البعث ·· في قلب العروبة الحي ، النابض على الدهر ، كما تعود كل عربي أن يقول وهو يعانق أول نسمة من «صبا بردى» ، ويضع قدميه على ثرى الشآم ·

واستميح القارىء عذراً ، لأقتطف بضعة أسطر من مقال طويل لي أتحدث فيه عن هذه الفترة ، بعنوان «البدايات» · والمقال منشور ومعروف :

« بيت صغير ·· يحتل الزاوية التي تلامس الأرض من سلسلة بيوت في حي « السبكي » بدمشق ، تميز بابه القديم حَجَرَة واحدة ترتفع قليلاً عن الأرض، تعدُّ نفسها دَرَجة ، أمرُّ بها الآن في طريقي عجلان، فما أكاد أقترب منها حتى أتوقف فجأة ، وأحس حنيناً في أعماقي ، يدعوني الى أن أجلس عليها ، ولو اختلست اللحظة اختلاساً ·

هذه « الحَجَرة » الصغيرة ، هذه الدرجة التي لا يملك بيتنا القديم غيرها، هي « برقة ثَهمد » ، هي « حومانة الدرَّاج » هي « سِقْط اللوى » هي « الدَّخُول » و « حَوْمَل » ·· هي عندي وعند قبضة من رفاق الصبا أطلالنا الشاعرة ، وندوة سَمَرنا في العشيات · كنا نتقاسم الجلوس عليها في ليالي الصيف ، ليالي القمر ، والعطر ، والياسمين في دمشق ، يبدأ الجلسة رفيق الصبا وهيب الغانم بحديث عن التاريخ العربي، تاريخنا الذي سنغير وجهه نحن الأطفال المشردين الذين لا يملكون ثمن عشائهم · ولم تكن لتخالجنا ذرة شك في أننا سنغير يوماً هذا التاريخ ، سنحرك « المقبرة » الضخمة ·· سنبعث فيها

الحيـاة أغنى ما تكـون الحياة ، وأجمل ما يكون البعث · سنصنع الدولة العربية الكبرى ·· نحـن الأطفـال المشردين ،الجائعين ، الذين تعودوا في تلك الأيام ــ أيام الحرب والبؤس والحرمان ــ أن يبقوا يومين أو ثلاثة أيام بلا طعام ، وهم سعداء أصفى ما تكون السعادة، متفائلون أروع ما يكون التفاؤل ·· أليسوا الذين انتدبهم القدر لبعث الأمة العربية ·· لبناء الوطن الواحد العظيم ؟

يا لروعة الطفولة ·· وصفاء الأحلام !

الجوع وحده يستطيع أن يُبدع ··

أن يبني العالم من جديد ··

لا تظنوا نوماً هادئاً على وسادة من حرير قادراً على أن يضيف شيئاً جميلاً الى هذا العالم ·

* * *

بَرَدى ·· ياعُصْفـوراً يكتُبُ ،
يكتـبُ شِعـراً لـلأطفـالْ
عَلِّقْنـا بجَنـاحِـكَ واركُضْ
يـانهـرَ الأطفـالْ

وأغيب عن دمشق ·· وعن « عصفورها » الذي يكتب شعراً للأطفال ··

أغيب عنها الأعوام الطوال ·· مرة في بغـداد متابعاً تحصيلي الجـامعي ·· ومرة في حلب ·· مدرساً للغة والأدب في ثانوياتها ··

ولكن مدينـة العطر والمجـد والياسمين تظل معي ·· تشدني اليها بخيوط خفية ما أظن أحداً يستطيع لها حصراً أو تحديداً ·

لم أنقطع عنها ·· ولم تنقطع عني ··

وكيف ؟ وهي القلب الذي يوزع النبض على العروق كلها ··

نهبط الى دمشق ·· نزورها كلما أتيحت لنا فرصة ··

فيها نلتقي رفاق الصبا ·· ونقيم الندوات والمهرجانات القومية ·· ونلقي قصائدنا الملتهبة بين يدي « عاصمة العروبة » التي يتلاقى فيها الشباب العرب من كل قطر من أقطار العروبة ·

في دمشق ·· كنت تجد العراق ··والأردن ، ومصر ·· وتونس ·· والجزائر ·· والمغرب ··

في دمشق ·· كانت الأحلام العربيةكلها تستقر ، وتحاول أن تتجسد ··

في دمشق ·· كان الصدى يتردد قوياًواثقاً مشحوناً بالعزيمة والأمل لكلطموح عربي ·· لكل ثورة عربية ·· لكل خطوةتخطوها أجيال العروبة الظامئة الى الحرية والى الحياة ·

* * *

في مقهى شعبي يحتل زاوية هادئة منزوايا « الجسر الأبيض » ، وينساب أمامه فرع من فروع بردى الحالم الوديع ، كنتأجلس مع رفيق العمر والغربة والألم صدقي اسماعيل ، هذا الذهن العربي الصافي المتقد ·· نجلس ساعتين أو ثلاثا نقرأ ونكتب ، وندخن « النرجيلة » ،ونرصد الحياة العادية ، حياة الناس الذين يمرون أمامنا في الشارع ·· كانذلك في أواسط الخمسينات ·· وكانت دمشق آنئذٍ لا تكاد تسعها الدنيا لكثرةما يضج في صدرها من صَبَوات وأمانٍ وتطلعات ··

وأكتب ذات يوم قصيدة بعنوان :« الجسر والمقهى الهَرِم » · وأبعث بها الى صدقي ·· وأحاول أن أحمِّل القصيدة بعض ما كان يعصف في صدرنا وفي صدر دمشق من حب وعطش للحياة ؛ فلأتوقفقليلا عند « الجسر والمقهى الهَرِم » وأعرض بعض المقاطع من هذه القصيدة الذكرى :

سَقْياً للأمسِ ·· أخا الجامِ !
وسلامٌ ·· ياليلَ الشامِ !
الْهامٌ ·· ذابَ بالهامِ
وكُؤوسٌ ·· تَعْبَقُ بالسَّمَر
وشبابٌ ·· للدنيا ظامي !

أفُـق" ·· يتكَشَّـف' عـن أفُقٍ
في روحٍ ظمـآن قَلـقِ
ويُهيـب' الشعـر' : أن انْطَلِقِ
فـوقَ الاشفاقِ ، على الحَذَرِ
فـاذا بِبَيـاني في رَهَـقِ !

* * *

عُدْ بي لِمَقيلكَ في الشـامِ
« نَفَس' التنباكِ » ·· وأحلامي
وشرود" ·· عَبْرَ الأيامِ
وخواطر' « تغييرِ » البَشَرِ
ومُخَطَّط' إنسانٍ سامي

* * *

للجسرِ ، و « مَقْهاه الهرمِ »
طيف" في الخاطرِ لم يَرِمِ
صُوَر" ·· تنثال' على قلمي
شعراً ·· لو مَرَّ على وتَرِ
لتَفجَّر نَبْع" من نَغَمِ

* * *

إنْ عُجْتَ على المَقْهى فَقِفِ
وتجاهَ الساقيةِ انْعَطِفْ !
كُرسيُّ القَشِّ على طَرَفِ
وخيوط" من ضوءِ القمرِ
وسلام' الزُهْدِ على التَّرَفِ !

* * *

إجلِسْ ·· تسبِقْكَ « النرجيلَةْ »
وأبو عدنانَ(1) ·· فتى حيلَةْ
ولقد تُعْيِيكَ « التشعيلَةْ »

وترنَّقُ نارُكَ فاصْطَبِرِ !
فلِكلٍّ عسيرٍ تذليلَةْ !

* * *

ومَعَ النَّفَثَاتِ المُوَّارَةْ
يجلو المتأمِّلُ أفكارَهْ
ويُصافِحُ قلبٌ أسرارَهْ

فاذا هُوَ في لُجِّ الفِكَرِ
نَغَمٌ ·· يتلمَّسُ أوتارَهْ

* * *

الشارعُ قُربكَ ·· والناسُ
حسٌّ ·· تتلوه أحاسُ
مُتَعٌ للعينِ ·· وإيناسُ

صُوَرٌ تجلو شَبَحَ الضَّجَرِ
الشارعُ قربكَ ·· والناسُ

* * *

حسناءُ ، ومِنْديلٌ شَفُّ
وفتىً بالفاقةِ مُلْتَفُّ
وخُطىً تمضي ، وخُطىً تَقْفو
وصفاءُ الأُفْقِ مدى البَصَرِ
ونداءُ الحُبِّ ·· ألاَ تهفو !!

* * *

---

1 ــ أبو عدنان : صاحب المقهى ·

فرحتان عاشتهما دمشق في تاريخها الحديث ، فرحتان ما أظن أنها عاشت مثلهما في تاريخها المديد : فرحة الجلاء في ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ ، وفرحة اعلان الوحدة بين القطرين العربيين الشقيقين سورية ومصر في عام ١٩٥٨ .

وفي كلتا الفرحتين كانت الشام تجسد أحلام العروبة في كل هتاف ، في كل زغرودة ، في كل خلجة يخفق بها قلبها الكبير .

كانت للعرب جميعاً من محيطهم الى خليجهم ..

وكان العرب لها .. لا يساورها في هذا شك .. ولا ترى فيه الا حقيقتها التاريخية ، وجوهرها الذي تنصهر فيه كل الشوائب والأعراض وتزول ..

هل يناقش أحد في حقيقته ؟

وهل يشك في جوهره ؟

تلك هي المقولة التي كانت الشام تراها أبداً طارئة وعارضة .

وكانت أبداً قادرة على أن تتمثل الجميع .. وتستوعب الجميع .

وتلك ميزة من ميزات المدن العظيمة التي تؤلف نسيجها الحضاري الخاص عبر العصور ، وتتجاوز به العصور .

في كلتا الفرحتين عشت مع مدينتي العظيمة أياماً لا أجمل ولا أحلى ..

في كلتا الفرحتين كانت أحلامنا العربية تثبت ريشها القوي في الأجنحة ، وتطير بنا الى المستقبل .. الى الأمل المنشود .. الذي داعب ـ وما يزال يداعب ـ خيال كل عربي في السر أو في العلن : الوحدة ، الوطن العربي الواحد.. الذي تزول فيه الحدود والسدود التي لم يكن لهذه الأمة يد في صنعها .. لا من قريب ولا من بعيد .

في كلتا الفرحتين كانت لي ، كغيري من الشعراء ، قصائد وأغان وأهازيج .. انتثرت في مجموعاتي الشعرية ، ولا أرى مجالا الآن لاستعادتها واستعراضها .

بعض هذه الأحلام الجميلة تكسَّر ..
وبعضها ما يزال أجمل ما في حياتنا..

تباركَ الحُزْنُ .. يُغْوي جمْرتي أبداً
إذا انتهى بالرمادِ اليأسُ والحَزَنُ
إني أصِرُّ على رؤيا تُمزّقُني
كلُّ القرابين في نيرانها امْتُحِنوا

* * *

وأعود في عام ١٩٦٧ لأستقر في دمشق ..

عاصمة العطر والضوء والياسمين تحتضن هذه المرة طفلها القديم المشرد، ليهدأ فيها مع زوجة وأولاد، يحبونها مثله، ويجدون فيها الأفق الأرحب الذي يتنفسون فيه .

في قبو صغير جميل تحف به « جنينة» صغيرة من الخارج والداخل، وتعرش على سوره الخارجي شجرة ياسمين تمد رأسها حتى تكاد تغطي الرصيف، وتنازعها السور الصغير شجرة ليمون عطرة تنافس الياسمينة، بما توزع من أريج يستقبل كل هابط الى قبونا ..

في هذا القبو حللت منذ عام النكسة.. وما أزال .

شجرات النارنج الثلاث التي تحتل حوض التراب في الداخل هي ملتقى العصافير كل صباح .. وليس أشعر ولاأطرب من عصافير دمشق عند الصباح .. أذكر أني أهديت اليها ذات يوم خاطرة شعرية منثورة تقول :

أيتها المخلوقات الصغيرة
التي تحمل الصباح في مناقيرها ..
وتشرب السُمرَةَ والضوءَ شعراً وفرَحاً ..

أيتها المخلوقات الرائعة !
التي تلتهم أصواتها شجيرات النارنج الثلاث
مع أشعة الشمس الأولى
في حديقة قبونا المتواضع

لا أدري أيُّ شاعر حديث قال عنكِ
في إحدى « قصائده » :
« كدت أحسد الطيور على حياتها
لو لم أتذكر أنها ليست شاعرة! »
يا « شاربة الرحيق المُفَلْفَل »
كما وصفك شاعرنا القديم[1]
أين يمكن أن يتفجر الشعر
إذا سكتت هذه « السمفونية » الساحرة
على شجيرات النارنج الثلاث ..
التي غرسناها أنا والسمراء
في مطلع الربيع الفائت ..
ونحن نحلم بالمناقير الصغيرة تملؤها كل صباحٍ ؟
نعم أين يمكن أن يتفجّر الشعر والفرح
أيتها المخلوقات الصغيرة المُبدعة ؟

* * *

يا « شاربة الرحيق المُفَلْفَل » !
لا تغادري حديقة قبونا المتواضع ..
لا تتركي شجيرات النارنج والمدّاد الأخضر الذي
يرصّع بأزهاره الجدار !
سنُبكّر أنا وسمرائي ، مع أشعة الشمس الأولى كل يوم ،
لنسمعَ « سمفونية » الصباح ..

* * *

وتلح عليَّ ابنتي الصغيرة ذات يوم أن أريها معالم دمشق الأولى ، دمشق التاريخ والطبيعة والفن ..

هذا ما قرأته في عينيها ، وهي تعيدسؤالها كأنها لا تريد أن تتنازل عن حقها في أن ترى ، وتعرف ، وتطلع ..

---

١ - انظر ديوان امرىء القيس : المعلقة ص ٦٣ .

وآخذ بيد الصغيرة ، ونمضي في صباح يوم جميل الى قمة جبل قاسيون ، حيث أصبحت تلك القمة مجموعة من الحدائق الصغيرة ، تتوزعها الطرقات المعبدة ، المتسلسلة هنا وهناك ··

ومع أنسام الصباح ·· نشرف من قمة الجبل الصامت الوقور على دمشق ، وغوطتها الخضراء ، الممتدة حتى الأفق ، في كل الجهات ·

أي منظر ساحر هذا الذي يأخذك ، وأنت تتأمل المدينة الكبيرة ، التي نشرت ذوائبها بين أحضان الغوطة ، حتى غاب الكثير من أحيائها بين البساتين التي لا تنتهي ·

ما أظن أن عاصمة في الدنيا قررت أن تسبح بين أمواج الخضرة التي تلفها من كل جانب كما فعلت عاصمة العرب الخالدة ·

وآخذ بيد ابنتي ونهبط سريعاً لنغوص في قلب دمشق ، نجتاز شوارعها القديمة التي تحمل نكهة التاريخ ·

وأقف مع الصغيرة بعد قليل على عتبة الجامع الأموي ··

حيث يتجسد جلال الماضي كله أمامك ، وأنت تجتاز العتبة ، لتدخل هذا الحرم الذي يضم بين جناحيه ذكريات أضخم امبراطورية عرفها العالم القديم ·

من هذه العتبة ·· من هذا المسجد العظيم ·· مسجد بني أمية يا بنيتي ·· كانت جحافل الفتح العربي تنطلق حاملة عقيدتها ولغتها وأشعارها لتركزها شامخة ، مضيئة ، هادية ما بين الأندلس وسور الصين ·· وما تزال حتى الساعة تترك بصماتها الحزينة بين الأندلس وسور الصين ·

من هنا ·· من دمشق ··

كنا نحمل راياتنا العربية لنقول كلمتنا للعالم ··

ربما وقفت الصغيرة يومئذ حائرة أمام كلماتي هذه ، ولم تفهمها كما ينبغي · ولكني كنت واثقاً أنها كانت شديدة التأثر بما ترى وتشهد ، الى حد أنها شدتني من يدي ، وقادتني في صمت الى داخل المسجد العظيم ، تريد أن تتأمل كل شيء فيه ·

ورحم الله شوقي :

لولا دمشق .. لما كانت طُلَيْطِلَةٌ
ولا زهَتْ ببني العبَّاس بَغْدانُ

* * *

وخرجنا من زيارة الجامع العظيم ..
الصغيرة تريد أن ترى قبر صلاح الدين .. بل حطين ..

لقد قرأت بعض قصص الأطفال عنه..
وهي تعرف أنه مدفون في دمشق .
ولم يكن قبر صلاح الدين بعيداً عنا .

فما هي إلا خطوات .. حتى كنا أمام ضريح محرر القدس ، وداحر جيوش الغزو الفرنجي القديم ، صلاح الدين الأيوبي ، يلفه الصمت ، وتجلله هيبة الماضي ، في هذا الركن الهادىء من أحياء دمشق القديمة .

وتُصر ابنتي الصغيرة أن ألتقط لها صورة ، أمام قبر البطل التاريخي ، تحتفظ بها ذكرى ثمينة ، من ذكرياتها التي تحرص عليها ، وتعتز بها ، فأنفذ لها رغبتها الطفولية التي كانت تحمل ـ دون أن تدري ـ معنى ارتباط الحفدة بالأجداد .

نعم ، يا بنتي !

لم يحمل فاتح في الدنيا سيفاً ، وفكرة ، وقصيدة ، كما حمل أجدادك العرب الى العالم . ومع ذلك .. فان هذا العالم ما يزال يحمل الينا النهب والسلب ، والخراب والدمار ..

ولا ينبغي أن نلوم في هذا كله إلا أنفسنا .

* * *

وننطلق عبر الأسواق القديمة الى :

« بيمارستان النوري » ، أعظم مستشفى قام في ذلك العصر ..

ثم الى « قصر العظم » ·· هذه الآية الفنية التي تختصر سمات البيوت العربية القديمة كلها في دمشق ·

حول البركة الواسعة التي تتوسط باحة القصر ، تحيط بها الأشجار العطرة، تعودت دمشق أن تقيم لياليها الشهيرة ،المغزولة بالشعر والنغم والطرب ·· وترف الذوق والفن الشعبي الأصيل ·

والذين حضروا ليلة من تلك « الليالي » لا ينسونها مدى الحياة ·

* * *

وبعد أن أطوف بالصغيرة في قلب دمشق ، مارين بقلعتها التاريخية التي تتوسط المدينة ، أقرر أن أعود بابنتي الى البيت، وفي رأسي نزهة أخرى، في يوم آخر ، ربما كانت أمتع وأحلى ·

نزهة أمضي بها مع الأسرة كلها الى أحضان الغوطة ··
الى بساتينها التي لا تنتهي ··

ولكن الأفضل لمثل هذه النزهة أن تؤجل بضعة أيام ·
حيث تكون الغوطة قد بدأت « تُزهر »
ونحن في مطلع الربيع ··

وحين تُزهر الغوطة ·· في مطلع الربيع ··
فان كل من يتذوق جمال زهرة ، وعطر زهرة ··
كل من يحب أن يرى الطبيعة ·· أن يرى الحياة تتجدد ··
أبهى وأروع ما يكون مشهد التجدد ··
لا بد أن يفكر بنزهة في أعماق البساتين ·

حيث تبدأ ملايين النجوم ــ من كل الألوان ــ ،
ولا سيما اللون الأبيض ··
تنشر مُلاءتها على ملايين الأشجار
في غوطة دمشق الأزلية ·

كل صديق في الشام يخطر له أن يسألك :

هل زرت الغوطة في أيام الزهر ؟
وأيام الزهر معروفة ٠٠ تمر بسرعة كالحلم الشاعري البديع ٠
فلندع هذه الجولة ياصغيرتي الى يوم آخر ٠٠
ولن أدع هذه المتعة تفوتنا ٠٠

* * *

عاصمة العطر والضوء والياسمين تتسع ٠٠
العمران يمتد ٠٠ والأخضر يتراجع٠٠
دمشق ، الزمردة المنداحة شرقاً وغرباً حتى الأفق ،
تُسلم ملايين النجوم الخضر من غوطتها التاريخية للاسمنت والحديد ٠٠
ظاهرة ابتليت بها كل عواصم العالم في العصر الحديث ٠٠
غابة الاسمنت تغزو غابة الخُضرة ٠٠

ولكن الياسمين ما يزال يقاوم ٠٠ يصر على أن مدينته الخالدة لا بد أن تظل مفتوحة النوافذ ، مفتوحة الصدر للعطر والأريج ٠٠

حديقة « السبكي » وحديقة « الجاحظ » المخضرمتان ما تزالان تدعوانك لتملأ رئتيك من « صبا بردى » ومن أنفاس الغوطة التي تهب من بعيد ٠٠

في حديقة « الجاحظ » الأنيقة ، الملمومة على نفسها كفراشة لا تريد أن تُتعب جناحيها بالطيران ، تعودت أنا وزوجتي أن نلتقط أنفاس الصباح الأولى من كل يوم بمشوار نطوف فيه من خمس الى عشر مرات أحياناً حول مملكة « الجاحظ » الصغيرة ، قبل أن نعود الى البيت ونبدأ عمل النهار ٠٠

ولكي تتنشق أحلى وأنقى نسيم في الدنيا ، وتحس بأعذب متعة تتغلغل في صدرك ، استيقظ مع أشعة الشمس الأولى ، وطف ساعة أو بعض الساعة في إحدى حدائق دمشق، أو في أحد مُتنَزَّهاتها ٠٠ عندئذ ستدرك أي سر من أسرار الطبيعة تخبىء « بنت قاسيون » الخالدة في حناياها ، وأي نعمى حباها بها خالق هذا الكون !

* * *

أيتها الملهمة ! يا أقدم مدينة ما تزال حية عامرة على وجه الأرض !
كما يؤكد تاريخ الحضارة ، وتاريخ العمران ، وتاريخ العبير ٠٠

سأقف قليلا لأعيد على مسمعك نشيداً افتتحت به مسرحية شعرية لي · استعرتُ ركائزها الأولى من تاريخك ·

إني أحب أن أعود معك قليلا الى الوراء ·· الى التاريخ ··

اسمحي لي أعد على سمعك هذا الحُداءَ الذي جعلته مدخلا لمسرحية «ابن الأيهم ، الازار الجريح» ، وليكن وقفةاستراحة خلال سفرك ، ودندنة عود دمشقي تعودت أن تُسكري به العصور · سأنقل اليك النشيد مع مقدمته في مطلع المسرحية :

« قافلة غسانية تجتاز بساتين الغوطة ، قادمة من الحجاز ، مثقلة بالبضاعة من شتى الألوان ، يحدوها الحُداة بأصوات تذوب رخامة ورقة ، وهي تشارف أسوار دمشق · يرتفع الحداء ويتموج بهيجاً مرحاً ، حين تدخل القافلة أبواب المدينة ، كأنما يحمل في أعطافه كل ندى الغوطة وأنسامها ·

في ركن من أحد الشوارع يقف رجلان جاوزا الأربعين.. يبدو أنهما شاعران.. من أولئك الشعراء الذين يَفدون على الملوك · يرقب الرجلان القافلة وهما يُنصتان في لذة الى الحُداء الرخيم ··

الحُداة ينشدون ·· وهم يدخلون المدينة التاريخية ، الغارقة بين الخُضرة والظلال » :

خلّفْنا البيدَ العَطْشى
وَدّعْنا الرملَ الأغبرْ

ولَهاةَ الصحراءِ الحَرّى
وبساطَ الرمضاءِ الأحمرْ

هاتي ·· يا أيكةُ ظِلّيْكِ
مُدّي يا شامُ ذِراعَيْكِ

الغُوطةُ أقداحٌ ومُدامْ
والجنّةُ عطرٌ يا شامُ !

في صدركِ .. عُصفورٌ أخضَرْ
حُلُمٌ يصحو .. حُلُمٌ يَسْكَرْ
يا نَهْرَ السحرِ .. سَلامْ !
يا أرضَ العطرِ .. سلامْ !

* * *

الأول : « في ذهولٍ »
أتَسمعُ ؟

الثاني : موجةٌ خضراءُ
من طيبٍ ، ومن نَغَمِ

الأول : أحسُّ لهذه النَّبراتِ
أجْنِحَةً ..

الثاني : وللكَلِمِ ..
تَطيرُ .. تَطيرُ ..
تنفُضُ ريشَها المسحورَ
مِلْءَ دمي

الأول : شبابُ المُلْكِ من غَسَّانَ
لا أوقظْتُ من حُلُمي !
كأني بالرحيقِ يُدارُ ،
والأوتارُ من خَدَمي
كأني بالنعيم الآنَ
مسفوحاً على قَدَمي
وعَشْرٌ من لِدَاتِ الحُورِ
يا سَكَراتيَ ازْدحِمي !
يُطَوِّقْنَ الفَتى اليمنيَّ[1]
أشربُهن في نَهَمِ

أجُرُّ الذيلَ ، والقُبُلات..
خلفي .. من فَمٍ لِفَمِ

الثاني : دَعِ الحُلُمَ الغويَّ الآنَ .
دَعْنا من نَدَى غَسَّانْ .

نرميه غداً بالسحرِ ..
نُمطرهُ شَرُودَ الشعرِ ..
دَعْنا الآنَ ..
واشرَبْ روعةَ النَّغَمِ !

«يُرهفان السمع.. يواصل الحُداةُ النشيد .. »

عُدْنَا يا شامُ من السَّفَرِ
عُدْنا بفَراشاتِ السَّحَرِ
بغفائرَ .. كانت لِلقمرِ
كانت لِصَبايا الجانْ ..
زُرْقٌ كالصحو حِسَانْ .
خُضْرٌ كَرُؤى بُستانْ .
رَوَّاه كوثَرُكِ الأسمرُ[2]
فسقى الدنيا .. ومضى يسكَرُ

الجنةُ عُصفورٌ يسكَرْ
في صدركِ .. عصفورٌ
أخضَرْ
يا شامُ .. سلامْ !
يا أرضَ المجدِ .. سَلامْ !

---

١ ـ كان المتكلم الاول حسان بن ثابت الانصاري ، والثاني الاعشى .
٢ ـ اشارة الى نهر بردى .

ويستيقظ سلام دمشق ، بنت الأزل،ذات يوم على غارة حاقدة، غارة صهيونية تصب حُممها على الخضرة والنضرة ، والحب والجمال ٠

كان ذلك في حرب تشرين التي أتيحلنا فيها أن نؤدب المعتدي يومـاً أو بعض يوم ، وأن يُلقّنه أبطالنا الشبان في البروالبحر والجو درساً لا ينساه ٠٠ حين :

ناداهُم' البرق' فاجتازوه وانهمروا
عند الشهيدِ ٠٠ تلاقى اللهُ والبشر'

في ساعتينَ ٠٠ خُلِقنا كلُّنا بَشراً
قبلَ الشهادةِ .. لا وجه" ولا صُور'

في ساعتين ٠٠ تعالتْ كِبْرياؤهما
كيف انتهى في عصورِ الغربةِ السفر'

دَم' الشبابِ ٠٠ أفيقي يا بيادِرنا
على العطاء ٠٠ وجُنَّ الزرع والثمر'

في تلك الساعات الخاطفة ، المضيئة في عمر التاريخ ، انتفضت الشام كبرياءها وعروبتها ٠٠ وراحت :

تُلقّن المعتدي دَرساً ٠٠ تُعلّمُه
كيف الطريق' الى الانسان يُختصر'

وكيف تهوي «أساطير» ٠٠ هياكِلها
في الحيِّ ٠٠ بين يديْ أطفالنا أُكَر'

وكيف يَرجع' حق" ٠٠ ظَنَّ سارقُه
أنَّ الشرائعَ بالسكّينِ تندثِر'

وراحت حناجر الشعر والفن تهتف لدمشق ٠٠ وكنت بين الحناجر التي تغني :

ياشام‘ ·· مُدي بساط الحب واحدة"
كأس العروبة.. وليخضوضر السّمر

اسقي العطاش.. حديثُ المجد رائعة
من الملاحم ·· يفنى دونها السّهرُ

شَبابُنا في مُتُونِ الريح أشرعة"
وفي التلالِ دم" بالنّصرِ يأتزرُ

مُدّي بساط الهوى·· مازال في دمنا
من ياسمينِكِ كنز" للهوى عَطِرُ

وقفتِ في عَتَباتِ الخُلد شامخةً
بالأنبياءِ تَغَطّى المرجُ والزّهَرُ

يقاتل‘ النّسْرُ ·· ينسى غير ملعبه
ينسى اسمه.. في السماوات اسمه الظفر

يوشوش المُهْرة السمراءَ مُبتسماً
في نعلكِ الموت·· أدري كيف أنتصرُ

* * *

وفي غمرة هذه البطولات، ينتهز العدو فرصة فيقوم بغارة صهيونية حاقدة على عرائش الضوء والحب والجمال ·· على الشام ·· وتحت الحِمَم المتساقطة بالقرب من قبوي ·· بالقرب من « نارنجاتنا » الثلاث ·· أذكر أني كتبت قصيدة صغيرة بعنوان . يا ياسمين دمشق ! كان ذلك في يوم ١٩٧٣/١٠/٢٩ ·

فهل تأذن لي « بنت قاسيون » ، مدينتي الخالدة ، الياذة العروبة ، ونبضُها المتجدّد الباقي ، أن أختم حديثي بهذه القصيدة ، والى لقاء يتجدّد معها كلما رنّ وَتَر ، وغنت قافية ، وامتُشِق حُسام ··

تَسقي من الأزلِ السحيقِ وتَسكرُ
ماذا أقول ؟ وأيَّ خمرِكَ أعصِرُ ؟

يا ياسمينَ دمشــقَ ، مُدَّ ببارقي
مَطَراً بمَلْحَمةِ الرسالةِ يَهْدِرُ

يا ياسمينَ دمشقَ، عِطرُك أبيضٌ
وتغَطرسَت أفعى ، فعطرُك أحمرُ

وغضبتَ فالوطنُ الكبيرُ عباءَةٌ
حطَّت على بَرَدى ، ونسرٌ أسمرُ

هشَّمتها أسطورةٌ .. وذروتَها
كلُّ الغُزاة على العبيرِ تكسَّروا

كلُّ الغُزاةِ ..وظلَّ قنديلُ الهوى
أبداً على العطر المُدَلَّلِ يَسْهَرُ

تمتدُّ يا لونَ العبيرِ جَهنَّماً
فوقَ الرمالِ ..جَهَنَّماً تَتَسعَّرُ

وتُقهقهُ الصحراءُ .. تحت نِعالها
سوداءُ من قِصص الجريمةِ تُقْبَرُ

يا ياسمينَ دمشقَ •• طَوقٌ واحدٌ
وطنُ العروبةِ بالأريجِ مُسَوَّرُ

بالنارِ ، بالغضبِ المُقدَّسِ ، بالرُّؤى
بالأنبياء •• من الترابِ تفجَّروا

من كلِ زنبقةٍ أطَلَّ مُقاتلٌ
من كلِ سوسنةٍ تحدَّرَ خنْجَرُ

وُلدوا على بَردَى مُروجَ غَمامةٍ
بالصاعقاتِ ، وبالطفولةِ تُزْهِرُ

من أين ؟ من أعماقِ أعماقِ الثرى
قدرٌ يُزيحُ غِطاءَه ، ويزمجِرُ

* * *

يا قامةَ الغَضَبِ الذي لا يَنْحني
ميلادُكِ العربيُّ أخْضَرُ أخضَرُ

يا ياسمينَ دمشقَ ، وَحدةُ أمَّةٍ
بيد النسورِ ، يدِ النسورِ تُسَطَّرُ

تعز : نيسان (ابريل) ١٩٩٣

دمشق في الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

د. نور الدين حاطوم

الحديث عن دمشق ، في الحرب العالمية الأولى ، ذو شجون . ولكن هذه الشجون كانت مصحوبة بالأشجان . فحيث تكون الشجون تكون الأشجان ، وحيث توجد الأشجان توجد الشجون : صنوان من دوحة العاطفة العربية ، اختلفا ثم التحما وتعانقا فتشاكل الأمر .

دخلت دمشق الحرب العالمية الأولى ، وليس لها فيها يد . لقد فرضت عليها فرضاً . أهلها يوم ذاك ، وكأن على رؤوسهم الطير ، كانوا يتساءلون عن المصير . هل سيظلون تابعين للدولة العثمانية ويسامون الخسف ، أو سينجون من جور الأتراك الاتحاديين ويقعون في حبائل الدول الاستعمارية ، ويكون شأنهم شأن المستجير من الرمضاء بالنار ! هل ستكون الحرب في صالحهم أو تقوم الساعة فيرث الله الأرض ومن عليها ؟ تساؤلات وترددات ، مخاوف وآمال تشابكت مع بعض أمام مصير في عالم الغموض .

قبل الحرب وفي الحرب ، كانت دمشق قطباً لتحرك سياسي عربي منقطع النظير . كل الأنظار العربية تتجه شطرها ؛ كل العرب من مختلف أقطارهم يتوافدون عليها . وهي وهم على موعد ولقاء . الخوف من الاتحاديين قائم ، والآمال بغد مشرق غير مضمون . ولم ينقطع بعد حبل الوصل بين العرب والأتراك .

وما زال الناس يعتبرون ، رغم الارهاق،أن الدولة العثمانية دولتهم ، وأن رجال السلطة فيها سادتهم •

للاجابة عن هذه الأسئلة والتساؤلات يقتضي منا البحث معالجة نقطتين أساسيتين وهما :

١ً ـ الوضع السياسي العربي ـ العثماني بعامة ، والوضع في دمشق بخاصة •

٢ً ـ دمشق في الحرب •

أ ـ الوضع قبل الحرب :

ما من شك في أن كل تحرر سياسي لابد وأن يكون مسبوقاً بتحرر فكري ، والبلاد العربية ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وحتى الربع الأول من القرن العشرين كانت تنتابها موجة فكرية واسعة النطاق،متعددة النواحي،بدا صداها ينعكس على الحياة العامة بمطالب سياسية• وهذه المطالبلم تبدأ إلا بعد أن تشكلت في البلاد العربية طبقة فكرية مختارةومستنيرة ومتأثرة بالحضارة الغربية • بدأت بشكل تحسس وشعور، وانتهتبوعي أكيد • ولم يكن هذا الوعي على درجة واحدة ، كما لم يخامر جميع الأذهان ، والسواد الأعظم من أبناء العرب منهمك في مشاغل حياته اليومية ، يسعىوراء رزقه ، لا يهمه من أمر السياسة قليل أو كثير : ناهيك أن الأمية فيأوساطهكانت بنسبة مرتفعة •

وما كان لهذا الوعي العربي المتفتحأن يتحرك لولا ما حدث في الامبراطورية العثمانية من تغييرات مرحلية تتلخص بمحاولات الاصلاح المتوالية : من قضاء على الانكشارية ، وصدور مرسوم خطيشريف ١٨٣٩ ، ومرسوم خطي همايون ١٨٥٦ ، وإعلان الدستور ١٨٧٦ ، ومنثمَّ تعطيل الدستور ، ومن بعده العودة إليه ، ولو ظاهراً ، منذ عام ١٩٠٩ • وكان لكل من هذه المحاولات أنصاره وخصومه ومعارضوه •

والجدير بالذكر أن أبناء المسيحيينمن العرب ، ممن درسوا في المعاهد والجامعات الأجنبية ، كانوا أسبق من غيرهم الى تفهم الفكر الغربي الحديث والاطلاع على مآتيه في مفاهيمالحرية والقومية والاخاء ، والعدالة

والمساواة ، والمواطنية ، والمشاركة في الحياة الوطنية ، وبث الأفكار التي تدعو أبناء الوطن الواحد الى الاتحاد ، ونبذ التعصب في سبيل العيش المشترك، واعتبار الدين لله ، والوطن للجميع • وما لبثت هذه الأفكار ، مع نمو الثقافة ، أن عمت المثقفين من أبناء العرب مسيحيين ومسلمين •

يضاف الى ذلك أن الحركات القومية التي قامت في أوربة : من وحدات قومية ، أو حركات تحررية ، وبناء دول حديثة ذات أنظمة دستورية ، كان لها أثرها الواضح أيضاً على الأتراك والعرب معاً ، كل فيما يخصه • غير أن بعض الكتاب ، من أبناء العرب ، كانوا يشكون في قيمة هذه الدعوات التأليفية بين قلوب العرب والأتراك ، ويخشون أن تنقلب لصالح الفريق الأقوى ، الأتراك • ولكن آخرين كانوا يرددون بأن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان ، وما كان سائداً أو مقبولا في الماضي لا يصح قبوله أو بقاؤه في الحاضر إلا بعد إعادة النظر فيه وتكييفه مع متطلبات العصر •

والدراسة لتاريخ الحركات القومية العربية في البلاد العربية ، ترينا أن مسار التوجه بعد أفول المجد ويقظة الفكر ، كان على الشكل التالي : نهضة فكرية عامة ، دعوة اسلامية عامة ، دعوات اسلامية اقليمية ، دعوة اسلامية ــ عربية ، دعوة قومية عربية •

أما القوميات الأخرى في الدولة العثمانية ، فقد هبت عليها رياح التغيير أيضاً ، وأخذت تتحرك لتزيح النير العثماني الرابض على أعناقها . وبالمقابل اضطر رجال الدولة العثمانية الى التفكير بصهر هذه القوميات جميعاً في بوتقة واحدة • عندئذ انقلبت فكرة العاطفة العثمانية ، التي كانت سائدة في الماضي ، الى عاطفة قومية تركية بحتة • وأخذ الأتراك الاتحاديون ، بعد انقلابهم ، يرددون أن أساس الامبراطورية يجب أن يكوّن وحدة قومية قائمة على الناطقين باللغة التركية من أصل تركي ، وأن تتجه سياسة الدولة نحو زيادة الاهتمام بكل ما هو تركي في داخل الامبراطورية وخارجها ، وأن الامبراطورية كانت وما تزال ويجب أن تظل دوماً وطن الأتراك الأقحاح ومن تترك من أبناء القوميات الأخرى طوعاً أو كرهاً • وظهر أثر ذلك بمحاولات رجال الامبراطورية

الاتحاديين في فرض سيطرة العناصر التركية في الحكم والادارة ، وفي اصلاحات مختلفة خاصة شملت مختلف مرافق الدولة ٠

ومع ذلك ، وجد بين العرب من كان يدافع عن هذه السياسة التركية القومية التي يراد بها تقوية الامبراطورية وتحديثها والحفاظ على بقائها وسلامتها ٠ لأن المهم في نظرهم ٠ قبل كل شيء ، دفع الأخطار الخارجية الأوربية ، والبقاء في رعاية الامبراطورية العثمانية التي تجمع العنصرين ، العربي والتركي ، فيهما تاريخ مديد وحياة مشتركة بعيدة ؛ ولأن الأمل لم ينقطع بعد من الأتراك ٠ بيد أن الاتحاديين المنادين بتركيتهم وطورانيتهم لم يكونوا على مثل هذا التفكير اطلاقاً ٠ ومن هنا دخل الشك في القلوب ٠

والملاحظ في الأوساط العربية ، بالرغم من تشكيل الجمعيات والأندية العلنية والسرية ، التركية - العربية ، الصرف ، أن طابع الاعتدال فيها كان سائداً ٠ لأن نشاطها كان يظهر ضمن النظام الدستوري ، حتى ان المعارضة أيضاً كان يعبر عنها وفاقاً مع النظام ، وان المطالب العربية تظهر ادارية أكثر منها سياسية ٠ وهذا يعني عدم الرغبة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، والاكتفاء بتحقيق بعض المطالب العادلة المعتدلة والمشروعة : كالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الأقاليم العربية ، وبالموظفين العرب المحليين ، واستشارة السلطات المحلية عند تعيين الموظفين ، والقيام بالخدمة العسكرية ميدانياً في داخل كل بلد ، وصرف الواردات للحاجات الاقليمية والبلدية ، وتوسيع سلطات المجالس ، وتعيين خبراء أجانب لتنظيم الشرطة والدرك والمالية. حتى ان المؤتمر العربي ، الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ ، كان يدل على اعتدال المؤتمرين ، وليس في مقرراتهم تجاوز ملحوظ في المطالب ، أو خروج عن دائرة الامبراطورية ٠ وإذ عقد هذا المؤتمر في باريس ، وبرعاية فرنسا ورضاها ، فما ذلك الا لطلب المساعدة والدعم والتوسط لتحقيق هذه المطالب ، ولكن الذي فهم من المؤتمر « أن الولاء على قدر المعاملة » ٠

أخذت الحكومة التركية هذا المؤتمر مأخذ الجد ، وحاولت استمالة بعض من أعضائه ، ولمحت اليهم بالمناصب العليا ٠وقبل بعضهم العرض دون الخروج عن المبادىء العامة المتبناة ، ولم يكن الاتحاديون الا مضللين ، لأنهم رأوا أن التسامح

مع العرب قد يجرهم الى التنازل ومنح الامتيازات لأبناء القوميات الأخرى ، وبذا تتفتت الامبراطورية على أيدي رجالها قبل أن تتجزأ على أيدي أعدائها، وهي أحوج ما تكون الى التماسك والتلاحم ٠

واذا كانت هذه مطالب العرب المعتدلة ، فهذا لم يمنع من وجود بعض عناصر عربية متطرفة وذات أهداف عربية عامة: أهداف جمعية «العربية الفتاة» السرية التي وضعت في برنامجها : « تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي ومن أي سيطرة أجنبية »٠ولكن بين الأهداف والوسائل والتحقيق أغوار سحيقة وعوائق جمة ٠ وكل المحاولات ، التي حاولها العرب ، لم تكن الا من قبيل التحذير والتنبيه ٠ واذا كان هنالك من تطرف حقيقي في المطالب أو ثورة على النظام القائم والانفصال ، فهذا لم يظهر الا بعد سلوك الشخصيات الكبرى العالية في الدولة مسلك التطرف والمغالاة في الشدة والتعصب للطورانية ومحاولة اذلال القوميات ٠ وهذا يسوقنا الى معالجة النقطة الثانية وهي :

٢ ـ دمشق في الحرب العالمية الأولى ، وهي بيت القصيد :

في هذا المنظور العام العربي ، وجدت في دمشق ، قبل الحرب ، نهضة فكرية قوية ، قامت على أيدي علماء أجلاء ،وفقهاء ، ومفكرين ، التفوا حول الشيخ طاهر الجزائري ٠ وقد استطاع هذا المعلم الطيب بعلمه وسلوكه ، وسعة اطلاعه ، وبعد نظره ، أن يغرس في نفوس الناشئة والأجيال الصاعدة ، التربية القويمة ، وحبّ الوطن ، والاعتزاز بالأمجاد العربية ، والتاريخ العربي ، والاقبال على تعلم اللغة العربية واتقانها ٠ جمع الكتب الموقوفة على المساجد والمدارس والمخطوطات الثمينة ،وحفظها في قبة الملك الظاهر ، وألف منها نواة المكتبة الظاهرية الملحقة حالياً بمجمع اللغة العربية ٠

كان بين حضور مجلسه ، شخصيات كان لها أثرها البالغ في احداث النهضة الفكرية في دمشق ٠ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : جمال الدين القاسمي ، عبدالرزاق البيطار ، سليم البخاري ،رفيق العظم ، محمد كرد علي ، فارس الخوري ، عبدالحميد الزهراوي ، شكري العسلي ، عبدالوهاب المليحي الشهير بالانكليزي ، عبدالرحمن شهبندر ،سليم الجزائري ، وغيرهم ٠ وكانت

عناصر الشبيبة المثقفة تحضر جلساتهم ،وتفيد من ثقافتهم ، ثم استقلت فيما بعد وألفت حلقة خاصة بها أطلق عليها اسم« الحلقة الصغيرة » ، وتضم بعض الشخصيات ، مثل محب الدين الخطيب ،عارف الشهابي ، عثمان مردم ، لطفي الحفار ، صالح قنباز ، صلاح الدين القاسمي ... الخ ..

ووجدت في دمشق صحافة مثل : « صحيفة الشام » ، « حط بالخرج » ، « أبو نواس » ، ضاعت الطاسة » تعمل بتوجيه كثير أو قليل من السلطات التركية ، ولكنها كانت تغمز أحياناً ، أوتكتفي بالتلميح دون التصريح . والصحيفة الجادة العربية الرصينة ،كانت صحيفة « المقتبس » لمؤسسها المرحوم الأستاذ محمد كرد علي . وكانت ذات نزعة أدبية ، أخلاقية ، اجتماعية ، وبعيدة عن السياسة ، الا قليلا ، خوفاً من السلطات . وادارتها ملتقى رجال الفكر في المدينة ، ومعروفة بولائها للعثمانية .

وأسس الشهيد شكري العسلي ، نائب دمشق في « مجلس المبعوثان » ، جريدة « القبس » ، ووأدتها السلطات التركية وهي في أول تفتحها ، ومؤسسها خطيب مفوّه ، وله مواقف مشرفة في التنبيه الى « الحركة الصهيونية » وأهدافها الخطرة على العالم العربي :وشاركه في هذا التنبيه نجيب عازوري المقيم في باريس ، وغيرهما من رجال الحركة العربية في ذلك الحين . ومن عجب أن مؤتمر باريس ، في ١٩١٣ ، لم يتطرق الى الحركة الصهيونية . فهل كان ذلك منه دليلا على عدم ادراك حقيقة الخطر ،أو السكوت دفعاً لمشاكل أقوى من مشاكل قائمة ؟

ووجدت أيضاً حركة مسرحية نشيطة عامة ومدرسية تذكر بالتاريخ العربي وأمجاد البطولات العربية وحضارة العرب.

ولم يكن رجالات دمشق المفكرون بمعزل عن زملائهم في بقية المدن السورية والعربية والأجنبية . كانوا على اتصال دائم فيما بينهم ، ويؤلفون جمهورية فكرية عربية مستنيرة تسعى جاهدة لايقاظ الفكر العربي القومي والتشبع بالروح العربية .

وحقيقة القول ، أن الحياة المديدة ،التي قضاها العرب والترك معاً ، أوجدت بينهم بعض التآلف ، حتى إن الأتراك ،قبل تفجير الطورانية ، يقدسون «الشام» ويعنون دمشق ، ويقولون عنها « شـامشريف » ، ويعتبرونها الأول والمصير : « أوّلي شام وآخري شام » ، ووجدت منذإرجاع الدستور جمعيات لتأليف القلوب في العاصمة وفي الأطراف تقرب وجهـاتالنظر • من ذلك تأسيس جمعية وناد في دمشق عرف باسم « شام اتحـاد وترقيجمعيتنـك قلوبي » أي « نـادي جمعية الاتحاد والترقي الدمشقية لتأليف القلوب » ، وكـان قريبـاً من ساحة المرجة ، ساحة الشهداء في مدخل شارع السنجقدار •

وبالرغم من هذه الظواهر الودية ،كانت الأفعال تكذب الأقـوال • يقـول فخري البارودي في « مذكراته » ، الجزءالأول : « الأتراك كانـوا يومئـذ أبناء الست ، ونحن أبناء الجارية ، ولم يتغيرشيء إلا الكلمات : أي بدلاً من ياد شاهم جوق شاه أصبحوا ينادون يشاسون حريت• ولكن بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية • وبسبب الرعب الذي بثه الحكمالعثماني في النفوس ، لم يكن أحداً يجرأ على ذكر العرب والعروبة » •

وظهرت بالمقابل ، على الأفواه التركية عبارات « نه شام شكري ، نه عـرب يوزي » أي « لا حلوى الشام ولا وجه العرب » • والأمثلة من هذا النوع كثيرة •

ومن جانب العرب ، كانت تسمع بعض الأنغام القومية كالآتية :

بني يعربٍ أيـن مجد جـدودكـم   وجـدودُكـم لعـلائهـم آثـام
أبنـاء يعـربٍ أيـن كل حقوقكـم   أو تخضعـون ودوقهـا الأقـدام
أبنـاء يعـربٍ أين دورُ ملوككـم   ومقـرهـا بغـدادكـم والشـام
ما جاء في إحـدى وصايـا المصطفى   أن الخـلائـف بعـده أعجـام

ومع دنو الحرب ، بدّل الاتحاديونموقفهم ، وأخذوا يتحببـون للعـرب • ودخل هؤلاء الحرب معهم مكرهين • وهنايجدر أن نتدرج بالتواريخ لنرى تسلسل الأحداث ومفاعيلها •

نشبت الحرب العالمية الأولى ، في ٢٨تموز ١٩١٤ ، ودخلتها الدولة العثمانية في ٢٩ تشرين الأول ، الى جـانب دولوسط أوربة: ألمانيا ـ النمسا ـ هونغاريا

وحليفاتها ، ضد دول الوفاق : فرنسا ـ انكلترا ـ روسيا وحليفاتها ، وأعلن النفير العام في البلاد العثمانية ، ولم يسلم منه شاب من سن السابعة عشرة حتى الخامسة والأربعين • وكان وقعه شديداً في سورية • إذ لم تبق القيادة العسكرية فيها جنوداً من أبنائها. وفرضت حالة الطوارىء ، والقانون العسكري ، والأحكام العرفية ، والرقابة ، فمامن مسطور أو منظور أو على الهواء ، مدنياً كان أو عسكرياً ، إلا خضع لها وحسب ألف حساب من الوقوع في شراكها. وقام رجال الخفية (المخابرات) بواجبهم خير قيام • ونشطت « السوقيات » تجمع الجنود • وأعلن الجهاد المقدس ، في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ • وأمسك الفيلق الرابع بعنق دمشق ، وعمت صلاحياته أرجاء سورية والجزيرة العربية والعراق واليمن • واستلم إدارة القيادة والتوجيه الفريق الركن جمال باشا ، ناظر (وزير) الحربية ، أصله من جزيرة ميتلين (لسبوس) في بحر إيجه ، ولد سنة ١٨٧٣ ، أي أنه كان شاباً في قوة الشباب عام ١٩١٤ • رجل قوي الشكيمة ، اتحادي متعصب ، انقلابي خطير ، ثالث الأثافي : طلعت ، أنور ، جمال • دخل الوزارة في كانون الثاني ١٩١٤ ، وبدأت طموحاته تظهر • أبعده رفقاؤه عن العاصمة خوفاً منه ، وابتلو به العرب بعامة ، ودمشق بخاصة • مسلم ظاهراً ، وطوراني قلباً وقالباً ، منحوه صلاحيات واسعة إرضاء لطموحه ، شريطة أن يظل بعيداً عنهم •

استقبل جمال في دمشق استقبال الفاتحين • ويقول أحد أركانه : « استُقبلنا في دمشق استقبالاً حافلاً ليس فيه زيادة لمستزيد ، وازدانت المدينة احتفاء بقدوم « فاتح مصر » ، وتراكض الألوف من الناس الى موقف القطار ، وفيهم رجال الدولة وقادة جندها ، وسادة البلاد ، وعلماؤها ، وخطباؤها ، وشعراؤها ، وقناصل الحكومات فيها • وذبحت الأضاحي ، وألقيت القصائد •• وكان يوماً لا نظير له » •

اتخذ جمال فندق (داماسكوس بالاس) ، في طلعة جوزة الحدبا ، مقراً عاماً له ، أخذ يتقرب من رجال دمشق وزعمائها وصحافييها ، ويغدق على بعضهم المال في سبيل الدعاية • وسعى جاهداً لدفع الشكوك تجاه الاتحاديين • وشجع فكرة العرب والعروبة ظاهراً • قال في حفل أقيم على شرفه يعلم منه وللخوف منه : « اعملوا على ترقية العرب والعروبة • جددوا مدينتكم » ، ودعا الى نبذ الخلافات

بين العرب والأتراك ، وكتم غيظه من هؤلاء الشبان الذين أزعجته أناشيدهم الحماسية ، وارتفعت أصواتهم حتى اهتز لها سقف القاعة وجنباتها من ترديدهم :

نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد

وإذا أخذنا بقول جمال ، نجد أن أعيان دمشق جاؤوه وأقسموا بالأيمان الغلاظ بالحفاظ على ولائهم للدولة ، وبذل أقصى الجهد لمساعدتها . وما أن اطمأن باله حتى تغيرت أحواله : أسس ديواناً عرفياً في عاليه ، وآخر في دمشق ، في خان الباشا ، وبدأت السجون تستقبل الضيوف ممن يشتبه باتجاهاتهم السياسية ، حتى غصت بالموقوفين . وإذا ما اشتبه بأحد ، بادرت الضابطة بأعدادها الوفيرة تحتل الحي ، وتطوق الدار ، وتصعد السلالم والسطوح ، وتنتزع المسكين من بين أهله . وإذا ما تشفع به أحد من أفراد أسرته بقوله : « مظلوم يا بك » ، أجيب : « سكتر ، بيس أرب ، دين سيس ، أمانات يوك » ، أي « اخرس أيها العربي القذر ، لا ذمة لك ولا أمانة » ، حتى أن الأهالي أخذوا يرددون في مثل هذه الحالات العبارة : « جاء البلاء الأعظم » ، أو « يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف » .

وطبق التجنيد العام على أشكال مختلفة عند سوق الجنود : فمنهم من امتثل مرضاة لوجه الله ودفاعاً عن الاسلام ؛ ومنهم من ذهب مكرهاً كمن يجر الى جهنم بالسلاسل ؛ ومنهم من دفع «البدل» وسلم ؛ ومنهم من فرّ لاجئاً في البراري والقفار أو الجبال ؛ ومن ذهب الى جبهة القوقاز فتفقعت يداه ومات من الدنق ؛ والى جبهة الدردنيل فغرق في بحر مرمرة ؛ والى جبهة سيناء فذهب ولم يعد أو عاد مشوهاً .

وشتتت ضباط الاحتياط ، واعتقل أحرار العرب ممن اشتركوا في مؤتمر باريس عام ١٣ ، أو في ناد من أندية الأستانة ، أو في حزب من الأحزاب . وبالرغم من « عيونه » الكثر ، لم يستطع الكشف عن أسماء وهوية رجال « جمعية الفتاة » نظراً للسرية العميقة التي غلفوا أنفسهم بها ، وللأيمان التي تعاقدوا عليها ، والوفاء بالوعد شيمة العربي الأصيل . ومن ذلك أن الرئيس المرحوم شكري القوتلي أحل سفك دمه بقطع شرايينه وهو في السجن وفضل الموت على أن يبوح بسر الجمعية ورجالها .

وإذا اطلعنا على « مذكرات جمال »وجدنا أنه وقف على إضبارة الموقوفين ، ولكنه آثر النظر في مصيرهم والحكم عليهم ريثما يعود ظافراً في حرب قناة السويس. وكانت هذه الحرب لسد الطريق على مواصلات بريطانيا وامبراطوريتها بعد أن حوصرت السواحل .

وخسر جمال المعركة وعاد الى دمشق مدحوراً مقهوراً ، وبدأ حملة ارهابية مروعة ومنظمة: أجرى للموقوفين محاكمة سرية في الديوان العرفي في عاليه . فحكمت بادانتهم وسيقوا الى الموت وهم ينشدون » .

نحن أبناء الألى شادوا مجداً وعلا

نسل قحطان الأب جد كل العرب

ونفذ الحكم بالاعدام بأحد عشر شاباً عربياً من خيرة الشبان في ساحة البرج، ساحة الشهداء ، في بيروت صباح يوم ٢١ آب ١٩١٥ .

وفي غضون ذلك ، كانت الحليفتان فرنسا وانكلترا تثيران الشعوب العربية على الامبراطورية العثمانية ، وتعدانها بالمساعدة والعون والتحرر من حكم العثمانيين ، وفي الوقت نفسه ، بدأت مراسلات سرية بين حسين ، شريف مكة ، والسير ماكماهون معتمد بريطانيا في مصر ، في ١٤/٧/١٩١٥ ، وانتهت في آذار ١٩١٦ . وقد نشرت وأصبحت معروفة باسم « مراسلات ماكماهون والشريف حسين » .

خرج عن هذه المراسلات مفهومان :مفهوم الشريف حسين ، وهو مفهوم متوكل على الانكليز وواثق بحسن نواياهم ، وقصده شريف ونبيل وهو تحرير العرب من الحكم العثماني وتأسيس الدولة العربية في آسيا؛ ومفهوم انكليزي مراوغ ومخادع يعرف ما يريد، وينفذه في الوقت الذي يريد .

وفي نيسان من عام ١٩١٦ ، أصدرت الدولة بسبب ظروفها المالية العسيرة ، النقد الورقي بدلاً من النقد الذهبي ،وفرضت التعامل به ، واستوفت به الضرائب ودفعت رواتب الموظفين .وما لبثت قيمة هذا النقد أن سقطت بالتدريج حتى الخمس . واغتنم المدينون الفرصة وسددوا ديونهم. إمامما اختزنوه

فقد حلت بهم الكارثة وأي كارثة؟ وكانت الكارثة بعد الحرب أفظع مما كانت قبلهم: الأحمال المحملة من الورق النقدي لا تساوي شيئاً مذكوراً وتصلح للحرق ·

ثم اتبع جمال القافلة الأولى من الشهداء بقافلة ثانية ، في بيروت ودمشق، صباح ١٩١٦/٥/٦ ، وأعدم رجالها في ساحة البرج ، في بيروت ، وساحة المرجة بدمشق · وكان لهذا الاعدام رنة أسى ،ودمع عيون في شتى الأنحاء السورية والعربية ·

وقبل الاعدام ، كان الأمير فيصل بن الشريف حسين في دمشق ، وعندما صدرت أحكام الاعدام بالموقوفين ، رجا جمالاً هو والشيخ بدر الدين الحسيني والشيخ أسعد شقير، أن يعفو عنهم، فأبى وتكبر،ولم يقبل أي شفاعة ، وانتحل « في مذكراته » الأعذار بعد أن خرب الديار وأعدم الأحرار ·

ولم يكتف بهذا الاجراء التعسفي ، بل اتبع الاعدام بعملية نفي انتزعت عائلات بكاملها ، كباراً وصغاراً من أقرباء الشهداء ، وأجلاها عن دمشق ونفاها الى الأناضول دون ذنب ارتكبته ، فزاد الألم آلاماً والبؤس بؤساً ·

وفاض الشعر العربي بالحسرات على شهداء الرعيل الأول ، وتجددت ذكراهم كل عام · وكانت الجموع الغفيرة من أهالي دمشق تتزاحم بالمناكب لحضور الاحتفال بذكرى الشهداء في ساحة المرجة، وبعد الاحتفال تسير هذه الجموع عبر الشوارع بكل خشوع الى « تربة الباب الصغير » تتقدمها جوقة «مدرسة الاسعاف الخيري » وهي تعزف اللحن الحزين ·

أبت العين أن تذوق المناما والمنايا تغتال منا الكراما

حتى اذا ما وصلت ، وضعت الأكليل على أضرحة الشهداء سائلة لهم الرحمة والغفران ·

★ ★ ★

بعد هذه الأحداث الأليمة ، أدرك أحرار العرب وفيصل ألا سبيل الى رد الظلم الا بالثورة على النظام · ومكر جمال ، ومكر فيصل والأحرار في دمشق ، واستأذن فيصل جمالاً ، وقفل راجعاً الى أبيه الشريف حسين · ونشبت الثورة

العربية في ١٠/٦/١٩١٦ أي بعد شهر على اعدام الشهداء • وبمعرفة بريطانيا العظمى عسكرياً ومالياً نجحت الثورة ،وبقيت المدينة المنورة محاصرة حتى آخر الحرب • وأعلن الشريف حسين نفسه ملك العرب ، وانتخب الأمير فيصل وعمه ناصر لقيادة القوات العربية الزاحفة من مكة لمطاردة الأتراك • وتابعت جيوش الثورة طريقها الى الشمال ، وقطعت الخط الحديدي بين العقبة ومعان على الأتراك منعاً للامداد ، وأطبقت قوات فيصل وناصر عن يمين ، وقوات الحلفاء عن شمال على الجيش التركي المنهزم •

★ ★ ★

هذه أحداث دمشق على صعيد السلطات • وهنا يحضرنا سؤال يطرح نفسه وهو : ما رد الفعل الدمشقي تجاه اجراءات جمال ؟

لا مرية أن الرأي العام ، من حيث المبدأ ، لم يكن متضامناً مع الأتراك في الحرب • وعندما رفعت أعواد المشانق ،خاف الناس ، ولبث الأهالي ساكنين واجمين • كل واحد منهم خائف على روحه ، لا حول له ولا قوة على المقاومة • والجميع يمضغون آلامهم بين تضارب الآراء ، وشتى الاشاعات عن الحكام والشهداء •

وفي الحقيقة ، كانت سنوات الحرب عجافاً في دمشق • فقد قلّ أو انقطع عنها استيراد المواد المصنعة • بسبب حصار السواحل من قبل الحلفاء • وندرت السلع الاستهلاكية وبعض المواد الغذائية الضرورية وشبه الضرورية ، كالرز والسكر وزيت الكاز والقهوة والشاي وغيرها • وارتفعت أسعارها أضعافاً مضاعفة ، واستيعض عنها بمواد ومنتجات أخرى :كالبرغل ، صناعة وطنية ، عن الرز ، والشعير والحمص المحمصين عن القهوة ،والزهورات والبابونج والنعنع و « شباشيل » الذرة عن الشاي ، والدبس عن السكر ، والشمع عن زيت الكاز ، وأصبح الخبز مركباً من شعير وذرة وكرسنّة ، علف الابل ، طعام الزقوم ، بعد أن ارتفع سعر القمح ، ووضعت الحكومة يدها على الانتاج • وأصبح القليل منه يباع في السوق السوداء على أيدي المهربين ولصوص المتعهدين ، وغلت الحاجيات الضرورية بعد ندرتها ، وطفق الكومبرادورات والوسطاء يبيعونها خلسة ويشرون على حساب الشعب المعوز المسكين • وقل الفحم الحجري ، فقطعت

الأشجار لتسيير القاطرات • وكثر الاقبال على استهلاك الكهرباء بعد نقص زيت الكاز • ولم تعد المحطة المركزية تلبي الحاجة ، حتى اضطرت الشركة الى قطع التيار الكهربائي مرة في الأسبوع عن كل حي • وتوقف تراموای دمشق بين المرجة وحي الميدان ، والمرجة وحي المهاجرين ،وانتشرت في دمشق الطنابر والحمير البيض للانتقال من مكان لمكان ، ومن حي لحي في أنحاء المدينة •

وعمّ الضيق ، وشاع في الناس القول : « اخشوشنوا فان النعم لا تدوم » ، ومن الخير أن يقتر الانسان على نفسه في الطعام والشراب ، ويبحث عن المواد المغذية الضرورية عوضاً عن الاسراف في اللذائذ ، لأن البطنة تذهب الفطنة • وكثرت الدعوة للعودة الى الأرض ، المطعم الوحيد في أوقات الشدائد والعوز ، مما تنبته من حشائش وأوراق ، كما كثر التداوي بالأعشاب •

وقلّ الصديق ، وفقدت مكارم الأخلاق قيمها العليا ، وأصبحت المادة أساس التعامل بين البشر ، والقول « الهنا على قلب الشاطر » يتردد على كل شفة ولسان.

ولا نقول أن حالة البؤس هذه كانت فريدة في دمشق أو في سورية عموماً ، ولكنها كانت في بلادنا أعظم منها في غيرها لاعتمادنا على الخارج آنذاك• وفي ظروف الحرب ، كل شيء للجيش ، وتحت تصرف الجيش ، ولكن جيش مَنْ ؟ العرب أو الترك ؟!

وفي هذه الظروف القاسية التي لاترحم ، نجد أناساً من علية القول وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية تقدم آيات الخضوع والولاء والاحترام والتبجيل والتعظيم لجمال • وما من رد فعل ولو بالحياد السلبي • وإذا سألهم السائلون : كيف ••• ؟ لم كم هذا ؟ ألا تخجلون من أنفسكم؟ تلملموا ،وتحوقلوا ،وتقوقلوا مستعلين مرددين : إيه ؟ ماذا تقول يابني إننا ندفع عنكم شراً مستطيراً • إنما نحن مستهزؤون • ولكن هل هم حقاً مستهزؤون أو دجالون، الله يستهزىء بهم ويردهم في طغيانهم يعمهون • ومثل ذلك قولهم :« يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ ، فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

وأخذت الفتاوى والحكم والاجتهادات والأمثال المنتحلة ، والأقوال المأثورة تتناثر من الأفواه بأقوال ضالة مضللة •منها قولهم : « وأطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولي الأمر منكم » • أقوال لايسع الانسان ألا يقول تجاهها : «استغفر الله العظيم ، ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم » •

وانتشر بين الطبقات الشعبية الفقيرة التي تبحث عن لقمة العيش قول بعضهم ما العمل ؟ هذا قضاء الله وقدره • ومنلا تقدر عليه ، إدع ربك يقدر عليه ، واليد التي لا تقدر عليها ، ادع' ربك يقدر عليها ، « والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وما أكثرالأقوال والأقاويل والضلال والتضليل في الظروف القاسية والأوقات العسيرة •

ولم تنعم دمشق بالراحة إلا بعد أنغادرها « الجنرالسيم » جمال في آخر العام ١٩١٧ ، فاستراح وأراح ، بعد أنفقد حظوته للهزيمة التي مني بها في حرب القناة • واستدعته السلطة المركزية فيالاستانة ، واقتصر على وزارة البحرية • ومن عجب أنه لم يودع بمثل الحفاوة التياستقبل بها • ومثلت إثر مغادرته رواية في « مسرح الزهرة » ألفها بعض الشبانوكالوا له الشتائم من كل نوع بالصاع والمد ، مقاييس السعة في ذلك الحين وبعيده ، ولقب بالسفاح • ورحم الله أحد الظرفاء لقول نطق به في هذه المناسبة • وأرجو أن تغفرله ولي خشونة التعبير : « مزاج أهل دمشق غريب ، يستقبلونالوافدين مكرهين بالترحاب ، ويودعون الراحلين طواعية بالقبقاب » •

وفيما كان أهل دمشق سادرين فيأحيائهم، تقدم جيش « الثورة العربية»، وتوالت الأخبار بوصول الجيش العربيالمنتصر • ودخل فيصل دمشق في غرة تشرين الأول ١٩١٨ ، وسيارته تشقالطرقات بين الجموع الغفيرة والتلويح بالأيدي، وهتافات المستقبلين من الجانبين: فيصل ، ناصر ، شكري، أورنس، بدلا من لورنس • ونثرت العطور والرياحينمن الشبابيك والشرفات ، وعلت التنهدات ، وسال الدمع لروعة اللقاء ،والتقى الحبيبان الفرح والبكاء •

هجم السرور عليّ حتى أنه — من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع منك سجية — تبكين من فرح ومن أحزان

ياله من يوم عظيم من أيام العروبةالخالدة · رفعت فيه الراية العربية فوق مباني الحكومة ، ودحـر الجيش التركي بقيادة مصطفى كمال الى الأناضـول ، ولم يمض شهر حتى تحررت سورية كلهامن النفوذ التركي ·

وبعد جـلاء الأتراك عن البلاد ، قامت فيسورية دولة عربية مستقلة عاصمتها دمشق ، وملكها فيصل · وسلكت حكومته سياسة عربية صرفـة في مختلف أجهـزة الدولة ، وبشرت بمستقبل واعد ، ولكن الصعوبات أحاطت بها من كل جانب ·

أولاً : من جانب الحلفاء ، ظهرت الاتفاقات السرية على حقيقتها :

آ) الاتفاقية الانكليزية ــ الفرنسيةــ الروسيـة (نيسان ــ أيـار ١٩١٦) المعروفة باتفاقيـة سايكس ــ بيكو ، والتي أبرمت قبل قيام الثورة العربيـة في حزيران ١٩١٦ ، أي قبل شهر واحد من إعلان الثورة· وانتشرت أخبارها بصورة غامضة ، وأشار إليا جمال ، وأعلم بشأنها الملك حسين ، وتردد فيصل بسببها · وكان الكل بين مصـدق ومكذب ، ولكن بعد فوات الأوان · ولم يستطع أحد أن يعمل شيئاً أكثـر من طلب استيضاحات دبلوماسية دون جواب شاف من أي دولة حليفة · وظهرت للعيان الخدعة المكتومة تعمل عملها في بلادنا ·

ب) بعدها أتى العام ١٩١٧ بثلاثة حوادث كبرى في تاريخ العالم وتاريـخ القضية العربية عموماً حاضراً ومستقبلاً ، وهي :

١ ــ دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى في ٤/٦/١٩١٧ ، وكان لهذا الحدث أثره الكبير والحاسم في تغيير موازين القوى المتصارعة وفي إنهاء الحرب، وتدشين وحدة الدول الغربية ــ الأطلسية في المستقبل ·

٢ ــ الثورة الروسية ·

٣ ــ وعد بلفور في ٢/١١/١٩١٧ الذي هيأ للمستقبل ميلاد إسرائيل ، وكان بعد مرور سنة على إعلان الشريف حسين ملكاً على العرب · وقد كتب عنـه تشرشل : « إنه حادث لألف عام »·وعرض هـذا « الوعـد » على الرئيس الأميركي ولسون فباركه وباركته الحكومة الفرنسية في ١٤/٢/١٩١٨ ، والحكومة البريطانية في ٩/٥/١٩١٨ ·

وبعد قتال دام أربع سنوات هلك فيها الحرث والنسل ، وقعت الهدنة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، ووضعت الحرب العالمية أوزارها . وبدأ كبار الساسة في العالم يلعبون بمصير الشعوب على خوان فرساي في قاعة المرايا وينظمون السلام الذي يريدون .

ثانياً : صعوبات داخلية في حكومة دمشق :

الى جانب المشاكل الخارجية التي جابهت العرب وفيصلا ، كانت المشاكل الداخلية تتوالى : اضطراب حبل الأمن ، أعمال السلب والنهب في العاصمة ، ثورات في الأقاليم ، عصابات ، تنابذ في الرأي حول ادارة الحكم بين الشيوخ والشبان من « رجال الغيب » ، أحزاب متنافرة ، تعاطفات فرنسية ، تعاطفات انكليزية ، مشاحنات ، عدم استقرار . لقد حار فيصل ، وحيره أهل دمشق وطال صبره حتى عيل .

وبعد أن وضعت خارطة العالم العربي الجديدة موضع التطبيق ، بموجب المعاهدات السرية المكشوفة وتعديلاتها ، زحفت الجيوش الفرنسية الى دمشق ، بعد أن نزلت في الساحل اللبناني وأخذت تهدد دمشق . ونهض الشعب السوري تلقائياً بقضه وقضيضه للدفاع عن الحمى والعهد الجديد ، تؤازره قوات منظمة وغير منظمة ، متطوعة «باشبوزوك» . وقاد هذا الجيش يوسف العظمة للقاء الجيش الفرنسي بقيادة غورو ، بقوات غير متكافئة بحال من الأحوال مع قوات الجيش الفرنسي المنتصر في الحرب ، وحارب ببسالة ، واندفع بعزم ، وصح منه العزم والدهر أبى . ولم تدم المعركة طويلا ، وسقط يوسف العظمة شهيداً في وادي ميسلون ، في ٢٤ تموز ١٩٢٠ ، ودخلت الجيوش الفرنسية دمشق في اليوم التالي .

ومهما يكن من قول في هذا الاستشهاد الانتحاري ، فان أقل ما يقال فيه ، إنه دفاع عن الحرية والاستقلال والكرامة العربية ، وان لم تكن النتائج مضمونة . ولا ريب في أن العرب خدعوا بوعود الدول الحليفة العرقوبية ــ الانتهازية ، واتخذوا من تصريحاتها اللولبية والمطاطة والمغطاة والموشاة بالجلال والاحترام ،

عهوداً ومواثيق ، ولم تكن كذلك · ولذاكان يأسهم عظيماً بعد ميسلون · ولكنهم جددوا العزم لجهاد جديد في العهد الجديد·

وهكذا تداعت بسرعة أول دولة عربية حديثة تأسست في دمشق الشام ، دولة قصيرة الأجل ، في عمر الورود والزهر ؛لأن المدة التي انقضت بين تكوينها ووأدها ، كانت أقل من سنتين (٢٢ شهراً) ، من أول تشرين الأول ١٩١٨ الى ٢٤ تموز ١٩٢٠ · والمدة بين اعلاناستقلالها بصورة فعلية وزوالها ، كانت أقل من خمسة أشهر · من ٨ آذار الى٢٤ تموز ١٩٢٠ ·

★ ★ ★

الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك

د. نقولا زيادة

١ ـ المقدمة :

كانت بلاد الشام بين سنتي ١٢٥٠ و ١٥١٦، جزءاً من دولة المماليك • فقد حكم سلاطينهم مصر وبلاد الشام والحجاز • وقد كان السلطان هو صاحب الأمر في جميع الأمور السياسية والعسكرية والادارية • لكن الناس في هذه المنطقة قد اعتادوا من قبل أن يكون الخليفة العباسي البغدادي هو صاحب المركز الأول في دولة الاسلام • ذلك أن القضاء على الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ على يد صلاح الدين أعاد الاعتراف بالخلفاء العباسيين الى مصر وبلاد الشام • صحيح أن ذلك لم يقض على جيوب شيعية هنا وهناك، لكن المهم هو قبول الناس عامة بالخليفة العباسي • ومن هنا فقد رأى الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦/١٢٦٠ ـ ١٢٧٧)، أن يطمئن الناس الى وجود خليفة على رأس الدولة، فعمد الى احياء الخلافة العباسية، ولكن في القاهرة، في شخص المستنصر (٦٥٩ ـ ٦٦٠/ ١٢٦١) • لكن الذي حدث هو أن الخليفة انتدب السلطان المملوكي للقيام بالحكم فعلاً، وقد سمي بيبرس قسيم أمير المؤمنين • واستمر الأمر على هذه الحال •

وقد تم على أيدي المماليك الأوائل أمران في غاية الأهمية بالنسبة لبلاد الشام• أولهما القضاء على الوجود الفرنجي (الصليبي) في تلك الديار • ولسنا ننوي الدخول في تفاصيل هذه الحلات التي توجت باحتلال عكا سنة ١٢٩١ في أيام الملك الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣/١٢٩٠ ـ ١٢٩٤) •

أما الأمر الثاني الذي تم على أيدي المماليك فهو اعادة الأمن الى بلاد الشام بعد الفوضى التي عصفت بها (١١٧١ ـ ١٢٥٠)، ولو أن شيئاً من الخلاف بين أمراء المماليك أنفسهم ظل يؤثر في سير الأمور، لكن أثر هذا كان أقل أذى مما كان قد ساد قبل ذلك •

وحري بالذكر أن وجود السلاطين والمماليك لم يكن له أساس قانوني ، ولم يتبع أسلوباً واضحاً في الخلافة ، اذ ان السلطة كانت تنتهي دوماً الى الأقوى من أمراء المماليك ، أي الذي يكون له من الأنصار الأقوياء والأتباع من المماليك الذين كان يبتاعهم ويربيهم ويعنى بهم الى حين الحاجة ٠

ونتيجة لاحتلال المماليك الموانىء الشامية ، وخشية منهم أن يعود الصليبيون اليها ، كان السلطان المنتصر يهدم الميناء الذي يحتله ٠ لكن اتضح ، بعد بعض الوقت ، أن الموانىء مهمة للتجارة فعادت الحياة الى بعضها ، وقد عمل السلاطين أنفسهم على اعادة النشاط الى هذه الموانىء ٠

ومن أهم ما يجب أن يذكر لعصر المماليك ان المركز التجاري الذي كانت بلاد الشام تتمتع به دائماً عاد اليه الكثير من النشاط ٠

ولعله من المناسب ، اتماماً للفائدة ، أن ننقل بعض ما رواه بعض الرحالين الأوروبيين الذين زاروا المنطقة ، بما فيها دمشق ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ٠ والصورة التي تمكنا من رسمها تتلخص فيما يلي :

سورية بلد غني ، وقد كان موقعها على الطرق التجارية ذا فائدة خاصة لها في العصور المتوسطة ٠ ولم تفد دمشق من هذه التجارة فحسب ، بل من الصناعات أيضاً ، وخاصة من الحرف ٠ فقد كانت دمشق تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والفخار والزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور وماء الزهر والشموع والأحذية ٠ وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة ٠ وكانت تقرن بالقاهرة ، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة ٠

وثمة فئة من الرحالين الأوروبيين مثل نيكولو البوغبونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الأراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) ، أو مثل برتراندون دو لابروكييه ولودفيكو دي فارتما ، اللذين شملت زيارتهم الشرق في الوقت نفسه : جميع هؤلاء قادتهم أسفارهم الى دمشق ٠ وهؤلاء هم مرشدونا في زيارة دمشق في تلك الفترة ٠

فلنزر أجزاء المدينة المختلفة في صحبة هؤلاء النفر ٠ وقد ضمت رواياتهم بعضها الى البعض الآخر ، فتم لنا منها صورة ذات ألوان زاهية لأسواق دمشق ومتاجرها ٠

ان جميع الشوارع الواقعة داخل أسوار المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها ٠ وبيوتها مرتفعة ومبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان ، اذ ان جدرها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح ، وأرضها مكسوة بالفسيفساء ٠ ما أقل البيوت التي لم تكن فيها نوافير منحوتة من الرخام ، هي متعة للناظرين ٠

ومع أن عشرين ألفاً قد يغادرون دمشق الى مكة لأداء فريضة الحج ، فلم يبد على المدينة كأن أحداً تركها ٠ وقد كانت شوارع كثيرة يملؤها الناس كما يملأ الناس شوارع فلورنسة يوم عيد القديس يوحنا ٠ وكما كانت المدينة مزدحمة بالسكان فان شوارعها كانت مكتظة بالتجار والصناع ٠

ان ما يصنع في دمشق ، من أي نوع كان ، كبيراً كان أو صغيراً ، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الأصناف ، والزجاج من جميع الأنواع ٠فقد حذق الصناع ذلك كله ، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن ٠ وعندهم الى ذلك غالب أصناف الفواكه التي تحفظ من سنة الى سنة ٠

ولنعد الى متاجر دمشق : فهذه لا يصدقوصفها الذي لم يرها بأم عينه ، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة بأجمعها ، داخلهاوخارجها ٠ لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي٠ فأجمل ما في الدنيا وأنبله وأشده اتقانصنعة موجودة هناك ٠ فلو أنك سرت متفرجاً لرأيت المصنوعات الرائعة الأنيقة الدقيقة التيتغريك ، بحيث لو أنك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها واخراج النقود لشراءبعض ما هناك ٠ فان خيالك لن يمكنه أن يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك ٠ فالاقمشةالحريرية الكثيرة من أي نوع أو لون تجدها هناك على أفضل وأجمل ما يعرفه العالم ٠ وثمة كمياتكبيرة من الأقطان ، من أجمل ما في العالم ، بحيث لو شاهدها أحد الناس ، ولم يكن خبيراً ، لحسبهاحريراً لما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال ٠ والبروكار أيضاً متوفر في الأسواق ٠وما أكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس وأباريقه التي تبدو كأنها من الذهب ، وكلهامزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق ، كما يعمل من الفضة أشياء فنية جميلة تسرّ العين لرؤيتها ٠

والواقع أن محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب ، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة أشد ٠ وحتىلو رغب الواحد في تعداد الصناعات وأصناف الأشياء الموجودة ، لاضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به ٠ اذ انه بالاضافة الى ما ذكر فان أسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والأفاويةالتي تأتيها من الهند٠ وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن ما في دمشق منالمتاجر يكفي حاجاتالعالم المسيحي سنة كاملة ٠ ولك أن تتصور ما أجمل هذا كله عندما تقع العين عليه : أمااللسان فيعجز عن القول ، كما يعجز العقل عن التصور ٠

زار برتراندون دو لابروكييه دمشق في أواسط القرن التاسع (الخامس عشر) وقد جاءها من بيروت ٠ وبعد زيارته لفلسطين اتجه شمالاً فيسورية ٠ وقد ابتاع الأشياء التي احتاجها من دمشق ٠ وما نحن أولاء ننقل هنا تجاربه وملاحظاتهعن المدينة بكاملها :

« رافقت أحد أصحابي الى السوق وابتعترداءين طويلين حتى انهما كانا يبلغان الكاحل ، وعمة كاملة وحزامة من الجلد ورباطين من القطنأضم بهما طرف الرداء ، وكيسين صغيرين أحدهما لاستعمالي والآخر للحصان [مخلاة] يطعم فيه شعيره وتبنه ، وملعقة من الجلد وبساطاً أنام عليه ٠ وآخر ما ابتعته معطف من الجلد الأبيض ، بطنته بالكتان ، لاستعماله ليلاً ٠ وابتعت كذلك جعبة بيضاء كاملة ، وقد تدلى منها سيف وسكاكين ٠أما الجعبة والسيف فقد ابتعتهما سراً ، اذ لو عرف القيمون على القضاء بذلك لتعرضنا ، أنا والبائعالى مخاطر كبيرة ٠

« ان سيوف دمشق هي أنبل وأجمل ما يصنعفي سورية ٠ ومن الممتع أن يلاحظ الواحد أسلوب الصناع في صقلها ٠ فان هذا يتم قبل أن تسقىويستخدمون في سبيل ذلك مقبضاً من الخشب

شكت فيه قطعة من الحديد يجرونها على نصل السيف ، وبذلك ينعم ملمسه ، كما تنعم الفارة سطح الخشب · ثم يسقونه ويلمعونه · وهذا التلميع بلغ حداً كبيراً من الاتقان بحيث ان الواحد اذا أراد أن يصلح من شأن عمامته اتخذ من نصل السيف مرآة · وأما السقي فهو كامل ، ولم أرَ قط سيوفاً تقطع بمثل هذه الدرجة من الاتقان · ويصنع في دمشق ، وفي ما جاورها من الديار ، مرايا من المعدن التي تضخم الأشياء كما في الزجاج العاكس النور · رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ أو ١٦ قدماً »(١) ·

٢ ـ ملاحظات عامة :

حري بالذكر أن بلاد الشام عرفت في الفترة المملوكية عدداً كبيراً من المدارس كانت مراكز مهمة للتعليم ، على أن المدرسة لم تكن المكان الوحيد ، ولو أنها كانت المكان الرئيسي ، الذي يطلب فيه الناس العلم ـ على درجات مختلفة ـ بل كان هناك الجامع والزاوية (الخانقاه) · ومع أن هذه كانت مرتبطة أصلاً بالطريقة الخاصة بها أو التي أنشأتها ، فقد كان بعضها يؤدي دوراً كبيراً في سبيل الاهتمام بالعلوم الدينية ·

ويجدر بنا أن نتذكر أموراً ثلاثة تتعلق بالحياة الفكرية ، من الناحية الاسلامية ، عرفتها البلاد واتضحت بشكل خاص في دمشق بالذات · وهي : إحياء السنة وتقوي الحنابلة والاهتمام بالتصوف ·

وقد كان إحياء السنة أمراً طبيعياً بسبب انتصار الأيوبيين وسيطرتهم على البلاد منذ قيام صلاح الدين ، وخاصة بعد القضاء على الخلافة الفاطمية · وكان قاضي القضاة أصلاً من المذهب الشافعي ، حتى بدل الأمر الظاهر بيبرس · فعين قاضي قضاة لكل من المذاهب الأربعة في القاهرة ثم في بلاد الشام ·

وكان الحنابلة ذوي نفوذ وقوة واضحين في القرون السابع والثامن والتاسع (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) ، وقد كان للهجرتين اللتين ذكرتا من قبل أثر في ذلك : هجرة جماعة ابن قدامة الذين تركوا بيوتهم قرب نابلس واستقروا في دمشق ، ومجيء أسرة ابن تيمية التي جاءت من حران في شمال سورية · وقد ظهر في بني قدامة عدد من العلماء والدارسين الذين كانت خدماتهم العلمية جمع الفقه ووضع المصنفات الموسوعية فيه · وأسرة ابن تيمية (تو ١٣٢٨/٧٢٨) الذي لعله كان أكبر فقيه في أيامه ، فهو يمثل الفئة الثانية ، بعد أئمة السنّة الأربعة الأوائل ، التي يعود اليها الفضل في اعادة النشاط الى الدروس الاسلامية الشرعية ، وتصنيف بعض ما سبق للفقهاء أن قدموه من آراء هامة ، وتطبيق المنطق الحديث على بعض القضايا التي لم تكن قد خطرت لأسلافهم من قبل · وقد يكون في الاشارة الى ابن تيمية وصحبه على أنهم مصلحون بعض المبالغة، ولكن أثرهم ، وخاصة أثر ابن تيمية نفسه ، يمكن ملاحظته في آراء المصلحين من المسلمين حتى يوم الناس هذا ·

وسنتناول التصوف بالحديث أولاً ثم نعود الى العلماء الأعلام · ولعله من المناسب أن نولي الامام الغزالي ملاحظة هنا ، لأنه هو الذي أعاد التصوف الى حظيرة الاسلام السني ، ولو أن ذلك

لم يمنع من قيام صوفيين كانت لهم شطحات تخالف ما توصل اليه الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ·

وقد فصل الغزالي موقفه من التصوف في كتابه (المنقذ من الضلال) ، ذلك انه قد درس أقوال الحكماء والفلاسفة وغيرهم من أهل الفكر ، ثم انتهى الأمر به أن أقبل على طريق الصوفية وخبر أمورها علماً وعملاً ، وأخيراً لما أحس بعجزه ، على ما يقول : « ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري ؛ التجأت الى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له · فأجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه · وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ·

وقد ترتب على هذه النقلة أن أوجد الغزالي « للمواقف الباطنية الداخلية مكاناً في مجال الاسلام الرسمي ، فكان جنباً الى جنب مع الشريعة والكلام » · الا أن الغزالي جعل التصوف سنياً ، لأن ما قبله من التصوف لم يكن التصوف المتطرف · وقد ارتأى أ. ج. أربري أنه منذ أيام الغزالي أصبح بامكان نوع هادىء من التصوف أن يحتل مكاناً بين العلوم الاسلامية · الا أن هذا القول يقابله استثناءات متعددة ، كابن تيمية ، عالم دمشق في ذلك العصر ، الذي كان شديد الحملة على التصوف · ولنا الى هذا الموضوع عودة ·

كان التصوف الاسلامي ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، قد كون ثيوصوفيته الخاصة المبنية على أساس فكرة الكلمة ، والتي أصبحت فيما بعد فكرة الحقيقة المحمدية · وقد كان لصوفيين كبيرين الفضل في نشرها وهما : ابن الفارض (المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣/١٢٣٥) وابن عربي (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨/١٢٤٠) · وكانت دمشق بين القرنين السابع (الثالث عشر) والتاسع (الخامس عشر) مركزاً هاماً لناحيتي التفكير الاسلامي : السنة والشريعة من جهة والتصوف من جهة أخرى ، وكانت كفة الناحية الأولى أرجح في غالب الأحيان ·

وقد كانت ثمة عوامل كثيرة أدت الى ذلك ، منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقعة من العالم الاسلامي · لكن يجب أن نذكر الآن أن خطر الغزو المغولي ، الذي تحقق لما احتل هؤلاء بغداد ، حمل كثيرين من العلماء على الهجرة من العاصمة العباسية متجهين غرباً ، وكانت دمشق المكان الطبيعي الذي يلقون عصا التسيار فيه · كما أن الرعاية التي كان آل زنكي والأيوبيون وبعض سلاطين المماليك يسبغونها على العلماء ، جذبت كثيرين منهم فانتقلوا من شمال العراق الى دمشق · فأسرة ابن تيمية انتقلت الى دمشق وعالم المستقبل كان لا يزال طفلاً ، لكن أباه وجده كانا من العلماء المرموقين · ويبدو أن القاهرة لم تجذب أهل الفكر دوماً في تلك العصور ·

أما دمشق فكانت ذات جاذبية خاصة · عن ذلك فان عدداً من العلماء هجر فلسطين ، وهي تحت حكم الصليبيين ، الى دمشق مثل بني قدامة ، الذين أنشأوا الصالحية · ومع أن بغداد ظلت مركزاً للعلم ، فان دمشق سبقتها ·

قد يبلغ عدد سكان دمشق ، على ما يقال ، نحو مئة ألف نسمة ، والمدينة غنية تجارية وهي ، بعد القاهرة ، أهم مدينة في دولة السلطان · يمتد حولها الى الشمال والجنوب والشرق سهل متسع ، ويرتفع غربها جبل عال وقد قامت الضواحي عند أقدامه · يخترقها نهر تقسمته قنى متعددة ·

والمدينة وحدها يدور بها سور بديع ، لأن الضواحي أوسع من المدينة . « ولم تقع عيناي على حدائق أوسع ولا على فواكه أجود ، ولا على مياه أغزر من هذا الذي شاهدته هناك . فالماء هناك غزير الى حد أنه قلما يعثر على بيت ليس فيه نافورة .وحاكم المدينة نائب السلطنة لا يعلو عليه، في مصر وسورية ، سوى السلطان . ولكن بسبب الثورات التي قام بها بعض الحكام فان السلطان يحاول أن يضيق على الحكام حيطة وحذراً »(٢) .

٣ ـ التربية والتعليم :

تتميز الفترة التي نتحدث عنها ، من حيث الاهتمام بالتربية والتعليم ، بأمور مهمة يجب أن يضعها الواحد منا نصب عينيه عندما يتحدث عن الحياة العلميـة .

أولاً : كانت الدولـة تشـرف على التعليم العالي . وكان هدفها حماية نفسها ، وكان هـذا هو الغرض الذي قبـل علمـاء الديـن والمفكرون الاضطلاع به . فلم يكن لحرية الفكر مكان في نظام التعليم في تلك الفترة ، بل انه لم يكن لها مجال في الحيـاة الفكرية عامـة . ويروي أبو شامـة أن صلاح الدين لم يكن يحب الفلاسفة أو أولئك الذين كانوا يخالفون المتبع المألوف ، حتى انه أمر بقتـل السهروردي (المقتول) . وقد كان هذا سابقة خطرة استنها هـذا الرجل الذي كان ينظر اليه خلفاؤه بعـين الاكبـار(٣) .

ثانيـاً : كانت التربية أساسها فهم النظـام الذي بـذل العلماء جهـداً في اقامته ومن ثم فقـد ضاقت حلقـات المتعلمـين واقتصـرت موضـوعات التعليم : ويلاحظ البـاحث أن الكثـير مـن كتب العقائد لم تكن أكثر من شروح وتفاسير لكتاب وأحداً و ذيـول له . ومن حيث أن المجتمـع الاسلامي لم يتلق ، في القرن السابع (الثالث عشر) أو بعـده ، تيارات فكرية مـن الخارج ، فان الحياة الفكرية لم تعرف الحـوافز أو البـواعث التي تحملهـا على الانطلاق . ذلك أن التوازن الداخلي القائم وجـد في الفقه المعاصر له ما يلزمه لسد حاجاته . وكان لا بد من ضغط خارجي لاحداث رد فعل يؤدي الى تبـديل الوضع ، ومثل هـذا الضغط لم يشهده العصر المملوكي(٤) .

ثالثـاً : كان ثمـة شعور عام بأن العمل في حقل الفقه هو العمل العلمي الأصيل . ولعل مـن أطرف ما وصلنا مما يدل على هذا الأمر أن ياقوت لما وضع مؤلفه الثمين « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » اعتذر عن ذلك في مقدمته بقوله :

« واني لجد عالم ببغيض يندد ويزري عليّ ،ويقبل بوجه اللائمة الي ؛ ممن قـد أشـرب الجهل قلبه ، واستعصى على كرم السجية لبه ، يزعم ان الاشتغال بأمر الدين أهم ، ونفعه في الدنيا والآخرة أعم . أما علم أن النفـوس مختلفـة الطبائـع ،متلونة النزائع ؛ ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحـد لضاع باقيـه ، ودرس الذي يليه . وان الله جلّ وعزّ جعل لكل علم من يحفظ جملته، وينظم جوهرته ؛ والمرء ميسر لمـا خلق . ولست أنكر أني لو لزمت مسجدي ومصـلاي ، واشتغلت بما يعود بعاقبـة دنياي في أخراي أولى ، وبطريق السلامـة في الآخرة أحرى ، ولكـن طلب الأفضـل مفقود ، واعتمـاد الأحرى غـير موجود ، وحسبك بالمرء فضـلاً أن لا يأتي محظـوراً ، ولا يسلـك طريقـاً وعـراً »(٥) .

رابعاً : لعله كان من الطبيعي ، والعصر هو الزمن الذي نعرف ، أن ينصرف الناس الى الفقه• فقد آثر القول بأن العلماء هم حماة الشريعة،هذه النظرة الاسلامية التقليدية اليهم • وفي الفترة التي نتحدث عنها كان العلماء أصحاب نفوذ كبير •فقد كانوا يحتلون الوظائف الدينية: فمنهم القاضي والمحتسب والمفتي والمدرس والامام والخطيب والقارىء ، وبذلك استطاعوا السيطرة على التعليم، وكان اليهم النظر في القضاء ، واليهم تعود الفتوى• وكان ثمة عدد كبير من الوظائف الدينية وقفاً عليهم• فكتّاب الانشاء ونظّار المؤسسات المختلفة،كالبيمارستانات والجيش ، كانوا من العلماء • والأدب الرسمي الذي تحدر الينا من تلك الفترةمطبوع بطابعهم(٦) •

خامساً : كان للصدام بين أهل المنطقةوالصليبيين أثر كبير في ازدهار الشعر العربي • فقد زودت انتصارات نورالدين وصلاح الدين الشعراء بموضوعات لقصائدهم ، ولم يقصروا قط في التغني بأعمال الأمراء الكبار • فابن عنين وابن الساعاتي امتدحا الأيوبيين مع أن الأول ذاق ألم النفي من دمشق ، وقضى مدة في اليمن ــ لكن في بلاط واحد من الأيوبيين •

وشعراء الفترة ــ أي في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) ــ الذين يمكن عدهم بين شعراء سورية كثر : فثمة ثلاثة وعشرون منهم • لكن نتاجهم الأدبي لا يبلغ مبلغ النتاج الشعري العربي القديم من حيث نوعه •ولعل ابن نباتة أذيعهم صيتاً • ولد هذا الشاعر في ميارفاقين سنة ١٢٨٧/٦٨٦ وانتقل الى دمشق سنة ١٣١٦/٧١٦ ، لكنه رحل أخيراً الى القاهرة وتوفي فيها سنة ١٣٦٦/٧٦٧ • وفي ديوانه الكثير من شعر المديح ، ومن هذه القصائد ثماني عشرة تبدأ بالطريقة التقليدية من تذكر الأحبة والمرابع•وقد نظم ابن نباتة الموشح الذي يزعم البعض أن ابن عربي نقله الى المشرق من الأندلس ، كما أنه نظم الزجل ، وفي ديوانه نموذج من ذلك(٧) •

٤ ــ ابن عربي :

نود أن نتوقف قليلاً عند ابن عربي أولاً لأنه من كبار أهل التصوف في عصره ، وثانياً لأنه قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في دمشق،حيث وضع جزءاً كبيراً من خير مصنفاته •

ولد ابن عربي في مرسية من أعمال الأندلس سنة ١١٦٥/٥٦٠ وتلقى علوم الحديث والفقه في لشبونة واشبيلية وسبتة وأطال التجوال في شمالي افريقية • ومع أنه كان قد تعرف الى الصوفية من قبل ، فانه انضم الى المتصوفة في تونس ، ويبدو أن هذا الاتجاه الجديد في حياته هو الذي حمله على الاتجاه شرقاً اذ ان عصر الموحدين لم يكن يتقبل مثل الآراء التي كان ابن عربي يقول بها • فضلاً عن أنه ، مثل غيره من أهل الورع من المسلمين ،رغب في أداء فريضة الحج • وقد كان بلغ الثامنة والثلاثين من عمره لما بدأ رحلته الى المشرق •

ولم تكن اقامته في مصر هينة ، فقد هدد في حياته غير مرة ، لكن مكة راقته وطابت له صحبة أهلها والواردين عليها من الحجاج ، فأقام هناك ثماني سنوات عكف أثناءها على التأليف والتدريس• وقد تم له أثناءها اقامة مذهبه التأملي • وقد زارفيما بعد بغداد التي أعجبته لكنه لم يقم فيها طويلاً ــ ولعله أحس بالأخطار المحدقة بالعاصمة العباسية من الشرق • وبعد تجوال قصير في آسية الصغرى ألقى عصا الترحال في دمشق ، وفيها توفي سنة ١٢٤٠/٦٣٨ •

حظي ابن عربي في دمشق بكل ما يمكن أن يطمع فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية أولي الأمر ، وكان في ذلك خير له ولنا • وكان بين الذين أفاؤوا عليه الرعاية ابن الزكي قاضي القضاة ، الذي كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه • وكان جو دمشق الحرّ نسبياً ، اذا قورن بالقاهرة والغرب الاسلامي ، مما راق ابن عربي فحمله على العمل الفكري الجدي — اذ انه أتمَّ وهو في دمشق « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » •

وقد خلّف لنا ابن عربي عدداً ضخماً من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ، وقد سلم ما يربو على المائتين • لا شك أن بعضها يتألف من بضع أوراق ، لكن الكثير منها يتكون من مجلدات عديدة، مثل الفتوحات والفصوص ، ولم يكن ابن عربي كاتباً فحسب ، ولكنه كان شاعراً على نحو ما نعرف من شعره الذي رواه صاحب نفح الطيب •

جمع ابن عربي في اطار تأملاته الجامع علوم الاسلام ، ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وضعه الفقهاء والفلاسفة السنيون والمتصوفة القدماء والمحدثون فحسب ، بل كان مطلعاً على ما عند المخالفين لهم مثل المعتزلة والقرامطة والاسماعيليين • ومذهبه ، على ما فيه من اتساع وتنوع ، يتكشف عما عرفته مصادره جمعاء من تأملات وتعابير • ومن ثم فان الاشارات الغامضة تزداد تعقيداً بسبب الصعوبة التي تواجهنا باستمرار ، وهي الصعوبة الناشئة عن استعمال التعابير الفنية المتناقضة لابن عربي ، فيما صنف « الفتوحات المكية » وهو تجليات هذا الرجل وتفسيره للكون والعقيدة والروح وشؤون الحياة بمجملها •

وقد يصعب علينا تعيين مذهب ابن عربي وبسبب هذا الذي يبدو لنا متناقضاً ، ولعل مثل هذا الموقف سببه أننا نحن نحكم على الرجل من الخارج ، فنرى الخلافات والمتناقضات • أما هو فقد كانت آراؤه نتيجة تمازج وتناغم داخليين •

ويبدو أن ابن عربي أحس بمواقف الآخرين منه فوضع كتابه « الأجوبة اللائقة عن الأسئلة الفائقة » ، وقد تصور فيه نفسه يجيب سائلاً اياه عن القضايا التي تعترضه •

وعلى كل فاننا نضع أمام الزملاء ما يصح أن يسمى « بعض آراء ابن عربي » راجين ألا يحسبها أحد أنها خلاصة لمذهبه :

١ — الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات • وفي الله وحده يتّحد الوجود والكيان •

٢ — الكون له وجود نسبي اما واقعي أو تصوري• وهو في الوقت ذاته وجود دائم وعدم موقت • فالوجود الدائم هو في علم الله ، أما العدم الموقت فهو خارجي بالنسبة لله •

٣ — ان الله منزه ومشبه ، ذلك بأن التنزيه والتشبيه مظهران أساسيان للحق على ما يدركه الانسان ، فالحق الذي يقوم على التنزيه هو الخلق الذي يقوم على التشبيه ، مع أن الخالق يتميز عن المخلوق •

٤ — ان الوجود ، بعيداً عن الله يقع بارادة الله ، وهو خاضع للنواميس المتعلقة بالأشياء الكائنة : ويتم ذلك بواسطة الأسماء الحسنى أو الآراء الكلية •

٥ ـ كانت الأشياء في العالم الظاهري ، قبل أن تصبح موجودات ، قائمة في العقل الالهي كأعيان ثابتة ، ومن ثم فقد كانت شيئاً واحداً مع الكيان والوعي الالهيين ٠

٦ ـ ليس ثمة شيء اسمه اتحاد بالله ، بمعنى أن يكون المرء واحداً مع الله ، ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو أن الصوفي واحد مع الله ٠

٧ ـ ان الأصل الخلاّق المحيي العاقل في الكون أو العقل الأول هو الحقيقة المحمدية المسماة أيضاً حقيقة الحقائق ٠ هذا الأصل يظهر على أو في صورة الانسان الكامل ٠

٨ ـ كل نبي هو حقيقة الله ، والحقيقة هي محمد سيد الأنبياء ٠ وهذه الحقائق جميعها تتقمصها الحقيقة المحمدية ٠

٩ ـ الانسان الكامل هو مصغر الحقيقة ٠ انه العالم الأصغر الذي يعكس الصفات الكاملة للعالم الأكبر جميعها ٠ وكما أن الحقيقة المحمدية كانت المبدأ الخلاق في الكون ، فان الانسان الكامل هو علة الكون لأنه رغبة الله في أن يعلن ٠ ذلك بان الانسان الكامل وحده هو الذي يعرف الله ويحب الله ويحبه الله ٠ فقد صنع العالم من أجل الانسان فقط(٨) ٠

ويمكن تقصي المدى الذي تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في أكثر من اتجاه واحد ٠ فحتى أولئك الذين لم يقبلوا ، أو تظاهروا بأنهم لم يقبلوا ،نظرته بألوهية الكون كثيراً ما عبوا من معينه وخاصة آراءه في الحب ، وحتى القاهرة ، التي أقضّت مضاجعه أثناء اقامته فيها ، وجدت فما بعد الكثير عنده ، ونجد أنه في نهاية القرن السابع(الثالث عشر) أصبح جماعة من المتصوفة في القاهرة من أشد المؤيدين لآرائه ٠ وحتى العلماءحفزهم ابن عربي على العمل ، لأنهم انصرفوا الى نقده ، وما كان ذلك بالأمر اليسير ، في تقييم آرائهبسبب تنوع ما مرّ به من التجارب الروحية والتأملات وعمقها ٠

٥ ـ ابن تيمية :

العلوم الشرعية هي التي كانت طلبة أهل العلم في العصر الذي نتحدث عنه ٠ ونحن نعتزم أن نمثل على هؤلاء بالحديث عن ابن تيمية ، لكننا نودأن نشير الى عالم كبير سبقه هو الموفّق ، الذي رافق أسرته بني قدامة في هجرتها من فلسطين(الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي) وكان صبياً ٠ وكان أبوه أول معلميه ، ثم أخذ العلم عن بعضعلماء دمشق ، ورحل بعد ذلك الى بغداد والموصل ومكة حيث لقي العلماء وأخذ عنهم ، وكان قد بلغالثلاثين من عمره لمّا استقر في دمشق نهائياً ، وانصرف الى التعليم والتأليف حتى وفاته سنة٦٢٠/١٢٢٣ ٠ وكان عدد كبير من الطلبة يحضر دروسه، بينهم جماعة بلغوا من العلم درجات عالية٠كان الموفّق حنبلياً واشتهر بالفقه ، وخلّف لنا « المغني » وهو كتاب في الفقه في عشرة مجلدات ٠وميزة الكتاب هو أن مؤلفه كان يقارن فيه بين نظرة الحنابلة وآراء غيرهم من أهل السنة ، ومنثم فالقارىء يجد فيه الفقه المقارن ٠ وقد قيل عن الموفّق انه كاد أن يبلغ مرتبة الاجتهاد ٠

وابن تيمية مثل حسن لتبيين أثر العالم المتين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع ، على ما يتضح من بضعة حوادث منتزعة من حياته ٠ لما رأى الخطرالمغولي المحدق بالبلد سنة ١٢٩٨/٦٩٧ ، تحدث

الى الناس عن شؤون الجهاد ، فكان حديثه أوقع في النفوس من أوامر السلطان . ولما احتل المغول دمشق بقيادة قازان ، كان ابن تيمية الذي حض أرجواش ، نائب القلعة ، على وجوب الامتناع عن تسليمها ، وقد ذهب ابن تيمية الى النبك ، بصحبة نفر من أعيان دمشق ، للقاء قازان والحصول على أمان لأهل المدينة . وبعد رحيل جيش قازان من دمشق طاف ابن تيمية وأتباعه على حوانيت الخمور يكسّرون آنية الخمر ويهرقون محتوياتها على الأرض ، ويعزرون أصحاب الحانات . وقد رافق ابن تيمية حملتين عسكريتين الى كسروان بلبنان في أوائل القرن الثامن (الرابع عشر) ، وقبل معركة شقحب (سنة ٧٠١/١٣٠٢) ذهب الى الجيش وتحدث الى الجند عن الوحدة والنصر واستوثق من أن الأمراء وغيرهم أقسموا على الاخلاص ، وأوضح لهم شرعية قتال المغول ، ولو أن هؤلاء كانوا مسلمين مثل أهل سورية .

قدمنا هذه الأمثلة لنوضح الدور الذي كان العلماء يقومون به في الحياة العامة . فاذا أضفنا الى ذلك نشاطاتهم الفكرية ، لا يتولانا العجب اذا نحن وجدنا أن حظهم في ارشاد القوم وتوجيه قضاياه المختلفة كان كبيراً .

وقد كانت دمشق في أيام المماليك تعج بالعلماء ، فقد هاجروا اليها من الجزيرة وبغداد وفلسطين ، وتقبلتهم دمشق مشجعة وأفاءت عليهم من خيراتها وأمنها ، ومنحتهم الفرصة لينموا اهتمامهم العلمي .

وتميز ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ / ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) بأنه ارتفع الى مستوى القضايا المطروحة يومها وعالجها بمعرفة وصراحة وواجهها مواجهة المنيَّة . وحياة ابن تيمية بالذات نموذج يحتذى في مجابهته للصعاب متى اقتنع بالحق في مسألة ما .

كان أحمد ابن تيمية قد بلغ السابعة من عمره لما رحلت أسرته من حرّان في الجزيرة الى دمشق ، خشية تكرر الهجمات المغولية . وقد أصبحت دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) مركزاً للفقه الحنبلي ، الأمر الذي تقوى بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨/٦٥٦ ، ولما كانت أسرة أحمد حنبلية ، فقد أتيح له من أول الأمر ، أن يأخذ العلم عن خير المدرسين الحنابلة في تلك الفترة ، فالمدارس الحنبلية كانت قد دربت فقهاء ومتكلمين ومفسرين ومحدثين يشار اليهم بالبنان ، وكان علماء الحنابلة يولون الخطب في المساجد والمدارس والزوايا عناية كبيرة ، وكان ابن تيمية ينمو مع هذه الأمور كلها كأنه جزء منها ، ولما كان في الثانية والعشرين من عمره خلف أباه ، وكان قد توفي في السنة السابقة ، في التدريس ، وكان هذا اعترافاً بمقدرته ، وذاعت شهرة دروسه لا بين السنّة فحسب ، ولكن بين الشيعة الذين حضروها .

وكان العصر الذي عاش فيه يسيطر عليه المذهب الأشعري ومسحة من التصوف مع استعداد تام لقبول النظرة التقليدية في الشؤون العامة ، وكان ابن تيمية خصماً لهذه جميعها ، وقد أثار عليها منذ أول الأمر ، حرباً عواناً ، وهذا هو الذي جعله يعتبر « مصلحاً » .

وقد قام بدور فعال في حياة مدينته وجماعته ، وأثارت « قسوته » في مهاجمة خصومه كثيراً من ردود الفعل العنيفة ، فاتهمه هؤلاء بالعناد وطلبوا أن تنزل به العقوبة ، ومن ثم فقد صرف الرجل

سنوات من حياته في سجون القاهرة ودمشق ، حتىان السنوات الأخيرة من حياته قضاها في قلعة دمشق وتوفي فيهـا ٠

لم يكـن ابن تيميـة عالمـاً يكتفي بالتعليموالتصنيف ، بل كان أيضـاً ، مثل عـدد كبير من الحنابلة عبر التاريخ ، متفاعلاً مع بيئته ، فقـدأخذ على عاتقه أن يتأكد من أن الناس ، كبيرهم قبل صغيرهم ، كانوا يحافظون على الآداب الاسلامية فيتصرفهم ٠ هذا كان من واجبات المحتسب ، لكـن ابن تيميـة كان (بتوظيفه نفسه بنفسه) محتسباًفعالاً نشيطاً ٠

وخلف ابن تيمية عدداً كبيراً جداً من المصنفات التي تعالج قضايا مختلفة ، وليس من الممكن أن نتحدث عـن كتبه جميعها في هـذه العجالة ، لكننانرى لزاماً علينا أن نضع بين أيدي القارىء بضعة من آرائه ومواقفه الأكثر أهمية ٠

فقد بحث في رسالته الواسطية ، وفي غيرها ، العقيدة الاسلامية التي كان يرى أنها تأذت مـن الأشعرية والتصوف والتقليد ، فقـد قبـل بعضالمسلمين القول بأن الله ذو صفات جثمانية ، بانين ذلك على تفاسير مجازية لبعض آيات جـاءت فيالقرآن ، وقد عاد ابن تيمية ، ودعا الناس الى أن يعودوا مثله ، الى القرآن الكريم والسنـّة النبويةلفهم العقيدة فهمـاً عميقاً دقيقاً صحيحاً أصيلاً ، تاركين غير ذلك من الوسائل والآراء التي تسربتالىالاسلام من الخارجكالتمثيل والتجسد والتشبيه، ولم يكن ليقبل بما جاء به المتصوفة من تطرف فيالرأي اذ قالوا بالحلول والاتحاد ، فمثل هذا القول كان ، في نظره ، شركاً لا يقبله الاسلام ، ومن ثمكان هجومه العنيف على ابن عربي ٠ ومع أن ابن تيميـة لم يهاجم التصوف جملة ، الا أن المتصوفةنقموا عليه موقفه منهم ورفعوا أمره الى السلطان في القاهرة ، ونجحوا في أن يزج به في السجن ٠

وكان ابن تيميـة حرباً على المقلدين ٠ ذلكأن المألوف في ذلك الوقت هـو أن الفقهـاء كانوا يتقيدون ، في بحثهـم أمور الشريعة ، بما جاء بـهأئمـة السنـّة الأربعة ، أي أنهم لم يكونوا يبدون رأياً خاصاً قط ٠ ذلك أن باب الاجتهاد قـد أقفلقبل نحو خمسة قرون ٠ ومع أن الحنابلة لم يقبلوا بهـذا تماماً ، الا أنهم راعوا هـذا التقليد في بعضنواحيـه ٠ وكان ابن تيميـة يرى أن الاجتهاد أمر أساسي للجماعة الاسلامية واستمراره لازم ٠ وقدأوضح موقفه هذا في عدد كبير مـن الفتاوى ، التي أظهر فيها أصالة في الرأي والأسلوب مقتصراً فيجدله على الاستشهاد بالقرآن والسنـّة ، والرجوع الى الاجماع على ما عرف في أيام الصحابة ٠

كان الفقهاء يعتمدون الاجماع والقياس والرأي أحياناً في تفسيرهم للأمور الشرعية ٠ وقد تحدى ابن تيمية هذه كلها وقال بأن اجماع العلماء يمكناعادة النظر فيه ، ومن ثم فان آراء أئمة المذاهب السنيـّة الأربعة يجب أن ينظر فيها من جديد متىسنحت فرصة لذلك ، على أن يعتمد على الكتاب والسنـّة ٠

ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف ، بل ان عبدالسلام وابن قيـّم الجوزية لم يريا قبول آراء الأئمة الأربعة قبولاً مطلقاً ٠ وقد حـده ابنعبدالسلام موقفه اذ لم يسمح للجمهور بالاجتهاد، بل قصره على أهل العلم ٠ وكان ابن قيـّم الجوزيةيقول بأن الفقه يجب أن يكون عملية نامية متطورة كي تسترشد به الدولة للوصول الى الوسائل التيتعينها على القيام بمصلحة الأمة(٩) ٠

٦ ـ التاريخ والموسوعات :

وكان التاريخ موضع اهتمام وعناية في هذه الفترة ، وقد صنفت فيه كتب قيمة • وقد كان الاخباريون الأوائل في الاسلام مغلقين على أنفسهم ببعض الشيء ، وكان الاسلام وتاريخه هو كل ما يهمهم ، وقلّما عنوا بمن سبقهم من الأقوام أوحتى بمعاصريهم من الأمم الأخرى باستثناء الطبري وابن قتيبة وابن الأثير • أما مؤرخو العصر المملوكي فقد كانوا منفتحين • كانت كتاباتهم عن الاسلام والبلاد الاسلامية الا أنهم كانوا قد ارتبطوا بجماعات أخرى في الشرق والغرب وكونوا معها علاقات وثيقة وتعاملوا معها بشكل واسع ؛ وقد جاء مؤرخو المماليك بعد أن كان عدد كبير من الجغرافيين والرحالين قد درسوا أجزاء العالم وكتبوا عنها • فلم يكن بامكان هؤلاء المؤرخين أن يتجاهلوا الأقوام الأخرى حتى ولو أرادوا ذلك • فضلاً عن أن بعضهم بذل جهوداً لتدوين تاريخ الحروب الصليبية ـ أكبر نزاع مسلح بين المسيحية والاسلام، ولسنا نعنى الآن بموقف المؤرخين ، ولكن المهم أنهم تناولوا الموضوع بالكتابة • كانت آفاقهم أوسع ، والذي نراه هو أن مؤرخي القرن الثامن (الرابع عشر) هم الذين أرشدونا الى كتابة التاريخ : لقد كان طليعتهم ابن خلدون ، وقد قامت دمشق ومؤرخوها بدور كبير في هذا الاتجاه •

وقد ازدهرت في الفترة التي نتحدث عنها أيضاً المؤلفات الموسوعية التي شملت فنون العلم والمعرفة على أنواعها : ففي الفقه وضع الموفّق « المغني » • وفي التاريخ ظهر أمثال ابن الفرات والذهبي ، وفي الموسوعة بالذات صنف ابن فضل الله العمري كتاب « مسالك الأبصار » ، وهذا الكتاب ، وسنعود اليه فيما بعد ، جاء في عشرين جزءاً فيه الجغرافية والتاريخ السياسية والأدب على نحو ما عرفها العصر • فضلاً عن أنه كان ، في زمنه ، دليلاً رسمياً للذين يعملون في وظائف الدولة •

ولعله من الأفضل لتوضيح نواحي الحياة الفكرية في ذلك الوقت أن نضع أمام القارىء تراجم مقتضبة جداً لبعض المؤرخين والموسوعيين الذين كانت حياتهم نموذجاً للعصر ، اذ ان ذلك من شأنه أن يدخلنا الى الجو الذي عاش فيه هؤلاء الناس •

من هؤلاء الذهبي المؤرخ (تو ١٣٤٩/٧٤٩) الذي صنف « تاريخ الاسلام » في سبعين قسماً خص كل قسم منه بعقد من السنين • وقد كان واسع المعرفة ضليعاً في علمه بالمصادر حيث أن كتابه يمكن اعتباره من نوع الموسوعات التاريخية • وقدخلفه في كتابة التاريخ ابن كثير صاحب « البداية والنهاية » الذي وضعه في أربعة عشر جزءاً • وقدلجأ الاثنان ـ الذهبي وابن كثير ـ الى تلخيص من سبقهما في كتابة تاريخ القرون الأولى ، لكنهما كانا يحسان ، وهما يدونان أخبار زمانهما ، أنهما يؤرخان لفترة فيها الكثير من الحركة والنشاط ، ومن ثم فقد انصرفا الى عملهما باهتمام ، فخلفا لنا ثروة تاريخية لا مثيل لها ، وخاصة ابن كثير الذي يرسم لنا صورة حية للأحداث والماجريات حيث نستطيع مرافقته يوماً فيوماً •

ويعتبر ابن فضل الله العمري (تو ١٣٤٨/٧٤٩) مؤلف « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » موسوعي دمشق في عصر المماليك ، فقد كان أبوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية ، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة ، وقد ولد العمري في دمشق حيث سمع العربية والفقه وتولى منصب

القضاء فيها • وأخيراً تأسى خطوات والده وجده فتوظف في ديوان الانشاء ، وهذا ما حفزه على وضع مؤلفه الضخم «المسالك» ، والكتاب فيه بحث عن جغرافية الأرض ، الا أنه عندما يتكلم عن الجغرافية السياسية فانه يقصر بحثه على بلاد الاسلام (وهو يأمل أن يتحدث عن بلاد الكفار في مناسبة تالية) • على أن الاكتفاء بهذا القول عن الكتاب فيه اجحاف ، ذلك بأن المؤلف يزودنا بالأخبار التاريخية المعاصرة وبالمعلومات المتعلقة بالادارة والعلاقة بين السلطان ونوابه وأمرائه • ويسهب في تبيين الأمور المتعلقة بالضرائب وموارد الدولة والمكافآت وحق الانتفاع بالأرض وما الى ذلك • ووصفه للمدن، وخاصة القريبة ، واف ودقيق • وأسلوبه يتفق مع روح العصر ، الا أنه لا يضحي بالدقة في سبيل زخرف القول • وفي الكتاب عدد كبير من المراسيم والأوامر السلطانية التي صدرت في أوقات مختلفة ، وان لم يكن هو الكتاب الوحيد الذي يوردها • ولا سبيل الى فهم الادارة المملوكية الا بكتاب المسالك هذا •

وابن طولون الصالحي ولد في أواخر عصر المماليك وتوفي سنة ١٥٤٦/٩٥٣ ، لذلك لم يتمتع برعايتهم مدة طويلة ، اذ جاء موته بعد زوال امبراطوريتهم بنحو ثلاثة عقود من السنين • ومع ذلك فهو من أهل العصر لأنه ولد قبل الاحتلال العثماني (١٥١٦/٩٢٢) باثنتين وأربعين سنة • ولم تكن مؤلفات ابن طولون شيئاً مبتكراً ، الا أنه عالم من علماء تلك الفترة • فقد قرأ القرآن وسمع الحديث والفقه ودرس التصوف (وهو أمر غير مألوف الا اذا كان المقصود الرد على المتصوفة) واللغة والتاريخ والرياضيات والفلك والهندسة والطب • والكتب التي وضعها ، ويبلغ عددها سبعمائة ، شملت هذه الموضوعات جميعاً • كان ابن طولون نموذجاً لعالم العصر : كان ذكياً فتعلم كل شيء قرأه ، وقرأ كل شيء وقعت عينه عليه ، وكان قادراً على هضم المعرفة ، ومرن على الكتابة بيسر • لكن الذي لاحظه دارسو ابن طولون هو أن الرجل لم يبد بالقضايا المعاصرة له رأياً خاصاً ، فهل ان الرجل لم يع المشكلات التي كانت البلاد تعانيها ؟ على أن ابن طولون لم يكن الوحيد بين علماء عصر المماليك الذي لم تشغله القضايا العامة ما دام يستطيع أن يحقق حلمه أي التعلم والتدريس في الموضوعات المألوفة وعلى الطريقة التقليدية(١٠) •

٧ ــ المؤلفون والكتب :

تمكنا في مناسبات مختلفة من جمع أسماء المؤلفين الذين عرفتهم بلاد الشام ، وخاصة دمشق ، في عصر المماليك ، فتبين لنا نتاج حري بالدرس المفصل • أما الأسماء فقد حصلنا عليها (ولن نذكرها ههنا مفصلة) من كتب الذيل في تاريخ الروضتين لأبي شامة وتاريخ أبي الفداء والبداية والنهاية لابن كثير والدرر الكامنة لابن حجر وفوات الوفيات للصفدي • وقد أسعفنا كتاب بروكلمان في تاريخ الأدب العربي كثيراً في الحصول على الأسماء وتيسير الرجوع الى المظان الأصلية • وهذه هي الخلاصة التي توصلنا اليها :

الفقهاء	٢٦	الأطباء والعلماء والفلكيون	١٤
المفسرون والمحدثون	٢٣	الموسوعيون	٤
المتصوفة	٥	مؤلفون متفرقون	٣
أهل النحو والأدب والشعراء	٣٢		
المؤرخون والجغرافيون	٢٨		١٣٥

فأهل الأصناف الثلاثة الأولى ، أي الذين ألّفوا في الموضوعات الدينية ، وعددهم ٥٤ عالماً ، يكوّنون ٤٠٪ من مجموع العلماء ·

وقد وضع هؤلاء المؤلفون ، بقدر ما تيسر لنا التفصيل والتصنيف من المصادر التي ذكرناها قبلاً ، ٩١٨ كتاباً (هي التي وصلتنا) وهي ، موزعة على الموضوعات ، تبدو على النحو التالي :

الفقــه	٢٧١	التاريخ والجغرافية	١٢٣
التفسير والعقيدة والحديث	١٦٤	الطب والعلوم والفلك	٥٢
التصـوف	١٥٨	الموسوعات	٤
اللغة والأدب والشعر	١٣٥	مؤلفات متفرقة	١١(١١)

والكتب الموضوعة في الشؤون الدينية هي ٥٩٣ وتؤلف ٦٥٪ من مجموع ما ألف · ولعله من الخير أن نضيف الملاحظ التالية :

١ ـ من المناسب أن نتذكر أن عدداً كبيراً من المحدثين والمفسرين والقراء والأئمة اكتفوا بالتدريس ولم يؤلفوا كتباً ·

٢ ـ نجد أن الكثير من الدواوين الشعرية يدخل في عداد الكتب الدينية ، اذا كان الموضوع ذكر الله ومدح الرسول (ﷺ) ومثالنا على ذلك :ديوان ابن نباتة (تو ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) الموسوم منتخب الهدية من المدائح النبوية ، والوداعي(تو ٧٢٦/١٣٢٦) في ديوان البدر الطالع ؛ وفي بديعية العميان للشاعر الضرير (تو ٧٨٠/١٣٧٨) ·

٣ ـ ثمة عدد من الكتب الدينية يتكون من عدد من المجلدات ، مثل فتاوى ابن تيمية وتفسير ابن كثير ·

٤ ـ وقد عرفت الفترة النزر من التآليف العلمي ، باستثناء كتب قليلة في الطب والفلك · وثمة كتابان في المنطق واثنا عشر كتاباً في الجغرافيةوكتاب واحد عن الاستراتيجية والتعبئة · وقد اتبع الطب بسبب رعاية نورالدين وصلاح الدين وخلفائهما · فضلاً عن أن الطب كان ذا فائدة عملية ولم يكن له نصيب من التدخل في أمورالسياسة · وعلى غرار ذلك كانت كتب الفلك وما اليه في الغالب تعنى بالناحية العلمية من هذه القضايا ، مثل التوقيت وعمل الأسطرلاب ·

ونحسب أن هذا يتفق مع روح العصر من جهة ، ومع التطور الذي سبق ذلك في مسافات الحياة الفكرية الاسلامية ·

فقد عرفت هذه الحياة ، في رأينا ، ثلاثة مساقات لا مساقين على نحو ما جرى عليه العرف · فهناك المساق الفقهي والمساق الفلسفي ومساق العلوم النفعية ، وهي تشمل الطب والهندسة والفلك من حيث أهميته التوقيتية · والأول كان سند الدولة وكانت الدولة سنده باستمرار · والثاني نما واتسع في فترة زمنية محدودة في القرنين الأولين أوالثلاثة الأول من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية· ولما وقع الخلاف بين المساق الأول(الفقهي) والمساق الثاني (الفلسفي) كان هذا الخاسر ، فانحسرت الفلسفة ، على الأقل منذ أيام الغزالي (تو ٥٠٥/١١١١) ، وظل للفقه سلطانه · أما العلوم النفعية فلم يقع بينها وأهلها وبين الفقه وأهله أي صدام حقيقي أو خلاف جذري ، فاستمرت تنتج طباً وصيدلة وهندسة في جميع العصور التي تلت ،ومنها الفترة التي نعنى نحن بها الآن ·

٨ ـ القضايا العامة :

والقضايا الشرعية والادارية والعسكرية والمدنية التي شغلت العلماء كانت كثيرة ، وكانت مجالاتها وأبعادها تختلف بين المنطقة والأخرى وبين العالم والعالم التالي ، ثم بين عقود وعقود من السنين .

وقد رأينا أن نتناول عدداً من هذه القضايا رغبة منا في الاشارة الى ما شغل الناس وملأ عليهم نفوسهم وضمائرهم في العصر المملوكي :

١ ـ كانت قضية الاجتهاد مما شغل علماء كثيرين ، ومن كبارهم بطبيعة الحال ، فنحن نجد أن ابن عبدالسلام في كتابه « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » وابن تيمية في فتاواه وابن قيم الجوزية في « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » تناولوا هذه القضية بالذات ، ويبدو أنهم لم يكونوا مرتاحين لأحكام الأئمة الأربعة . وقد استغرب ابن عبدالسلام كيف أن عالماً يرى ضعف حجة أمامه ثم يسمح لنفسه باتباعه (قواعد الأحكام ص١٥٣) . وابن تيمية أخرج أموراً كثيرة تعتبر اجتهاداً شخصياً ، منها قضية الطلاق ، وابن قيم الجوزية كان يقول بأن السياسة (أي الحكم) قد تتبع سبلاً تنتهي الى الخير العام ، وهي حرية بالاتباع ما دامت لا تتعارض مع الأصلين الاسلاميين ـ كتاب الله وأحاديث الرسول (ﷺ) .

٢ ـ كان من الطبيعي ، والعصر المملوكي كان زمن جهاد ضد الغزو الخارجي ، أن يكون لهذا الموضوع شأن كبير بين الفقهاء ، خاصة وأن خطر هجوم أوروبي جديد لم يكن بعيداً عن التصور ، بل يجب أن نذكر حملتين الواحدة على الاسكندرية والثانية على نيكوبوليس . وكانت بعض عناصر السكان تتهم بمساعدة الأوروبيين . وكانت الدولة تعتبر هؤلاء خونة ، ويجب أن يطالهم العقاب اما أفراداً أو جماعات . وقد هاجم المغول سورية وجوارها مرات عدة ، وكان القتال يتراوح بين النصر والخذلان بدرجات مختلفة . وقد وجد هناك من يعطف على المغول من أبناء البلاد . فهل يعتبر هؤلاء خونة ؟ وعلى أي أساس ؟

كانت هذه القضايا المتعلقة بحروب تلك الفترة موضوع بحث ونقاش . كان الأوروبيون مسيحيين لذلك كان في واقع الأمر يتوجب على الدولة أن تقوم بالجهاد ضدهم على يد السلطان . لكن المغول قد أسلموا . فهل كان القتال ضدهم عملاً مشروعاً ؟ لقد رأينا أن ابن تيمية قاد الحملة ضدهم بنفسه ، ولو لم يكن الرجل مقتنعاً بصواب رأيه لما قام بهذا العمل . وقد كان رأيه في الموضوع واضحاً كل الوضوح . كان المغول مسلمين ، ولكن تصرفهم الوحشي مع المسلمين في مدن العراق وشمال سورية وقراهما وضعهم في مصاف المجرمين العاديين : ومن ثم فقد حق عليهم القتال . وكان أكثر من نصرهم من الشيعة ، ولم يكن ابن تيمية معجباً بهم . ولذلك فقد رافق حملة أرسلت للهجوم على معاقلهم في جبال سورية ولبنان(١٢) .

٣ ـ تقديس الأراضي المقدسة (فلسطين) : كان اهتمام الناس بالأراضي المقدسة من الموضوعات التي احتلت مكاناً مرموقاً في المناقشات الدينية في عصر المماليك . ونكتفي هنا بالاشارة الى الكتب الثلاثة التالية التي وضعت في هذه الفترة لتظهر مدى استئثار هذه القضية بتفكير العلماء ،

وهي : « ترغيب أهل الاسلام بسكنى الشام »لعزالدين ابن عبدالسلام الملقب بسلطان العلماء ، و « مثير الغرام في زيارة القدس والشام » لشهاب‌الدين المقدسي ، و « مثير الغرام في زيارة الخليل عام » للتدمري الخليلي ٠

والفكرة التي يتناولها الكتاب الأول ، وهو مثل لكتب كثيرة في الموضوع ، هو أن الشام (أي ديار الشام) ــ ودمشق خاصة ــ بلد مقدس بالنسبة للمسلمين وذلك بسبب الأحاديث النبوية المتعددة المتعلقة بها ٠ وقد دفن عدد من الصحابة في سورية ، ومن ثم فان البلاد تشغل مكانة هامة في الاسلام ، واذن فانه يتعين على المسلمين الدفاع عنها ٠ والمثير الأول يضع النبرة على القدس ، بينما يهتم الثاني بالخليل ٠

ويبدو أن تقديس الأراضي المقدسة كان قد أصبح في القرن السابع (الثالث عشر) قوياً الى حد أن ابن تيمية وجد أنه من المصلحة أن يفند مثل هذه الفكرة ، التي كان يعتبرها أمراً فاضحاً ٠ لذلك فانه صنف كتاباً سماه : « قاعدة في زيارة بيت المقدس » ٠ وحججه وتفنيده تتلخص فيما يلي: ١ ــ أن المسجد الأقصى يعتبر ثالث مسجد في الاسلام من حيث أهميته ، أما مسجد الخليل فلا يعتبر مساوياً له ٠ ٢ ــ والمسجد الأقصى هو مكان لعبادة الله ، مثل اي مسجد آخر ، لكن زيارته لا تغني المرء عن الحج الى مكة ٠ ٣ ــ ليس ثمة حرم مرتبط بأي من مسجدي القدس أو الخليل ، مع أن لمسجد مكة حرماً خاصاً به مثل المدينة ٠ ٤ ــ زيارة المسجد الأقصى أمر عادي ويمكن أن تتم في أي وقت ولكن لا يمكن قط اعتبارها حجاً ٠ ٥ ــ لايمكن اعتبار زيارة لعسقلان وعكا وطرطوس زيارة دينية لأن هذه الأماكن هدمت مساجدها ٠ وقد جرب ابن تيمية ، بالاضافة الى أمور أخرى ، أن يبين أن كثيراً من الأحاديث التي يقبلها الناس على أنها صحيحة ليست هي كذلك ، وانما هي من وضع القصاص(١٣) ٠

٤ ــ **علاقة الانسان بالله :** كانت علاقة الانسان بالله من المسائل التي كثر القول فيها في ذلك العصر ٠ وكان ثمة اتجاهان : **الأول هو التفسير الصوفي** ، وهو الذي يجذب اليه العدد الكبير من الأتباع ، والذي لفت نظر العلماء لما أخذ المتصوفة تنظيم أنفسهم طرقاً جديدة ٠ وكان الاتجاه الآخر هو الاتجاه السني ، الذي كان يحتضنه الأشاعرة والمدارس الحنبلية الحديثة العهد ، والتي كانت تتطور بسرعة بين القرن السادس (الثاني عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر) ٠

كان التفسير الصوفي يقول بالحلول والاتحاد، وهما فكرتان نشأتا مع الوقت وتطورتا بتأثير عدد من المفكرين ٠ وقد أضيف اليهما ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، وحدة الوجود ٠ وقد تشدد المتصوفة في اعتبار المعرفة طريقاً لادراك الله ٠ وكان الكثيرون منهم ، ان لم يكن كلهم ، مستعدين لقبول أساليب غريبة للعبادة ، أو التخلي عن بعض ما هو مفروض من العبادات : فقبلت الطرق الصوفية الذكر والسماع طريقاً للمعرفة ٠ وقد كان الصوفي الأول في هذه الفترة ابن عربي ، لذلك لما أخذ ابن تيمية نفسه بمقارعة التصوف اتخذ ابن عربي هدفاً لحملاته ٠

أما الاتجاه السني فقد حافظ على مستوى رفيع في الأخلاق والتفكير ، ورفض قبول أي تجديد أو ترتيب قد ينتقص من صفاء العقيدة الأولى ٠ وقد كان علماء السنة ، سواء في تفنيدهم للصوفية

أو في اعادة النظر في بعض الأمور المتعلقة بالاسلام ، نشيطين جداً • ولعل ابن تيمية ، على ما ذكرنا ، كان أكبر قادة الفكر السني (الحنبلي) في ذلك العصر •

كان ابن تيمية ومعاصروه يرون أن الاسلامهو الدين الحق ، ومن ثم فانه كان يتعين على المسلم أن يؤمن بالله وبرسوله • والمسلم يرجع الى القرآنوالسنّة لتفهم العقيدة لأن جميع الأمور المتعلقة بالايمان والعمل موضحة فيهما بما لا يترك زيادةلمستزيد • والايمان الذي يضمن لمسلم النجاة هو الاعتقاد بالله وبرسوله • واصرار ابن تيمية علىأن الايمان وحدة لا تتجزأ أمر يلفت النظر ، اذ ان هذه النظرة قبلت العبادة على ما جاءت عليه فيمصدري الاسلام الأساسيين فقط • يضاف الى ذلك أن الانسان يجب أن يسلم أمره الى الله ، وأنتسليمه يجب أن يكون تاماً ، شانه في ذلك شان ايمانه •

كان الله يوحي الى الانسان بواسطة الرسل، ومحمد هو خاتم الرسل • واذن فعلى الانسان ، عندما يطلب العون من الله ، أن يسأل النبي شفاعته،لكن ابن تيمية عارض التردد على المزارات وزيارة قبور الأولياء على أساس أن مثل هذه الأماكن وأولئك الرجال لهم قوى خارقة ، أو انهم يمنحون بركات خاصة أو انهم يستطيعون أن يتوسطوا بينالانسان وخالقه ، وحمل على مثل هذه الزيارة حملات شعواء، وبذل الكثير من الجهد ليظهر للناسأن الله لم يهب مثل هذه القبور مكانة مميزة أو قوة خاصة(١٤) •

٥ ـ **الفرد والأمة :** كانت الأمة الاسلاميةهي الأمة في نظر ابن تيمية ، وكان التعاون بين أفراد الأمة هو أساس العمل المشترك فكان يترتبعلى المسلم أن يعين الآخرين على فعل الخير وتجنب الشر واحقاق الحق • وكان ابن تيمية يعتبر الأمةشيئاً عضوياً وان لها أهدافاً وغايات معروفة • وغرض الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،ومعنى هذا أن الأمة كانت تحقق ارادة الله •

وكان على الأمة ، رغبة منها في تحقيق غاياتها ، أن يكون لها تنظيم دولة هو الامامة التي يتوجب عليها ، وعلى من فيها من موظفين وهيئات، أن تذعن لمبادىء الاسلام • ويترتب عليها أن يكون هدفها أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ويجب أن تكون دولة عادلة لأن الله لن يؤازر دولة ظالمة ، ولو أن هذه قد تكون دولة مكونة من مؤمنين•والدولة التي كان ابن تيمية يفكر فيها هي دولة دينية ، لكنه كان يريدها ، على ما يرى هنريلاوست ، دولة واجبها أن تتعاون مع الأمة وتخدمها، لا أن تكتفي بأن تقبل خضوعها فحسب • على أنالخضوع كان لازماً لتحقيق الهدف الذي وجدت الأمة من أجله • وعلى الدولة واجب أدبي في الحياةالاجتماعية والاقتصادية للأمة ، اذ يتوجب عليها أن تحق الحق ، وتنشر الأمن وتتأكد من أن الناس قاموابفروضهم الدينية • وعليها ، بالاعتماد على المحتسب ، أن تستوثق من صحة المعاملات وأن تحميالناس من الغش والتدليس(١٥) •

أما من الناحية الاقتصادية فقد كان على الدولة أن تحمي الأمة ضد الاحتكارات وتدليس التجار• ومراقبة الأسعار كانت جائزة عندما يكون المقصودمنها مساعدة الناس في الحصول على حقهم ـ في أيام القحط والعوز • وقد قبل ابن تيمية أن تتدخلالدولة في الشؤون الاقتصادية للمجتمع لضمانة حاجاته فقط • واذن فقد كان جائزاً أن يكلفالبعض القيام بأعمال تجارية أو زراعية أو في حالة الحرب على أن يكون ذلك لقاء تعويض ، وعلى أنلا يتأذى أحد بسببها •

ولم يكن ابن تيمية يحبذ الاقتصاد الفردي ، لأن الفرد لم يكن السيد المطلق في تصرفه • فهو من الجهة الواحدة خاضع لتعاليم الاسلام ومن الجهة الثانية جزء من الأمة ، مرتبط بها •

٩ ـ الخاتمة :

لقد ترك علماء عصر المماليك أثراً لا في معاصريهم فحسب بل تعداهم الى الأجيال التي تلت • وفي هذا المجال يبدو اسم ابن تيمية في طليعة المصلحين في ذلك العصر ، وذلك بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاء أسلوبه (بالنسبة الى الفقهاء وأهل الشرع) وصراحته • وقد كان أتباع ابن تيمية كثيرين ، ومن أبرزهم ابن قيم الجوزية (توفي سنة ٧٥١/١٣٥٠) • وممن تأثر بآراء ابن تيمية من غير الحنابلة نذكر الذهبي وابن كثير وابن حجر، وهم ثلاثة من كبار المؤرخين العلماء • وقد كان تأثير ابن تيمية في مصر كبيراً حتى في حياته •

ومن الجدير بالذكر أنه لما سمع بعض علماء بغداد ، العاصمة التي دمرها هولاكو قبل ذلك بسبعين سنة ، بأن ابن تيمية معرّض للسجن في قلعة دمشق كتبوا الى السلطان الناصر يرجونه في قضية شيخ الاسلام • وقد جاء في رسالتهم انه لما بلغ المشارقة وأهل الولايات العراقية الشرقية بأن شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية مسجون ،حزّ ذلك في نفوسهم• ولما أدرك علماء تلك النواحي مدى المأساة كتبوا الى السلطان مؤيدين الشيخ في فتاواه ، مشيدين بعلمه وفضله ، مدافعين عن دينه وحرصه على نصح الأمراء المسلمين بما يتوجب عليهم نحو الاسلام •

ولما فتح العثمانيون سورية ، ضعف شأن الحنابلة ومدارسهم ، لأن الأتراك كانوا حنفيين • وقد ظل ابن تيمية مدة طويلة منسياً في بلده ، ولعل المتصوفة ، الذين مال العثمانيون اليهم (فقد بنى سليم ، فاتح سورية ، زاوية حول ضريح ابن عربي في دمشق) أسهموا في ذلك • الا أن بلاداً أخرى أخذت نفسها بالتعرف الى ابن تيمية ودرس آرائه وأتباعه • ففي أواسط القرن الثامن عشر قام محمد بن عبدالوهاب بدعوته في نجد ، وكانت أصلاً تسير على خطوات ابن تيمية • وبعد ذلك بقرن تقريباً قام السيد محمد بن علي السنوسي بحركته الاصلاحية في ليبيا ـ وأثر تعاليم ابن تيمية واضح في الدعوة السنوسية • وفي مطلع القرن الحالي أعلن السيد رشيد رضا ، صاحب المنار ، وأحد كبار السلفيين ، أنه من أتباع ابن تيمية •

وهكذا فقد وضع ابن تيمية الاطار الأول للاصلاح الاسلامي والاحياء الديني ، الأمر الذي قبله دعاة الاصلاح وجماعة الاحياء منذ ذلك اليوم •

☐ الحواشي :

١ ـ نشطت الدراسات المتعلقة بالفترة المملوكية بحيث أنه يصعب احتواء المادة هنا • ولعل أنسب ما يمكن أن يفعل هو أن ينظر الباحث المهتم فعلاً بتفاصيل عن هذه الفترة في الموسوعة الاسلامية (EI²) الطبعة الجديدة ويتابع حكام المماليك فرداً فرداً • على أنه من المناسب أيضاً أن يتعرف الى ما كتبه الرحالون المسلمون والأفرنج على السواء • وقد جمعت أنا في كتابي :

Damascus under the Mamluks, Oklahoma, 1963.

خلاصة وافية لما دونه الرحالون الأجانب عن دمشق خاصــة ، فليرجع اليــه · ومن هؤلاء الذين تحدثنا عنهم هناك :

(a) Benjamin of Tudela, '**Travels** ... **ed.** Wright (London 1848).

(b) Frescobaldi, Leonardo and others '**Visit of the Holy flaces of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A.D. 1384** Jerusalem 1948).
Niccolo of Poggobonsi, **A Voyage Beyond the Seas**, Jerusalem 1945.
Ziadeh, Nicola **Urban Life in Syria** under the Early **Mamluks** (Beirut, 1953).

2 — Afifi, A. E. **The Mystical Philosophy** of **Mahyid Din Ibnul 'Arabi,** (Cambridge 1939).

Arberry, Arthur J. **Sufism,** (London, 1950).

ابن تيمية ، تقي الدين : **بغية المرتد** (القاهرة ١٣٢٣ هـ) ·

ابن تيمية ، تقي الدين : **مجموعــة الرسائل الكبرى** (القاهرة ١٣٢٣) ·

ابن عربي ، محيي الدين : **ترجمان الأشواق** (بيروت ، صادر ١٩٦٣) ·

أبو الفدا ، اسماعيل بن علي : **المختصر في أخبار البشر** (استانبول ١٢٦٨ هـ) ·

٣ ــ أنظر : ليونز وجاكسون **صلاح الدين** ، ترجمة: علي ماضي ، مراجعة : **نقولا زيادة وفهمي سعد** (بيروت ١٩٨٨) ·

4-7— Makdisi, George **The Rise of Colleges**, (Edinburgh, 1981).
Nashabe, Hisham **Muslim Educational Institutions**, (Beirut, 1989).

زيادة نقولا : **الحسبة والمحتسب في الاسلام** (بيروت ١٩٦٣) ·

8 — Afifi, ibid.

9 — Laoust, Henri : **Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya** (Cairo, 1939).

ابن تيمية ، تقي الدين : **فتــاوى** (القاهرة ١٣٢٥ ــ ١٣٢٩ هـ) ·

ابن تيمية ، تقي الدين : **كتاب السياسة الشرعية** (القاهرة ١٣١٦ هـ) ·

١٠ــ زيادة ، نقــولا : **الجغرافية والرحلات عند العرب** (ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠) ·

زيادة ، نقــولا : **رواد الشــرق العربي في العصور الوسطى** (ط ٢ ، بيروت ١٩٨٦) ·

11— Ziadeh, Nicola, **Urban** pp. 151-189.

زيادة ، نقــولا : **دمشــق** ص ١٨٥ــ١٩٠ ·

12— Ziadeh, Urban, pp. 179ff.

١٣ــ ابن تيمية : **القاعدة في زيارة بيت المقدس** (JAOSL 1936).

14— Ziadeh, Urban, pp. 179ff.

15— Ziadeh, Urban, 180ff, Laoust, doctrines, 316ff.

المصادر والمراجع :

- ابن بطوطة ، محمد بن عبدالله : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - باريس ، المطبعة الأهلية ، ١٨٧٤-١٨٧٩ (٤ أجزاء) .
- ابن تغري بردي ، يوسف : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة - القاهرة ، ١٩٦٣ (١٢ جزءاً) .
- ابن تيمية ، تقي‌الدين : بغية المرتد - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .
- ابن تيمية ، تقي الدين : رسائل ومسائل - القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .
- ابن تيمية ، تقي‌الدين : فتاوى - القاهرة ، ١٣٢٥ - ١٣٢٩ هـ (٥ أجزاء) .
- ابن تيمية ، تقي‌الدين : كتاب السياسة الشرعية - القاهرة ، ١٣١٦ هـ .
- ابن تيمية ، تقي‌الدين : مجموعة الرسائل الكبرى - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .
- ابن جبير : رحلة ابن جبير : حسين - بيروت ، صادر ، ١٩٦١ .
- ابن طولون ، محمد بن علي : تاريخ الصالحية - دمشق ، ١٩٤٩ (جزءان) .
- ابن عربي ، محيي‌الدين : ترجمان الأشواق - بيروت ، صادر ، ١٩٦٣ .
- ابن الفرات ، محمد : تاريخ ابن الفرات - بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ، جزء ٨ و ٩ .
- ابن فضل‌الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - القاهرة ، ١٩٢٣ ، جزء ١ .
- ابن قدامة ، موفق‌الدين : المغني - القاهرة ، ١٣٤٦ - ١٣٤٨ هـ (١٢ جزءاً) .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية - القاهرة ، ١٣٥٨ هـ (جزء ١٤) .
- أبو شامة ، عبدالرحمن : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل كتاب الروضتين) - القاهرة ، ١٩٤٧ .
- أبو الفدا ، اسماعيل بن علي : تقويم البلدان ، (تحقيق‌رينو دي سلان) - باريس ، ١٨٤٠ .
- أبو الفدا ، اسماعيل بن علي : المختصر في أخبار البشر - استانبول ، ١٢٦٨ هـ .
- البدري ، عبدالله : نزهة الأعلام في محاسن الشام - القاهرة ، ١٣٤١ هـ .
- زاترستن ، ك.ف. (محقق) : تايخ سلاطين المماليك - ليدن ، ١٩١٩ .
- الشيزري ، عبدالرحمن : نهاية الرتبة في طلب الحسبة - القاهرة ، ١٩٤٦ .
- الظاهر ، خليل : زبدة كشف الممالك ، (تحقيق رافيسو) - باريس ، ١٨٩١ .
- القلقشندي ، شهاب‌الدين : صبح الأعشى - القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٤ (جزء ١٤) .
- الحسني ، عبدالقادر : تاريخ سورية الاقتصادي - دمشق ١٣٤٢ هـ .
- القفطي : تاريخ الحكماء - ليبزغ ، ١٣٢٠ هـ .
- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء - بيروت ، ١٩٦٥ .
- ابن عبدالسلام : ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام - القدس ١٩٤٠ .
- م. ك. ليونز - و د. ا. ب. جاكسون : صلاح‌الدين (مترجم) - بيروت ، ١٩٨٨ .
- زيادة ، نقولا : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ، ط ٢ - بيروت ، ١٩٨٦ .
- زيادة نقولا : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ط ٢ - بيروت ، ١٩٨٠ .

Afifi, A. E., «The Mystical Philosophy of Muhyid Din Ibn ul 'Arabi», Cambridge, 1939.

Arberry, Arthur J., «Sufism», London, 1950.

Benjamin of Tudela, «The Travels of Rabbi Benjamin, In Early Travels in Palestine», (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Brocquiere, Bertrandon de la, «The Travels of Bertrandon de la Brocquiere», (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Ecochard, M. and Claude Le Cœur, «Les Baines des Damas», Beirut, 1940.

Frescabaldi, Leonardo and others, «Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A.D. 1384», Jerusalem, 1948.

Gaudfroy-Demombyne, M., «La Syrie a l'epoque de Mamlouks d'apres les Auteurs Arabes», Paris, 1923.

Gibb, Sir Hamilton, «Arabic Literature », Oxford, 1963 (2nd ed.).

Laoust, Henri, «Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya », Cairo, 1939.

Niccolo of Poggobonsi, «A Voyage Beyond the Seas», Jerusalem, 1945.

Sauvaget, Jean, «Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas», «Revue Etudes Islamiques», 1934.

Smith, Margaret, «Readings from the Mystics of Islam», London, 1950.

Terresse, Rene, «L'Irrigation dans la Ghouta de Damas», «Revue Etudes Islamiques», 1929.

Ziadeh, Nicola A., « Urban Life in Syria under the Early Mamluks», Beirut, 1953.

Nashabe, Hisham, Muslim Educational Institutions (Beirut, 1989).

Barlet, Robert, The Making of Europe Allen Laue The Penguin Press, 1993.

Makdisi, George, The Rise of Colleges, (Edinburgh, 1981).

Housley, Norman, The Later Crusades (OUP 1992).

★ ★ ★

دمشق .. من الفتح وحتى العصر العبّاسي

دراسة في العُمران

د. نبيه عاقل

أود الاستفتاح بالقول بان هذه الصفحات محاولة للدراسة عمران دمشق ، وليس تاريخها السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، ذلك أن هذه الأمور شرحها يطول وتقصر عنه همة الفرد ، ثم أن يختصر تاريخ مدينة تغوص أقدامها عميقاً في تربة التاريخ وترتفع أجنحتها عالياً حتى تطاول السماء في ساعة أو ساعات ، هو لعمري من الأمور التي لا بد أن تغمطهذه المدينة حقها ، وتقدم عنها صورة ليس فيها الا الاطار وشيئاً قليلاً من ملامح • والاتحاد الموقر حين قرر أن يستوعب أخبار دمشق في مسيرتها منذ أن دبّ انسان علىأرضها وحتى يوم الناس هذا أو قبيله ، في ساعات معدودة ، قصد دونما شك أن يترك الباحث العرض الى الجوهر ، وأن ينتقي من هذا السفر الضخم صفحات قليلة رآها علامات بارزة وهامة على هذا الدرب الطويل من العطاء في كل مجال ومآل •

ولئن كان نصيبي من هذه المهمة يبدأ مع دمشق بعد أن قامت للعرب دولة على أرض الجزيرة ورأت هذه الدولة أنالأهل في الشام أحق الناس بالتحرير من ربقة سيطرة غربية على أرض هي استمرار لأرضهم ويقيم فيها أهل لهم تربطهم بهم وشائج القربى ويعيث فيها غريبفساداً وسلباً • والحديث عن فتح العرب لبلاد الشامة بعامة ودمشق بخاصة قد يكون معاداً ومكروراً ، ولا مجال لتفصيله في هذه العجالة ، ولكن لا بد من وقفة هناأو هناك عند بعض قضايا نجمت عنه أو أمور تعلقت به •

ولعل أول ما يجب أن يذكر في هذا المجال أن بلاد الشام قبل الفتح كانت في حال من الضعف والتفكك الشديدين بسبب ضعف الامبراطورية البيزنطية التي كانت تتولى مقاليد السلطة في هذه البلاد نتيجة حروبها مع فارس من جهة وبسبب أزماتها الداخلية من جهة أخرى. وكان الغساسنة الذين دخلوا في حلف مع بيزنطة فولاهم البيزنطيون مقاليد الأمور، ولا سيما في الجنوب يعيشون مرحلة من الصراع الداخلي بين أمرائهم من جهة، وبينهم وبين الدولة البيزنطية من جهة أخرى، الأمر الذي خلّف الخراب والدمار، وافقدان السلطة المحلية التي تمسك بزمام القبائل النازلة في الجنوب وتمنع ثوراتها ضد بيزنطة، ورفضها دفع الضرائب أو الانضمام للجيش الامبراطوري. أما الحروب مع فارس فقد كانت مستمرة منذ القرن الخامس للميلاد، الأمر الذي خرب الاقتصاد وفرّق الشمل وألحق الدمار بالبلاد والعباد. وكان من بين أهم أحداث هذه الحروب احتلال الكسرى الفارسي خسرو الثاني لدمشق في العام ٦١٢ م. وإذا أضفنا الى ذلك كله أن معظم سكان دمشق كانوا يدينون بالمذهب اليعقوبي الذي يقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح بخلاف بيزنطة الملكية، لوجدنا ما يفسر حسن استقبال الدمشقيين للفرس وبالتالي حسن معاملة الفرس لهم، بعكس ما سيحدث بعد سنتين أي في العام ٦١٤ م حين وصلت جيوش فارس الى القدس وأعملت فيها يد التخريب والنهب. وحين توفي الكسري الفارسي في العام ٦٢٧ م، انسحبت الجيوش الفارسية من دمشق، وعاد هيراكليوس الى سورية.

كان هذا يجري في الشام ودمشق في الوقت الذي كان فيه نور الاسلام ينتشر فوق ربى جزيرة العرب. وحقق الاسلام بقيادة محمد بن عبد الله نصراً مؤزراً على الكافرين والمنافقين وامتد بصر محمد ﷺ الى ما وراء الحدود بعد أن بايعته الجزيرة في عام الوفود، فكانت مؤتة ثم كانت خلافة أبي بكر وحروب الردة وبعث أسامة بن زيد. وبعد أن استقرت الأمور في الداخل، توجه المثنى وخالد الى العراق، ومن ثم ارتد خالد الى الشام، وكانت بداية الفتح في العام ١٣ للهجرة. وليس يهمنا كما أسلفنا، أن نعيد ما هو معروف، وسنكتفي بالاشارة الى أن مسيرة المسلمين الى دمشق واجهت مقاومة بيزنطية شديدة عند مرج الصفر شمال الصنمين وذلك في المحرم من العام ١٤ هـ، ولكنهم لم يلبثوا أن ولوا الأدبار باتجاه

دمشق ، فلاحقتهم الجيوش الاسلامية حتى أبواب دمشق حيث أقام خالد قيادتـه في الشمال الشرقي من المدينة • وقصد خالد من حصاره للمدينة من جهة الشمال قطع الطريق على أي نجدة بيزنطية قد تتسرب من هذه الجهة • و ويبدو أن الود كان مفقوداً بين دمشق والسلطة البيزنطية ، الأمر الذي حـدا ببعض وجهائهـا وعلى رأسهم بطريركها والمسؤول المالي فيهـا وهو منصور بن سرجون ، والـد يوحنا الدمشقي وسواهما ، للدخول في مفاوضات مـع الجيش العربي لتسليم المدينـة وتجنب السكان المعاناة المتوقعة إذا ما أحكم عليهـا الحصار • وفي رجب من عام ١٤ للهجرة فتح الباب الشـرقي للجيش العربي المسلم وانسحب الجيش البيزنطي من المدينة باتجاه الشمال • ولست هنـافي مجال الحديث عن الروايـات العديدة التي تتحدث عن فتح العـرب لدمشق أومناقشتها وتفضيل بعضهـا على بعضهـا الآخر ، ولكن الرواية الأكثر شيوعاً وقبولاً عنـد العديديـن هي الروايـة التي يعتمدها ابن عساكر والتي تقول أن فتح دمشق تم على يد خالد بن الوليد من جهة باب شرقي عنوة ، وعلى يد أبي عبيدة بن الجراح الذي دخل المدينة سلماً مـن جهة باب الجابية بعد أن أعطى الناس الأمان ، والتقى القائدان الفاتحان وسط كنيسة المدينة • أمـا البلاذري صاحب فتوح البلدان ، فيقول أن المدينة استسلمت لخالد عند باب شرقي دونما قتال ، وإن أبا عبيدة دخلهـا عنوة مـن جهة بـاب الجابية ، وأن القائدين التقيا عند البريص ، في وسط الشارع المستقيم قـرب كنيسة المقسلاط • وهناك نقاش طويـل بين بعض الباحثين : عرباً وأجانب ، حول موضوع فتح دمشق ولا سيما قضية اقتسامها ، لما لهذا الأمر من صلة بموضوع بناء المسجد فيما بعد ، مما لا نرى ضـرورة للدخول في تفصيلاته • والمهم في الأمر أن المسلمين ضمنوا للمسيحيين حقهـم بالاحتفاظ بأرضهم ومساكنهـم وكنائسهـم وسوى ذلك من ممتلكات على أن يدفعوا الجزية وسواها من الضرائب المقررة •

وفي ربيع عـام ١٥ هـ / ٦٣٦ م قامت قوة يرأسهـا ثيوذوروس ، شقيـق الامبراطور هيراكليوس ، بالتوجه نحـو دمشق لاستردادها من العرب المسلمين ، فقام خالد بن الوليد بسحب جيوشه الى موقع الجابية ومن ثم الى اليرموك شرق بحيرة طبريا • وفي اليرموك جرت المعركة التي حسمت مصير دمشق ، إذ استطـاع خالد أن يهزم تجمع الجيوش الرومية وذلك يوم ١٢ رجب سنة ١٥ للهجرة الموافق

ل ٢٠ آب سنة ٦٣٦ للميلاد ، وما لبث خالد بعد ذلك أن استدعي للمدينة وآلت مقاليد أمور دمشق الى القائد الكبير أبي عبيدة بن الجراح • وخضعت المدينة مرة ثانية وأخيرة للحكم العربي الاسلامي وذلك في شهر ذي القعدة من عام ١٥ للهجرة الموافق لشهر كانون الأول من عام ٦٣٦ للميلاد •

كان دخول دمشق في ظل الحكم العربي حادثاً متميزاً ، اذ انه يضع حداً للتسلط الغربي عليها الذي دام لما يقارب الألف عام ، فعادت هذه المدينة الى اطارها المشرقي واستأنفت دوراتها في هذا الفلك مع بقية أشقائها الذين كانوا مثلها ، يتحدثون لغة سامية ويولون وجوههم شطر المشرق وحضارته وثقافته وديانته التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، في مقابل الأرثوذكسية البيزنطية ولغتها اليونانية • لذا استقبلت الفاتحين العرب ، أبناء العمومة بترحاب كبير لما بينهم من روابط اللغة والارث الحضاري المشترك والفهم المتقارب للدين •

وقد ظن البعض أن القلة الفاتحة التي دخلت دمشق ستذوب في الغالبية المقيمة المفتوحة وأن العرب سيغدون رافداً صغيراً من روافد الخليط الحضاري لهذه المدينة • ولكن الأمر لم يكن كذلك، إذ أن سكان دمشق زمن الفتح لم يتكلموا اللغة اليونانية لغة بيزنطة ، بل تكلموا الآرامية، وهي كالعربية فرع من الشجرة اللغوية السامية ، كما أنهم لم يقبلوا مذهب القسطنطينية في طبيعة السيد المسيح. وقد أدى ذلك كله الى شعور الدمشقيين بالقرب من أولاد العمومة القادمين من شبه الجزيرة ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى أخذت اللغة العربية تطغى على اللغة المحلية ، وحتى بدأ الطابع العربي يسود الحياة في مختلف مسالكها • وعين الخليفة عمر بن الخطاب أحد قادة الفتح ، وهو يزيد بن أبي سفيان ، والياً على دمشق، وأخذ الأشراف العرب يتوافدون على هذا المصر الجديد ، وأقاموا في البيوت التي هجرها أصحابها المحليون ابان عمليات الفتح • وقد أعجب الفاتحون بهذا البلد حتى أسموه « شامة الدنيا » • ولكن عدم توفر الأرض التي تصلح كمراعي لمواشيهم جعلتهم يسكنون الجابية • وبسرعة فائقة أخذت دمشق ترتدي طابعاً مقدساً وأخذ اسمها وبعض المواقع فيها ترتبط بالأنبياء والرسل وغدا الحج اليها ظاهرة شائعة ، وبخاصة الى جبل قاسيون ومغارة آدم ومغارة الدم حيث قُتل هابيل بيد أخيه قابيل ، والى برزة حيث يوجد مكان مولد سيدنا ابراهيم ، والى القدم حيث يقع قبر موسى بن عمران ••

وأما سيدنا عيسى بن مريم فقد أوجدوا له أيضاً صلة بدمشق إذ فسروا قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آيةوآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » (سورة المؤمنون ، الآية ٥٠) ، بقولهم أن الربوة الواردة في الآية الكريمة هي ربوة دمشق • ويكملون هذه الرواية بدعواهم أن سيدنا عيسى سينزل في آخر الزمن فوق المئذنة البيضاء التي هي مئذنة باب شرقي ، عند البعض ، أو المئذنة الشرقية المعروفة بمئذنة عيسى ، عندالبعض الآخر ، ليحارب المسيح الدجال ، ولست أجد خيراً من ابن عساكر لأنقل عنه هذا الخبر يقول ابن عساكر في : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية ـ القسم الأول ، المختص بخطط دمشق ـ والذي حققه صلاح الدين المنجد ما نصه :« •••• عن ابن عباس قال : من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل :« •••• وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ••• » فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليصعد الى الغار في جبل قاسيون فليصل فيه فانه بيت عيسى وأمه • وهو كان معقلهم من اليهود ،ومن أراد أن ينظر الى ارم فليأت نهراً في حضن دمشق يقال له بردا ، ومن أراد أن ينظر الى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت مقبرة الفراديس ، وهي مقبرة دمشق ، فيها قبور جماعة من الصحابة والأخيار » • (ص ١٩٠) •

وإذا كانت فترة خلافة الراشدين قدشغلت بأحداث كالردة وبدايات الفتح ومقتل عثمان وعلي والصراع على السلطة وسوى ذلك من أمور لم تتح للتطور العمراني والحضاري بأن يأخذ مداه ، فان انتقال السلطة الى بني أمية ونقلهم العاصمة الى دمشق كانت بداية العصر الذهبي لهذه المدينة الذي شهد تحولات كبيرة ورائعة في جميع مجالات الحياة من عمران وسياسة واقتصاد واجتماع • وقد بدا كل ذلك أثر وفاة يزيد بن أبي سفيان وتولية أخيه معاوية مقاليد ولاية دمشق، ومن ثم حين آلت اليه الخلافة بعد صفين والتحكيم والاغتيال الغادر لرابع الخلفاء الراشدين : علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه •

مع معاوية يبدأ نجم دمشق بالصعود اذ انه سكنها منذ ان كان والياً وأولاها اهتماما غدت معه حاضرة الخلافة وقبلة الأنظار لمدة تزيد على القرن من الزمن • ومع ان العرب لم يشكلوا غالبية سكانها أول الأمر ، فان عملية تعرب السكان الأصليين بدأت منذ الأيام الأولى للفتح رغم سيطرة عدد منهم على بعض المراكز الادارية الهامة في الدولة • ولم تأت خلافة عبدالملك بن مروان حتى غدا التعريب حقيقة واضحة لدرجة انه أمر بتعريب دواوين الدولة في دمشق وسواها من حواضر

الدولة ، الأمر الذي يوضح مدى تمكن العربيةورسوخها كلغة تعامل ولغة ادارة . وقد اتصفت الأيام الأولى لدولة بني أمية بجدية الحكام وحرصهم الشديد على تثبيت دعائم الدولة وعملهم الدائب على الارتقاء بها لتكون في مصاف خصومها،لا بل لتتفوق عليهم في كل مجال بما في ذلك مجال الانجازات الحضارية والفكرية . ولعل أبرز ما تم انجازه في مجال العمران : الصرحان الكبيران : قصر الامارة ، والمسجد الكبير ، اللذين سنتحدث عنهما بعد قليل ، اذ اننا لا بد ، في سبيل فهم أفضل للوضع العمراني للمدينة ، من أن نقف عندبعض مظاهر العمران في دمشق قبل الفتح العربي لها ...

فقد أدى الازدهار الاقتصادي الذي كانت تنعم به دمشق أيام بيعتها لبيزنطة الى مضاعفة عدد سكانها واحداث حركة عمرانية نشطة ، فتوسعت المدينة ، وأحدث فيها تنظيم عمراني جديد يحقق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحصينها، فقد أحيطت دمشق بسور واسع مستطيل بني بأحجار ضخمة ، احتمى وراء وادي بردى في ناحية الشمال ، وزود بسبعة أبواب : أحدها في الشرق (باب شرقي) وآخر في الغرب (باب الجابية) واثنان في الجنوب (باب كيسان والباب الصغير) وثلاثة في الشمال هي باب توما وباب الجنين (الذي كان بالقرب من باب السلام) وباب الفراديس . وشق في المدينة شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب الى الشرق وينحصر بين باب الجابية وباب شرقي ، وعرف باسم الشارع المستقيم وكان طوله ١٥٠٠ م ، ويتألف من طريق واسع في الوسط ورواقين جانبيين مسقوفين تحملهما أعمدة كورنثية ، ما يزال بعضها مطموراً وظهر بعضها الآخر أو أجزاء منه أثناء أعمال الحفر والبناء في موقع هذا الشارع . الذي كانت تزينه التماثيل ،وقد أدرك العرب أحدها وكان يتوسط الشارع وهو عبارة عن عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه وآخر على رأسه مثل الكرة فيها حديد ، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١٤ ، ص ٢١٧) وكانت تقطع هذا الشارع أقواس النصر ،وقد ظهر أحدها منذ أعوام قليلة ، وقامت مديرية الآثار بترميمه عام ١٩٥٠ .ويعتقد بأن هذا القوس هو الذي أشار اليه ابن عساكر باسم قنطرة سنان .

على ان الآبدة الهامة التي خلفها العصر البيزنطي في دمشق هي معبد جوبيتر الذي عرفه العرب وأطلقوا عليه اسم حصن دمشق . وقد بني هذا المعبد على أنقاض المعبد الآرامي ،وتحول فيما بعد الى كنيسة القديس

يوحنا وذلك في آخر القرن الرابع ، وقدأحدثت أسواق ذاتأروقة تصل بين أبواب المعبد الداخلي وبين أسواره الخارجية ،يشاهد جانب منها عند البابين الشمالي والغربي للجامع الأموي • وظلت الأروقةذات الأعمدة في الناحية الجنوبية الممتدة من باب الزيادة في الجامع الأموي باتجاهالجنوب باقية حتى القرن التاسع عشر ، اذ شاهدها السائح الانكليزي بورتر فيعام ١٨٥٥ م ، وعدّ منها اثني عشر عموداً ، فقدت جميعها فيما بعد •

كما ظهرت في العصر البيزنطي الكنائس والأديرة كمنشآت عمرانية جديدة ، شيد منها حوالي خمس عشرةكنيسة داخل الأسوار وخارجها • وأما الأديرة فقد كانت عديدة في أطراف المدينة وضواحيها ، واشتهر من بينها دير مرّان في سفح قاسيون الغربي، قريباً منالربوة • وتذكر الروايات أن الوليد توفي في موقع قرب دير مرّان •

ومن المؤكد وجود قصور وجواسقعلى سفح قاسيون ، أحدهما كان للحاكم البيزنطي • وتذكر المصادر العربية قصراً في قاسيون يسمى بقصر هرقل ، أصبح يدعى في العهد السلجوقي بقصر شمسالملوك ، نزله صلاح الدين الأيوبي في القرن الثاني عشر •

وكان للغساسنة قصر في قلب دمشقيدعى البريص كان يؤمه زعماء العرب وينزلون فيه ضيوفاً على أمراء الغساسنة، وهو الذي يقول فيه حسان بن ثابت :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والمعروف أن « جلق » لقب من ألقاب دمشق • وقد أكد البلاذري بأن موقع هذ القصر كان عند المقسلاط ، أي في وسط الشارع المستقيم •

بعد هذا العرض السريع لبعض مظاهر العمران في دمشق قبل الفتح ، نعود لنقول أنه منذ السنوات الأولى لهذا الفتح أخذت دمشق تتحول تدريجياً الى مدينة عربية مسلمة • وحل الأمراء العرب وكبراؤهم في الدور والقصور التي أخلاها أصحابها البيزنطيون من حكاموقواد • وبذلك توزع المسلمون في جميع أنحاء المدينة ، ولم يكن لهم آنذاك أحياءخاصة بهم وأخرى خاصة بالمسيحيين ، كما سيحدث فيما بعد •

ودليلنا على ذلك أن ابن عساكر يعدد دوراً للصحابة كانت في محلتي باب توما وباب شرقي وهما من الأحياء المسيحية التقليدية • كما شارك المسلمون المسيحيين في المعبد القديم ، فأصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي ومسجداً للمسلمين في الجانب الشرقي ، وأقيمت طقوس العبادتين في بناء واحد • وظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين أكثر من نصف قرن الى أن شرع الخليفة الوليد بن عبد الملك في تحقيق مشروعه المعماري الضخم وبنى المسجد الأموي الذي سنتحدث عنه بعد قليل •

وإذا عدنا إلى ما ذكرناه آنفاً عن الصرحين الكبيرين اللذين يقعان على رأس قائمة المنجزات العمرانية زمن خلافة بني أمية لوجب أن نذكر أن معاوية اتخذ أول الأمر مقر اقامة الحاكم البيزنطي مقراً له ، واكتفى باصلاح ما تهدم منه • ثم ما لبث بعد ذلك أن طوره وأضاف عليه المباني اللازمة للادارة وشؤون الحكم ، وهكذا أصبح المكان يعرف بدار الامارة أو قصر الخضراء نسبة الى القبة الخضراء ، وموقعه قرب ما يعرف اليوم بسوق الصاغة في الجنوب الشرقي من الساحة التي كان يقوم عليها المعبد الذي سيغدو فيما بعد المسجد الأموي • وكانت الى جوار الجدار الجنوبي للجامع ويتصل به بباب خاص • ويذكر ابن عساكر (المجلد الثاني – ص ١٣٣) أنه « لما بنى معاوية الخضراء بدمشق ، وهي دار الامارة ، بناها بالطوب ، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم ، فنظر اليها، فقال له معاوية : كيف ترى هذا البنيان؟

قال : أما أعلاه فللعصافير ، وأما أسفله فللفأر • قال فنقضها معاوية وبناها بالحجارة • وتذكر الروايات الى أنه كان في القصر جناحاً خاصاً بأهل الخليفة ، وجناحاً آخر يستقبل فيه رجال الدولة ، ويتناول فيه طعامه ، ويخرج منه للصلاة في الجامع • وتحولت بعد ذلك الى دار للملك يقطنها من يتولى الخلافة من بني أمية • ثم حين قامت الثورة العباسية على بني أمية تهدمت هذه الدار ، وأصبح مكانها داراً للشرطة ولضرب النقود • ثم أتى عليها حريق عام ٤٦١ هـ/١٠٦٨ م مع الجامع الأموي ، فزالت أثارها نهائياً ، وحل مكانها منذ العام ٦٤٣ هـ/١٢٤٥م وحتى اليوم سوق للصاغة • وجدير بالذكر أنه كان الى جانب قصر الخضرا دار عرفت باسم دار الخيل وكانت نوعاً من دار الضيافة لاقامة المبعوثين الأجانب الذين يفدون لمقابلة الخليفة •

ومن جملة الدور الشهيرة التي بناها رجالات الدولة في دمشق ، دار عبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر ، وكانت تقع بجانب جدار الجامع الشمالي مكان المدرسة الشميساطية اليوم ·

ونعرف قصراً كان لهشام بن عبدالملك في مكان المدرسة المجاهدية داخل باب الحرير أي في سوق القلبقجية ،وقصوراً أخرى بنيت خارج السور ، أحدها ينسب الى الحجاج بن عبد الملك وقد أطلق اسمه على الحي الذي حول القصر بعد ذلك · وقصر عاتكة بالقرب منه ، ويسمى اليوم حي من أحياء دمشق باسم قبر عاتكة وصحيحه قصر عاتكة ·

وقد اندثرت كل هذه القصور ولانعرف عنها شيئاً ، بخلاف قصورهم العديدة خارج العاصمة ولا سيما قصور الصحراء وقصور فلسطين ، وأغلبها يعتبر مثالاً رائعاً على الفن المعماري الأموي مما لا نجد ضرورة للحديث عنه · واليقين أن مدينة دمشق في العصر الأموي كانت ترفل بأبدع حلة إذ أن في مصادرنا الكثير عن متنزهاتها ومغانيها ودورها الفارهة وساحاتها العامة ، فضلاً عن حماماتها وفنادقها ومشافيها وسوى ذلك ·

وقد أدى الدور المتعاظم لدمشق كحاضرة للخلافة الى اتساعها وامتداد المساكن خارج السور ، فنشأت في أطراف المدينة وضواحيها مراكز سكنية عرفت بمنازل القبائل · وامتد البناء على ضفاف بردى وسفوح قاسيون وظهرت الجواسق والطوارم (ج· طارمة وهي البناء المستدير المشرف) وشق يزيد بن معاوية النهر الذي عرف باسمه ، فساعد ذلك على امتداد الخضرة والعمران الى أعالي السفح ، فضلا عن احياء عدد من القرى في الشمال من دمشق · وقد تخربت هذه المنازل والارباض في الفتن والحروب التي تلت العهد الأموي ·

وكان في المدينة ميدانان عامان(هيبودروم) أحدهما في الجنوب وهو ميدان الحصى ، والآخر في الغرب ويعرف بالمرج الأخضر (مدينة معرض دمشق الدولي الحالية) حيث كانت تقام سباقات الخيل التي أولع بها الأمويون ولا سيما الخليفة عبد الملك وابنه الوليد ، ولعل خير شاهد على هذه المغاني والرياض ما نراه في فسيفساء الجامع الأموي الذي لا أظن أحداً لم ينعم برؤياه ·

اما الصرح الثاني الذي أشرنا اليه ، فهو المسجد الأموي • ولست اريد في هذه العجالة أن أدخل في تفاصيل النقاش العقيم حول ملكية المكان ما ورد في معاهدة الصلح ، وهل اشتريت الأرض من أصحابها أم هل استبدلت كنيسة بكنائس ، وهل كان ذلك طوعاً أم قسراً ، ففي ذلك حديث يطول ، ويصعب الخروج منه برأي قاطع • المهم ان المسجدبني ، وأنه كان درة في جبين الدولة الأموية ما زال بريقها يتلألأ حتى يوم الناس هذا ، حين تصدى السيد الرئيس لواقعه الذي يتهدده الخطر ، وأمر ألا يدخر جهد حتى يعود هذا الصرح لسابق عهده ،وأدعو الله أن يوفي المسؤولون الأمانة ويكونوا على قدر المسؤولية أمام التاريخ وأمام من عهد اليهم بها •

وقبل أن أدخل في حديث مقتضب حول المسجد أود أن أقف وقفة قصيرة مع ملامح الفن العربي الذي أخذت معالمه تتشكل مع اطلالة فجر دولة بني أمية • وأود أن أقول بأمانة أن الملامح الأولى والأساسية لهذا الفن ولدت في دمشق حتى غدت هناك مدرسة فنية عالمية هي مدرسة الفن العربي الاسلامي ، وأقول عالمية لأن ملامحها انتشرت خلال اثني عشر قرناً على بلاد تمتد من الصين الى المحيط الأطلسي ، وكانت بداياتها مع العرب الامويين ثم تطورت تبعاً للعصور والمؤثرات المحلية والمستوردة •

ولست أشك بأن هذا الفن هو ثمرة مشتركة بين الاسلام كدين ومعتقدات ومواقف من الحياة وشؤونها وما هو محرم وما هو محلل وبين الفتح وما أدى اليه من انضمام حضارات وثقافات لها تاريخها وتقاليدها ومنجزاتها الفنية الى الاسلام ، فتقيدت به واحترمت أوامره ونواهيه ومزجت كل ذلك مع الموروث العربي في بوتقة واحدة لتخرج فناً متميزاً ما زلنا نتفيأ ظلاله حتى اليوم وعلى طول هذه البقعة الواسعة من الأرض • وبكلمات قليلة أن ما نسميه بالفن العربي هو نتيجة تمازج عقائد الاسلام ، وفنون العرب ، بفنون فارس وبيزنطة وقبلها اليونان والرومان والذي جعل مؤرخي الفن يقررون وحدة الفن في العالم الاسلامي ، هو ما وجدوه من صفات مشتركة وخصائص متشابهة بين فنون هذه الأمم التي دخلت في الاسلام وتبنت معتقداته • ثم ان بلاد الشام بخاصة كانت المعبر الدائم لمختلف الحضارات العالمية والبوتقة التي انصهرت فيها وتمازجت لتخرج فناً فيه من الملامح العالمية ، ومن الخصائص المحلية آنذاك ما يجعله فناً فريداً لا أجد مثالا له خيراً من مثال تدمر حيث تلاقت حضارات العالم القديم لتنتج روائع تدمر •

ولن أطيل فقد شهدت دمشق مولدهذا الفن العربي الاسلامي على يد الأمويين ، وكانت أولى ثماره الجامع الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك وغدا الدرة الثمينة في التاج الأموي ٠

واذا رجعنا الى البدايات لوجدنا انالمسلمين بعد الفتح شاركوا المسيحيين في المعبد القديم الذي غدا يضم كنيسةللنصارى في جانبه الغربي ، ومسجداً للمسلمين في جانبه الشرقي ، كما سلفوأشرنا الى ذلك ٠ وظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين ما يزيد على النصفقرن وكانت كنيسة القديس يوحنا زمن معاوية تنعم باستقلالها عن المسجد المجاورويؤيد هذا الزعم ما يذكره كاتب مادة « دمشق » في الطبعة الجديدة من الموسوعةالاسلامية من أن القس الغالي أركولف مر بدمشق سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م فوجدأن هناك معبدين منفصلين يمارس في إحداهما العبادة الاسلامية وفي الثاني العبادة المسيحية ٠ ومن أجل المناسبات التي تقتضي تجمع المسلمين أقامالأمويونالأول ما أسموه مصلى العيد، وفق تقاليد السنة ، خارج المدينة ويوجد في محلة الميدان اليوم جامع يدعى جامع المصلى ، وهو مصلى العيد الأموي ٠ ولما بنى قصرالخضراء وشيدت القصور والمؤسسات الحكومية في الساحة الواسعة المحيطة بالمعبد القديم ، بدا انه لا بد من توسعة المسجد القديم ليتناسب مع حاجات الدولةالمتنامية ٠ وكان هذا ما فعله الوليد عندما شرع ببناء المسجد الأموي ٠

وكما أشرت في مطلع هذا الحديث ،وبعيداً عن النقاش حول الأسلوب الذي تم فيه استحواذ الأرض التي بنى عليهاالمسجد ، لأنه نقاش عقيم لا يثبت حقاً ولا يمحو باطلا ، ولكل رأي أو ادعاءما يؤيده أو يناقضه ، وتظل الحقيقة محجوبة بستار داكن من سنين طويلة وأهواء متناقضة ومواقف تنبع عن عصبيات وآراء ليس لها ما يثبتها أوينقضها ، أقول بعيداً عن هذا النقاش الذي لخصه لنا اليسييف بدقة وموضوعيةفيما كتبه عن «دمشق» في الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية ، فان الوليد أمرفي العام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ٠ بهدم كل ما كان موجوداً داخل ساحةالمعبد القديم ،وكنيسة القديس يوحنا وبدأ باشادة المسجد الكبير. ولن أدخل في وصف مفصلللمسجد ويكفيالقول أنه مستطيل الشكل طوله ١٥٧ متراً وعرضه ٩٧ م ، ويحتلقسمه الشمالي صحن مكشوف تتوزع فيه

قبتان جميلتا العمد والتيجان ، وبركة يحف بها من الجانبين عمودان ، كانا يسرجان في العهود الماضية لانارة الصحن . ويؤدي الى الصحن ثلاثة أبواب ، ويحيط بالصحن من الداخل رواق مسقوف قائم على عمد وعضائد تحمل طبقتين من العقود الكبيرة والصغيرة مفتوحة الى الصحن • ويحتل المصلى (الحرم) الطرف الجنوبي ، وهو قاعة مستطيلة مؤلفة من ثلاثة أروقة (بلاطات) تمتد من الشرق الى الغرب وينتظمها صفان من الأعمدة عليها طبقتان من العقود تحمل السقف • ويقطع الأروقة الثلاثة هذه من الشمال الى الجنوب رواق مرتفع يحمل في وسطه قبة النسر الشامخة • وقد أطلق العرب على المصلى اسم النسر : القبة رأسه ، والرواق القاطع جسمه ، والأروقة عن يمين وشمال جناحاه • وفي جدار المصلى الجنوبي باب يصل الجامع بالمدينة • وكان في هذا الجدار باب آخر ذو فتحات يصل الجامع بقصر الخضراء • قصر معاوية ومن تلاه من خلفاء بني أمية • ويسترعي الانتباه في هذا المصلى بناء صغير أنيق قائم بين أعمدة الرواق الأوسط ، وهو ضريح النبي يحيى • وعند ابن عساكر (المجلدة الثانية ــ القسم الأول ــ خطط دمشق ، ت المنجد ، ص ٩ وما بعدها) العديد من الروايات حول رأس سيدنا يحيى ، وسأقتبس فيما يلي احداها : « • • • عن زيد بن واقد ، قال : وكّلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق • فوجدنا فيه مغارة . فعرّفنا الوليد بذلك ، فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع • فنزل ، فاذا هي كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، واذا فيها صندوق . ففتح الصندوق ، فاذا فيه سفط ، وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليه السلام ، مكتوب عليه : هذا رأس يحيى بن زكريا . فأمر به الوليد فردّ الى مكان ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغيَّراً من الأعمدة ، فجعل عليه عمود مسبك مسفط الرأس • » •

ونميز على مخطط الجامع ثلاثة أبراج شاهقة هي منائر الأذان ، وقد بنيت كلها في عهد الوليد ، وجددت أقسامها العليا في العصور التالية : الأولى وتتوسط الجدار الشمالي وهي معروفة بمئذنة العروس ، والمئذنتان الأخريان بنيتا في زاويتي المصلى ، الشرقية والغربية ، وقد عرفت المئذنة الشرقية بمئذنة عيسى •

وقد سخا الوليد في الانفاق على البناء وجلّله بكل أنواع الزخرفة مما لا مجال للدخول في تفصيله • ويكفي أن نشير الى أن وفداً بيزنطياً حضر خصيصاً من القسطنطينية لمشاهدته حين سمع به • وقد بلغ من دهشة الوفد أن صرح رئيسه بما معناه : اننا وقد شاهدنا هذا البنيان الرائع لموقنون بأن العرب باقون في هذه البلاد الى الأبد ، وأنه لا رجعة لبيزنطة اليها بعد اليوم • وهكذا كان ••••

كما يعزى للفترة الأموية اقامة مقبرتين اسلاميتين جديدتين الى جانب مقبرة باب الفراديس : الأولى أقيمت قرب باب توما ، أما الثانية وهي الأهم لأنها وارت جثمان أكثر من رجل من صحابة رسول الله ، وهي مقبرة باب الصغير ، جنوب المدينة •

وقبل أن أختم الحديث عن دمشق في زمن بني أمية يطيب لي أن أنقل اليكم بعض ما ذكره لنا ابن عساكر في تاريخه عن هذه المدينة :

اقرأ من ص : ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ، ص ٥٣ ، ٧٧٨ ، ٨١ ـ ٨٢ ، ٨٩ ؛ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠٢ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٢٩ •

وهناك أشياء كثيرة أخرى عن الأنهار والسواقي والقنى (جمع قناة) والحمامات وعددها ٥٧ حماماً •••

هكذا كانت دمشق زمن بني أمية الذين جعلوها حاضرة الخلافة وجمّلوها بما يليق بحاضرة امبراطورية عظمى تنافس بيزنطة على سيادة العالم • ولما آل الأمر الى بني العباس ، بعد خصومة مسلحة مع بني أمية ، كان طبيعياً أن تتراجع مكانة هذه المدينة وأن تغدو مدينة ثانوية في اطار الامبراطورية الجديدة التي غدت حاضرتها الكوفة أول الأمر ، ومن ثم بنت حاضرتها الجديدة : بغداد ، وعملت على أن تكون قبلة الأنظار في كل المجالات •

ولا نجد في مصادرنا حديثاً مطولاً عن دمشق في ظل بني العباس ، فما عدا ما نقرأه من نبشهم القبور الأموية والتمثيل بالجثث وسوى ذلك من فظائع ، تعيش دمشق في عزلة عن الأحداث إلا من ثورة تقوم بها بين حين وآخر ، فتسمع بها الدولة وترسل من يؤدب العصاة • وما ان يأتي القرن الثالث للهجرة حتى يخيم الظلام على المدينة لبضعة قرون قطعتها زيارة بعض الخلفاء العباسيين لها

فاستطاب بعضهم هواءها وفواكهها ، وود لو أنه أقام فيها ، وكره آخرون الاقامة بها ، وبين هذا وذاك كانت المدينة نهباًللطامعين والحكام الاقطاعيين ، ثم غدت تابعة لمصر زمن الطولونيين والفاطميين ،وكانت سنواتها في غالبها سنوات صراع على السلطة بين قوى قادمة من بغداد أومصر ، أو بين قوى محلية . وقد عبر المؤرخ ابن الجوزي عن حالها هذا بشيءمن المبالغة وذلك أثناء حديثه عن العام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م وهي السنة التي انتهى فيها الحكم الفاطمي فيقول : « ... ولم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء ، وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثةآلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد » .

وتعود دمشق لالتقاط أنفاسها بدءأمن الحكم السلجوقي ، إذ بنيت قلعة دمشق في عهدها الأول في عام ٤٧١ هـ /١٠٧٨م ليتخذ منها حكام دمشق السلاجقة دار أمارة وقصراً حصيناً وزودوها بالأسوار والأبراج والخنادق وشيدوا داخلها الدور والحمامات والمساجد والمدارس ،مما لا يدخل في نطاق حديثنا . وتابعت دمشق مسيرتها العمرانية بعد ذلك زمن الأيوبيين والماليك والعثمانيين . مما سيكون موضع حديث علماء أفاضل .

ولست أدعي لهذا الذي قلت فضل الجدة أو الريادة أو الاحاطة، فهو معروف مكرور من جهة ويقتصر عن الواقع بكثير،ولكني حاولت التذكير ببعض ماتعرفون، وأرجو أن أكون قد وفقت .

★ ★ ★

دمشق في العصور الكنعانية

د. علي أبو عساف

إن الوثائق المختصة بدمشق، كلاً أو جزءاً ، قليلة جداً • هي سطور في وثائق اقتصادية ، أو رسائل تأتي على ذكر دمشق ومحيطها • وجمعها سطر فوق سطر ، يظهر رواية غير محبوكة ، وجداراً مرمماً فجواته واضحة للعيون • وان كان يبدو للمختصين متكاملاً متراصاً وشامخاً •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، فان التنقيبات الأثرية لم تجر في دمشق ، ولن تجر في المستقبل المنظور ولو جرت لعثرنا على وثائق أو بعضاً من وثائق عصورها وشواهد حضارتها على مر العصور القديمة •

لم تمح الحروب والكوارث ، كل التي نقرأ فيها سطوراً ، أو كلمات عن دمشق • كما أنها لم تُغيِّب كل شواهد حضارتها • فلا تزال هناك أشياء تنطق بأنباء عن دمشق ومحيطها •

وطبيعي في هذا الصدد ، أن نتعرف على موقع مدينة دمشق • فلو دققنا في المخطط الطوبوغرافي لمدينة دمشق ، الذي وضعه العالمان الألمانيان فال تزنكر وفول تزنكر ، لوجدنا أن الأرض التي تقوم عليها دمشق القديمة ليست مستوية • فهي منخفضة • ومنبسطة عند ضفة بردى الجنوبية ، ومرتفعة الى الجنوب من المسجد الأموي ، على جوانب الشارع المستقيم •

ان هذا الجزء المرتفع في الجنوب ، هو الذي يهمنا ، وهو لا يشكل كتلة واحدة ، ذات ارتفاع واحد ، بل يشكل عدة تلال •

في الشرق ، الى الشمال من الكنيسة المريمية ، تلة الدوامنة • والى الغرب منها ، وبالقرب من المسجد الأموي ، تبدو تلة أخرى في حي العمارة الجوانية تدعى تلة السمّاكة • أما الى الجنوب من المسجد الأموي، فيمتد تل كبير بين السور في الجنوب، والصاغة القديمة في الشمال، وبين الكنيسة المريمية في الشرق ، وباب الجابية في الغرب • وهو الذي يخترقه الشارع المستقيم من الغرب الى الشرق • في هذا التل قمتان : شمالية صغيرة تقع قبالة الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأموي ، وتبعد عنها حوالي ٢٠٠ م • وجنوبية أكبر تبعد عن المسجد الأموي حوالي ٣٠٠ م ، ويمر بينهما الآن الشارع المستقيم • ويُخيل الي ، أن الشارع قد سُد في هذا المكان ، لأن فجوة كانت بين التلين ، استغلت لمرور الشارع •

هذا وصف موجز لشكل الأرض التي تقوم عليها دمشق القديمة • فماذا نستنتج منه ؟ وما هي فائدته ؟ •

ان هذه التلال ، طبقات المدينة القديمة ، وأنقاض مبانيها ويرجح عدد من الباحثين ، أمثال ڤال تزنكر وفولتزنكر ، أن هذه التلال تمثل المسرح أو الأوديون الروماني • بينما يفترض الباحث الفرنسي سوفاجيه ، أن قصر الامبراطور أنتيوخوس التاسع سيزينوس كان في هذا المكان عندما حكم دمشق ، قبيل نهاية القرن الثاني ق•م وقد توصل الى هذا الافتراض ، من كون الموقع كان يسمى في العصور الوسطى البرص أي القصر ، الحصن • علماً بأنه لا يوجد حصن • وقد ذهب الى أبعد من ذلك ، اذ افترض ، أن قصر انتيوخوس ، قد شُيد على أنقاض قصر (الستراب) • وهذا بدوره كان قد احتل المكان ، الذي كان يقوم عليه القصر الملكي الآرامي •

هذا هو رأي سوفاجيه • ولو أمكن التنقيب في هذه الأماكن ، لأيّدناه أو رفضناه • ولكن ثمة أشياء أخرى ، يمكن أن يُقال في هذا المجال ، تأييداً لرأيه •

في الواقع ، أن هذا التل ، هو الوحيد في البقعة التي تقوم عليها مدينة دمشق القديمة • وهو مجاور لمسجد بني أمية ، الذي كان معبداً للرب هدد في العصر الآرامي وتأسيساً على ما نعرفه من أساليب تنظيم المدن الآرامية (جوزن ــ خداتو ــ شمال) ، يكون المعبد والقصر متجاورين •

وهذا ينطبق أيضاً ، على كثير من المدن الكنعانية (ألالاخ ــ إيمار ــ إيبلا) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، قامت وزارة الأوقاف ، بإعادة تبليط صحن المسجد الأموي عام ١٩٦٦ ، فاغتنمت المديرية العامة للآثار والمتاحف هذه الفرصة الذهبية، وأجرت سبراً في الصحن، لم تكمله ، ولم تستمر به الا لوقت قصير ، فضاعت الفرصة ، ولكننا مع ذلك، حصلنا على بعض الكسر الفخارية، التي تعود الى عصر الممالك الكنعانية الآمورية الأولى ، أي مطلع الألف الثاني ق.م. وهذا دليل قوي ، على أن دمشق ، كانت مأهولة في هذه الفترة .

ثمة أمر آخر نأتي على ذكره هنا ، وهو الوثائق المتعلقة بمحيط دمشق . يتفق الباحثون على أن دمشق كانت في منطقة تدعى (أُفّا / أُفّي) . وقد ذكرت لأول مرة في نصوص الاحتقار المصرية ، التي سطرت في عصر المملكة الوسطى ٢٠٥٢ ــ ١٧٧٨ ق.م. والواقع أن هذه النصوص شحيحة ، لا تحوي سوى أسماء أمراء ، مضافاً اليها أحياناً اسم المكان أو بالعكس . وفي هذا العصر، وعلى وجه الدقة ، في عهد السلالة الثالثة عشرة ، التي حكمت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م. ١٧٨٦ ــ ١٧٧٨ ق.م.

كانت أُفّا مقسمة جغرافياً الى منطقتين شمالية وجنوبية . وقد جاء في الوثائق اياها : ح ق (١) ن ــ افوم ــ رست ... = أمير آفوم الجنوبية ... ح ق (١) ن ــ افوم ــ محتي ــ عخوكبكب = أمير أفول الشمالية أخو كوكب.

ويجب ألا يدهشنا هذا الشيء ، لأن القبائل الكنعانية ، كانت قد توزعت على مناطق بلاد الشام ، وأسست ممالك عديدة كبيرة وصغيرة . كانت في منطقة أُفّا / أُفّي وحدها مملكتان .

وبوسعنا على ضوء ما تقدم ، أن نعد هاتين المملكتين ، من الممالك القوية ، والا لما ذكرتا في نصوص الاحتقار ، كعدوتين لفرعون مصر .

ولو أن النصوص الفرعونية ، كانت أوسع وأشمل ، وفيها ما يشير من قريب، أو بعيد ، الى الموقع الجغرافي للأفتين ، لأغنانا ذلك عن التخمين . ولحل هذا اللغز ، جرى تحديد حدود أُفّا / أُفّي بالاعتماد على مصادر كثيرة منها رسائل العمارنة ، وبعض الوثائق الحثية والأمر الواضح ، أن كوميدو / كوميدي ، التي هي الآن كامد اللوز في البقاع الجنوبي ، كانت أُفّا ، مثلما كانت دمشق .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد انتشرت الممالك التي كانت معاصرة لأُفّا / أُفّي ، ورد ذكرها في المصادر المصرية ، الى الجنوب من اليرموك : مثل فحل ، التي هي الآن خربة فحيل ، وفي حوران ، مثل عشتروت ، وفي سهول حمص مثل عشتروت ، وفي سهول حمص مثل قادش وقطنة .

ونحن نرجح ، أن أُفّا كانت بين هذه الممالك ، وشملت البقاع ، وسلسلة جبال لبنان الشرقية ، ودمشق ، وغوطتها ، مع مناطق النبك ويبرود ، وقد تتمثل في أراضي محافظة ريف دمشق الآن ، مضافاً اليها البقاع الجنوبي ، وجبل الشيخ .

وقد جاء توكيد أهمية أُفّا / أُفّي ، ودورها القوي في بلاد الشام ، في الألف الثاني ق.م. من الوثائق الفرعونية والحثية .

ففي عصر العمارنة ، الذي يبدأ مع عهد الفرعون آمنوفس الثالث (١٤٠٣ــ ١٣٦٤) ، وينتهي بانتهاء عهد أمنوفس الرابع / أخناتون ١٣٦٤ ــ ١٣٤٧ ، تعزز النفوذ المصري في بلاد الشام الجنوبية ، وحدثت هزات وأحداث زعزعت الأمن والنظام في بلاد الشام الجنوبية ، وانعكست آثارها على التوازن بين الممالك الكنعانية .

وفي طليعة هذه الأحداث نضع ظهور ملك قوي ، يدعى بيراوزا ، كان قد دخل في خدمة الفراعنة ، وحينما قوي نفوذه ، وهو في دمشق ، سار بقواته منها الى كوميدي ، فاحتلها ، وأعلن من هناك ، ولاءه للفرعون ، وذلك برسالة وجهها الى أخناتون فرعون مصر . لقد كان الدافع وراء حركة بيراوزا ، التصدي للجماعات التي كانت تنادي بالتخلص من النفوذ الفرعوني ، والتحالف مع الحثيين والميتانيين لتحقيق هذه الغاية .

ان انحياز بيراوزا الى الفراعنة ، ضد الذين يرغبون بالانحياز الى الميتانيين ، يضع الرأي القائل بأنه من أصل حوري / ميتاني في مدار الشك . فلو كان حورياً لانحاز اليهم على الأرجح. نحن نعتقد أنه كنعاني واسمه مركب من برايا أي المخلوق مضافاً اليه زا / زو أي العظمة والفخار .

نحن نعلم من رسائل العمارنة أن ممالك المدن الكنعانية من إربد في الجنوب وحتى دير العدس وغباغب في الشمال . ومن حسيا / تخشي في الشمال وحتى

صيدنايا ومضايا في الجنوب قد سارت في ركابه ٠ ولم يتصد له ويعاديه إلا مملكتا قادش وقطنة في الشمال ٠

هذا ما كان من أمر الوثائق المصرية، أما الوثائق الحثية التي تعود الى منتصف القرن الثالث عشر ق٠م٠ فهي تشير بوضوح الى قوة مملكة أ'فا وسعة رقعتها ٠

ففي عام ١٢٥٦ ق٠م٠ تزوج رعمسيس الثاني بابنة الملك الحثي خاتوشيلي الثالث ٠ وقد سار موكب العروس ، من خاتوشا ، عاصمة الحثيين ، حتى مدينة أيّو ، والتي ينتهي عندها النفوذ الحثي ٠ ومن أيّو ، قاد موكب العروس ، رجال أ'فا وقادة جيشها حتى مصر ٠ واذا علمنا ، أن أيّو ، هي على الأرجح ، تل أيّو ، الذي يقع على بعد سبعة كيلو مترات جنوب حماة ، جاز لنا القول ، أن نفوذ أ'فا قد وصل اليها شمالا ، ووصل فلسطين جنوباً ٠

من كل ما تقدم ، نخلص الى نتيجة مفادها ، أن أ'فا / أ'فتي كانت احدى الممالك الكنعانية القوية ، وقد لعبت دوراً بارزاً في أحداث البلاد ، قبيل ، وبعد منتصف الألف الثاني ق٠م٠ وقد امتدت رقعتها ، من حسيا والبريج في الشمال ، الى حوران في الجنوب ، ومن البقاع والجولان في الغرب ، الى البادية في الشرق ٠

وعلى هذا الأساس تكون دمشق في وسطها ، فمتى ظهر اسم دمشق ؟ وما معناه ؟! اهتم الباحثون بمعرفة معنى دمشق فتتبعوا مراحل كتابته في مختلف الوثائق ٠ ففي عهد الفرعون تحوتمس الثالث ١٤٩٠ ــ ١٤٣٦ كتب اسم دمشق على الشكل التالي : ت م س ق وذلك على جدران معبد الكرنك ضمن أسماء المدن التي غزاها هذا الفرعون في العام الثالث والثلاثين من حكمه ٠ أما في عهد الفرعونين أمنوفس الثالث ١٤٠٣ ــ ١٣٦٤ وأمنوفس الرابع (أخناتون) ١٣٦٤ ــ ١٣٤٧ فقد كُتب تَمِسْق' وتَمِشْق' ودمِشْق' ٠

وفي كتاب العهد القديم كتب الاسم بصيغ مختلفة فقد سجل مرة دمشق ومرة أخرى سجل د'مِشّق وثالثه دارمِسْق'٠ أما الآشوريون فقد دونوه في وثائقهم بصيغة واحدة تقريباً هي دمَشْق' وذلك عندما غزوا بلاد الشام في عهد ملوك المملكة الحديثة من عام ٩١٢ ــ ٦١٢ ق٠م٠ أما الآراميون الذين جعلوا من دمشق احدى أبهى المدن فقد كتبوه دمشق أيضاً.

مما سبق يمكننا أن نقول أن اسم دمشق قديم ، لم يطرأ عليه تبديل أو تحريف ، انما استبدل حرف الدال بالتاء أو حرف الشين بالسين عند الفراعنة لأن الكتّاب سمعوه هكذا على الأرجح ٠

على أن الصيغة التي شغلت الباحثين هي دارمِسْق التي وردت في سفر الأخبار الثاني الاصحاح السادس عشر ، الآية الثانية ٠ وفي الاصحاح الرابع والعشرين الآية الثالثة والعشرين ٠ وفي الاصحاح الثامن والعشرين الآية الخامسة والآية الثالثة والعشرين ٠

لقد تعددت الآراء واختلفت التفسيرات لهذه الصيغة الملفتة للنظر والمغايرة لكل الصيغ الأخرى ٠ وقد عمل عدد من الباحثين على تحليل هذه الصيغة فقالوا أن الأسم مركب من اسم المكان دار واسم العلم مش الذي هو اسم الرب مختزلا وقد ألحق حرف القاف بدلا من المقطع كي في آخر الاسم للاشارة الى أن الاسم هو أسم مدينة وذلك حسب الأسلوب (الأكدي) ٠

هنا رأي وهنالك رأي آخر يرى أن مِسْق هو اسم مفعول من الفعل سقى ويصبح معنى دارمش / دمشق دار السقاية ٠

والى جانب هذين الرأيين اللذين انطلقا من تحليل كلمة دارمشق ، يوجد رأي ثالث يقول في كلمة دمشق أنها مركبة من اسم الاشارة ذو / ذي / ذات بالاضافة الى مشق أي ذو مشق أو ذات مشق ومعناها ذو السقي أو ذات السقي ٠ أما اذا كانت الميم مشددة كما هو الحال عليه في سفر أخبار الأيام الثاني ، الذي أشرت اليه أعلاه ، فيصبح معنى دمشق ذات التربة الغضارية ٠

ويتبين من هذا أن الآراء متضاربة حول معنى الاسم ، لكنها جميعها تنطلق من كون الاسم كنعاني وأنه وصف لبيئة دمشق ووظيفة المكان ٠

ومجمل القول أن الوثائق التي تشير الى دمشق كمدينة أو كمملكة هي قليلة جداً في العصور الكنعانية ٠ ومع ذلك ندرك منها أنها كانت مدينة عامرة كغيرها من مدن الممالك الكنعانية وما لم تجر فيها تنقيبات أثرية ، تبقى معلوماتنا عن حضارتها وعن أحوالها السياسية ناقصة ٠ ويبقى دورها في صنع تاريخ بلاد الشام مجهولا ٠

د. علي أبو عساف

دمشق

على أبواب القرن العشرين

د. أسعد الأسطواني

مؤامرات الغرباء ونشوء الفكر القومي في القرن التاسع عشر

إن الحديث عن دمشق هو دوما شائق ومثير... لأن دمشق هي الماضي والتراث، هي الحاضر والحضور، هي المستقبل والمعاصرة... لأن دمشق لا تعيش الماضي، وانما تجعل الماضي يعيش في روحها ووجدانها، فهي الأصالة والحداثة معاً.

ولعل دمشق تعلمت أيضاً من التاريخ ما تعلمته المدن العربية العريقة الأخرى؛ فجميعها أخذت من التاريخ العقل والحكمة والتبصر. ولذلك فان فكر دمشق متصل بكل ما له صلة بالعروبة والاسلام ومطبوع بابداع التمرد، متعلق بأسباب السماء تعلقه بالذي يجري على الأرض.

وكانت دمشق بالذات، بوزنها التاريخي والاقتصادي ولقربها من العاصمة استانبول أهم مدينة عربية في الامبراطورية العثمانية. وكان لا بد لها أن تؤثر في مجريات الأمور والأحداث وأن تقوم بدور فاعل من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القرون الماضية. وينصب حديثنا اليوم بطبيعة الحال، عن دمشق على أبواب القرن العشرين. فمن الطبيعي إذن أن نتساءل: كيف كانت صورة دمشق في القرن التاسععشر، وكيف تفاعلت مع مؤامرات الدول العظمى ولرياح التغيير التي هبت على المنطقة، بل ما هو دورها في نشوء الفكر القومي؟.

وكانت السمة البارزة للقرن التاسع عشر هي التصنيع السريع لدول أوربا الغربية وانتشار الاستعمار الغربي في سائر أرجاء العالم • وكان نقصان المواد الضرورية لمعيشة بريطانيا سبباً في اقتناصها المستعمرات المختلفة عبر البحار لتصريف انتاجها الصناعي ، فكان ذلك يُحتّم عليها بسط نفوذها في المشرق العربي لحماية طرق مواصلاتها نحو فارس والشرق الأقصى ، فأنشأت اسطولاً بحرياً معادلاً في قوته جميع الأساطيل الأخرى المنافسة • وكانت بريطانيا حريصة كل الحرص على أن لا يكون لأي دولة أخرى كفرنسا وروسيا أي نفوذ على طرق مواصلاتها الى الهند •

وكان التنافس شديداً بشكل خاص بين الدولتين الاستعماريتين ، فرنسا وبريطانيا ، على اقتسام النفوذ السياسي والاقتصادي في أرجاء الامبراطورية العثمانية • ولم يكن هذا الأمر مطروحاً إبان قوة هذه الامبراطورية في العصور السالفة عندما كانت تشكل تهديداً خطيراً على الشعوب الأوربية الذين كانوا يعدون الأتراك مادة غريبة في جسم أوربا من الجوانب اللغوية والعرقية والدينية • ولقد وُضعت الخطط الواسعة للقضاء على هذه الامبراطورية وباءت كلها بالاخفاق في أثناء احتفاظها بقوتها(١) •

ولكن ، في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما أصيب العثمانيون بالضعف لم يَعُد الأوربيون يكترثون من أجل القضاء على الدولة العثمانية لأنها أصبحت أحد الأطراف في لعبة التوازن الدولي • ومن هنا برزت المسألة الشرقية وأصبحت وظيفتها التي تقوم بها هي تنظيم توازن القوى بين الدول الأوربية الأربع اضافة الى الدولة العثمانية •

حادثان خطيران :

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر وقع حادثان خطيران كادا أن يُطيحا بتوازن القوى • وكان الحادث الأول احتلال القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر ومباشرته غزو بلاد الشام ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠١ • وقد شكل هذا الأمر تهديداً واضحاً لقوة بريطانيا في الهند ولسلامة الامبراطورية العثمانية ، مما أدى الى تدخل بريطانيا العسكري وهزيمة نابليون براً وبحراً وتكريسها كدولة تصون استقلال هذه الامبراطورية وسلامة أراضيها(٢) •

وأما الحادث الآخر فهو تعاظم قوة محمد علي باشا في مصر · ولقد كان هذا الرجل الكبير يطمح الى بناء دولة حديثةوكان انساناً عملياً · فعندما وجد أن لا مُستقبل للغة التركية في مصر انصرفالى اللغة العربية ، فجعلها لغةً للدولة والادارة والتعليم ، وبواسطة العربيةتمت حركة النقل والترجمة ، فأحيا بذلك اللغة العربية وكرّسها لغة رسميةوسائدة · ومن ثم أظهر استقلاليته عن الدولة العثمانية · كما أن الحملة التيأرسلها في صيف عام ١٨٣٢ الى بلاد الشام بقيادة ابنه ابراهيم باشا ذات دلالة تاريخية كبرى · فلقد كان هدف ابراهيم باشا انشاء دولة عربية عصريةتقف سداً منيعاً أمام مطامع الدول الكبرى · وهكذا شعرت الدول الغربيةوفي مقدمتها بريطانيا بخطورة اندفاع المصريين نحو المشرق العربي ، فسارعتالى دعوة الدول الأوربية للاجتماع في لندن حيث تم توقيع اتفاقية جائرة في١٥/٧/١٨٤٠ بين بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا ، فراح قناصلها في القاهرة يبلغون محمد علي باشاً انذاراً بوجوب الانسحاب من بلاد الشام ، فلم تحرك فرنسا آنذاك ساكناً لإغاثة الدولة العربية الناشئة بعد أن رعت خطواتها الأولى بل ساهمت في طرد المصريين من لبنان وبلاد الشام لأن تعاظم نفوذهم وقوتهم سوف يقضي أيضاً على المصالح الفرنسية ··· وإذا كانت تجربة تلك الدولة العربية قصيرة في عمر الزمن إلا أنها أشعرت المستعمرين الأوربيين بخطورة اندفاع المصريين نحو المشرق العربي فأبعدوهم زهاء قرن كامل ، كما قاوم الغربيون بضراوة محاولة محمد علي باشا في التحديث وتأسيس دولة عصرية فكانذلك من أكبر أسباب سقوطها وراحوا يخططون منذ ذلك الحين لزرع دولة يهودية في قلب الأمة العربية ·

الاصلاحات :

ومما لا شك فيه أن حدوث الثورة الصناعية في أوربا أدّى الى بروز علاقات عالمية جديدة حتمت على الدولة العثمانية السعي للحاق بأوربا · وكان أول عمل هام لها في هذا السبيل هو تحديث الجيش · وهكذا تم القضاء على النظام الانكشاري وكان يضم طوائف شتى من الجنود المرتزقة وحل محلها بعدئذ فرق من الجيش النظامي وفق الأساليب العسكرية الغربية(٣) ·

وكان من نتائج وجود المصريين في بلاد الشام حدوث عدد من الاصلاحات الهامة. فأنشئت المدارس الحديثة وطبّقت المساواة التامة بين المسلمين والمسحيين ، واستطاع ابن المدينة توسيع أعماله في القرى ، فيما راح يستثمر أرضه بفضل الأمن الذي ساد البلاد ، كما تمت محاربة تعديات أهالي البادية على المدن ٠ وشهدت البلاد لأول مرة إقامة المجالس المدنية والعسكرية وإنشاء مجلس للشورى يلتقي فيه أعضاء من جميع الطوائف وهكذا طرأت على بلاد الشام تبدلات أساسية خلال عقد من الزمن أصبح من العسير التراجع بعد أن عاد العثمانيون لحكم سورية في أول عام ١٨٤١ ٠ وقد شمل الاصلاح أيضاً الادارة والقضاء ، وفُتحت البلاد للمؤثرات الأجنبية(٤) ٠

ومع تبوّء السلطان عبد المجيد الأول العرش العثماني في عام ١٨٣٩ صدر أول مرسوم للاصلاحات نتيجة للضغوط الأجنبية ، وكرد فعل للاصلاحات التي أجراها ابراهيم باشا في بلاد الشام ٠ وقد تلاه أيضاً مرسوم آخر في عام ١٨٥٦ تم فيه الوعد بالمساواة بين المواطنين مهما كانت ديانتهم والتأكيد على مضمون المرسوم السابق ٠ وكان الأمر البارز في هذه الاصلاحات أن الدولة أخذت بنظام الحكم المركزي ، فشدّدت قبضتها على الولايات العربية القريبة التي أصبحت مرتبطة مباشرة بالعاصمة استانبول(٥) ٠

ولتنفيذ سياسة القبضة الحديدية كان لا بد للفئة الحاكمة في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، أن تلعب على حبل التناقضات بين الطوائف المختلفة إسوة بالدول الأجنبية التي توازعت هذه الطوائف ، فاتخذ الفرنسيون جانب مركزية الدولة العثمانية والصراعات الموارنة فيما برز البريطانيون بمظهر المدافع عن الدروز ، فظهر الخلاف الدرزي الماروني على أشده في جبل لبنان فيما راحت الدولة العثمانية تستغل الأزمات الاقتصادية التي أصابت الحرفيين المسلمين في دمشق لتأجيج النعرات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين(٦) ٠

وفي الوقت ذاته ، فان تصميم الدولة العثمانية على فرض الحكم المركزي في بلاد الشام وفي مدينة دمشق بشكل خاص قد ساهم في إثارة أعيانها وعلمائها الذين اعتادوا منذ قرون طويلة على التصرف المستقل ٠ وكان من الطبيعي أن تحدث هذه الأمور تطورات جديدة ومتلاحقة رافقت انهيار المؤسسات التي اعتاد

عليها الدمشقيون ، فنشبت من جراء ذلك ازمة حادة ذات جوانب اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية انفجرت في شهر تموز من عام ١٨٦٠ ٠

أحداث ١٨٦٠ في دمشق :

ولقد أجمعت المصادر المختلفة أن السلطة العثمانية كانت وراء تلك الأحداث فلقد استغلت التناقضات بين الطوائف وأوعزت الى ولاتها وضباطها في دمشق وصيدا وجبل لبنان بتأجيج الفتن ٠٠ فلقد أمر والي الشام ضباطه بافساح المجال أمام المسلحين من الجنود والشرطة والأشقياء ، فقاموا بالأعمال المشينة التي استنكرها جميع أبناء دمشق وتضافروا وقتئذ في مختلف أنحاء المدينة للتخفيف من آثار تلك الفتنة واغاثة المتضررين(٧)٠

وقبل حوادث دمشق ، كانت أنباء الأحداث الطائفية في لبنان قد وصلت الى استانبول ، وشاعت أخبارها في البلدان الأوربية ٠ فأراد السلطان عبد المجيد استباق ردود الفعل وتلافي ذيولها بسرعة قبل تدخل الدول الأجنبية ، فأرسل فرقة من الجيش مع وزير خارجيته فؤاد باشا مزوّداً بصلاحيات واسعة ، وعندما وصل الوزير الى بيروت أمر باعتقال والي صيدا خورشد ووالي دمشق أحمد باشا وتم اعدامهما مع عدد من الضباط بعد محاكمة سريعة ٠

ثم انتقل فؤاد باشا الى دمشق وأمر بالقاء القبض على عدد كبير من الناس واعدام ١١١ شخصاً من المتهمين ، كما تم اعتقال أعضاء مجلس الولاية وعدد آخر من أعيان دمشق وعلمائها ونفيهم الى قبرص وتركيا ، على الرغم أن المحاكمات لم تثبت اشتراكهم في الحوادث ، مما يُشير بوضوح الى أن الدولة العثمانية هدفت أيضاً الى تلقين الدمشقيين درساً مفاده أن لا يطمحوا الى أيّ حكمٍ مستقلٍ في المستقبل(٨) ٠

طموح الدمشقيين الى الاستقلال :

وهنا لا بد أن نتساءل : هل كانت لدى أهالي دمشق طموحات وطنية وعربية؟ كان أعيان دمشق في المدينة القديمة يشعرون بقدرتهم على التصرف المستقل عبر نظام اقتصادي واجتماعي متماسك ألفوه منذ قرون طويلة ٠ كما كان الدمشقيون في المدينة القديمة يعتمدون في كسب عيشهم وجني ثرواتهم على

مصدرين رئيسيين ، الزراعة والتجارة •وكان قطاع كبير من الأراضي الزراعية القريبة من دمشق تحت سيطرة أعيانها، فيما كان تجار النسيج يرتبطون بالصناعات الحرفية • ومن جهة أخرى راحت قنصليات الدول الغربية تُغدق الوكالات التجارية على المحميين من أبناءالطوائف غير الاسلامية حتى أن عدداً كبيراً منهم جنوا ثروات طائلة خلال العشرين عاماً التي سبقت عام ١٨٦٠ • ولقد كان من شأن التغلغل الغزير للسلع الأوربية في الأسواق الدمشقية أن وُضعت الصناعة المحلية في موقف حرج ،ولم يكن بمقدور سلع الانتاج المحلي منافسة مُنتجات الصناعات الآلية الرخيصة الواردة من أوربا وانتهى الأمر بالحرفيين الى الافلاس(٩) •

وكان الأعيان ، من الأشراف وأبناءالأسر الدينية العريقة ، يقومون بدور الوسيط بين الحكام والمحكومين • وكان يعيش معهم في المدينة الحرفيون والباعة الذين اعتادوا على نمط واحد من الحياة، فلم يحاولوا تحسين وتطوير انتاجهم ليواكب جودة وتقدم البضائع الغربية •وكانت الحرفة هي التي تضمن استمرار التقاليد العامة وتقاليد الأحياء الخاصةالتي يخضع لها الحرفيون في علاقاتهم الاجتماعية والعائلية ، وكانوا بشكل أوبآخر تحت رعاية السلطة الدينية • وعندما هزت الصناعة الغربية أركان المجتمع القائم خسرت دمشق منافذها التقليدية ، بل إنها خسرت نفسها وكل ما يمت الى وجودها الذاتي بصلة • فالعدو داهمها في عقر دارها • وكان رفض الغرب هو الرد الأول عبر رفض وكلائه التجاريين • ولقد كان ذلك في رأي الأعيان والعلماء والحرفيين دفاعاً عن الوجود والنفوذ ولقمة العيش(١٠) •

وتشير البيانات المختلفة الصادرة في تلك الفترة ، بأن الدولة العثمانية استغلت الأجواء النفسية التي رافقت الأزمات الاقتصادية المتلاحقة وتنفيذ الاصلاحات فدفعت عناصرها في جبل لبنان ودمشق لتفجير الأحداث • وكان من نتائج هذا الأمر أن فرنسا أنزلت قوات عسكرية كبيرة على الساحل اللبناني ، وراحت تتدخل بشكل سافر في شؤون الجبل ولكن بريطانيا كانت لها بالمرصاد فدعمت الدولة العثمانية في موقفها بالمطالبة بانسحاب الجيوش الفرنسية لأن أي من الدولتين الغربيتين ، لم تكن لترضى أن تُشرف الأخرى على أي شبر من

بلاد الشام . فاضطرت فرنسا أن تسحب جيوشها من لبنان بحيث لم يبق في أواخر عام ١٨٦١ أي جندي فرنسي فيه[١١] .

والجدير بالذكر ، أنه على الرغم من وفرة الوثائق والتقارير ، لم يستطع المؤرخون حتى الآن تحديد جميع العوامل التي كانت وراء الأحداث بشكل واضح ودقيق . فاذا أمكن للبعض منهم إبراز الحوادث السياسية والاقتصادية والدينية بشكل مقبول ، فان الجوانب الثقافية والقومية ظلت مهملة الى حد بعيد ، ولم تُمنح الاهتمام اللازم ، مع أن إرهاصاتها كانت تظهر بوضوح من آن لآخر منذ ذلك اليوم الذي وطأت أقدام المصريين بلاد الشام . وكان من أبرز معالم الوجود المصري إزدهار اللغة العربية وأدبياتها والمساواة بين المسلمين والمسيحيين ، فبدأ حس عربي قومي يتلمّس طريقه الى الفريقين على حد سواء ... وسُرعان ما أدركت الدول الثلاث ، بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية ، بأن الوعي الثقافي العربي في بلاد الشام سوف يسدّ المنافذ أمام المطامع الاستعمارية ، فراحت جميعها تؤجّج النعرات الطائفية بين أبناء البلد الواحد كي تُجهض أي نشوء لفكر قومي عربي في المستقبل .

بوادر الوعي القومي :

إذن ، يمكن القول أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر شهد الوطن العربي تحولات هامة أدت الى بروز حكام وقادة تفهّموا ما بلغته المدن العربية من نُضج اقتصادي وسياسي ، فاستثمروا ضعف مركزية الدولة العثمانية والصراعات الأوربية وتناقضاتها لاقامة دول مستقلة تضم أجزاءً من الوطن العربي ... وكانت أبرز تلك المحاولات هي تلك الدولة الموحدة التي أنشأها محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا ما بين عامي ١٨٣١ـ ١٨٤٠ والتي كان هدفها تأسيس امبراطورية عربية ما بين مصر وبلاد الشام على حد تعبير سفراء الدول الأجنبية . وفي هذا السياق لدينا مقتطفات من نص تقرير أرسله الى وزارة الخارجية الفرنسية دبلوماسي فرنسي رفيع المستوى هو البارون دي بواليكومت الذي قام بمقابلة محمد علي باشا في القاهرة في ربيع عام ١٨٣٣ ، وفي شهر آب من العام نفسه قابل ابنه ابراهيم باشا في طرسوس جنوب تركيا .

يقول المندوب الفرنسي : « لا يخفي ابراهيم باشا نياته باحياء القومية العربية (وكان المندوب يستعمل عبارة Nationalisme Arabe للدلالة على ذلك) بل يُعلن صراحة" وجوب انشاء وطن للعرب وقبولهم في المجالات المختلفة سواء في ادارة الشؤون الداخلية أو الجيش٠٠ وكانت بياناته وخطبه تُذكر جنوده بانتصارات العرب وبامجاد الأمة العربية، وكثيراً ما كان يردد بأنه يجب على جميع الناطقين باللغة العربية أن ينضموا تحت لواء والده محمد علي باشا » ٠

ويستطرد بواليكومت قائلا : « وفي تعامله مع الناس يستخدم ابراهيم باشا اللغة العربية إذ يعتبر نفسه بل يرغب من الجميع أن يعتبروه عربياً ٠٠٠ وقد تعرّض مرة الى سؤال عن سبب استهزائه بالأتراك مع أنه محسوب عليهم ؟! فأجاب بحدة : « أنا لست تركياً ، لقد جئت الى مصر صغيراً ، ومنذ ذلك التاريخ بدّلت شمس مصر دمي وجعلته عربياً » ٠

ويُضيف دبلوماسي آخر هو الكونت بروكش دوستن : « هنالك شعور عام بأن تأسيس امبراطورية عربية أصبح أمراً راهناً قريب المنال ٠٠٠ لقد نشأ ابراهيم باشا وفق المبادىء الحديثة ونأى بنفسه تماماً عن تأثيرات التشكيلات القديمة التي تؤمن بوجوب الطاعة الى الخليفة السلطان ٠ ومن جهة أخرى ، ومقابل الضعف الذي يستشري يوماً بعد يوم في السلطنة العثمانية ، برز جيش مصري عربي كامل التجهيز والتدريب تحفزه الانتصارات ويدعمه أسطول بحري هائل ٠٠٠ وهكذا تستطيع مصر المزودة بموارد كافية الاستغناء عن المساعدة التركية نتيجة ليقظة الروح القومية العربية »(١٢) ٠

وكتب القنصل النمساوي الى المستشار مترنيخ في ٢٦ تموز ١٨٣٣ يقول : « أسباب عديدة تُثبت أن فكرة تأليف الامبراطورية العربية لا تزال موجودة ٠٠٠ أضف الى هذا كله يقظة الروح العربية بعد سُباتها إذ أن محمد علي يتمتع بحسن السمعة والصيت الحسن في جميع الأقطار العربية » ٠٠٠ وكتب بالمرستون وزير خارجية انكلترا آنذاك (وأصبح رئيساً لوزرائها فيما بعد) الى قنصله في الاسكندرية يقول :« كان قصد محمد علي باشا تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب » ٠

وتكشف الوثائق والتقارير عن قيام عدد غير قليل من القوى المحلية في الوطن العربي بحركات تعاطف وتأييد لدولة محمد علي باشا إلا أن علينا أن نتذكر أن تأييد تلك القوى كان لهذه الدولة الجديدة وما تمثله من ثقل سياسي وعسكري جديد في المنطقة أكثر مما يتمثل في قيام هذه الدولة على صعيد الأمة العربية ٠٠٠ وكان ابراهيم باشا أبعد نظراً من أبيه في تقويمه لدور الأمة العربية وأكثر حماسة لقيام الدولة العربية الواحدة، فقد أعلن بصراحة أمام بعض القناصل الأجانب أنه « ينبغي إحياء القومية العربية، وأن يجعل من العرب شعباً ناهضاً له كيانه الخاص »(١٣) .

والمهم، في نظرنا، أن هذه الحقبة شهدت ولأول مرة استخدام مُصطلح « القومية العربية » ٠٠٠ ولكن هذا المصطلح لم يكن، في الربع الثاني من القرن التاسع عشر عنواناً لأيديولوجية محددة في الوطن العربي، وانما كانت الدعوة اليه شعاراً لحركة استقلال سياسي عن الدولة العثمانية والدول الأوربية رفع لواءها في المشرق العربي محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا، وحارب من أجلها الأمير عبد القادر الجزائري قائد النضال المسلح في الجزائر . ففي رسالة وجهها الى القائد الفرنسي بوجو في عام ١٨٤١ نلمح إدراكاً متميزاً لحقيقة أن الفرنسيين والأتراك أغراب بالنسبة لبلاده فيقول: « إن هذه القارة هي بلاد العرب، ومهما مكثتم معشر الفرنسيين فلستم إلا عابري سبيل، ولو طال مكثكم فيها ثلاثماية عام مثل الترك سينتهي الأمر بخروجكم منها » . وكان شعور الأمير عبد القادر بالانتماء العربي واضحاً وهو القائل(١٤) :

ورثنا سؤدداً للعرب يبقى ... وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالمجد القديم علت قريش ... ومنا فوق إذ طابت فعال
وكان لنا، دوام الدهر، ذكر ... بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر ... رجال للرجال هم الرجال

مراحل تطور الوعي القومي في بلاد الشام :

ويحق لنا أن نتساءل ٠٠ كيف تطور الشعور القومي في دمشق وبلاد الشام؟ كان الأمر البارز لدى علماء دمشق وأعيانها هو امتزاج الفكر الديني بالنزعة

العربية إيذاناً برغبتهم الدفينة بالتحرر من الأتراك ولسان حالهم يقول : « نحن لسنا أتراكاً ، نحن عرب وإن كنا عثمانيين». وكانت دمشق تحكم من قبل الأسر الدينية العريقة ، وبتسلسل عجيب ، منذ القرن السابع عشر . وكان الاعتزاز بالأصل العربي والانتساب الى النبي العربي الكريم أو الى أحد أبطال العرب المسلمين يمتزج لدى هذه الأسر بما فعله العرب في سبيل الاسلام ، وكان هذا الأمر بالذات يقوي من شعور الانتماء نحو الجماعات العربية وماضيها .. بل وكانت هذه الأسر في أحد معانيها لسان حال الوعي القومي العربي .

ومن جهة أخرى ، شكلت الأحداث الطائفية في عام ١٨٦٠ حداً فاصلاً بين مرحلتين هامتين من تاريخ دمشق . فاذا كانت المرحلة الأولى قد اتسمت بالأحداث الدموية وبمقاومة أعيان دمشق لاصلاحات السلطة المركزية في استانبول ، فلقد تميزت المرحلة الثانية بالهدوء والاستقرار . فالحكومة العثمانية التي استطاعت فرض الحكم المركزي على دمشق لم تحاول ضرب الزعماء التقليديين فيها حتى الجذور ، ولذلك لم تجنح لفرض عقوبة الاعدام بحقهم بل اكتفت بنفيهم . ولقد لقنتهم درساً مفاده : « إنكم لستم وحدكم في الميدان ، فعليكم بالامتثال لأوامر الحكومة المركزية ولسوف أبقي على مصالحكم الاقتصادية ولكن عليكم أن تدركوا أننا بحاجة الى قيادات جديدة من غير التقليديين لتتعاون مع النخبة السياسية المختارة في استانبول . »

وبعد فترة وجيزة ، وبالتحديد في عام ١٨٦٥ ، اتخذت السلطة العثمانية خطوة جديدة لاسترضاء أهالي دمشق ، فأصدرت عفواً عاماً وعاد المنفيون من وجوه الأسر القديمة وقد تقلص نفوذهم الاجتماعي وأدركوا أن عليهم الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية وأن يقبلوا بجميع اجراءاتها ... وهكذا لم يجد أبناء العائلات الدينية مناصاً إلا بالتكيف مع الأوضاع الجديدة وخاصة عندما شعروا أنهم سوف يفقدون احتكارهم للمحاكم الدينية بعد أن أنشأت الدولة محاكم مدنية خاصة للأحكام العاجلة في عام ١٨٥٨ فبدأ عدد من العلماء الكبار بتشجيع أبنائهم على دخول المدارس الاختصاصية المدنية في استانبول لدراسة القانون والادارة العامة بهدف تأمين موطىء قدم لهم في النظام القضائي المدني الجديد .

وهكذا تضاءل نفوذ الأسر القديمة ومن نجح من أفرادها في المحافظة على قوته السياسية أصبح أكثر اعتماداً على قاعدة موارده المادية منه على أصوله الاجتماعية ... ومع ذلك لم تطمئن الحكومة العثمانية الى هذه الأسر ، بل كانت تشعر بالعداء المتأصل الذي يكنه لها علماء دمشق وللاصلاحات التي فرضتها ، فاعتمدت على فئات أخرى من كبار الملاّك ، وكان معظمهم من حديثي النعمة الذين تسلقوا السلم الاجتماعي بعد عام ١٨٦٠ وحصلوا على الأراضي من خلال مناصبهم في الادارة المحلية ... وكان امتلاك الثروة يعني فتح الأبواب في الدوائر السياسية المحلية وفي استانبول نفسها التي أغدقت على هذه الفئات المناصب وألقاب الباشوية والامتيازات المختلفة ، فبرزت قيادات سياسية جديدة تدين بالولاء الكامل لجميع مفاهيم السلطة المركزية في استانبول . ولم يقف الدمشقيون موقف المتفرج من اجراءاتها الاصلاحية بل وجدوا من مصلحتهم التعاون مع هذه السلطة في عمليات البناء والتحديث فأنشئت المدارس المختلفة وتطورت الزراعة وافتتحت الطرق والجسور لتأمين الوصول الى المناطق الريفية ولاعادة فتح طريق بغداد أمام القوافل وتحسين شبكات الطرق والنقل والاتصالات التي تربط دمشق بالعراق ولبنان والجزيرة العربية واستانبول[١٥] .

سياسة عبد الحميد الاسلامية :

وهكذا استفادت طبقة الأعيان والملاّك من إصلاحات التحديث فانحازت الى السياسات الصادرة عن استانبول وخاصة أيام السلطان عبد الحميد الثاني الذي حكم منذ عام ١٨٧٦ وحتى عام ١٩٠٩ والذي شدد على الطبيعة الاسلامية للامبراطورية بعد فقدانه للولايات المسيحية في البلقان ، كما اهتم بارضاء الأعيان العرب في دمشق والمدن الشامية الأخرى فقرّب بعضهم اليه وجعلهم موضع سره . وقد جسّد نزعته الاسلامية بانشاء شبكات من الخطوط الحديدية ما بين بيروت ودمشق ، وبين يافا والقدس وأخيراً مشروع سكة حديد الحجاز الذي انتهى العمل فيه عام ١٩٠٨ وبدت الامبراطورية العثمانية في مطلع القرن العشرين أشبه بدولة اسلامية للأتراك والعرب معاً ... وبالرغم من استبداد السلطان عبد الحميد بدا أعيان دمشق والمدن الشامية الأخرى سعداء في العيش فيها[١٦] .

نشوء الفكر القومي :

وفي الوقت نفسه كان الشعور الوطني والقومي يتفاعل وينمو بين أفراد الطبقة العربية المتعلمة الذين تأثروا بمفاهيم الحضارة الغربية وبأفكار الثورة الفرنسية الداعية الى التمسك بالحريات الدستورية ومقاومة الاستبداد · فجاءت الخطوات الأولى من بعض المثقفين المسيحيين عندما تبلور لديهم شعور عربي أصيل بدأ على مستوى تذوق اللغة العربية وضمن مفهوم جديد يهدف الى تخطي الحدود الطائفية والى تنمية الحس القومي واجراء نهضة شاملة في جميع نواحي الحياة ·

وكان المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) أول من دعا سنة ١٨٦٠ الى القومية العربية · وكان توجهه الى العرب بشكل عام وليس الى السوريين وحدهم · وتُظهر موسوعته العربية اهتماما واضحاً بماضي العرب وبالشخصيات البارزة في التاريخ وفي الثقافة العربية والعالمية ·

وأما ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) فلقد ذهب بعيداً في شعوره القومي عندما راح يُلقي في الجمعية السورية في عام ١٨٦٨ قصيدته المشهورة :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فلقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وكانت القصيدة مشبعة بروح التمرد ، وقد دعا فيها السوريين الى الوحدة في سبيل اسقاط الحكم التركي :

لنطلبن بحد السيف مأربنا ولن يَخيب لنا في جنبه أرب

وفي هذا السياق فلقد شمل الحس القومي عدداً كبيراً من المثقفين والمتعلمين المسيحيين من أمثال أحمد فارس الشدياق وناصيف اليازجي وسليم البستاني وأديب اسحق وفرنسيس فتح الله مراش ونجيب عازوري وغيرهم ·

ولم يكن نمو فكرة القومية العربية ثمرة الاسهام الفكري للعرب المسيحيين وحدهم بل شارك المثقفون المسلمون في نمو الفكرة العربية وخاصة عندما شرعت النزعة الطورانية التركية تظهر في أواخر القرن التاسع عشر ، ساعية الى تتريك الولايات العربية القريبة من تركيا كبلاد الشام والعراق ·

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) والسيد محمد رشيد

رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) من بين أئمة الاسلام في زمانيهما ، ومع ذلك أعلنا صراحة تفضيل العرب المسلمين على الأتراك المسلمين · فلقد كان موقفهما وقولهما بأن العرب هم مادة الاسلام ،وهم أحق بالخلافة من الأتراك ، يُفصح عن إيمان أصيل بحق العرب في تنظيم حياتهم سياسياً على أساس وجود الأمة العربية ·

وقد تابع نجيب عازوري العربي الماروني أفكار الكواكبي ورضا وأعطاها تعبيراً أوضح وأكثر تحديداً في كتابه« يقظة الأمة العربية » حيث انطلق في نظرته من واقع العرب عند الفتح الاسلامي ، وبأن سياسة العرب هي سياسة التحرير لا القهر « بينما الأتراك يضطهدون المسلمين العرب أكثر من اضطهادهم المسيحيين إلا أنهم يحرضون أولئك على هؤلاء» ·وكان يتحدى دوماً الأتراك بقوله بأن « النبي عربي والقرآن عربي ولغة السماء عربية » ويتبنى نجيب العازوري فكرة خلافة عربية روحية يشمل سلطانها الديني العالم الاسلامي كلّه ، والى جانبها تقوم امبراطورية عربية تمتد من وادي دجلة والفرات الى السويس ومن البحر الأبيض المتوسط الى بحر عُمان ، تحكمها ملكية دستورية وسلطان عربي ·

وقد أخذت الفكرة القومية في نهاية التاسع عشر ومطلع القرن العشرين المكانة المرموقة بين الشباب المتعلم في دمشق وبلاد الشام · وبدأت الجمعيات والأحزاب السرية المنادية بالقومية العربية تنتشر بسرعة البرق · فالجيل الأول ، ممثلاً بالكواكبي ومحمد رشيد رضا وأديب إسحق وغيرهم ، لم يُبلور نظريته في الأمة لأن طبقات الأمة المختلفة لم تكن قد وعت أهمية الاستقلال والبناء القومي ، إذ أن مصالحها كانت وما زالت مرتبطة بالامبراطورية العثمانية ، ولأن وعيها لم يكن قد اكتمل بعد · ولذلك طرح الرواد الأوائل فكرة تطوير الامبراطورية وطالبوا باللامركزية على أن يكون للعرب دور بارز فيها · وفي مرحلة لاحقة ، عندما احتكّ المثقفون العرب بالغرب ونما نضجهم السياسي واكتمل وعيُهم القومي اختلط الوضع لديهم ، فهنالك الصراع مع الأتراك والصراع مع الغرب وانتشار الفكر الغربي وبعث التراث العربي ، فأدى بهم ذلك الى مرحلة جديدة من النظرة القومية الشاملة[١٧] ·

ولقد عبّر عن ذلك الوعي والاختمار نجيب العازوري في كتابه الذي صدر عام ١٩٠٥ في باريس ، وطرحها في الوقت ذاته الشاب الدمشقي صلاح الدين

القاسمي . وقد تبلورت الفكرة في ماسمي« حلقة دمشق الصغيرة » المنبثقة عن « حلقة دمشق الكبيرة » التي تكونت حول الشيخ المصلح طاهر الجزائري حيث ضمت الجيل الأول الذي تغلّبت عليه الثقافة التقليدية . وقد كان الشيخ الجزائري (١٨٥١ ـ ١٩٢٠) في أساس فكرة الاصلاح والتعريب . فهو مؤسس المكتبة الظاهرية واستطاع أن يجعل اللغة العربية لغة التعليم ، وقد كفت الدولة العثمانية يده لأنها كانت ماضية في سياسة التتريك لتعود اللغة التركية لغة للتعليم في جميع المراحل الدراسية . ومن رجال هذه الحلقة جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار وسليم البخاري وشكري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وغيرهم . واذا كان الجيل الطالع قد تعلّم من جيل الرواد إلا أنه بما يمثل من مطامح وما بلغه من ثقافة أصبح يتطلع الى شيء آخر ...

نشأت حلقة دمشق الصغيرة من رَحِم حلْقة دمشق الكبيرة ، فأنجبت جمعية النهضة العربية التي ترأسها محب الدين الخطيب وكان أمين سرها الشاب صلاح الدين القاسمي الذي كان في التاسعة عشرة من عمره عام ١٩٠٦ عندما تم تأسيسها. ولقد توفي في عام ١٩١٦ في التاسعة والعشرين من عمره عندما كان يمارس مهنة الطب في الحجاز . وقد كتب خلال حياته القصيرة مقالات كثيرة وعبَّر عن أفكار قومية واضحة متجاوزاً أفكار نجيب العازوري الذي قصَّر كلامه على« يقظة الأمة العربية في آسيا التركية » .

يقول صلاح الدين القاسمي : « إن القومية كانت وما برحت من أعظم عوامل النهوض ، وتاريخ النهضات شاهد على ذلك إذ أثبت أن الأمم المتمدنة لم تتمتع بالحياة الاجتماعية والسياسية إلا عندما تشبعت نفوسها بفكرة القومية ، وأنزلتها منزلة الاعتقاد الراسخ والايمان الصحيح، فمجدتها وضحت لها على مذابح الثورة بنفوس أبنائها وأهرقت من أجلها دماءهم» ويقول في مكان آخر « إن الذي يعادي فكرة القومية ، بدعوى أنها مدعاة لتفريق الكلمة جاهل بحقائق التاريخ وسر تقدم الأمم » . وهكذا فان موضوع وجود الأمة العربية كان محسوماً تماماً بالنسبة لصلاح الدين القاسمي ، فهو لايناقش الموضوع مناقشة الذي يثبت وجود الأمة كما فعل ساطع الحصري فيما بعد ، ولايحدد عوامل وجودها . إن الأمة موجودة والقومية من الضرورات الاجتماعية ، ولا شيء أكثر من ذلك .

وقد ظهرت جمعية النهضة العربية الى العلن بعد اعلان الدستور العثماني

عام ١٩٠٨ وكان لها الفضل الأول على كل الحركات السياسية والتحريرية في المشرق العربي ، فهي التي أشعرت العرب بشخصيتهم وأرست القواعد الأولى للفكرة العربية في ظل الحكم التركي ٠ وتوالت بعد ذلك الجمعيات العربية والأحزاب السياسية للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم ٠ وكان من عوامل إذكاء الروح القومية لدى الشباب العربي برنامج التتريك الذي حاول تطبيقه وتنفيذه في الولايات العربية جماعة الاتحاد والترقي ورجال تركيا الفتاة الذين جاؤوا بعد خلع السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٨ ٠٠٠ وعندما اتخذت هذه الأحزاب والجمعيات الطورانية من القومية المتطرفة والتفوق العرقي أساساً لبرامجها راح قادة العرب وشبابهم المثقف يفكرون بمستقبل أوطانهم العربية بالأسلوب ذاته[١٨] ٠

وهكذا نشأت أحزاب وجمعيات عربية في بلاد الشام والعراق كالنهضة العربية والمنتدى الأدبي والجمعية القحطانية والعلم الأخضر والعهد وجمعية بيروت الاصلاحية ، وجمعية البصرة الاصلاحية ، والنادي الوطني العلمي في بغداد ، وجمعية العربية الفتاة ، وحزب اللامركزية الادارية العثمانية ٠ ونتوقف قليلاً عند هاتين الحركتين الأخيرتين ٠ ولقد كانت جمعية العربية الفتاة التي انبثقت عن جمعية النهضة العربية أهم تلك الجمعيات إذ قادت الاتجاه القومي العربي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى في دمشق وبلاد الشام ، وقاد رجالها الحكم الوطني في عهد الملك فيصل وبعده خلال الانتداب الفرنسي تحت أسماء أخرى ٠ وأما حزب اللامركزية الادارية العثماني فلقد أسسه جماعة من سياسيي سورية المقيمين في مصر وبمعرفة الحكومة التركية في استانبول ٠ وكان من مبادئه أن يكون هنالك لغتان رسميتان ، التركية والعربية ، وأن تُدار كل ولاية على أساس اللامركزية الادارية ويتم التعليم باللغة الغالبة وقد شارك عدد من أعضاء هاتين الحركتين في المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس عام ١٩١٣ كما قدمت الحركتان عدداً من شهداء ٦ أيار ١٩١٦ في بيروت ودمشق[١٩] ٠

وهكذا كان لدمشق فضل كبير في نشوء الفكر القومي العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠ ولا يتسع المجال هنا للكلام عن مسيرة القومية العربية في هذا القرن وعن المؤامرات الأجنبية التي استهدفت تجزئة الأمة العربية وضرب أي تطلع نحو الوحدة وتحقيق حرية الانسان العربي ٠

لقد أثبت تاريخ المشرق العربي بأنما يسمى بالشرعية الدولية ، لا تسعى أبداً لمحاربة الظلم ولا تهتم مطلقاً بتحقيق العدالة والانصاف ، بل تستهدف النظام والاستقرار كي تظل الحدود التي رسمتها الدول العظمى للأقطار العربية بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية غير قابلة للنقاش والتعديل ولتبقى خاضعة على الدوام للمتطلبات الستراتيجية لهذه الدول .

ولذلك فان مقاومة المخططات الأجنبية التي تستهدف ابقاء التجزئة وتفتيت الأمة العربية أمر واجب على كل مواطن عربي يؤمن بحق العرب في الحياة الحرة الكريمة ... ومن هنا فان بناء الوحدة العربية أمر مثير يتطلب الالتزام الشخصي لكل انسان عربي ... فالقومية العربية هي روح التاريخ ومتنفسها عبر الأجيال .

فلا شيء يتم دون التزام ... ولا شيء يتحقق دون كفاح .

الحواشي :

١ - زين نورالدين زين - الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص ٢٢ - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧ .
٢ - نفس المصدر ، ص ٢٤ .
٣ - ساطع الحصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٦ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٠ .
٤ - عبدالكريم رافق - العرب والعثمانيون ، ص ٤١٠ - مطابع الف باء - الأديب - دمشق ١٩٧٤ .
٥ - ساطع الحصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٨٧ - ٩٢ .
٦ - زين نورالدين زين - الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٣٥ .
٧ - محمد سعيد الأسطواني - مشاهد وأحداث دمشقية (١٨٤٠ - ١٨٦١) الورقتان ٢٧ ب و ٢٨ آ .
٨ - نفس المصدر السابق .
٩ - ألبرت حوراني - الاصلاح العثماني والمشرق العربي - مجلة الواقع - بيروت - العدد الرابع - شباط ١٩٨٢ .
١٠- فاروق مردم بك - ملاحظات حول الفكر العربي في عصر النهضة (ألبرت حوراني) مجلة مواقف - بيروت - العدد السابع - كانون الثاني - شباط ١٩٧٠ .
١١- كمال الصليبي - تاريخ لبنان الحديث - ص ١٤٧ - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٨٤ .
12 — Gabriel Enkiri - Ibrahim Pacha, Imprimerie Française le Caire 1948.
١٣- عماد عبدالسلام رؤوف - الجمعيات العربية وفكرها القومي - مجلة المستقبل - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - العدد ٨١ - ١٩٨٥ .
١٤- نفس المصدر السابق .
١٥- فيليب خوري - أعيان المدن والقومية العربية - ص ٢٦-٤٤ - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٩٣
١٦- نفس المصدر - ص ٤٩-٨٢ .
١٧- الفكر العربي في مائة سنة - بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية - الجامعة الأميركية - بيروت ١٩٨٤ .
١٨- ناجي علوش - رواد الحركة القومية العربية - مجلة المستقبل العربي - العدد ٦٨ - ١٩٨٤ - ص ٤٧-٥٦
١٩- نفس المصدر السابق .

دمشـــق
في النصوص المسمارية

د. فيصل عبد الله*

● تمهيـــد :

لا احد يعلم متى بدأ الانسان باستغلال نهر بردى بصورة منظمة ، أو مَن شيَّد المدينة المعروفة اليوم باسم دمشق ، ولكن أقدم الاشارات الكتابية عنها وعن غوطتها الخضراء تعود الى بدايات الألف الأول قبل الميلاد ، وتشير الكتب الدينية والتراثية ، المتاخرة عن المصادر المسمارية ، الى أن دمشق هي أقدم عاصمة ، مسكونة في العالم ، وينسبون تاسيسها الى حفيد لنوح(١) •

اذا تركنا جانباً الأسطورة والملاحم الأدبية القديمتين ، فان الحفائر الأثرية لم تقدم شواهد كتابية أو قرائن يمكن تاريخها أبعد من بدايات عصر الحديد (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) ، ولا شيء يُعرف عن ماضيها المغرق في القدم الا من مصادر كتابية وأثرية مكتشفة في مواقع أخرى ، باستثناء تمثال صغير ، اكتشف في جدار المعبد الروماني ، نمطه سوري ـ فلسطيني يؤرخ في القرن التاسع ق.م(٢) •

البحث عن دمشـق القديمة :

فضلا عن قلة الدراسات وتعذر التنقيب في دمشق ذاتها ، فان المصادر المسمارية والمصرية القديمة (الهيروجليفية) متناثرة ، ولا تغطي حكماً ولا عصراً ، ويتلو أقدم إشارة كتابية عنها في عصر البرونز الوسيط قرون من الصمت ، ولا يوجد سوى إشارات معزولة في عصر البرونز المتأخر • وعلينا الانتظار حتى القرنين التاسع والثامن لنقرأ بعض المعلومات المتصلة في الحوليات

★ استاذ مساعد في تاريخ المسماريات ـ جامعة دمشق •

الآشورية ، ويتلو ذلك عقود وعقود من الصمت والغموض ••• ولهذا تقود حماسة البحث في تاريخ المدينة القديم الى خيبة الأمل •

أسماء دمشق وممالكها ••

الاسم •• دمشق :

إذا كان إسم دمشق من أصل لغوي سامي كبقية الأسماء ، أو أنه من أصل آخر ، فليس من المؤكد فهم معناه واشتقاقه • هناك كثير من الفرضيات التي تستحق الاهتمام ، ولكنها لم تتوصل بعد الى تفسير مقنع ، يستند الى معطيات نصية •

لقد ظهر إسم دمشق للمرة الأولى في التاريخ على الشكل التالي : تـ ـ مسـ ـ قُ Ta - ms - qu وهو منقوش بالكتابة الهيروجليفية (المصرية القديمة) على جدار معبد الكرنك في الأقصر بمصر بين لائحة من أسماء المدن التي فتحها تحتموس الثالث في القرن الرابع عشر ق•م•

وظهر اسم دمشق للمرة الأولى باللغة الأكادية وبالخط المسماري في نصوص تل العمارنة في ذات العصر أيضاً في ثلاثة نصوص على الشكل التالي :

☆ (أورو) دِ ـ مَشـ ـ قَ (uru) di-mass-qa* (197:21)
☆ (أورو) د ـ مَـ ـ اشـ ـ قَ (uru) du-ma- ass- qa (107:28)
× (أورو . تِـ ـ مَشـ ـ قِ (uru) ti-ma-ass-qi (53:63)
(أورو تعني مدينة) •

وذكر إسم دمشق في رسالة بالأكادية المسمارية موجهة الى Zalaia أحد ملوك دمشق ، عثر عليها في موقع كامد اللوز في لبنان، تعود الى القرن الرابع عشر ق.م. كما يلي :

☆ (تَـ ـ مَـ ـ اشـ ـ قَ (uru) ta-ma-ass-qa .

وذكرت دمشق في النصوص الآشورية في مطالع الألف الأول ق.م. كما يلي[٣]:

★ يرجى قراءة كل ss = ش •

(أورو) دِ ـ مَشـ ـ قَ	(uru) di-mass-qa
(أورو) دِ ـ مَشـ ـ قِ	(uru) di-mass-qi
(أورو) دِ ـ مَشـ ـ قُ	(uru) di-mass-qu
(أورو) دِ م ـ مَشـ ـ قُ	(uru) dim-mass-qu

لقد كُتب الكثير حول معنى الاسم دمشق وكـان ألبرايت Albright ، وتبعه آخرون ، قد فسره على أنه من أصل لغوي سامي ، ويمكن فهمه بطريقتين ، الأولى تعتبر الدال إسم إشارة ذو ، والثانية أن أصلها دار معتمدين على التوراة حيث يرد دار مسق أي دار مشق أما معنى مسق / مشق فقد أرجعه كلاي Clay إلى إسم جبل ورد في ملحمة جلجامش هومَش' حيث تغرب الشمس وفهم إسم الاله شمش الأكادي على أنه شَ ـ مش ، وبما أن شَ هي إسم موصول بالأكادية أي الذي (هو) مش' ، مطابقاً هذا الجبل على جبل حرمون ، ومن ثم يكون المعنى (المدينة) التي على سفح مش' ، أما القاف في دمشق فليست إلا تناسخاً لـ (كي KI) السومرية التي تعني مكان أو مدينة ، هكذا تنتهي الفرضية التي تريد أن تفهم من دمشق مدينة الشمس ؛ رغم جمال الصورة وإغرائها الشاعري ، إلا أنه لا توجد نصوص أو أدلة لغوية أخرى تدعم هذا التفسير(٤) .

وذهب هوبت Haupt إلى أن مسق وشق لها علاقة بالجذر سقى ، فترجم دار مشق بالدار المسقية .. واقترح ألبرايت أن تكون مسق مشتقة من كلمة مِشق التي تعني الحوار الفخاري فهي مدينة الفخار إلخ ... تفترض التفاسير السابقة أن الاسم سامي وأن دار جزء منه ، وهذا أمر غير مؤكد ، إذ لا توجد أمثلة على ذلك من النصوص المسمارية في الألف الثاني ، ومن الصعب إعتبار دار مسق تعود لأبعد من العصر الفارسي .

ونلاحظ أخيراً أن التاء أقدم من الدال ، كما ورد أعلاه في النصوص المصرية ومن الصعب تحولها الى دال ثم ذاء كي تصبح إسم إشارة .

ويعتقد آخرون أن أساس المشكلة يأتي من إعتبار الاسم من أصل سامي ، ولهذا لم نعثر على تفسير مقبول حتى الآن(٥) .

أسماء منطقة مدينة دمشق :

لقد كانت مدينة دمشق عاصمة لعددمن الممالك في الألف الأول والثاني ق٠م٠ وعرف سكانها إسم منطقتهم بـ آبوم (بتشديد الباء)Apu(m) في الألف الثاني و آرام Aram في الألف الأول ٠ ولذا لابد من التعرف على هذين الاسمين ، وخاصة آبوم الذي لم يرد إلا في النصوص المسمارية والهيروجليفية ٠

لقد ورد آبوم بين أسماء بلدان ومدن النقش المصري المعروف بنصوص اللعنة ، المكتشفة في صقارة زمن المملكة الوسطى ، وكان ألبرايت أول من تحقق من أن البلاد التي تدعى إبو Ipwm كما جاءت في النصوص هي دمشق[٦] ، مستنداً الى نصوص عصر البرونز المتأخر حيث ورد في محفوظات تل العمارنة بالصيغة آبي ، آبي ٠

KUR a-pi (197:43,42) , KUR u-pi (EA 53:57, 59, 62, 189: rev. 12)

حيث أن كور تعني بلاد وبالتالي إن المقصود بلاد آبوم ، وقد ورد في نصوص حثية بصيغة أبينا و آبا ، وقد لاحظ اللغويون أن الضم ليس إلا لهجة سورية كنعانية،واعتبر ألبرايت أن أصل الكلمة أكادي آبوم (م) apu(m) معناه غيضة القصب وهو إسم أطلقه الأكاديون على مناطق الغياض في بابل وسوزا وهذا يتناسب أيضاً مع طبيعة جزئها الشرقي المليء بالقصب ٠ لقد إستحسن بعض العلماء هذا التفسير اللغوي ، رغم ضعف برهانه[٧] ٠

من جهة أخرى ، فقد ظهر في نصوص ماري إسم آبوم وقد حاول ألبرايت جاهداً أن يثبت أن آبوم الدمشقية ، ولكن تبين بعد سنوات من النقاش بين المتخصصين في الدراسات المارية أن هناك مملكتين تحملان ذات الأسم الأولى في الجزيرة العليا ، ربما في موقع عرف بـ شُباط انِليل (تل ليلان قرب القامشلي) والثانية في منطقة دمشق ، ومعنى ذلك أن لا ذكر لدمشق أو آبوم في محفوظات ماري (ن. نفسه ص٤٧).

وهكذا نلاحظ ندرة المعلومات حول آبوم/ا'بي ، فهي معدومة في نصوص ماري وتقتصر على إشارات غير كافية في عصور الصراع الدولي المصري والحثي والميتاني على ثروات سورية٠ ولم يعرف شيء عن دور دمشق السياسي في بلاد ا'بي، رغم ظهورها في النصوص كمملكة متواضعة متحالفة مع مصر غالباً ٠

آرام :

لن نفصل في إستخدام هذا الاسم ،لأن النصوص المسمارية الآشورية الحديثة (بدايات الألف الأول ق٠م٠) لم تذكره للدلالة على منطقة دمشق ، وإنما استخدمت تعبيراً خاصاً هو (كور أنشـِ ـشو) بالسومرية و (مات إمِريشو) بالأكادية ، وهو ما سنتناوله بعد قليل ٠لقد كان إسم آرام في الألف الأول ق٠م٠ متعدد الاستعمالات، الجغرافية والعرقية، بعد أن أصبحت سورية والرافدين تحت الحكم الآرامي ، وكانت دمشق عاصمة إحدى أقوى الممالك الآرامية ٠

مات إمِريشو ، شا ـ إمِريشو :

كما ذكرنا آنفاً ، لم يستخدم الآشوريون اسم آرام للدلالة على مملكة دمشق خلال القرنين التاسع والثامن ق٠م٠ وإنما استخدموا التعبير إمِريشو (كورأنشـِ ـ شو) مع الاختلافات التالية :

mat Imerissu (KUR ANSSE-ssu) Ssa-Imerissu (KUR ssa ANSSE-ssu, KUR sa ANSSE. NITA-ssu).

لا توجد معلومات واضحة عن سبب استخدام الآشوريين لهذا الاسم ، كما أن معناه قد أسال حبراً كثيراً ، وهناك أكثر من مكان يحمله ٠ لا بد من الاشارة الى أن بعض العلماء قد قبلوا دلالة مات إمِريشو على دمشق نفسها وهذا أمر غير مؤكد(٨) ٠

ان الكتابات الآشورية المتأخرة للملك شلمنصر الثالث قد ذكرت حزائيل ملك دمشق الآرامية على الشكل التالي :1 ha-za-'i-DINGIR SSA KUR ANSSE-ssu, في حين ذكره شلمنصر لاحقاً أنه حاصر حزائيل في URU di-ma-ass-qi URU ssarru-ti-ssu, (أورو دِ ـ مَ ـ ش ـ ق أورو شَرّو ـ تـ ـ شُ) أي « في دمشق عاصمة مملكته » ونجد في كتابات أددنيراري الثالث ما يلي :

a-na KUR ssa-ANSSE-ssu lu-u a-lik 1ma-ri-'i ssarru ssa KUR ANSSE-ssu ina URU di-ma-ass-qi URU ssarru-ti-ssu lu-u e-sir-ssu.

(أ ـ نا كور شا ـ أنشِ ـ شُ لُ ـ و أ ـ ليك ١ مَـ ـ رِ ـ عي شَرّو شا كور أنشِ ـ شو ـ إنا أورو دِ ـ مَـ ـ شـ ـ ق أورو شَرو ـ تِـ ـ شُ لُ ـ و ا ـ صِر ـ شُ) أي : (إلى بلاد شا ـ إمِريشُ ، قد ذهبت ٠ مرعي ، ملك بلاد

امريش' ، قد حاصرته في دمشق عاصمة مملكته ٠) نلاحظ أن النص يفرق بوضوح بين البلاد وهي إمريش' والعاصمة وهي دمشق(٩) ٠ ولنذكر هنا أن هذه آخر اشارة لمدينة دمشق في النصوص المسمارية ، بعد سقوطها على يد الآشوريين عام ٧٣٢ ق٠م ٠٠ ونشير في هذا المجال الى الكلمات الأكادية التي بقيت في لغتنا العربية حتى اليوم ، وهي كما نلاحظ، شا أنش السومرية ويقابلها إمر الأكادية وحمار العربية كما سنرى بعد قليل ، أليك من ألك وهلك بمعنى ذهب ، الاسم مرعي ، وأخيراً اصرو يقابلها حصر ٠

لقد حدث بعض الاختلاط فيما يتعلق بتفسير شا أنش السومرية التصويرية التي ترجمها الأكاديون إمر أي حمار ،ومردذلك أن أوائل علماء الأكاديات قد اعتبروا أن شا-أنش شو ssa- ANSSE-ssu هي الترجمة الأكادية لـ dmssq دمشق ، حيث رأوا أن يقابلوا شا في مطلع الكلمة بالدال في دمشق وأنها ليست الا الاسم الموصول ذو ٠ ولكن أنش تعني إمر أي حمار ، ولا نجد علاقة بين مسق / مشق وحمار في أي من اللغات السامية ٠ وهناك آخرون اعتبروا أن الناسخ القديم قد أخطأ وفهم من مسق المعنى اياه ٠ أما Speiser سبيسر فقد ارتأى معنى إمر هو دولاب ماء ، طالما هناك من يعتقد أن مسق لها علاقة ـ ب شقي التي تعني غيضة المياه ، ولكن هذه الفرضية لم تلق الرضى أيضاً ٠ ونذكر بوجنون Pognon الذي قرأ الاشارة التصويرية السومرية أنش على أنها آرام ، ولكن دون سبب مقنع ٠ وهكذا لم نستطع أن نفهم تماماً سبب تسمية الآشوريين دمشق ومنطقتها بـ « بلاد الحمير » ، ولعل آخر دلو ندلي به في هذا المجال هو أن دمشق كانت مركزاً لتربية سلالات من البغال أو الحمير في الفترة التي سبقت ظهور الجمل وحداثة عهد استخدام الحصان وارتفاع ثمنه ، كما كانت مركزاً لمرور قوافل الحمير القادمة من قطنة وتدمر والرافدين ومن شمال سورية والأناضول والمتوجهة الى لبنان وفلسطين ومصر والحجاز في الجزيرة العربية، فقد كانت ولا شك هائلة العدد، ويمكن أن نذكر في هذا المجال رسالة لحمورابي يعرض فيها على زمري ليم ملك ماري أن يرسل له خمسة آلاف حمار محمل بالحبوب ٠ ربما كان الرقم كبيراً ،ولكن الحمار كان واسطة النقل الوحيدة

آنذاك • وهكذا يمكن أن نتصور أعداداً من قوافل الحمير التجارية التي تعبر المنطقة ، مما جعل الآشوريين ينعتونها ببلاد « قوافل » الحمير[١٠] •

من جهة أخرى ، لم تقدم نصوص الألف الثالث ق•م• أية معلومات عن دمشق وخاصة محفوظات ابلا التي اكتشفت في تل مرديخ ، رغم أن بيتيناتو Pettinato قد نوه الى ذكرها في البدء ومن ثم لم ينشر ذلك في قوائم الأسماء الجغرافية وغيرها التي تظهر تباعاً[١١] • ولكن الدلائل المستمدة من الحفائر والنصوص المجاورة تشير الى أن دمشق كانت من المواقع الأساسية لاستقرار الأموريين منذ نهاية الألف الثالث ق•م• كما كانت محطة للقوافل المتوجهة الى حاصور في فلسطين التي ذكرت في نصوص ماري في القرن الثامن عشر ق•م• • ويشير نص رسالة من المحفوظات الآنفة الذكر الى مناطق ، ربما كانت امارات أمورية ، ويأتي ذكرها وفق التسلسل الجغرافي الآتي : بلاد يمخاض (أي حلب / خلب بالأكادية) ، بلاد قطنة (حمص) ، بلاد أمورو ؛ وتذكر رسالة أخرى مبعوثين لأربعة ملوك أموريين قد ارتحلوا برفقة مبعوثين من حاصور وقطنة • يمكن الاستدلال من هذه المعلومات أن بلاد الأموريين المقصودة هنا تمتد من جنوبي قطنة الى مناطق مملكة حاصور ، أي أن منطقة دمشق هي احدى تلك الامارات الأمورية حيث كانت تعرف ببلاد آبوم آنذاك ، ولكن يجب أن ننوه الى أن أمورو قد تعني الغربيين وبالتالي فان عبارة الملوك الأموريين هنا لا تشير بالضرورة الى منطقة دمشق • لقد أصبحت دمشق مملكة آرامية في نهاية القرن الحادي عشر ، ولكن لم يكن لها شأن كبير ولا توجد معلومات حول الموقف السياسي الدولي • ولكنها لعبت دوراً على طريق التجارة المؤدي الى مصر والجزيرة العربية •

وتقدم بعض الكتابات المسمارية الآشورية معلومات هامة عن دمشق ـ آرام في المعترك الدولي بين ٨٥٣ ـ ٨٤١ ق•م• ، حيث تذكر لأول مرة ، كما ذكرنا أعلاه ، في كتابات شلمنصر الثالث ، الذي واجه تحالفاً آرامياً بقيادة أدد ـ إدري (IM-'i-id-ri DINGIR) ملك إمريشو ، وعاصمتها دمشق ، واستطاع أن يؤلب حوله جميع الممالك الآرامية • ولكن شلمنصر ينتصر عليه وفق ما نقشه على

نصبه المعروف KAH30 [١٢] • وتتالت حملات الآشوريين على دمشق حتى أصبحت تحت السيطرة الآشورية في عهد تجلات بلصر الثالث عام ٧٣٢ ق٠م٠ للنفوذ الآشوري في جنوب سورية •

وأخيراً ، اذا أردنا أن نستعرض النتائج الأساسية لتاريخ دمشق المستمد من المصادر المسمارية ، نلاحظ ما يلي :لقد كانت دمشق تعرف ببلاد أبي / أبي في النصف الثاني من الألف الثاني ق٠م٠ ، ولكن دون أهمية سياسية تذكر ، وأشارت الكتابات المصرية والحثية الى دور تجاري لها، كجزء من مناطق نفوذها. ولم نعرف عن دمشق ما يُذكر عن دور سياسي وثقافي وفني ، كبقية المدن الأمورية والكنعانية مثل حلب وقطنة وقادش والقدس وغيرها من المدن التي ذكرت في النصوص المسمارية ولن يبرز مثل هذا الدور الا في نهاية القرن العاشر ق٠م٠ حيث عُرفت باسم آرام ،ولكن لم نعثر حتى الآن على مصادر كتابية أو أثرية من المدينة نفسها • وكل ما وصل الينا هو من مصادر خارجية آشورية فقط • وبلغت أهميتها القصوى عندما شكلت تحالفاً آرامياً ضد الآشوريين ، واستطاعت أن تفرض سيطرتها السياسية على جنوب سورية وفلسطين ، خلال القرن التاسع وبداية الثامن ق٠م٠ •ولكن الآشوريين أخضعوها من جديد ، زمن تجلات بلصر الثالث (٧٣٢ ق٠م٠) ، ونلمس ضمور دورها السياسي من خلال محاولة للثورة ضد شروكين الثاني عام ٧٢٠ ق٠م٠ • ولم تتوقف دمشق عن التطور الاقتصادي والتجاري بدليل نماء زراعتها في الغوطة الشهيرة ، وموقعها الجغرافي على طرق تجارة الجنوب أي فلسطين ومصر والجزيرة العربية• ورغم انعدام المعلومات الكتابية والأثرية في القرون التالية الطويلة ، الا أن دورها السياسي لا بد وأنه كان على مستوى تطور زراعة غوطتها وأهمية موقعها التجاري ، ولا شك أن تعذر التنقيب فيها يمنعنا للأسف عن توثيق أيامها الغابرة التي يفترض أن تكون ذات مجد وفخار •

* * *

□ الحــواشـي :

١ ـ أنظر : Pitard p. 2 .. Sauvaget, 1934, 427-28 . أنظر (ن.) قائمة المصادر أدناه وفـق التسلسل الأبجدي مـن أجـل الاسم الكامل لكل مصدر أو مرجع نورده مختصراً •.

٢ ـ مـن أجل قائمة مصادر موسعة عن تاريخ دمشق القديم ن .Pitard, p. 193ff حيث يتعرض لجميع الدراسات التي سبقته خلال القرنين الماضيين ، وجميعها بلغات أجنبية • نعتذر هنا عن ايراد دراسات باللغة العربية لعـدم توفر فهرسة لها ، كما أنها ليست أصيلة بل مقتبسة أو مترجمة ، أما شأننا هنا ، فقد اعتمدنا في دراستنا هذه الأطروحة المذكورة أدناه رقم ١٣، pitard فهي الأحدث في هذا المجال ، وتقود الى ما سبقها ، أما دراسات الأعوام التي تلتها ، فلم تقدم جديداً لتاريخ دمشق ، الا فيما يتعلق بالتعبير الجغرافي آپوم ، بعد اكتشاف نصوص تل ليلان (قرب القامشلي) التي دعيت قديماً شُباط انليل ، عاصمة شمشي أدد الأول مؤسس الدولة الآشورية القديمة وقد أصبح شبه مؤكد أن آپوم هو الاسم الجغرافي الأقـدم للمنطقة في القرن الثامن عشر ق.م • وأن دمشق كانت تحمـل الاســم نفسـه • ن. حــول الموضـوع D. Charpin, M.A.R.I. 5 = Mari Annales de Recherches Interdiscipliairs, pp. 129-140. Paris, 1989.

٣ ـ من أجل تهجئة الاسم ن. : Ablright 1934 p. 62. Helck 1971, 129. Edzard 1970, 52. Pitard, 7.

٤ ـ ن. التفـاصيـل Pitard, 8

٥ ـ هكـذا يـرى كـل مـن Sauvaget 1934, 435. Gordon 1952, 175 no. 7 وهناك امكانية أخرى وهي أن الاسم من جذر رباعي سامي بدئي ن. Pitard 9 .

٦ ـ ن. Albright 1940, 34-35 نشرت نصوص اللعنـة المصريـة المكتشفة في صقـارة مـن قبـل Posener 1940 ووردت الأسماء في النصوص E33, E34, p. 81-82 .

٧ ـ ن. Pitard p. 11 .

٨ ـ من أجل تفاصيل النقاش ن. المرجع السابق ص ١١ •

٩ ـ مـن أجـل ترجمة النص ن. نفسه ، وقبله Tadmor 1973, 148-149

١٠ـ من أجل أصحاب هذه الفرضيات والقراءات وتفاصيلها ن. Pitard, p. 15 .

١١ـ كان جورج دوسان أول قارىء لنصوص ماري منـذ اكتشاف ماري في الأربعينات حتى وفاته عام ١٩٨٣ ولم ينشر كل ما حوته مكتبته الخاصة مـن نصوص مسمارية ، وكان يكتفي أحياناً بنشر مقاطع فقط مـن النصوص وفق احتياجات دراساته • وقـد نشر المقاطع المعنيـة هنـا في : Dossin 1954, 417-25, 1957, 37-38 وانظر حول الموضوع Klengel 1965-70, : 2. 96-138

□ بعض المصـادر والمراجـع الأسـاسيـة :

1 — Albright, W. F. The Vocalisation of the Egyptian Syllabic Orthography. New Haven : American Oriental Society. 1934.

2 — The Land of Damascus between 1850 and 1750 B.C. BASOR 83:30-30. 1941.

3 — The Amarna Letters from Palestine, pp. 98-116 in The Cambridge Ancient. History, 11/2, Ed. by I. E. S. Edwards, 1975a.

4 — Syria, the Philistines, and Phoenicia, pp. 507-36 in The C.A.H. 1975b.

5 — Aldred, C. Egypt : The Amarna Period and the End of the Eighteenth Dynasty pp. 49-97 in The C.A.H. 11/2, 1975.

6 — ANET 3 Anciet Near Estern Texts Relating to the Old Testament. J. B. Pritchard, Princeton, University, 1969.

7 — Dossin G. Les rachives épistolaires de Mari, Syria 19:105-26, 1938.

8 — Les archives Economiques du palais de Mari, Syria 20:97-113, 1939. Le royaume de Qatna au XVIII^e siècle avant notre ère d'après les Archives Royales de Mari, BARB : CL 40:417-25, 1954.

9 — Edzard, D.O. Die Keilschrift briefe der Grabungskampagne 1969, 1970, pp. 94-62 in Kamid el-loz-Kumidi : Schriftdokumente aus Kamid el-Loz, D. O. Edzard, et al. Bonn : Rudolf Habelt.

10— Klengel Horst, Geschichte Syriens im 2. Jahrtausend v.u. Z. I,II,III, 1965-1975.

11— Merrill F. Unger's, Israel and the Aramaeans of Damascus, 1957.

12— Porter, H. Five Years in Damascus, London : 1855.

13— Pitard T. Wayne Ancient Damascus, a Historical Study of the Syrian City-State from Earliest Time until its Fall to the Assyrian in 732 B.C.E. Indiana 1987.

14— Rost, p. Die Keilschrifttexte Tiglat-Pilesers III. Leipzig : 1893.

15— Sauvaget, J. Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Révue des études islamiques 8:421-76, 1934. Le plan antique de Damascus, Syria 26:314-58, 1934.

★ ★ ★

دمشق ما قبل التاريخ

د. سلطان محيسن

مقدمـــة :

دمشق مدينتنا العظيمة ، نعـرف الكثير عن تاريخها القديم والحديث ولكننا نجهل كل قصتها في عصور ما قبل التاريخ، أو العصور الحجرية ، وهذه فرصة ثمينة لفتـح صفحات تلك القصة ، وتعرف وقائع وأحداث تبدو للوهلة الأولى وكأنها من عالم الخيال بينما هي وثائق علمية تم الحصول عليها من خلال أبحاث أثريـة ـ تاريخية منهجية ودقيقة ٠

لقد أصبحنا نعلم أن دمشق ومنطقتها، قد سكنت منذ مئات الآلاف من السنين، إلا أن الزمن أتى على الجزء الأكبر من الدلائل ٠ كما أن سكان تلك العصور لم يعرفوا الكتابة ولم يسجلوا أحداثهم أو أفكارهم ومعتقداتهـم ٠ ونحـن نحاول التعرف على كل ذلك ، وغـيره ، عبـر دراسـة البقايـا الماديـة التي خلّفوها كالأسلحة والأدوات الحجرية ، والأبنيـة والأوانـي والفنـون انتهاءً بفضلات الطعام وبقايا المستودعات والمواقـد والمقبور ٠ ولأن طبيعة حياة هـؤلاء الناس قد اختلفت حسب الزمـان والمكان فقـد قسمّ الباحثون عصورهم الى أجزاء لهـا سماتها الخاصة ٠ الجزء الأول من تلـك العصور هو العصـر الحجـري القديـم ـ الباليوليت ـ وفيه عاش الناس متنقلين خلف مصادر الصيد والالتقـاط البريين

وما الى ذلك من ثروات الطبيعة الحـرة ،والجزء الثاني هو العصر الحجري الحديث ـ النيولين ـ وفيه عرف الناس البنـاءواستقروا في قرى دائمة ومارسوا الزراعة وتدجين الحيوانات محققـين درجـة من التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي أصبحت أرضية حفارة الانسان بمعناها الشامل ٠وبين هذين العصرين هناك عصر انتقالي هو العصر الحجري الوسيط ـ الميزوليت ـ الذي حمل صفـات مشتركـة من العصر الذي سبقه والعصر الذي لحقه ٠

لقد كان لبلاد الشام ، ولحوضـة دمشق ، دور مركزي في ذلك الزمن ٠ إن ما نعرفه الآن تحت اسم محافظة مدينـةدمشق وريف دمشق ، هي منطقة تشكل الجزء الشمالي من الاقليم الجنوبي الغربي في سورية وهي اطار جغرافي متجانس تفاعلت فيه عناصر طبيعـة وبشريـة ،جعلت منه أكثر المناطق تميزاً في العالم ٠ لقد بدأ تشكل هذه المنطقة منـذ ملايين السنين (العصر الكريتاسي) واستمرت أحداثها الجيولوجية في العصور اللاحقة ،ولكن أهمها حصلت في الزمن الجيولوجي الرابع الرباعي ، إذ أخذت تلك المنطقةشكلها الجغرافي الراهن تقريباً ، فاستقر فيها تشكل السهول والجبـال والوديـانوالأنهار ٠

ورغم أنه لم تحصل حتى الآن دراسات كافية للرباعي في منطقة دمشق إلا أن المعلومات المتوفرة الأولى تشير الى أنه فيبداية الزمن الرابـع كانت تغطي جزءاً كبيراً من هذه المنطقة بحيرة واسعة امتدتمن منطقة الضمير في الشرق حتى الكسوة في الغرب ، ارتفعت شواطىء هذه البحيرة بـين ١٠٠ ـ ١٢٥ م عن مستوى بحـيرة العتيبة الحالية ، وذلك في العصر المسمى البليستوسن الباكر ، منذ حوالي مليـون سنة خلت ، وكانت تتغذى ، ومنذ ذلـك الوقت ، بمياه نهري بردى والأعـوج ، إضافة الى الأمطار والأوديـة الفرعيـةوالأنهار الموسمية الأخرى التي دلت على قيام مناخ بارد وماطر وانتشار غابـاتكثيفة على الجزء الأكبـر من المنطقة ٠ ومنذ حوالي نصف مليون سنة (البلستوسين الأوسط) حصل جفاف نسبي فيالمناخ وتراجعت شواطىء البحيرة حتى ارتفاعحوالي ١٥ م عـن مياه بحـيرة العتيبـة وبذلك تقلصت مساحتها ٠

ومنـذ حوالي ١٠٠،٠٠٠ سنة (البليستوسن الأعلى) توضحت حدود تلك البحيرة بشكل أفضل وأضحت تغطيمنطقةأبعادها ، ١٠×٢٠ كم تقريباً ومركزها

بحيرتا العتيبة والهيجانة ، ومنـذ ذلك العصر تشكلت في المنطقة التربة السوداء الخصبة ، تربة غوطة دمشـق ، نتيجـةجملة نشاطات بحيرية ـ نهرية ـ سيليـة حتية وغيرها ٠

وقد بقيت هذه البحيرة بين مد وجزرحتى حوالي عشـرة آلاف سنـة ق٠م٠ (بداية عصر الهولوسن) عندما حصـل جفاف مناخي آخر وتقلصت حدود البحيرة من جديد وشكلت شواطىء ارتفاعها ٦ ـ٧ م فقـط ، واقتصرت فيما بعـد على بحيرتي الهيجانـة والعتيبـة[١] ٠ وعلىشواطىء بحيرة دمشـق القديمة نشـأت مستوطنات هامة من عصور ما قبلالتاريخكما سنرى ٠

الانسان الأول في منطقة دمشق :

إن المعلومات الأولى حول انسان العصر القديم في منطقة دمشـق تعود الى الثلاثينات من هذا القرن ، أتت على يدهواة منوعين التقطوا الأدوات الحجريـة من هنا أو هنـاك ، ومن حوضة دمشق ،وادي بردى منطقة قطنا ، المزة ، وليس مدينا للأسف أية معلومات عن تلك الأدوات أو مصيرها[٢] ٠

وفي الستينات وصلتنا معلومات أدق عن سكان دمشق الأوائل فقـد عثـر في مدينة دمشق نفسها أثناء أعمال الحفـروالبناء ، وفي وادي بردى والغوطـة على أدوات حجرية ، هي فؤوس يدوية ، منالنـوع المسمي الآشـولي ، والتي يعـود تاريخها الى حوالي مليون سنة خلت كمادلت على ذلك دراسات مناطق السـاحـل السوري وحوض العاصي[٣] لقد صنعتتلك الفؤوس، وهي أدوات فعالة في الحفر والقطـع أو غـيره ، من قبل الجماعـاتالبشرية الأولى التي وصلت الى منطقـة دمشق منذ بداية العصر الحجري القديموكانت من النوع المسمى الهوموارکتوس وهو انسان ظهر لأول مرة في افريقيا ثمانتشر تدريجياً الى بقية القارات وكـان يعيش مـن الصيـد والالتقـاط وبقـىمسـتمراً حتى حـوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت بعده ظهـر نوع جديد من البشـرهو انسان النياندرتال الذي كان يملـك قدرات جسدية وفكرية أكثر تطوراً مـنسلفه وقد عثرنا على آثار هذا الانسان، ومعظمها أدوات حجرية على شكل سكاكينومقاحف ، في كل مكان في حوضة دمشـق ووادي بردى وبخاصة في سهل الصحراء ٠

بعد انقراض النياندرتال وظهور الانسان العاقل السلف المباشر للانسان الحالي منذ حوالي أربعين ألف سنة ، أتت مرحلة غامضة امتدت حتى حوالي عشرة آلاف سنة ق·م ، غاب فيها الانسان وغابت آثاره ولم نعثر الا على بعض الدلائل سواء من منطقة صيدنايا أم منين وعموماً هذه فترة فقيرة في المشرق كله ولا غرابة أن يكون عليه الوضع كذلك في دمشق · ولكن مع انتهاء العصر الحجري القديم اختلف الوضع وعاد الانسان ، والحضارة ، وبلا انقطاع الى هذه المنطقة ·

المزارعون الأوائل في منطقة دمشق :

ان الاستيطان البشري الفعلي والأهم بدأ في منطقة دمشق منذ العصر الحجري الحديث · في هذا العصر حصلت تحولات بنيوية وحضارية جذرية في حياة الانسان الأول الذي تحول من حياة التنقل والصيد والالتقاط الى العيش في قرى دائمة وممارسة زراعة الحبوب وتربية الحيوانات · ان هذا التبدل « الثورة الزراعية » وضع حجر الأساس في نشوء المجتمعات الحضارية بمعناها الشامل · لذلك حظيت هذه المرحلة باهتمام خاص من قبل الباحثين[٤] وتبين أن منطقة المشرق العربي القديم وبلاد الشام كانت مهد هذه الثورة بل أن حوضة دمشق أعطت شرارتها الأولى · وما العديد من التلال المنتشرة في الغوطة الا بقايا القرى الزراعية التي نشأت ومنذ العصر النيوليني · لقد كرّس الباحث الفرنسي هنري دي كونشون باسم المديرية العامة للآثار والمتاحف سنوات طويلة لدراسة المجتمعات الزراعية الأولى في منطقة دمشق ونقب في العديد من التلال (تل أسود ، تل الغريفة ، تل الرماد ، تل الخزامي) وحصل على نتائج أكدت معرفة الزراعة في هذه المنطقة ومنذ مطلع الألف الثامن ق·م أي قبل أية منطقة أخرى من العالم · وأصبحت أعماله مرجعاً لا غنى عنه لكل الباحثين في ظاهرة نشوء وتطور المستوطنات الزراعية الأولى · وتوضيحاً للموضوع سوف نعرض نتائج هذه الأعمال على مرحلتين: الأولى تتناول المجتمعات الزراعية الباكرة التي عاشت على امتداد الألف الثامن والنصف الأول من الالف السابع ق·م والمرحلة الثانية تعرض المجتمعات الزراعية المتطورة التي عاشت منذ النصف

الثاني للألف السابع ق.م وحتى انتهاء عصور ما قبل التاريخ في نهاية الألف الرابع ق.م .

المجتمعات الزراعية الباكرة :

الى الشرق من مدينة دمشق بين بحيرتي العتيبة والهيجانة يقوم تل أسود حيث أجريت أسبار دلت على حصول أربع مراحل استيطان متتالية في هذا الموقع (أسماها المنقب أسود ١آ ، ١ب ، ١١أ ، ١١ب) لقد ضم المستوى الأول (IA) بقايا أقدم قرية زراعية في التاريخ فقد عثر هنا على كميات كبيرة من حبوب القمح والشعير والحمص والعدس المتفحمة التي زرعها سكان التل الأوائل وأرخت بطريقة الفحم المشع الدقيقة على حوالي ٧٨٠٠ سنة ق.م.(٦) ولكنهم بنفس الوقت التقطوا الحبوب والثمار البرية واصطادوا الثروات السمكية والحيوانية .

أقام سكان تل أسود في ذلك العصر في بيوت ،أكواخ، صغيرة بيضوية أو دائرية قطرها حوالي ٢ م ، غرست عميقاً في الأرض ، استخدموا في بنائها اللبن والطين والقصب وهي مواد متوفرة بكثرة في الوسط المستنقعي الذي يقوم فيه الموقع، إلا أنها قابلة للتلف . ووجد في المستوطنة الكثير من مستودعات التخزين والحفر المليئة بالرماد مما يشير الى حرائق متكررة تعرض لها الموقع بل أن اسم التل بحد ذاته يشير الى ذلك ، لقد عرف السكان شيء الطين وصنعوا منه اللبن الذي كان له شكل محدب من جهة ومقعر من الجهة الأخرى ، واحتوى على عناصر بنائية مميزة وحملت سطوح هذا اللبن طبعات أصابع صانيعه ، ورصفت به، وبانتظام، أرضيات البيوت كما صنعت منه المصاطب والسطوح المرتفعة .

وبقي سكان تل أسود في مراحلهم يسكنون في نفس (IB , 11) **اللاحقة** أنماط بيوت المرحلة الأولى . بين أنقاض قريتهم وجدنا العديد من أدواتهم وأسلحتهم التي استخدموها في حياتهم اليومية وبخاصة مناجل الحصاد وهي عبارة عن شفرات حيوانية حادة وطويلة تم تثبيتها على قبضات من الخشب أو العظم . وهناك رؤوس النبال من النوع المفرّض عند نهايتها المسماة « نبال الخيام » لأنها وجدت لأول مرة في موقع الخيام الى الغرب من البحر الميت في فلسطين ، وهذا دليل بعلاقات حضارية باكرة بين المنطقتين .

إن التنقيب المحدود في تل أسود لايسمح لنا بتحديد معالم هذه القرية بالكامل ولا حقيقة علاقاتها مع المناطق المجاورة ولكن يلاحظ أن الوسط الفقير بالأحجار دفع السكان الى جلب موادهم الحجرية من مناطق بعيدة فقد حصلوا على أحجار الصوان من سفوح جبال لبنان الشرقية بل أنهم استوردوا حجر الاوسيديان من الأناضول وقد أثبتت التحاليل أن اوسيديان تل أسود يعود في غالبيته الى مناطق وسط الأناضول (موقع نمروت داغ) ومن أطراف بحيرة وان · كما أنهم استوردوا أنواعاً مختلفة أخرى من الأحجار النادرة التي صنعوا منهم الحلي وأدوات الزينة كما سنرى ·

لقد شهدت المرحلة الثانية من حياة تل أسود (II) زيادة في السكان وانتشاراً أوسع للاستيطان فنشأت في الألف السابع ق·م· مستوطنة جديدة أخرى هي تل الغريفة (I) الواقعة الى الشمال قليلا من تل أسود أي في نفس الوسط الجغرافي المرتبط ببحيرة دمشق القديمة وقد دلت الأسبار المحدودة في الموقع أن الناس قد أقاموا في بيوت بسيطة من الطين والقصب تشبه بيوت جيرانهم في تل أسود وأنهم تعاصروا في مرحلتهم الأولى مع سكان المرحلة الثانية في تل أسود · وفي هذا العصر تطورت تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية فأصبحت المناجل أكثر فاعلية وأصبح لها أسنان كبيرة وظهرت رؤوس النبال ذات الساحة المسماة « نبال جبيل » لأنها وجدت لأول مرة في موقع جبيل في لبنان · كما ازداد استخدام الأزاميل والمكاشط والأدوات الزراعية الثقيلة ، كالرص والأجران والبلطات · لقد صنعت الأدوات الحجرية من نوع من النوى حضرت وفق تقنيات خاصة وأصبح لها شكل القارب مما سمح باستخراج الشظايا الطويلة والمنتظمة · وتطور استخدام الطين المشوي في صنع التماثيل وغيرها ·

المجتمعات الزراعية المتطورة :

في النصف الثاني من الألف السابع ق·م· اتسع من جديد الاستيطان في حوضة دمشق فنشأت مستوطنة الغريفة الثانية الأكبر والأكثر أهمية من المستوطنة الأولى · ولكن التحول الأهم كان نشوء مستوطنة تل الرماد في وسط جغرافي جديد ومختلف بعيداً عن البحيرة وفي سفوح الجبال قرب قطنا حالياً ، وهي منطقة غنية بالأحجار كما أن أمطارها تسمح بنشوء الزراعة البعلية ·

لقد حدد المنقبون ثلاث مراحل تطورية لمستطونة تل الرماد (الرماد I , II , III) . المستوطنة الأولى أرخت على حوالي ٦٢٥٠ سنة ق٠م٠ أقام سكانها في بيوت متواضعة عبارة عن أكواخ بيضوية أو دائرية، قطرها بين ٣ ـ ٤ م، مغروسة في الأرض رصفت أرضها بالحجر أو طليت بالملاط الأبيض أو الطين وكانت جدرانها من الطين الدك والحجر ٠ فصلت بين هذه البيوت مساحات واسعة قامت فيها أرضيات مبلطة بالحجر ومواقد وتنانير ومستودعات تخزين وهناك ما يشير الى أن سقوف بعض البيوت كان مقبباً ٠ المستوطنة الثانية في تل الرماد، أرخت على حوالي ٥٩٥٠ سنة ق٠م ،وعندها بلغت القرية أوج اتساعها وقدرت مساحتها بحوالي ٣ هكتار ومع أن مواد البناء في هذه المستوطنة لا تختلف عن سابقتها الا أن تنظيم الأبنية وأشكالها اختلف تماماً ٠ فقد حدد هنا نمطان من البيوت ، الأول تمثله بيوت كبيرة ، مستطيلة أو مربعة راوحت أضلاعها بين ٥ الى متر ، وبلغت سماكة جدرانها حوالي المتر الواحد بنيت من اللبن المقولب والمجفف أساساتها من الحجر وأرضياتها من الطين أو الحجر ولكن هذه الأرضيات ليست مطلية بالجص، الملاط ،الأبيض ٠ ولا بد أن مثل هذه البيوت قد ضمت عائلات كبيرة بعد أن اتسع وتعقد النسيج الاجتماعي في القرية ٠ والنمط الثاني مثلثة بيوت صغيرة جدرانها رقيعة (حوالي ٤٠ سم) من الحجر واللبن ولكن أرضياتها مطلية بالجص أو بالطين ،لقد انتشرت بيوت المستوطنين الثانية في تل الرماد حول شوارع مستقيمة وساحات عامة احتوت على مواقد ومستودعات تخزين ٠ وتدل التحاليل أن السكان قد اعتمدوا على الزراعة بشكل خاص فزرعوا القمح والشعير والعدس كما زرعوا الكتان وهو نبات بحاجة الى ري منتظم مما يشير الى أنهم استطاعوا جر المياه الى حقول الكتان ولو من خلال السواقي البسيطة ٠

في المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة مستوطنة تل الرماد ، والتي ليس لدينا تأريخ دقيق حولها ولكن نعتقد أنها بدأت بعد المرحلة الثانية مباشرة واستمرت حتى حوالي منتصف الألف السادس ق٠م، في هذه المرحلة حصل تحول اقتصادي ـ اجتماعي هام في حياة سكان المستوطنين الذين تحولوا من مجتمع زراعي مستقر الى مجتمع رعوي متنقل. وهكذا تراجعت زراعة الحبوب وظهرت تربية الحيوانات

ودليلنا الى ذلك البيوت البسيطة على شكل حفر دائرية عميقة ضعيفة التنظيم والمتانة وتصلح لاقامة موسمية ومؤقتة فقط ، اضافة الى البقايا الغزيرة لعظام الماعز والغنم وغيرها من الحيوانات المدجنة • وهكذا نستطيع ومنذ ذلك العصر التحدث عن نشوء مجتمعين زراعي حضري مستقر والآخر رعوي متنقل تعايشا وتعاملا معاً • وهذا نمط لا زال سائداً حتى يومنا هذا يمثله البدو ، الذين يعتمدون على تربية المواشي ، والحضر الذين يعيشون من الزراعة •

لقد عثرنا في تل الرماد على كميات كبيرة جداً من الآثار المنقولة والتي تعطينا فكرة عن مواقع هؤلاء الناس وطبيعة أنشطتهم ، نذكر منها الأدوات الحجرية الصوانية والبازلتية والكلسية كالمناجل ورؤوس النبال والمكاشط والسكاكين والأجران والرحى والمدقات والبلطات والفؤوس والأواني الحجرية لحفظ وتخزين الطعام والشراب وهي أوانٍ صنعت بخاصة من الحجر الكلسي ، والجبر ، بعد طحنه وتحضيره « الأواني البيضاء » ، وقد انتشرت في النصف الثاني من الألف السابع ق•م في العديد من المستوطنات المشرقية وسبقت ظهور الأواني الفخارية بقليل ولكن استخدامها تراجع واختفى مع معرفة تصنيع الفخار، التي ظهرت بدءاً من المستوطنة الثانية في تل الرماد حيث ساد نمط من الأواني الفخارية ذات اللون القاتم المصقول المسمى فخار العمق[7] ويعتقد أنه مروراً بتل الرماد انتقل هذا الفخار جنوباً الى فلسطين • وهناك أدوات عظيمة عديدة كالمخارز والابر والملاعق والاشاط وغيرها من الأمور التي تدل على مجتمع تمكن من انتاج كل ما يحتاج •

بعد أن هجرت مستوطنة تل الرماد نشأت مستوطنة جديدة في تل الخزامي الى الشمال من تل أسود في غوطة دمشق ، سكنت خلال النصف الثاني للألف الخامس ق•م • لقد أظهرت الأسبار وجود قرية بيوتها صغيرة مستطيلة من اللبن كما كشف عن كميات كبيرة من الفخار الفاتح اللون والمطلي بالملاط الأحمر والمزخرف بالحز : وقد ساد هذا النوع من الفخار في العديد من المناطق المشرقية في لبنان وفلسطين بخاصة • وهناك أيضاً الأدوات الحجرية ، وأهمها المناجل والعديد من التماثيل البشرية والحيوانية من الطين والكرات والأقراص والمعاقل وما الى ذلك.

فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في حوضة دمشق :

لقد عثرنا في قرى المزارعين الأوائل في حوضة دمشق على ما يؤكد أن هؤلاء الناس قد تخطوا في نشاطهم اليومي مجرد تأمين الحاجات المادية المباشرة ، من طعام أو شراب ، لأفراد مجتمعهم ، ليعتنوا بأمور الفكر والفن والروح أيضاً • فهناك الحلي والدمى والتماثيل والقبور التي تعكس نظام شعائرهم ومعتقداتهم • ونحن نلجأ الى تلك الوثائق الأثرية التي تدلنا ، وان بشكل غير مباشر ، على عالمهم الروحي فهم أنفسهم لم يكتبوا ولم يدونوا أي شيء عن أفكارهم ومعتقداتهم • بل أننا لا نعرف أسماءهم ولا أسماء قراهم أو آلهتم ولكننا نعتقد أنها الأصل الذي أتت منه معتقدات شعوب الشرق القديم المدونة بالخطوط المسمارية • لقد صور هؤلاء الناس حيواناتهم التي دجنوها ، صنعوها من اللبن المشوي بالنار أو المجفف أو الحجر • وجسدت البقر والماعز والغنم والغزال والخنزير ، تكرر بينها الثور وقرونه كثيراً ومن هنا نتحدث عن « الثور المقدس » وعبادة الثور منذ مطلع الألف الثامن ق•م • هذه الحيوانات جسدها سكان تل أسود وتل الغريفة وتل الرماد وتل الخزامي في كل مراحل مراحل مستوطناتهم • كما جسد هؤلاء أنفسهم ولعل أروع ما أعطاه سكان تل أسود (المرحلة الثانية) هو التماثيل البشرية ، طولها بين ٣ ـ ٦ سم ، بعضها واقعي ومعبر جداً تظهر فيه المرأة « الالهة » جالسة ، وركها وأعضاؤها التناسلية مضخمة صدرها بارز ترفعه بيدها ، وهي غالباً بلا رأس أو بلا نهايات لأطرافها لأن التركيز انصب على مراكز الأمومة والجنس • وهناك تماثيل أخرى مبسطة عبارة عن أفخاذ عليها رأس مختزل أنفه كتلة صغيرة وعيونه حفرة ولا إشارة للفم ولا للآذان على الرأس عصبة تلفه تشبه « العقال » • ومن تل أسود وتل الرماد أيضاً أتت تماثيل عبارة عن عصي متطاولة أو ذات أشكال غريبة لا نستطيع تحديد معالمها بسهولة • ومهما يكن فهذا دليل آخر على عقيدة « الالهة الأم » التي استمرت زمناً طويلاً لدى مجتمعات الشرق القديم دون أن نعلم أن جذورها تقع في قرى المزارعين الأوائل منذ الألف الثامن ق•م • ، وهي الأصل الذي أتت منه عشتار أو أفروديت وفينوس[8] •

لقد دفن الموتى وفق شعائر محددة ، في تل أسود ، غالباً ما فصلت الجماجم عن الأجساد التي دفنت مثنية ومطلية بالمغرة الحمراء مما يشير الى عقيدة معينة أعارت

الجماجم ، الرؤوس ، مركز العقل والروح ، اهتماماً خاصاً . وقد تجلى ذلك واضحاً في مستوطنة تل الرماد الأولى والثانية ، حيث وجد العديد من الجماجم البشرية ، معظمها يعود لفتيات يانعات ، وقد فصلت عن الأجساد وكشط لحمها وخلعت أسنانها وتم طليها بالملاط الكلسي الأبيض المحضّر ، بشكل خاص كمادة تحنيط وبشكل أعاد تصوير ملامح الوجه فظهرت العيون وقد أشير لها بكلس أكثر بياضاً كما ظهرت تقاسيم الفك الأسفل والرقبة وطلي الرأس بالمغرّة الحمراء إشارة للشعر على ما يبدو . لقد وجدت جماجم تل الرماد على شكل مجموعات ، ثلاث مجموعات منها مجموعات منها كانت مطمورة في الأرض مقابل جدران أحد البيوت . ولكن أهمها كانت « طمرة » ضمنت حوالي اثنتي عشرة جمجمة مقولبة ، أي مطلية بالكلسي ، ، وموزعة على شكل مجموعات أصغر ضمن حفرة منتظمة بيضوية الشكل جدرانها من اللبن والأواني البيضاء وقد رافقت هذه الجماجم تماثيل من الطين بلغ ارتفاع بعضها حوالي العشرين سنتمتراً ، تمثل أشخاصاً جالسين ، لها رقبة شكلها اسطواني ونهايتها مسطحة من أجل أن توضع عليها الجماجم المقولبة ، على ما نعتقده ، وذلك من خلال ترافق هذه التماثيل مع الجماجم في أكثر من مكان .

لقد جرى نقاش طويل حول دور مثل هذه الجماجم وهل تندرج في إطار عملية بناء البيوت أي أنها « ودائع تأسيس » تبارك البناء وتقويه . أم أنها تجسيد لحضور الأموات بين الأحياء واستمرار حياة الأجداد والآباء بين الأحفاد والأبناء أم غير ذلك . ومهما يكن فان جماجم تل الرماد ، وبالأخص المقولبة منها والمترافقة مع التماثيل ، كانت أثاثاً دينياً منزلياً تستخدم أثناء الشعائر الدينية فقط ، ثم يعاد حفظها في مكان مأمون ، وهي تدل على عقيدة « تقديس الأجداد » أو « تقديس الجماجم » التي انتشرت على مساحة واسعة في الألف السابع ق.م. لدى المجتمعات الزراعية في بلاد الشام ، ولعبت دوراً جنائزياً في اجلال الأموات وتأكيد حضورهم ومباركتهم للأحياء وفي الربط بين الموت والحياة[9] .

ومن بقاياهم أيضاً تعرف أنهم أحبوا الزينة والظهور بالشكل الجميل فقد وجدت في كل المستوطنات الزراعية النيوليتية أدوات زينة وحلي غزيرة ومنوعة كالخرز ، والأطواق ، والحلق والأساور والقلادات وقد صنعت من أحجار نادرة وثمينة بعد أن استوردوها من مناطق بعيدة وأجادوا من صقلها

وثقبها وغير ذلك • وهكذا نجد المـوادالمصنوعة من أحجار الألباتر والكورنالين والسربتين والشيت والستياتبت والهيماتيت والاوبسيديان والصـدف والعـاج والعظم والقواقع • بـل وجـدت في تل الرماد خرزة من النحاس الذي أظهـرت التحاليل أن أصله يعود الى منطقة ارغاني في جنوب شـرق تركيا وكـل ذلك دليل علاقات وتبادلات تجارية وحضارية بعيدةالمـدى •

خاتمـة :

لقد وصل الانسان الأول الى حوض دمشق منذ حوالي المليون عـام ولكننـا لا نعرف الكثير عن هؤلاء البشر الذيـن توضحت صورتهم مع مرور الزمن • إن مرحلة الاستيطان الأهم بـدأت في هـذه المنطقة منذ الألف الثامـن ق•م• عندما اهتـدى النـاس الى البنـاء والزراعـة والتدجين فنشأت مستوطنة تل أسود تلتها مستوطنة الغريقة ثم مستوطنة تل الرماد ثم تل الخزامي وما أن حل الألف الرابع حتى دخلت المنطقـة في العصـر الحجري النحاسي الذي ازدهرت فيـه الحضـارة الغسولية والتي بانتهائهـا انتهت عصورما قبل التاريخ وبدأت العصور التاريخية القديمة وذلك منذ مطلع الألف الثامـن ق•م•

إن هذه الصورة لحوضة دمشق هي جزء لا يتجزأ من لوحة أكبر مسرحها بلاد الشام كلها لأن تاريخ الانسان والحضارة في هذه البلاد قد تكاملا ومنذ البداية • ففي الوقت الذي وصل فيه الهوآرلتوس الأول الى وادي بردى كانت وديان الأردن والليطاني والعاصي والفرات مسكونـة من قبل النوع ذاته من البشر • كما أن النياندرتـال انتشر على كـل المناطق الجغرافيـة الساحليـة والداخليـة والصحراوية في بلاد الشام والمشـرق •وعرفت هذه البلاد مرحلة متشابهة مـن الفقر الحضاري الـذي تـلا انقـراض النياندرتال لتعود لها من جديد الحيويـة والانسان وتنشأ فيها المجتمعات المستقرة والقرى الزراعية الأولى، وفي الوقت ذاته تقريباً ، من وادي الفـرات في الشمـال مروراً بحوضة دمشق في الوسـط وحتى وادي الأردن في الجنـوب ، حيث عاشت مجتمعات واحدة لهـا ليس فقط النشاط الاقتصادي نفسه وانما اعتمـدت الشعائر والمعتقـدات ذاتهـا مجسَّدة وحـدة حضارية هي الأكثر وضوحـاً والأبكـر ظهوراً في التاريخ ، بل أن هذه المجتمعات كانت تنتمي في صفاتها الانتروبولوجية الى العرق المتوسطي النحيل ذاتـه الذي سكن بلاد الشام منـذ العصـر الحجري الحديث(١٠) •

□ الحواشي :

١ ـ فان لير خبير تربة لدى الحكومة السورية في الخمسينات ولكنه كان منهمكاً جداً بدراسات العصور الحجرية وقد استفاد من تنقله في مختلف مناطق القطر وحصل على معلومات مختلفة ، بعضها يعاد النظر فيه الآن ، ولكنها فتحت أعين الكثيرين على أهمية دراسات تلك العصور في سورية وقد نشر كتاباً صغيراً هو :

W. Y. Van Liere 1960 - 1961, Observations on the Quaternory of Syria.

ملاحظات عن الرباعي السوري • منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق •

٢ ـ أنظر :

Potut. L. 1937, La prehistoire de la region de Damas, B.S.P.F. 34, p. 130-132.

٣ ـ فان لير نفس المرجع رقم ١ •

٤ ـ ظهر العديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت ظاهرة الزراعة من حيث مكان وزمان وكيفية نشوئها والأسباب التي دفعت لها وتتباين الآراء حول هذا الموضوع من باحث لآخر ، ولكن الاجماع قائم على أن بلاد الشام هي موطن الزراعة الأول • أنظر :

Redman, Ch. 1978, The rise of civilisation, San-Fransisco : Freeman.

Cauvin, J. 1978, Les premiers villages de Syrie - Palestine, du IXème au VIIème au millénaire avant J. C. lyon Maison de l'Orient.

Henry, D. 1989, From foraging to gliculture, Philadelphia U.S.A.

وتدل الأبحاث على أن جملة شروط بيئية وحضارية قد توفرت في بلاد الشام منذ الألف التاسع ق.م ساهمت في الانتقال نحو الزراعة وتدجين الحيوانات قبل مناطق عالمية أخرى •

٥ ـ عمل السيد هنري دي كونتنسون (H. de Contenson) في حوض دمشق بين أعوام ١٩٦٣ ـ ١٩٧٤ ونشر تقارير أولية عن أعماله في عدة مجلات عالمية بينها مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، ولكنه حتى الآن لم ينشر الدراسة النهائية لهذه الأعمال •

٦ ـ أنظر : Zeist, W. Von and Y. A. H. Bakker - Harris 1949 Some economic and ecological aspects of plont husbondry of Tell Aswad. Paleonients 5: 161 - 180.

٧ ـ كان الباحث الأمريكي روبرت بريدوود أول من درس منطقة العمق في شمال سورية بحثاً عن أصل الزراعة ونقب في عدة تلال أهمها تل الجديدة حيث تعرف على مختلف مراحل تطور الأواني الفخارية منذ الألف السادس ق.م وحتى العصور العربية الاسلامية ومن أهم منشوراته حول هذه الأعمال :

Braidwood, R. Y. and L. S. Braidwood, 1960, Excavations in the Plain of Antioch, Oriental Institute publications Nr. 61. Chicagu University Press.

٨ ـ أنظر :

Cauvin, J. 1987, l'Apparition des Premieres divinités la Recherche nr. 194, Vol. 18, p. 1472 - 1480.

٩ ـ أنظر :

Cauvin, J. 1972, Religions Neolithique de Syro-Palestine, Paris, Maison neuve.

وهو مترجم الى العربية بعنوان : ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام • دار دمشق • ترجمة : سلطان محيسن •

١٠ـ أنظر :

Ferombach, D. 1973, l'Euolution Humaine au Proche - Orient, Paleorient 12, p. 213 - 221.

دمشق في العصر البيزنطي

بشير زهدي *

لمحة تاريخية موجزة عن عصر الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) :

اعتبر بعض المؤرخين بداية تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) في عهد الامبراطور (قسطنطين الكبير ٢٧٤ ـ ٣٣٧) الذي أسس مدينة (روما الجديدة) في موقع (بيزنطة) في ١١ مايس ٣٣٠ م • دون أن يكون هناك أية قطيعة بين (روما) و (القسطنطينية) اللتين اعتبرت كل منهما متممة للأخرى طوال ثلاثة قرون. وكانت أزمات القرن الثالث قد قلبت أسس الامبراطورية الرومانية وأوضحت خطر غزوات البرابرة والجرمان • فكان لا بد للامبراطورين (ديوكليسيان) و (قسطنطين) من القيام جدياً باصلاح عام • وكان الامبراطور عصرئذ كالرب يعبد بطقوس شرقية • وكانت الامبراطورية الرومانية تحكمها سلالة حاكمة حكماً مطلقاً • وقد ظهرت مشاكل الدفاع عن الحدود الامبراطورية ، وقضايا وراثة العرش ••• وضرورة الحكم الرباعي (اوغستان ، وقيصران) للامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب • ولكن الامبراطور (قسطنطين الكبير) استطاع أن يحتكر السلطة لمصلحته ، ويصبح سيد الغرب بعد انتصاره على خصمه الامبراطور (ماكسانس) في (بونت ميلفيوس

★ امين المتحف الوطني بدمشق واستاذ محاضر في جامعة دمشق •

عند أسوار روما في عام ٣١٢ ، ويصبح سيد الشرق بعد انتصاره على خصمه (ليكينيوس) واستطاع أن يجعل الامبراطورية الرومانية ذات طابع مسيحي وشرقي • وكان صهر الامبراطور ديوكليسيان (جالير ٣٠٥–٣١١) قد حرص على اعلان التسامح Edit de Tolérence عام ٣١١ • وأصدر قسطنطين اعلان ميلان l'Edit de Milan الذي تقررت بـه حرية العبادة • والجدير بالذكر أن المؤرخين يذكرون أن قسطنطين بينما كان متجهاً في حملته الحربية ضد خصمه (ماكسانس) ظهر له في الفضاء صليب مع عبارة (In hoc signo vinces ستنتصر بهذه العلامة) فرسم شارة (الصليب) على (رايته Labarum) . وهناك من يذكر اعتناقه المسيحية في نحو عام ٣٢٣م في حين أن الآخرين من المؤرخين يتحدثون عن ميله الى المسيحية منذ عام ٣٢٠م وتعميده قبيل وفاته • وعند وفاته اعتبرته الكنيسة أحد قديسيها • وفي الواقع اعترف بالمسيحية كديانة شرعية ومنحها امتيازات جعلتها قوية فقضت على الوثنية نهائياً • وهكذا استلم قسطنطين الامبراطورية الرومانية وثنية فجعلها مسيحية • واعتبر المؤرخون تأسيس مدينة روما الجديدة (القسطنطينية) حدثاً تاريخياً بارزاً • ورغم أنه لم يحرم (روما) من مكانتها ، فانها لم تعد العاصمة الفعلية بعدما جعل معها عاصمة ثانية (روما الجديدة – القسطنطينية) تمثل الحياة والمستقبل ، مقابل الانحطاط والماضي ••• مما أكد انتصار الشرق على الغرب ، وبشّر بظهور حضارة جديدة •

ويلاحظ المؤرخون بين عهد (قسطنطين الكبير) وعهد (جوستنيان الأول) ظهور عهدين هامين أيضاً هما :

- عهد الامبراطور (تيودوس الأول الكبير ٣٧٩ – ٣٩٥) الذي اعتبر آخر امبراطور يحكم فعلاً الامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب •
- عهد الامبراطور (تيودوس الثاني) الذي وسّع العاصمة القسطنطينية وجعلها عاصمة الثقافة بعدما أسس فيها جامعة تضم واحداً وثلاثين كرسياً جامعياً وتدرس اليونانية واللاتينية •

ويلاحظ تزايد معارضة الشرق والغرب وبخاصة بعدما تمركزت في الشرق القوى الحقيقية المختلفة الفعالة ، وغدا مركز الثقافة والفعاليات المختلفة ، ويضم

المقاطعات الفنية والمنتجة ... الخ ... وكان (اوسابيوس ٢٦٥ ـ ٣٤٠) قد تثقف في انطاكية السورية وأصبح صديق الامبراطور قسطنطين ، وعرف كأول مؤرخ كنسي ، ويعود اليه وصف ظهور المسيحية وعلاقتها بالدولة . وفي عام ٣٨٦ انتقل القديس (ايرونيموس) (٣١٥ـ ٤٢٠) الى بادية الشام ليعيش حياة العزلة ، فاعتبر ذلك بمثابة إسهام في ادخال حياة (الرهبنة) الى سورية ، وتأكيد للاعتقاد بأن في جمال القيم الروحية ما يحبب المرء بالاعتزال عن هذا العالم الفاني ، والاستشهاد في سبيل هذه القيم الروحية ...) .

بعد وفاة الامبراطور (تيودوس الأول الكبير) عام ٣٩٥ م . ظهر بوضوح انقسام الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية رومانية غربية يحكمها ابنه (هونوريوس) والامبراطورية رومانية شرقية (بيزنطية) يحكمها ابنه الآخر (اركاديوس ٣٩٥ ـ ٤٠٥) .

إذا كان (قسطنطين الكبير) أسس امبراطورية بيزنطية ذات طابع شرقي ومسيحي ، فان على خلفائه حتى عهد الامبراطور (جوستنيان) الدفاع عن المسيحية ضد النظريات المختلفة الدينية المتعلقة بطبيعة السيد المسيح ، والجدير بالذكر أن تلك الخصومات لم تكن لأسباب دينية بحتة ، لأنها كانت تتضمن في الواقع أهدافاً ومدلولات سياسية . وهكذا فقد ظهر صراع القسطنطينية والمقاطعات اليونانية من جهة ، والمقاطعات التي تبنت مذهب الطبيعة الواحدة (أي سورية ومصر) . وقد عقدت مجامع دينية كنسية مختلفة في (القسطنطينية) عام ٣٨١ لمواجهة الاريانية ، وفي (ايفيز) عام ٤٣١ لمعالجة أفكار نسطوريوس وفي (خلقيدونيا) عام ٤٥١ للبحث في آراء القائلين بالطبيعة الواحدة (المونوفيزيين)، مما أوضح ما وصلت اليه علاقات الشرق بالغرب ، وعلاقة البابا بالامبراطورية البيزنطية ، وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بسورية ومصر . وكان من نتائج المجمع الديني في خلقيدونيا عام ٤٥١ م نمو الشعور الوطني والقومي في سورية متخذاً مظهراً دينياً وانضم الى أتباع هذا المذهب في وقت قصير كثير من الناقمين على سياسة الامبراطورية البيزنطية حتى غدا مذهبهم الديني يعبّر عن وعي قومي

وشعور وطني واتجاه البلاد نحو الاستقلال ... مما لفت أنظار البيزنطيين الى خطر نتائج خطأ سياستهم . فحاول الامبراطور (زينون ٤٧٤ ـ ٤٩١) كسب عطف السوريين والمصريين ، ووضع حد لاستيائهم ، فأصدر مرسومه Henoticon عام ٤٨٢ ولكن ذلك كان بدون جدوى .واستمر الامبراطور (انسطاس ٤٩١ ـ ٥١٨) على ترضية أتباع مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ولكن بدون جدوى .

وكان العرب الغساسنة الذين غادروا بلادهم اليمنية بعد خراب سد مأرب ، واتجهوا شمالاً الى سورية ، فالتقوا باخوانهم العرب من قبيلة بني سليم وغيرهم . واعتبروا أنفسهم خلفاء وورثة العرب الأنباط والتدمريين بعدما أصبحوا أكبر وأقوى قبائل بادية الشام .امتدت منازلهم من العقبة جنوباً حتى الرصافة شمالاً فعهد اليهم الروم البيزنطيون بمهمة الدفاع عن البادية ونشر الأمن فيها وتأمين الحماية لها . فحقق العرب الغساسنة كل ذلك . ووجدوا في المسيحية ما جذبهم إليها وحملهم على اعتناقها فصاروا من أقوى المؤيدين لمذهب الطبيعة الواحدة .

وعندما عهد الامبراطور (جوستينوس الأول) الى ابن أخيه (جوستنيان) بمهمة حربية لقتال الساسانيين ، مر الأمير (جوستنيان) بمدينة منبج السورية التي كان فيها رجل صالح له ابنة اسمها (تيودورا) تميزت بجمال الملامح ،وكثرة الذكاء ، والأخلاق الفاضلة ... حتى قيل عنها ... من المستحيل أن يصف انسان ما جمال صورتها في كلمات ، أو يصوره في آية من آيات الفن) ... مما يفسر ولع (جوستنيان) بها ، وطلبه يدها من أبيها الذي وافق بشروط أهمها محافظتها على مذهبها ... وتم هذا الزواج فعلاً في عام ٥٢٦ م . ووافق عليه أخيراً عمه الامبراطور (جوستينوس الأول) الذي منح (تيودورا) لقب (بطريق) . فانطلقت ألسنة الحاقدين والحاسدين والفاسدين في اختلاق الأباطيل التي تشوه سمعتها وحقيقة بيئتها الصالحة ... في حين أن التاريخ سجل لها صفحات مجيدة وخالدة تحدثت عن سمو تفكيرها ورجاحة عقلها مما جعلها في طليعة مستشاري زوجها الامبراطور (جوستنيان) وهي التي أنقذت بشجاعتها وجرأتها الأدبية عرشه عندما اندلعت ثورة الحزبين (حزب الأخضر) الذي كان يضم أتباع الامبراطور البيزنطي السابق (انسطاس)، و (حزب الزرق) الذي كان يتظاهر

بتأييده لأسرة الامبراطور (جوستنيان) الحاكمة. وبلغت هذه الثورة من الخطورة درجة جعلت الحاشية تنصح الامبراطور(جوستنيان) بالفرار والنجاة بعدما نادى المتمردون بـ (هيباتيوس) امبراطوراً. فالتفتت (تيودورا) الى زوجها (جوستنيان) قائلة قولها المأثور :(... ان كل رجل لا بد له أن يموت ميتة واحدة . والموت للملك أفضل من العزل والنفي .... أيها الامبراطور : اذا أردت أن تنقذ حياتك ، فليس هناك شيء أسهل من ذلك ، فلديك سفنك ولديك البحر . أما أنا ، فاني أوافق على القول القديم : الامبراطورية أحسن كفن للموتى ...) فتأثر زوجها(جوستنيان) بكلماتها وعباراتها الشجاعة ، فأصدر أوامره لقائده(بليساريوس) بالصمود والهجوم على المتمردين والقضاء عليهم ... وكان مهتماً بتحقيق وحدة الامبراطورية الرومانية والشرقية ، وانقاذ مقاطعاتها من البرابرة ، وقد نجح الى حد ما في استعادة افريقيا وقسم من اسبانيا والقضاء على عدوان (الاوسترجوتيين) في ايطاليا ... مما لفت نظر كسرى الذي أخذ يعد كل ما يلزم للهجوم على الامبراطورية البيزنطية وتأكيد سيادته على الشرق . وبعدما كان الهجوم الساساني الأول قد صدته قوات القائد(بليساريوس) فان الساسانيين جددوا هجومهم عام ٥٤٠ م في عهد (كسرى الأول انوشروان ٥٣١ ــ ٥٧٩) . وكان (الحارث الثاني بن جبلة الغساني ٥٢٩ ــ ٥٦٩) قد حارب (المنذر الثالث) ملك الحيرة عام ٥٢٨ م ببسالة لفتت أنظار الامبراطور ، وأثارت اعجابه فمنحه لقب (فيلارك) و (بطريق) ... وبعدما تحمل كسرى الخسائر الكبيرة في حملته العدوانية على الرها ، وافق على وضع حد للحرب عام ٥٤٥ م كما قبل (جوستنيان) بدفع مبلغ كبير من الذهب .وفي عام ٥٦٣ لبى الحارث الثاني دعوة الامبراطور (جوستنيان) لزيارة(القسطنطينية) التي استقبل فيها بحفاوة كبيرة . وظهر بين البيزنطيين بملابسه العربية الزاهية والجميلة والمتميزة ، ومظهره العربي المهيب ... مما لفت الأنظار اليه ، وأثار الانتباه نحوه ، وترك الأثر القوي في نفوس الجميع مدة طويلة ، حتى ان موظفي البلاط كانوا يهدئون الأمير الصغير(جوستينوس) بقولهم : (اسكت ، والا استدعينا الحارث ...)

وكانت (تيودورا) من أتباع (مذهب الطبيعة الواحدة) الذي استطاع آن يجد العطف والرعاية والحماية طوال حياتها • وقد قابلها الملك الغساني الذي كانت زيارته للبلاط البيزنطي خير مناسبة لدعم هذا المذهب ، وتعيين (يعقوب البرادعي) أسقفاً لكنيسة القائلين بالطبيعة الواحدة • وكان (جوستنيان) أمر باعداد مجموعة القوانين (دايجست ـ الموجز) التي اعتبرت بمثابة (المعبد المقدس للعدالة) •

اعتبر المؤرخون عظمة الامبراطور جوستنيان في القرن السادس مثل عظمة مبنى كنيسة القديسة صوفيا ، وشبهوا الازدهار في عهده بازدهار آثينا في عهد الملك بريكليس • تميز بحسه الامبراطوري للعظمة ، اهتم بالغرب والماضي ، وحرص على وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية والغربية ، وبذل في سبيل ذلك الجهود والأموال مما أضعف القسم الحي القوي في امبراطوريته • وكانت زوجته الامبراطورة المنبجية (تيودورا) تعتبر طموحه الكبير بمثابة (سراب غربي Mirage occidental) وأن المهم هو المقاطعات الشرقية ووجوب الاهتمام بها • فتوفيت متمسكة برأيها ، في حين أن زوجها (جوستنيان) اضطر الى فرض الضرائب وبيع الموارد •• وممارسة سياسة العنف والحكم المطلق في سبيل فرض المعتقد الواحد • واستطاعت الدبلوماسية البيزنطية أن تدفع خطر البرابرة عن الامبراطورية • ولكن وفاته أظهرت أخطاء سياسته • لقد أثار تزايد نفوذ العرب الغساسنة حذر البيزنطيين وتحول الى جفاء وعداء • وتأثر (المنذر ابن الحارث الغساني) من سوء نوايا الامبراطور (جوستينوس الثاني) تجاه العرب الغساسنة • ولكن الأخطار الخارجية حملت الطرفين على تسوية خلافاتهما في عهد الامبراطور الجديد (تيبريوس الثاني ٥٧٨ ـ ٥٨٢) • واستمر الفرس على شن غاراتهم العديدة منذ عام ٥٧٢ في عهد كسرى الثاني والملوك البيزنطيين (جوستينيوس الثاني) و (تيبريوس الثاني) و (موريس ٥٨٢ ـ ٦٠٢) • وقد اضطر كسرى لعقد الصلح مع الامبراطور البيزنطي (موريس) نتيجة اندلاع حرب أهلية في بلاده وعندما اعتلى العرش البيزنطي (فوكاس ٦٠٢ ـ ٦١٠) بدأ عهده بسلسلة من أعمال العنف والفتك بأصدقاء أسلافه وعندما عاد (كسرى الثاني) الى سياسة الهجوم مكتسحاً سورية مخرباً مدنها عام ٦٠٨ م

اتجه القائد (هرقل) الى القسطنطينيةالتي توج فيها امبراطوراً في ١٥ تشرين الأول ٦١١ في فترة حرجة • وكان الساسانيون قد حكموا (الحيرة) بعد وفاة (النعمان) فثار العرب ضدهم وضد عميلهم (اياس بن قبيصة ٦٠٢ ـ ٦١١) فكان أعظم انتصار حققه العرب على الساسانيين في معركة (ذي قار) الشهيرة •

اتجه القائد الساساني (شهربرز)الى سورية الوسطى عام ٦١٣ فاستولى على أفاميا وهدمها كما هدم انطاكية ،واستطاع أن يستولي علىدمشق ويحتلها. ثم تابع زحفه نحو مدينة (بيت المقدس)التي استولى عليها ، وسلب خشبة(الصليب المقدس) التي كانت تعتبر أثمن شيء فيهذه الحياة الدنيا •

كانت الامبراطورية البيزنطية قدأصيبت بالضعف منذ عام ٥٥٦ م وقد كثرت الضرائب وحدثت الزلازل وانتشرالمرض وأصبح المواطنون في حالة يأس وبؤس • واعتبروا كارثة هذا العدوانوالمعاناة المتعددة الميادين بمثابة دلالة على قرب انتهاء الحياة ••

وجه (كسرى) الى الامبراطور (هرقل) رسالة تفيض بالغرور والكبرياء بل والوقاحة ، مما جعل الامبراطور (هرقل) يقسم أن يسير الى ميدان القتال بنفسه على رأس قواته المحاربة • فاهتممنذ عام ٦٢٢ م بقتال الساسانيين جدياً، وشن ست حملات حربية دامت حتى عام٦٢٧ م انتهت بهزيمة الساسانيين وانسحابهم للدفاع عن عاصمتهم ، فيوقتاستطاع فيه (هرقل) أن يحرق معابد النار في عاصمة ميديا ومدينة (زردشت) •

عاد (هرقل) الى سورية وعاد اليهاالحكم البيزنطي بكل مساوئه • وكانت التساؤلات تتردد : من سيكون من جديدسيد العالم ولم يكن هناك من يتوقع بأن القبائل العربية المتقاتلة فيما بينها ستوحدها دعوة محمد ﷺ الى الايمان بالخالق العظيم وكتبه المقدسة وأنبيائه المرسلين،في فترة بلغ فيها استياء المواطنين درجة جعلتهم يعتبرون أعمال الساسانيين والبيزنطيين بمثابة أعمال قطاع الطرق • وقد تفننوا في أعمال السلب والنهب ، والظلموالجور ، والقتل والفتك ••• فوجد السوريون في قوة أبناء عروبتهم خلاصاًمن يأس نفسي ، وتحرراً من ظلم أجنبي•

لم ينتبه البيزنطيون الى أبعاد الحملات العربية الاسلامية ، وظنوها كالغزوات العابرة السابقة • واستطاعخالد بن الوليد أن يجتاز أرض فلسطين

متجهاً نحو الشمال بطريق الجولان ، وحاول البيزنطيون التمركز والصمود في شمال الصنمين في مرج الصفر بدون جدوى. وعندما وصلوا الى دمشق في محرم ١٤ هـ / ١٤ آذار ٦٣٥ م فوجئوا بالعرب المسلمين على أبواب دمشق يحاصرون المدينة ويحولون وصول الامدادات الى أعدائهم ، وقد نصب خالد بن الوليد معسكره قرب الباب الشرقي وجامع الشيخ رسلان حالياً . كان المواطنون ينفرون من الحكم البيزنطي ، مما يفسر دعم المواطنين السوريين لأبناء عروبتهم العرب المسلمين ، وقيام وفد من وجهاء دمشق يرأسهم الأسقف والمراقب العام للمالية (منصور بن سرجون والد القديس يوحنا الدمشقي المشهور) .. وجرت المحادثات لحماية المواطنين من آلام ومعاناة ... ويتحدث المؤرخون عن فتح خالد ابن الوليد مدينة دمشق ودخوله الباب الشرقي ولقائه مع أبي عبيدة الجراح في منتصف الشارع المستقيم في قصر البريص الغساني في جوار كنيسة المقسلاط ... في شهر رجب عام ١٤ هـ ٪ ايلول ٦٣٥ ، وانسحاب البيزنطيين الى جهة الشمال.. كما تحدث المؤرخون عن تفاني المقاتل العربي طالباً الاستشهاد ، في حين أن المقاتل البيزنطي كان يحارب دون حماس ، وبروح لا مبالاة ... وكان المقاتلون العرب في معركة اليرموك ينقضون على خصومهم البيزنطيين بحماس لم يعرفه التاريخ الحربي ... وبعد هزائم البيزنطيين المتتابعة ، أدرك (هرقل) الحقيقة ، وشعر باليأس مما جعله ينسحب أخيراً من سورية ويودعها بكلمات يأس ذكرها المؤرخون . وقد علّق المرحوم اغناطيوس يعقوب الثالث على موضوع تحرير سورية من الحكم البيزنطي قائلاً : هكذا أفل نجم هرقل المضطهد من سماء سورية غير مأسوف عليه ... الخ ... فشهدت دمشق وسورية وأقطار الوطن العربي عهداً جديداً وحضارة جديدة تعتبر احدى الحضارات العالمية .

لم نشهد في العصر البيزنطي أي تنظيم عمراني يذكر . وبقيت دمشق كما كانت في العصر الروماني تضم المدينة القديمة الآرامية والحي المكدوني الجديد يحيط بهما سور تبلغ أبعاده (١٥٠٠×٧٥٠ م) . وهناك أقنية مياه ، وقصر ـ قلعة في الزاوية الشمالية الغربية ، وأبواب جميلة ومنيعة ، وشارعان رئيسان يجتازان المدينة من الشرق الى الغرب (Decumanus) عرف باسم الشارع المستقيم ، وشارع آخر يصل المعبد بالساحة العامة (الآجورا ـ الفوروم). وهناك الملعب هيبودروم) مكان المرج ، والسيرك (مكان شارع بغداد) .

ظهر في العصر البيزنطي عنصر معماري جديد هو (الكنيسة) • وإذا كانت دمشق ـ مثل انطاكية ودورا اوروبوس ـ شهدت الكنيسة السكنية عندما كان عدد المسيحيين من مواطنيها قليلاً ، مماجعلهم يستخدمون أحد مساكنهم ككنيسة سكنية ، فان المرحلة التالية تطلبت تحويل المعابد الوثنية (مثل معبد جوبيتر الدمشقي) الى كنيسة عرفت باسم (كنيسة يوحنا المعمدان) • وخلدوا السيدة مريم العذراء بتشييد مبنى الكنيسة المريمية التي تعتبر من أقدم وأهم الكنائس الدمشقية وهناك (كنيسة المصلبة) ••• وغيرها •••

كما شيد الدمشقيون في العصر البيزنطي الأديرة الضخمة والجميلة التي من أهمها (دير مران) في سفح جبل قاسيون، في موقع يطل على (الربوة) • وقد تميز هذا الدير بحجارته الكلسية البيضاء التي تبدو دائماً كالضاحكة لأشعة الشمس • وكان يغطي أرضه البلاط الجميل الألوان • وكان هيكله يضم صورة دينية ذات أهمية فنية وقيمة جمالية ، مما جعلها توصف بالصورة العجائبية ، تثير في نفوس مشاهديها مشاعر وجدانية وايحاءات روحية مختلفة، وقد تغنى به أحد الشعراء قائلا :

يا صباحاً بدير مران راقا هجت منا القلوب والأحداقا
ومشت نسمة تؤمك حتى رفعت بالعبير فيك رواقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى قلبنا لم يزل له مشتاقا...

كما كان هناك دير قرب الباب الشرقي عرف فيما بعد باسم (دير خالد) • وشيد في ضواحي دمشق أجمل الأديرة والكنائس في صيدنايا ، ومعلولا ، ويبرود والنبك ، و ••• غيرها • ويعتبر (ديرمار موسى الحبشي) قرب النبك و (دير مار يعقوب) في ضاحية (قارا) من أجمل الأديرة المتميزة برسومها الجدارية الجميلة بألوانها وصورها والهامة بمواضيعها الدينية الوثائقية •

وهناك مباني القصور الجميلة الدمشقية التي تعود الى العصر البيزنطي وأخص بالذكر منها (قصر هرقل) في سفح جبل قاسيون ، في موقع يعرف باسم (النيربين). وقد عرف هذا القصر في العصر السلجوقي باسم (قصر شمس الملوك) • وهناك قصر اكتشف في (حي الحريقة) ، تميز بجمال لوحة الفسيفساء فيه •

وكان للعرب الغساسنة في دمشق قصورهم الجميلة من أهمها (قصر

البريص) الذي ورد ذكره في شعر الشاعر العربي (حسان بن ثابت) مادحاً أمراء العرب الغساسنة قائلاً :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقد حدّد بعض الباحثين والمؤرخين موقع هذا القصر عند (المقسلاط) وسط الشارع المستقيم ، قرب الكنيسة المريمية .

وتميزت دمشق بفعالياتها المختلفة السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها .. تركت ذكرياتها وآثارها المختلفة .

فهناك قصة (شاؤل / بولس) ومطران دمشق (حنانيا) وموضوع (الرؤيا على طريق دمشق) وقصة الفتاة القديسة (تقلا) التي التجأت الى أحد كهوف معلولا ، وقصة السيدة الدمشقية التي هجرت مظاهر البذخ والترف في دمشق لتعيش منعزلة في صيدنايا ... الخ ..

وهناك روائع فنون النحت (مثل منحوتة جذع فتاة من حجر الجير ، اكتشفت في حي الحريقة بدمشق) وروائع فن الفسيفساء (مثل لوحة الفسيفساء المكتشفة في أحد القصور في حي الحريقة ، ولوحات فسيفساء اكتشفت في دير العدس تمثل قافلة مؤلفة من رجل يقود عدة جمال ... الخ ...) وروائع فن الرسم الجداري المكتشفة في (دير مار يعقوب) قرب قارا ، و (دير مار موسى الحبشي) قرب النبك .

وهناك روائع الفنون التطبيقية من العصر البيزنطي وأخص بالذكر منها الآثار الفخارية والزجاجية والحلي الذهبية التي تدل على تقاليد فن الصياغة الذهبية في دمشق ، وهناك بقايا خيوط ذهبية لثوب أميرة من البروكار « اكتشفت في منطقة بانياس ... وهناك الأحجار الثمينة (مثل الياقوت واللّعل والزمرد واللؤلؤ ... الخ ...) المكتشفة في بانياس وغيرها ... وهناك صناعة الأسلحة الدمشقية منذ عصر (ديوكليسيان) وصناعة النسيج الدمشقي . وهناك مجموعات النقود البرونزية الدمشقية من العصر البيزنطي. على الوجه : صورة نصفية أمامية للامبراطور البيزنطي ، وعلى الظهر : حرف M بحجم كبير .

وفي الأسفل الحروف الأولى من اسم دمشق DAM أضف الى ذلك أحياناً تاريخ سك النقود وذلك بالحروف • وفي المتحف الوطني بدمشق مجموعة من هذه النقود البرونزية الدمشقية • وقد تابعت دور السك الدمشقية عملها فسكت نقوداً معدنية للدولة العربية الجديدة ، محتفظة بتقاليدها القديمة المتعلقة بسك النقود، بل وبادارتها • ويعتقد أن (سرجيوس/سركيس) الذي كان مدير المالية الدمشقي في عهد الامبراطور البيزنطي (هرقل)قد تابع قيامه بوظيفته نفسها في العهد العربي الاسلامي الجديد في دمشق وقد تميزت هذه النقود البرونزية الجديدة بما يلي : على وجه النقد البرونزي :صورة أمامية للخليفة بمظهر قيصر وفي يده سيف طويل مستقيم وعبارة (أمير المؤمنين) بالحروف العربية ، وعلى خلف هذا النقد البرونزي : حرف M بحجم كبير مع كلمة (دمشق) بالحروف العربية ، تؤكد سلامة هذا النقد قانونياً •

وهناك فعاليات ثقافية أنجبت أعلاماً عالميين مثل (يوحنا الدمشقي) الذي تحدث عن الصور المقدسة قائلا ان أيدينا عاجزة عن تغيير الحدود التي رسمها آباؤنا : انما نحن نحافظ على تقاليدنا الموروثة • ومن أجل هذا ، نسأل عباد الله المؤمنين أن يحافظوا على التقاليد الروحية • فإن فقداننا ما أعطيناه بالتدريج من شأنه أن يقوض الدعائم الأساسية ، وهو آت على البناء بأكمله في وقت ليس بالقصير •••

وكان من أقوال (القديس باسيل ٣٢٩ ـ ٣٧٩) : ينبغي علينا أن نعاشر الشعراء والمؤرخين والخطباء وكل الرجال الذين نظفر منهم بأي عون لتثقيف أرواحنا •••) ••• وكان هناك من يحدد المطالب التعليمية بما يلي : نحن في حاجة الى نوعين من التعليم : ١ ـ مسيحي • ٢ ـ وثني. فنكسب من الأول فائدة للروح ، ونتعلم من الثاني سحر الكلمات ••• وهناك من وجد في الصور إيحاءً يبعث في الذهن ذكرى أشياء سماوية ••

ولا بد أن يكون في كنائس دمشق وأديرتها وقصورها مخطوطات مختلفة عثر على بعضها في (قبة الخزنة) في الجامع الأموي بدمشق وحفظت في المتحف الوطني بدمشق تتضمن نصوصاً دينية وليتورجية باللغة السريانية وبخط جميل يدل على مدى الاهتمام بفن الخط •

والخلاصـة :

مما تقدم تبدو أهمية دراسة تاريخ(دمشق في العصر البيزنطي) لأن هـذه الدراسة جزء من تاريخ دمشق عبر العصور ، ولأن بلادنـا أسهمت عصرئـذٍ في مختلف ميادين الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدولية ٠

وان مبانينـا التي تعود الى ذلـك العصر تـدل على مـدى اهتمام شـعبنا بالمحافظة على تراثه الحضاري من مختلف العصور ٠ كمـا أن آثارنا المختلفـة التي تعود الى ذلك العصر ما زالت محفوظـة في متاحفنـا التي تبدو بمثابـة منبـر للحضارة ومعهد للبحوث العلمية وجامعة شعبية للجميع ٠

☐ المراجـع العربيـة :

ــ د. سليم عبدالحق : محاضرات في التاريخ البيزنطي) أماليـة العـام الجامعي ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤) ٠

ــ د. نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ــ دمشق ١٩٦٩ ٠

ــ بشير زهدي : دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور (سلسلة محاضرات جمعية أصدقاء دمشق ١٩٨٢) ٠

ــ نورمان بيز : الامبراطورية البيزنطية ٠ تعريب: د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايـد ــ القاهرة ١٩٥٧ ٠

ــ أومان : الامبراطورية البيزنطية ــ تعريب : د. مصطفى طـه بـدر ــ دار الفكر العربي ــ مطبعـة الاعتماد بمصـر ٠

ــ ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية : ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد ــ سلسلة ١٠٠٠ كتاب القـاهرة ١٩٦١ ٠

ــ فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ــ ترجمة: حداد ورافق ــ دار الثقافة ــ بيروت١٩٥٨ ٠

☐ المراجـع الأجنبيـة :

— BACHIR ZOUHDI : La Contribution de la Syrie a la Creation de l'art chretien 1974.

— P. LEMERLE : Le Style Byzantin, Paris 1946.

— P. LEMERLE : Histoire de Byzance, P.U.F. 1948.

— LOUIS BREHIER : La Civilisation Byzantine Ed. A. Michel 1970.

— S. RUNCIMAN : La Civilisation Byzantine, Payot. 1.

— A. DUCELLIER : Les Byzantins (Le Temps qui court) 1963.

— DAVID TALBOT RICE : Byzantin Art A. Pelican Book) 1962.

فضل دمشق في تطوّر الطبّ

بين العصرين النوّري والمملوكي

د. نشأت الحمارنه

لا بد من تقسيم هذا البحث الى قسمين :

القسم الأول :

يلخص المسائل العامة التي سبق أن بيّنها بعض(١) الباحثين الذين خاضوا غمار المشكلات المتعلقة بتاريخ الطب في بلاد الشام في هذه الحقبة من التاريخ .

وقد اعتمد هؤلاء الباحثون على المصادر المعروفة ، فاكتفى بعضهم(٢) بكتاب ابن أبي أصيبعة الشهير (عيون الأنباء ...) اذ لم يتح لهم الاطلاع على غيره ، بينما توسع آخرون مستعملين عدداً من كتب التراجم أو كتب الطبقات أو التاريخ ، وحتى كتب الرحلات(٣) .

أما القسم الثاني : فسوف نعرض فيه نتائج الأبحاث المتواضعة التي قمنا بها معتمدين على دراسة المحتوى العلمي لبعض الكتب(٤) الطبية التي ظهرت في هذا العصر الذي نحن بصدده .

ونأمل أن تكون في هذه النتائج ما يزيد في معرفتنا عن مستوى الطب في هذه المرحلة من تاريخ بلادنا .

ونظراً لاتساع المادة التي جنيناها فسوف نختار منها بعض الموضوعات

الرئيسة ونعرضها باختصار شديد تاركين الى مناسبات أخرى التوسع في عرضها وخاصة لأصحاب الاختصاص .

أما الأمثلة التي سنسوقها فسنحاول أن نلتقطها من حقل (طب العيون) توخياً للتجانس ، وسنسعى الى تبسيطها ـ ما أمكن ـ ليسهل فهمها على غير المتخصصين .

* * *

تهدف هذه المحاولة الى دراسة حالة الطب في بلاد الشام، وكيفية تطوره وذلك في الفترة الزمنية التي تبتدىء بظهور السلطان نورالدين وتنتهي أيام المماليك العظام الذين قاتلوا الفرنجة ودحروا المغول .

في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ العرب عرف العالم دمشق على حقيقتها : مناضلة صامدة صابرة ، تدفع قطعان المغول المتوحشين القادمة من الشرق ، وتقاتل البرابرة الفرنجة الذين احتلوا فلسطين وساحل الشام ، ودمروا الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس .

لقد تألقت دمشق في هذه الحقبة من تاريخها كما لم تتألق من قبل وتوهجت روحها العربية الأصيلة عاصمة للمقاومة العربية وحاضرة إسلامية كبرى .

فلا عجب اذن أن تزدهر دمشق في ذلك الزمن ، وأن يعمها الرخاء وينتشر فيها العمران ، وأن يؤمها الناس للاقامة فيها[٥] .

لقد وفرت دمشق العيش الكريم لسكانها ، والسوق الرائجة لبضائع المدن المجاورة . وبنت المدارس ودور العلم تستقدم الطلبة من كل أقطار العالم العربي وتنفق عليهم وتنشئهم عدة للأمة وذخراً للأجيال .

* * *

ولا بد ـ بادىء ذي بدء ـ من توضيح مسألة منهجية ، فحديثنا عن دمشق الشام لا يعني أننا نعزلها عن المدن العربية الأخرى ، فهي لم تعرف في تاريخها العزلة ، ولم تبتعد يوماً عن محيطها الطبيعي . لقد ظلت دمشق دوماً قلباً نابضاً للشام[٦] تسري الحياة منه شرقاً حتى تصل الفرات والجزيرة والعراق ،

وتأتيه الحيـاة من الشرق لتزيده وجيباوعروبة ، وتنطلق منه الروح غرباً الى أرض الكنانة ، وتوغل حتى القـيروانوالمغرب والأندلس ، وتعود الروح اليـه من الغرب مؤكدة عروبته وأصالته •

من كل هذه الأقطار والأمصار يأتيالطلبة الى دمشق ، ومنها يأتي المحاربون يدافعون عن أرض العرب وعن حضـارةالاسـلام •

من هذه الأقطـار أتى العلمـاء اليدمشق ، وأتى الأطباء • بعضهم مرّ بها ، وبعضهم استقر فيها :

من بغـداد جاء إسـحق بن عمران ،مرّ بالشام وبمصر، وألقى عصى الترحال في القيروان •

ومن الموصـل جاء عمـار بن عليّوعمل في مدن شامية عديدة[٧] واستقر في القاهـرة •

ومن الأنـدلس جاء ابن البيطـار ليعمل في القاهـرة وفي الشام ويمـوت في دمشـق •

لقد كانت الشام دائماً موئلاً للطلبةوالعلماء أو مستقراً لهم[٨] ، توحد بـين أقطار العروبة ، وتصل الرّحم •

ولم تكن دمشق في كل تاريخها مكاناًللاقليميين أو الانعزاليين •

ظلت دمشـق تحمل هموم العـربوتدافع عنهم وترفع من شأنهـم • تبني صرح دولتهم وتصنع حضارتهم وتحمـلرسالتهم •

وفي هذا العصر الذي نحن بصـددهصارت دمشـق كعبـة للطلبة والعلمـاء والأطباء •

ولكن اذا صح أنه (لولا دمشق لما كانتطليطلة) (ولا زهت بغداد) ، فانه لا يضـير دمشـق أن نبيّن انه في حقل تاريـخ الطب :(لولا بغداد لـما كانت دمشـق) ، ولا زهت القاهرة أو القيروان أو قرطبة •

فالطب العربي بدأ في بغـداد ــ العاصمة العربية الثالثة ــ ذلك ان الدولـة

العربية لم تستطع أن تأخذ طب الأمم السالفة وأن تتمثله وترفع رايته الا بعد فترة زمنية انتقل فيها مركز الدولة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق(٩) ٠

وقد كان التأثير الأسبق ـ في حقل الطب ـ على بغداد لحاضرة الأحواز العربية « جنديسابور » في العصر العباسي الأول(١٠) ٠

ومن بغداد انتقلت العلوم الطبية الى الشام ومصر والمغرب في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ٠

أما في العصر الذي نحن بصدده فقدجاء الطب في أرقى مستوياته الى الشام من بغداد ، وبتعبير أدق : أثرت على الشام مدرسة بغداد الطبية التي كان على رأسها في ذلك الوقت الأستاذ البغدادي الكبير ابن التلميذ ٠

ان النهضة الطبية التي عرفتها الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين (ق ١٢ ، ١٣ م) تعتمد على الأساتذة الذين تتلمذوا ـ أساساً ـ على أساتذة مدرسة بغداد ٠

ولعل مهذب الدين بن النقاش(١١) هو أوضح مثال على ما نذهب اليه ٠

* * *

وثمة مسألة أخرى ، يجب أن نشير اليها : وهي : أن الباب الأخير من كتاب ابن أبي أصيبعة : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) هو أهم أبواب هذا الكتاب ، ذلك أن الكاتب يدوّن فيه معلومات سمعها من أساتذته أو خبرها بنفسه ٠ وأحداث هذا الباب تدور في العصر الذي ينتمي اليه المؤلف :

فالباب إذن ليس سجلاً قيّماً في مجال تاريخ الطب فحسب بل هو كنز لروايات أو مشاهدات ذات أهمية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو أدبية في ذلك الزمن ٠

ومن هذا الباب يستطيع الدارس أن يحصل على حقائق متفاوتة القيمة في كل هذه الحقول ٠

ومن المؤسف أن كتاب ابن أبي أصيبعة لم يحقق بعد ، ولم ينل ما يستحقه من اهتمام ودراسة ٠

وعلى هذا الكتاب يعتمد الباحثون المتميزون ، فيأخذون منه المعلومات الأساسية الضرورية لكتابة تاريخ الطب في الشام ويغنون حصيلتهم بما يجدونه في الكتب الأخرى التي قد تبدو لأول وهلة بعيدة عن مجال تاريخ العلم ككتب التاريخ العام أو كتب الطبقات أو تراجم الرجال أو حتى كتب الرحلات ·

وقد كان كتاب (عيون الأنباء) ـ كما ذكرنا ـ المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه لوكلير حينما كتب كتابه الهام (الطب العربي)[١٢] ·

أما محاولتنا نحن فتعتمد بالدرجة الأولى على قراءة الكتب الطبية التي ظهرت في هذا العصر الذي نحن بصدده لكي نعرف منه المزيد عن مستوى الطب وتوجهاته وفروع التخصص فيه وأسلوب ممارسته وطريقة تدريسه ·

وبذلك نستطيع إغناء المعلومات التي أوردها ابن أبي أصيبعة ، أو التي تمكن الدارسون المتأخرون من جمعها ·

وليس في علمي أن أحداً ـ حتى هذه الساعة ـ قد كتب عن هذه الحقبة من تاريخ الطب العربي مستنداً الى الحقائق التي يمكن أن تجتنى من كتب التدريس الطبية ·

وبادىء ذي بدء يجب أن نقول أن ما خلصنا إليه من نتائج يؤكد ما توصل إليه الآخرون :[١٣] ففي هذا العصر ازدهرت المؤسسات الصحية والمدارس الطبية ، وزاد عدد الأطباء الكبار زيادة ملحوظة وظهر بينهم أساتذة مجلّون ·

أما مستوى الطب ومحتواه فسيكونان موضوع دراستنا المتواضعة هذه ·

★ ★ ★

احتل الفرنجة القدس عام ١٠٩٩ م ولم يمض أكثر من ثلاثة عقود حتى كان عماد الدين زنكي في الموصل قد بدأ عملية المقاومة الجادة[١٤] بهدف تحرير البلاد من المحتلين الغزاة ·

وعلى الرغم من أن البدايات على يد عماد الدين كانت صحيحة إلا أن الحظ لم يسعفه للمضي طويلا في الشوط الذي نذر حياته لانجازه[١٥] · فخلفه ابنه نور الدين محمود في حلب عام ١١٤٦ م ·

وقد تمكن هـذا القـائد التاريخي من السير قدماً على خطى والده فوحّد مدن الشام ثم ضم مصر (١٦) ، وتوفي بدوره قبل أن يرى تباشير التحرير. وترك للقدر اختيار خليفته، فاختارت العناية الالهية صـلاح الدين الـذي أنجز مهمة توحيد مصر والشام ، ومضى على الطريق الصحيـح(١٧) حتى حطين وتحـرير بيت المقدس ٠

وقد عرف نور الدين محمود زنكي كيف يضع أسس دولة قوية ، تقدّر العلم حق قدره ، وشيد المشافي احتراماً لحق الانسان في المداواة وطلب الشفاء ٠

ومن المعروف أن دمشق كانت تزهو بمشفيين شهيرين حتى عصر نور الدين :

أولهما : المارستان القديم[١٨] غربي الجامع ، وثانيهما : بيمارستـان بـاب البريد[١٩] ٠

وقد عُرف المشفى الحديث[٢٠] الذي بناه نور الدين بالبيمارستان الكبير[٢١] أو البيمارستان النوري[٢٢] ٠

أما المستشفى القديـم فقد أطلـق عليه فيما بعد اسم البيمارستان الصغير[٢٣]

وقد عين الملك العادل نور الدين الطبيب الأندلسي الأصل أبا المجد محمد بن أبي الحكم[٢٤] مديراً لهذا المشفى عند تأسيسه ٠

وقد قام هذا المشفى بعبء معالجة المرضى ، كما صار مدرسـة للطب[٢٥] ٠ لعبت ذلك الدور الهام في تاريخ العلـوم الطبية الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه ٠

وفي رحاب هذا المشفى صار تدريس الطب رسالة وطنية فأتى اليه طلبة العلم من المدن المختلفة ، كما أتى اليه الأساتذة الكبار الذين ساهموا في التعليم معتمدين على المعارف التي جمعوها في بغداد ، كما سبق وأشرنا ٠

ولعل أحد أهم انجازات هذه المدرسة الطبيـة هـو تزويـد المـدن السوريـة بالأطباء[٢٦] ، وكذلك الجيوش التي قامت بقتال الفرنجة أولاً ، ثم بمحاربة المغول ٠

وإذا كنا قد ذكرنا مهذب الدين ابن النقاش[٢٧] باعتباره الأستاذ المؤسس لهذه المدرسة والذي قام بتخريج أوائل الأساتذة الدمشقيين فانه لابـد أيضاً من ذكر أستاذ آخر هام من جيل الطليعة هو :

اليـاس بن جـرجس المطـران[٢٨] الذي ساهم بدوره في نقل العلوم الطبية

من بغداد الى الشام ، وعليه قرأ موفق الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار السلمي[٢٩] المتوفي عام ١٢٠٨ م = ٦٠٤هـ ٠

والسلمي هذا هو مؤلف كتاب (امتحان الألباء لكافة الأطباء ٠ الذي استعملناه في هذه الدراسة وجنينا من قراءته معلومات قيمة عن فروع التخصص ونظام الامتحان وكتب التدريس في مدرسة دمشق الطبية ، وأقدم تلامذة المدرسة الدمشقية الذين لعبوا دوراً متميزاً في تاريخ الطب بعد أن تخرجوا على مهذب الدين ابن النقاش في البيمارستان النوري اثنان :

أولهما : أسعد بن الياس (ابن المطران)[٣٠] الذي توفي عام ١١٩١ م = ٥٨٧ هـ٠ وعليه درس الدخوار[٣١] الذي صار من أهم الأساتذة ٠

وثانيهما : رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحبي[٣٢] الذي قرأ الطب في بغداد ودمشق وعمل جزءاً من حياته في مصر ثم استقر في دمشق ونذر نفسه للتعليم والعمل في البيمارستان ؛ وقد درس عليه الدخوار وغيره ٠

أما الدخوار فهو مؤسس أول مدرسة طبية خاصة في دمشق[٣٣] ، وعليه قرأ بعض أهم أطباء القرن الثالث عشر الميلادي (= القرن السابع الهجري) ٠

ظل عبدالرحيم بن علي الذي اشتهر باسم مهذب الدين الدخوار أستاذاً في البيمارستان النوري ، ثم أسس مدرسة خاصة لتعليم الطب في منزله ، وقبل أن يوافيه الأجل أوصى بأن تظل داره مدرسة للطب ، وقام بتأمين دخل كاف لها ، ذلك أنه وقف لها أملاكه ٠ وقد توفي عام ١٢٣٠ م (= ٦٢٨ هـ) ويعتبر ابن النفيس وابن أبي أصيبعة من أشهر تلامذة الدخوار ٠

وقد أحصى الأستاذ زهير البابا[٣٤] عشرة من أجل تلامذة الدخوار مارسوا المهنة في مصر أو في الشام ، وقام بعضهم بالتدريس ، أو التأليف في العلوم الطبية ٠

ونكتفي هنا بذكر بعضهم تاركين للراغب في معرفة المزيد العودة الى مقالة الأستاذ البابا أو الى المراجع الأخرى ٠

ولا شك أن أشهر هؤلاء جميعاً هو ابـن النفيس[٣٥] المتوفي سـنة ١٢٨٨ م = ٦٨٧ هـ ٠

وقد صار ابن النفيس طبيباً للسلطان الظاهر بيبرس ، كما تبوأ منزلة رئيس الأطباء في مصر ٠

ويعتبر ابن النفيس من أهم شرّاح أبقراط ، لكن شروحه لقانون ابن سينا كانت أبعد أثراً فوصل صيتهـا في حياة ابن النفيس الى شيراز ٠

ومن أهم مؤلفات ابن النفيس كتاب(موجز القانون) الذي لخص فيه قانون ابن سينا ، وقد كتب (المهذب ٠٠٠)وهوكتاب في أمراض العين ، كما شرع بكتابه موسوعة طبية بعنوان (الشامل)،وإضافة الى ذلك فقد كان أستاذاً للفقه في المدرسة المسرورية في القاهرة ٠

أما الأساتذة الذين عاشوا في الشام فنختار منهم أربعة :

١ ـ ابن أبي اصيبعـة[٣٦] : المـؤرخ الشهير ، وصاحب (عيون الأنباء ٠٠)

٢ ـ نجم الدين اللبودي[٣٧] : الذي عمل في حمص ٠ وصار وزيراً هناك ٠

٣ ـ ابن قاضي بعلبك[٣٨] : الذي صار رئيساً للأطباء ٠ وأستاذاً في الدخوارية ٠ وكان قبل ذلك قد عمل في الرقة ٠

٤ ـ ابن السويدي[٣٩] : وقد صار مدرساً في الدخوارية وشيخاً لأطباء مصر والشام.

ويذكر الأستاذ البابـا إضافـة الى هؤلاء الأربعة ثلاثـة آخرين[٤٠] يمكـن العودة اليهم في مقالة الأستاذ أو في (عيون الأنباء) ٠

وكما أن تدريس الطب لم يقتصر على مدرسة البيمارستان النوري ، بـل تجاوزها الى المدارس الخاصة ـ كما ذكرنا ـ (إذ عرف التاريخ المدرسة الدخوارية التي أشرنا اليها قبل قليل) فان عدداً من المدارس قـد ظهر في هذا العصـر[٤١] ، بعضها اهتم بالعلوم الدينية واللغوية ،وقام بتدريس بعض المواد اللازمة لدراسة الطب كعلوم الطبيعة ، وبعضها تخصص في التعليم الطبي النظري أو السريري ٠

ويلاحظ الأستاذ زهير البابا[٤٢] أن عدداً من خريجي المدرسة الطبية في البيمارستان النوري قد أوكل إليهم منصب رئاسة الأطباء في مصر أو في الشام ، وذلك منذ بداية نشاط هذه المدرسة ، ومن هؤلاء :

١ ــ جمال الدين : أبو عمرو عثمان بن أحمد القيسي[٤٣] المعروف بابن أبي الحوافر المتوفي عام ١٢٢٧م = ٦٢٥هـ الذي قرأ على ابن النقاش والرحبي.

٢ ــ سعد الدين : أبو اسحق ابراهيم بن عبدالعزيز السلمي[٤٤] المتوفي عام ١٢٤٦م = ٦٤٤هـ ابن الطبيب موفق الدين السلمي .

٣ ــ مهذب الدين : عبد الرحيم بن علي الدخوار ــ الذي سبقت الاشارة اليه . ويضيف الأستاذ البابا الى هؤلاء ثلاثة من تلامذة الدخوار سبقت الاشارة اليهم ، وهم :

١ ــ ابن قاضي بعلبك[٤٥] : المتوفي سنة ١٢٧١ م = ٦٧٠ هـ .

٢ ــ وابن النفيس[٤٦] : المتوفي سنة ١٢٨٨ م = ٦٨٧ هـ .

٣ ــ وابن السويدي[٤٧] : المتوفي سنة ١٢٩١ م = ٦٩٠ هـ .

* * *

وينبه الأستاذ ابراهيم بن مراد[٤٨] الى ظاهرة أن الملوك اصطفوا عدداً من الأطباء ليكونوا أطباء شخصين لهم يرافقونهم في رحلاتهم وحروبهم ، وكذلك فعل الأمراء والوزراء وقادة الجيش .

كما يشير الى أسماء الأطباء الذين وصلوا الى منصب الوزارة وهم[٤٩] :

١ ــ ابن الساعاتي[٥٠] : الذي استوزره أمير دمشق عيسى ابن الملك العادل (توفي ١٢٢٧ م = ٦٢٤هـ) وقد قرأ على رضي الدين الرحبي .

٢ ــ يوسف السامري[٥١] : الذي استوزره أمير بعلبك مجد الدين بهرام شاه (ت ١٢٣٠ م = ٦٢٨ هـ) .

٣ ــ ابن غزال[٥٢] : الذي استوزره أمير دمشق عماد الدين اسماعيل بن أبي بكر الأيوبي (ت ١٢٥٠ = ٦٤٨هـ) .

٤ ــ نجم الدين اللبودي[٥٣] :الذي استوزره أمير حمص ابراهيم بن أسد الدين شيركوه (ت ١٢٤٥م = ٦٤٣ هـ)وكان قد قرأ على الدخوار ٠

★ ★ ★

ولعله من غير الضروري المضي في استعراض مشاهير أطباء هذه الحقبة وقد أحصى منهم(اعتماداً على ابن أبي أصيبعة)الأستاذ ابن مراد في القرن السادس الهجري (ق.١٢م) عشرين طبيباً شهيراً[٥٤] ،جلهم قام بأعمال علمية أو اجتماعية هامة أو تبوأ منصباً ادارياً أو ترك أثراً طبياًمكتوباً ٠

أما أطباء القرن السابع الهجري (ق١٣ م) فقد أحصى منهم الأستاذ ابن مراد خمسة وستين عَلَماً شهيراً[٥٥] ٠

ولكن ربما كان من المناسب أن نذكرهنا أسماء بعض أساتذة المدرسة الدخوارية ممن تعاقبوا على ادارتها :

١ ــ علي بن يوسف الرحبي[٥٦] ٠
٢ ــ ابن قاضي بعلبك[٥٧] ٠
٣ ــ عماد الدين الدنيسري[٥٨] ٠

أما الأساتذة الذين كانت لهم مجالس علمية خاصة فكثيرون ، سبق أن ذكرنا منهم مهذب الدين ابن النقاش ، ورضي الدين الرحبي ، ومهذب الدين الدخوار ويضيف الأستاذ ابن مراد ثلاثة آخرين[٥٩] هم :

١ ــ موفق الدين عبدالعزيز بن عبد الجبار السلمي[٦٠] الذي توفي عام ١٢٠٨ م = ٦٠٤ هـ وهو مؤلف كتاب (امتحان الألباء لكافة الأطباء) الذي أشرنا اليه ٠

وهو والد الطبيب الشهير سعيد الدين أبو اسحق ابراهيم السلمي الذي سبق ذكره ٠

٢ ــ رشيد الدين ابن خليفة[٦١] المتوفي ١٢١٩ م = ٦١٦ هـ وهو عم مؤرخ الطب الشهير ابن أبي أصيبعة ٠

٣ ــ شمس الدين اللبودي :[٦٢] المتوفي ١٢٢٤ م = ٦٢١ هـ

★ ★ ★

وزبدة القول :

فهذه المعلومات ذكرها ابن أبي أصيبعة وعرضها لوكلير وغيره • وقد لخصنا تلخيصاً شديداً الدراستين اللتين كتبهما الزميلان الأستاذ البابا والأستاذ ابن مراد ـ اعترافاً بفضلهما[٦٣] ـ وذلك لكي نخلص الى القول بأن الشام قدّمت في مجالي الممارسة والتعليم الطبي الشيء الكثير ، إذ تطورت فيها المشافي التعليمية وازدهرت المؤسسات الصحية ، وانتشر تلامذة دمشق وخريجو مدارسها في طول البلاد وعرضها فشغلوا أخطر المناصب الادارية في مجال الصحة وادراة المدارس الطبية في مصر والشام •

ومن هذه المدارس تخرج مؤلفو الكتب الطبية التي قمنا بدراستها وحصلنا منها على النتائج التالية :

أولاً : ترسّخ نظام التخصّص الطبي

نحن نعلم أن نظام التخصص الطبي ظهر في بلادنا في عصر حضارة مصر الفرعونية ، وحضارة بلاد ما بين النهرين القديمة ، فقد جاء ذكر طبيب العيون مثلاً في البرديات المصرية ، كما ورد ذكره في شريعة حمورابي التي أخذت بدورها عن تقاليد سالفة[٦٤] •

وقد استمر هذا التخصص في بلادنا عبر العصور اللاحقة حتى جاء الطب اليوناني فأكد على وجود هذا التخصص في العصر الهلنستي وما تلاه الى أن جاء الاسلام الذي حافظ على هذا الانجاز العلمي الشرقي العتيد •

فمنذ القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) نجد شواهد عديدة على وجود أطباء العين ، ومؤلفات متخصصة[٦٥] في هذا الحقل[٦٦] ، وكتباً للتدريس وامتحانات •

وفي القرن العاشر الميلادي (القرن الرابع الهجري) تظهر شواهد مشابهة على وجود الجرّاح المتخصص ، الذي يقوم بعمليات الكيّ والفصد والتجبير اضافة الى العمليات الجراحية الصغرى[٦٧] •

أما في العصر الذي نحن الآن بصدده فان المصادر تؤكد لنا وجود الطبيب المتخصص بالأمراض الباطنة الى جانب الجرّاح والكحّال ٠

وإذا تعمقنا في محاولة استقراء النصوص ، فانها تحدثنا عن الأعمال التي كان يقوم بها الطبيب الباطني ، فهو الذي ينظر في القارورة ــ أي هو الذي يفحص بول المريض ــ وهو الذي يعالج الحميات، كما أنه يشرف على أقسام المشفى التي خصصت للمرضى المصابين باضطرابات عقلية ٠

ونجد في الكتب الموسعة أبواباً خاصة بجبر الكسور ورد الخلوع تشير صراحة الى بداية ظهور فرع الجراحة العظمية(٦٨) ٠

وثمة أبواب خصصت لوصف عمليات الفصد المختلفة التي كان الجرّاح أو الطبيب بحاجة الى معرفتها لمعالجة عدد كبير من الأمراض العامة أو حتى بعض الأمراض العينية(٦٩) ٠ وقد ألّف بعض الأساتذة رسائل خاصة بالفصد ٠

ومن نافلة القول أن الفصد ظلّ مستعملاً لمعالجة بعض أمراض العين في عدد كبير من المدارس الطبية الأوروبية حتى منتصف هذا القرن ٠

وقد تبين لنا من دراسة كتاب السلمي(٧٠) (امتحان الالباء لكافة الأطباء) ان هذا الأستاذ يتعامل في أسئلة الامتحان مع فرعين مستقلين من فروع الجراحة : الجراحة العامة ، والجراحة العظمية(٧١) فهل يميز المؤلف بين اختصاصين ؟ أم بين مقرّرين في تخصص واحد ؟

أما الصيدلة فقد تطورت بدورها في اتجاه ظهور عملين متخصصين(٧٢) ٠

العمل الأول الذي يقوم به العشاب الذي يعرف النباتات في مواطنها فيقوم بجمعها وحفظها ووضعها في متناول زميله الآخر الذي يعمل في البيمارستان ٠

والعمل الثاني يتم في الصيدلية ، وثمة نوعان من الصيدليات: الأولى صيدلية البيمارستان التي تحضّر الأدوية للمرضى المقيمين وللمراجعين الذين يترددون على العيادات المتخصصة ٠ والثانية هي الصيدلية الخاصة التي كثيراً ما كان يقال لها : الدكان ٠ وهي تلك التي يمتلكها طبيب وتكون تابعة لعيادته، يعمل فيها مساعدون له متخصصون ، يقومون بتحضير الأدوية البسيطة وحفظها وتركيب الأدوية

المركبة ، أو انها تكون ملكاً لصيدلاني متخصص يأتي اليها لشراء الأدوية مرضى جاؤوا من عيادات أطباء مختلفين ٠

فاذا أردنا أن نسمي أحد أعلام العشّابين في هذا العصر ، ممن حفظت لنا المصادر معلومات وافية عن اسلوبهم العلمي في دراسة الأعشاب الطبية ووصفها فاننا لا نجد أجدر من رشيد الدين الصوري[٧٣] (ت ١٢٤١ م ـ ٦٣٩ هـ) الذي يعود الفضل في تخليد ذكره الى ابن أبي اصيبعة الذي أطنب في وصف طريقته في البحث عن النباتات في مواضع نبتها ، وتسجيل أوصافها في مختلف مراحل نموها ، والقيام برسمها بالألوان من قبل رسام متخصص ٠

ورشيد الدين الصوري هذا هو أحد تلامذة موفق الدين عبد العزيز السلمي صاحب (امتحان الالباء ٠٠٠)

ثانياً : نظام الامتحان الطبي

كتب يوحنا بن ماسويه (ت ٢٣٤ هـ = ٨٥٧ م) في بغداد أقدم كتاب تمتلكه البشرية في هذا المعنى ٠ ويكون ابن ماسويه بذلك رائد تأليف هذا النوع من الكتب التي تحدد سوية أسئلة الامتحان ، ليكون بمثابة تذكرة للطالب يعرف من قراءته مستوى الأسئلة المطلوبة منه في الفحص الذي يجريه من أجل الحصول على ترخيص لممارسة المهنة ٠

وهذا الكتاب لم يُكْتَبْ للطالب فحسب ــ كما ظن بعض الباحثين[٧٤] لكنه كُتب للمتحن أيضاً ، يهدف الى اطلاع الأستاذ الذي يُجري الفحص على المستوى المثالي والحد العادل الذي ينبغي أن تكون عليه الأسئلة من حيث صعوبتها أو سهولتها ، ومن حيث شمولها للمناهج واحاطتها بالمقررات ٠

وكتاب ابن ماسويه هذا متخصص في مجال امتحان أطباء العين ، وعنوانه (معرفة محنة الكحالين) ٠ و (المحنة) هنا بمعنى الامتحان[٧٥] ٠

وقد ظهر في دمشق بعد ذلك بقرون كتاب آخر على درجة رفيعة من الأهمية في تاريخ الطب ، ذلك أنه يمثل الفلسفة نفسها التي يعبر عنها أستاذ بيت الحكمة ابن ماسويه ٠ وهذا الكتاب ليس من النوع الذي يقتصر على اختصاص بعينه ،

بل انه يشمل الأسئلة الموجهة لامتحان الأطباء الباطنيين والكحّالين والجرائحيين والمجبرين والصيادلة والعشابين ·

ومن المهم أن نقول أن هذا الكتاب لم ينل بعد ما يستحقه من اهتمام ، وبالتالي فاننا لا نعرف ما إذا كانت أقسامه تشير الى المقررات المختلفة المطلوبة من الطبيب يوم تخرجه ، أم أنها تشير الى مجموعة الامتحانات التي ينبغي أن يجتازها المتخصصون كل في حقله ·

عنوان هذا الكتاب يشير الى طبيعته (امتحان الألباء لكافة الأطباء) ومؤلفه هو الأستاذ الدمشقي موفق الدين السُلَمي ، المتوفي عام ٦٠٤ هـ = ١٢٠٨ م ·

ونحن نعرف هذا الأستاذ بفضل الترجمة المختصرة التي أوردها ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء(٧٦) ·

ولما كانت دراستي لهذا الموضوع حديثة ، لذلك فان المعلومات التي توفرت في هذا الحقل ما تزال قليلة ، وبالتالي فان الباب ما يزال مفتوحاً للبحث عن هذه الفئة من الكتب التي ظهرت في الزمن الممتد بين عصر ابن ماسويه وعصر السُلمي ·

وسوف نعرف في المستقبل القريب المزيد عن هذه المسألة الهامة في تاريخ الطب ، ذلك أن كل المؤشرات تدل على وجود نظام عريق متطور لاعطاء الاجازة الطبية بعد اجتياز امتحان تشرف عليه المؤسسات التعليمية · وهذا بطبيعة الحال انجاز مهم في تاريخ الطب تحقق في بلادنا ·

ومن الواضح أن هذا الامتحان شيء والامتحان الذي تجريه الدولة للأطباء الممارسين شيء آخر · فالأول امتحان مدرسي [تقوم به المؤسسات] التعليمية، والثاني الاجراء" تقوم به المؤسسات [التي أنيط بها مراقبة ممارسة المهنة] ·

ومن نافلة القول أن نشير هنا الى الامتحان الذي أجري في بغداد بطلب من الخليفة ، ذلك انه يبدو أن بعض الممارسين لم يكن قد قام بدراسة الطب أصولا، وتجرأ على ممارسة المهنة دون أن يكون مؤهلا لهذا العمل ·

وبطبيعة الحال فان النوع الثاني من الامتحان ـ امتحان الممارسين ـ كان من صلب عمل المحتسب[٧٧] ٠

ومن المعروف أن نظام تعلّم المهن الطبية كان في الزمن السالف يقوم على حصر المهنة ضمن الأسرة الواحدة ، أو أخذها عن طبيب ممارس معروف ، دون وجود مدرسة طبية ، وبالتالي فان الممارسين في العصر العباسي كانوا على فئتين : الدارسون على الطريقة التقليدية ، والدارسون في المدارس أو المشافي ٠

ومن هنا صار الخضوع للامتحان شيئاً مهماً قبل التخرج ٠ ومن هنا أيضاً كان من واجب المحتسب أن يراقب أصول الممارسة وكيفيتها وذلك لأن ثمة عدداً من الأطباء الممارسين ينتمون الى الصنف الأول الذي أشرنا اليه ، وهو الصنف الذي لم يداوم في البيمارستان ، ولم يتلق دروساً أصولية عند أستاذ معترف به ، والذي حافظ على وجوده بقوة الاستمرار ، خاصة في الزمن الذي سبق انتشار المدارس الطبية والبيمارستانات التي تقوم بمهمة تعليمية ، كالبيمارستان النوري مثلا ، في عصرنا هذا ، أو بيمارستانات بغداد العديدة أيام الخليفة المقتدر مثلا ، أو مشفى بغداد الذي كان يديره ابن بختيشوع والذي تعلم فيه ابن ماسويه ٠

ثالثاً : كتب التدريس الطبي والمراجع

بمقارنة أسماء الكتب التي وردت في (عيون الأنباء) بأسماء الكتب التي أوردها السلمي ، نتمكن من التعرف على عدد كبير من المؤلفات المعتمدة للتعليم في مدارس دمشق الطبية ، كما نستدل على أسماء عدد من المراجع المتوفرة في المكتبات في ذلك الزمن ٠

وبدراسة هذه الأسماء يمكن أن نحصل على بعض الحقائق الهامة في تاريخ الطب العربي ٠ ونورد هنا بعضها :

١ ـ كان كتابا : الملكي[٧٨] والقانون[٧٩] المرجعين الرئيسيين اللذين اعتمدهما السلمي في احالاته المتعلقة بأجوبة الأسئلة المطلوبة في الامتحان ، في معظم أبواب كتابه (امتحان الألباء ...) وذلك في مجال نظريات الأمراض وكليّات

الطب بشكل خاص . وهذا يشير الى أن القانون لم يحلّ محل الملكي كما هو شائع .

٢ ـ ظلت بعض كتب جالينوس مراجع هامة حتى هذا العصر ، ذلك أن الموضوعات التخصصية التي عالجتها بعض مؤلفات جالينوس جعلت من الترجمات العربية لهذه الكتب مصادر أساسية موثوقة . فمن المعروف أن كتب الطب الشاملة ذات الطابع الموسوعي كالملكي والقانون لخصت كل مؤلفات جالينوس ، إلا أن الترجمات الدقيقة لهذه الأعمال ظلت موضع اهتمام الأساتذة ، وذلك رغم الشروح العديدة التي كتبها الأساتذة العرب لهذه الكتب .

ومن الضروري أن نشير الى أن معظم أساتذة الطب لم يعودوا بحاجة الى معرفة اللغة اليونانية لفهم جالينوس ، وذلك بعد ظهور ترجمات حنين الدقيقة ، وبعد ظهور كتاب الحاوي الذي جمع أهم ما كتبه الأساتذة الاغريق(٨٠) . ومع ذلك فان بعض الأساتذة كان يتقن اليونانية .

وإذا أردنا أن نسمي بعض كتب جالينوس التي أشار اليها السلمي فاننا نذكر:

١ ـ البحران . ٢ ـ أيام البحران . ٣ ـ كتاب النبض الكبير . ٤ ـ حيلة البرء . ٥ ـ الحميات .

٣ ـ يشهد جميع الباحثين أن المعرفة الطبية في القرن العاشر صارت متجانسة في طول البلاد وعرضها ، وأضحى انتقال الكتب الطبية سريعاً بين أقصى الأندلس والشام أو أقصى أواسط آسيا ومصر مثلاً ، فمراكز الحضارة جميعها أصبحت تمثل ثقافة موحدة ، سواء من حيث التعليم النظري أو الممارسة السريرية . وبطبيعة الحال فاننا نجد في كتب المدرسة الطبية الدمشقية ما يؤكد هذه الحقيقة :

فان أحد أهم المراجع في دراسة التشخيص التفريقي للأمراض في دمشق هو كتاب (البول) الذي ألفه اسحق بن سليمان الاسرائيلي(٨١) (ق ٩ ـ ١٠ م) ـ (٣ ـ ٤ هـ) وقد جاء هذا الكتاب من القيروان .

وكذلك كان أحد أهم كتب الأدوية في دمشق كتاب ابن وافد (الأدوية المفردة) الذي يعتبر من انجازات المدرسة الأندلسية في علم العقاقير . وقد إعتُمدَ في الشام أيضاً كتابان أندلسيان في الطب هما كتاب الزهراوي(٨٢) وكتاب ابن زهر(٨٣) .

٤ ـ ظل كتابا (النجاة) و (الشفاء) لابن سينا مرجعين مستعملين لفهم نظريات الأبصار · هذا الموضوع المشترك بين الفلاسفة والأطباء ·

وسنعود الى تفصيل هذا الأمر ·

٥ ـ قام بعض الأطباء في هذا العصر بالتعليق على بعض كتب ابقراط أو جالينوس ، أو أنهم قاموا باختصارها أو شرحها ، وهذا الاسلوب في التأليف عرفه العرب منذ القرن التاسع · واستمر في أيام الرازي ، وظل ناشطاً حتى هذا العصر ·

ومن أهم شرّاح أبقراط في هذا العصر ابن النفيس وابن القف[٨٤] ·

رابعاً : تطور علم التشخيص التفريقي

من المعروف أن أول انجاز كبير حققه العرب في هذا الحقل يعود الى عصر الرازي[٨٥] الذي توصل الى معرفة العلاقة بين الأعراض الجلدية لبعض الأمراض والأعراض العامة لهذه الأمراض نفسها، فهو الذي ربط بين الآلام والحمى باعتبار أنها أعراض متعممة وبين الأعراض الجلدية لمرض الجدري · وقد قاده ذلك الى التفريق بين الجدري والحصبة · واضافة الى ذلك فان الرازي ـ نتيجة مراقبته لسير المرض ـ تمكن من وصف التغيرات التي تطرأ على التظاهرات الجلدية للأمراض · ففرق بين الحويصل المائي الذي يتبدّى على الجلد وبين النفاطات أو التظاهرات الأخرى المشابهة · كما أنه ربط بين الظاهرة الجلدية في مرحلة البدء وبين الظاهرة نفسها في مرحلة التقيح أو التقشر[٨٦] وأكد أنها ظاهرة لمرض واحد ·

ويشهد جميع مؤرخي الطب للرازي بهذا الفضل في تاريخ الطب · ولعل هذا العمل الذي قام به الرازي قد ساهم في ذيوع صيت هذا الطبيب في أوروبا اللاتينية والحديثة ·

وقد سار الأطباء العرب على نهج الرازي وتمتعوا بعين سريرة متفحصة ونظرة ثاقبة وطول أناة في متابعة سير المرض وتطور أعراضه ·

وقد خطا ابن الجزار القيرواني[٨٧] خطوة متقدمة على هذا السبيل إذ ألف كتاباً في (الفروق بين الأمراض)[٨٨] يعتبر من أقدم الأعمال في علم التشخيص التفريقي ·

ولم يقصر أطباء دمشق في هذا العصر في مجال هذا العلم ، فلجأوا الى فحص بول المريض والى جس نبضه والى وصف شكل الحمى التي يعاني منها[٨٩] . واستفادوا من الفروق بين هذه التظاهرات لوضع التشخيص الدقيق .

كما أنهم تمكنوا من التفريق بين الأشكال السهلة للأمراض النفسية أو العصبية والأشكال الأخطر ، وعلى ذلك فان المرضى العقليين كانوا يعاملون في بيمارستانات الشام معاملة لائقة فهم مرضى في عرف المجتمع وليسوا مجانين أو أشراراً أو ضحايا للأرواح الشريرة[٩٠] .

وإذا أردنا أن نعطي بعض الأمثلة على انجازات أطباء العين في هذا الحقل فاننا نذكر فضل ابن النفيس في التفريق بين أشكال الحوَل المختلفة ، ووضع التشخيص السببي لها[٩١] .

خامساً : المعجم الدوائي عديد اللغات

كانت المدارس الطبية الشرقية في بغداد ودمشق واقعة تحت نفوذ أعلام الصيدلة الشرقيين ، وظلت أعمال هؤلاء هي المراجع الرئيسية للدراسة . وأهم هذه الأعمال هي الترجمتان العربيتان لكتابي ديوسقوريدوس[٩٢] وجالينوس[٩٣].

وقد صارت هاتان الترجمتان حجري الزاوية في علمي العقاقير والصيدلة عند العرب .

وقد أضيفت الى هذا العلم الموروث عن الاغريق أدوية عديدة أخرى ذات مصدر شرقي : هندي أو فارسي ، كما أن بعض الأدوية التي كانت مستعملة في مصر أو الشام غابت عن الأساتذة الاغريق فلم يدونوها في كتبهم ، رغم انتشارها في الشرق .

وقد عالج الأساتذة العرب هذا النقص ، وأكملوا المادة العلمية المترجمة عن الاغريقية .

وعلى ذلك نستطيع أن نفهم أهمية المؤلفات العربية في هذين العلمين ، حيث تمكن الأساتذة العرب من جمع المادة الدوائية من مصادرها المختلفة وأحسنوا تبويبها وعرضها ، فقدموا للقارىء مادة علمية أكمل .

ومن أهم هؤلاء في الشرق ابن ماسويه وعلي بن ربن الطبري والرازي

والتميمي والبيروني وابن جزلة[٩٤] •ومن أهمهم في الأندلس ابن جلجل[٩٥] •

ولا شك أن بعض الأعمال المتعلقة بالأدوية المفردة قد وصلت من المغرب أو من الأندلس الى الشرق العربي • إلا أن الحادثة الهامة في تاريخ الطب هي مجيء ابن البيطار الى مصر والشام ، قادماً من الأندلس بعد رحلة طويلة عبر بها شمال افريقيا وبعض جزر المتوسط وبلاد الروم وآسيا الصغرى ، ذلك أنه أحضر معه الى الشرق خلاصة وافية لأعمال المدرسة الأندلسية في النبات والأدوية •

وفي الحقيقة فان التقاليد العلمية في الأندلس كانت قد عرفت منذ القديم ظاهرة الرحلة المشرقية ، فقد اعتاد العلماء على المجيء الى الشرق في طريقهم الى الحج • وقد استفادوا من رحلة الحج هذه فحرصوا على التعرف الى زملائهم في المهنة ، أو أنهم سمعوا من بعض شيوخ الحواضر الشرقية دروساً مختلفة قبل عودتهم الى ديارهم ، وربما طاب لبعضهم العيش في بعض مدن الشرق فاستقر بها وتوفي هناك •

وقد أحضر علماء الأندلس من الشرق الى الأندلس اثر عودتهم الكثير من الكتب العلمية ، كما اصطحب بعضهم كتب الأندلس الى الشرق •

وهكذا فقد أتيح للطلبة والأطباء في الشرق والغرب على السواء الاطلاع على الكتب الصادرة من شتى الأقطار العربية •

وقد خطا العلم خطوتين هامتين نتيجة لجهود العلماء العرب : أولهما ان الصيادلة والعشابين أضافوا في كتبهم الأدوية التي لم يعرفها الاغريق فصار الكتاب شاملاً وافياً[٩٦] •

وثاني هذه الخطوات هو تعريف البلدان المختلفة بالنباتات الطبية التي لا تنبت إلا في البلدان الأخرى ، والحديث عن وصفها النباتي وتأثيرها الدوائي ومزاياها العلاجية •

وعلى ذلك فقد صار العلماء مضطرين الى معرفة اسم النبات الواحد باللغات العديدة المستعملة في الأقطار المختلفة[٩٧] •

وقد كانت اللغة الفارسية ـ وأحياناً الهندية ـ مستعملة لدى صيادلة الشرق اضافة الى السريانية والعربية والاغريقية ، وذلك لتعريف اسم النبات •

أما في المغرب والأندلس فقد كانت اللغة البربرية هي اللغة الأولى المستعملة الى جانب العربية ، ويضاف اليها الاغريقية واللاتينية • وعامية الأندلس •

كما اننا نجد بعض أسماء الأدوية وقد حفظ لنا في أصله القبطي أو النبطي، وفي ذلك دليل هام على عراقة استعمال هذا الدواء في بلادنا وانتشاره قبل الاسلام بكثير ، رغم أننا لا نجد هذا الدواء في الكتب اليونانية •

ولعلّ أشهر رحلة علمية (نباتية ـ دوائية) هي تلك التي قام بها العشاب الشهير أبو العباس النباتي[٩٨] (ت ٦٣٧هـ = ١٢٣٩ م) الى الشرق العربي بين سنتي ١٢١٥ ، ١٢١٨ م (= ٦١٢ ـ ٦١٥ هـ) وبعدها كتب كتابه الهام (الرحلة الشرقية) وفيه خلاصة للخبرة والتجربة المكتسبتين من هذه الجولة •

ويُعتبر أبو العباس النباتي أهم أساتذة ابن البيطار •

ويعتبر ابن البيطار خير ممثل للمدرسة الأندلسية[٩٩] ، ذلك أنه جمع أهم منجزات علمائها في مجالي : علم النبات وعلم الأدوية ، واكتسب خبرة خاصة من أساتذته في المغرب العربي ، وفي جولته حول البحر المتوسط وصولا الى بلاد الروم ومنها الى مصر فالشام •

وقد عارض ابن البيطار في كثير من الأحيان المدرسة الطبية البغدادية ووجه نقداً شديداً الى ابن جزلة[١٠٠] مما أتاح لطلبة الطب في دمشق الاستفادة من هاتين المدرستين : البغدادية ـ الدمشقية من جهة والأندلسية من جهة أخرى. وقد أدى ذلك الى تطور كبير في المؤلفات التي ظهرت بعيد ذلك •

وبكلمة أخرى: فان تعرّف أطباء دمشق على أحد أبرز ممثلي المدرسة الأندلسية أدى الى تطور علمي كبير : أحد مظاهر هذا التطور هو اكتشاف أهمية المعجم الدوائي / النباتي عديد اللغات ، ففي كتاب ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية : والأغذية)[١٠١] وجد أطباء دمشق مترادفات كثيرة لأسماء النبات ، كما عرفوا اسم الدواء بلغات أخرى غير معروفة في الشرق كاللاتينية أو البربرية • فقلد هذا الكتاب مؤلف دمشقي هو ابن السويدي[١٠٢] في كتاب سماه : (السمات في أسماء النبات) وفي هذا الكتاب بلغ (المعجم الطبي عديد اللغات) ذروة تطوره ، اذ صار النبات الطبي يُذكر باسمه في عدد كبير من

اللغـات : العربية والسريانية والفارسيةواليونانية واللاتينية والبربرية وعامية الأندلس ٠

وترد بعض الأسماء بلغات أخـرى :كالسنسكريتية والنبطية والقبطية ٠

فهذا الكتاب اذن معجم لأسماء النباتات الطبيـة ، ينهـج فيـه المؤلف نهـج أستاذه ابن البيطار في أحد أغراض كتابه: (الجامع ٠٠٠) ٠

وفي الحقيقة فان المعجم النباتي الدوائي ظهر أول ما ظهر في الأندلس(١٠٣) ، ووصل الى مستوى رفيـع في كتاب ابـنالبيطار ، الا أن ابن السويدي تفـوق في هذا المجال على أستاذه ابن البيطار ٠٠

★ ★ ★

سادساً : كتب الأدوية المقابلة للأمراض

كـان لابن البيطـار تأثير آخـر على أطبـاء دمشـق في منتصف القـرن الثالث عشر الميلادي (= ق ٧ هـ) ٠ فقدكتب ابن البيطار كتاباً سـماه (المغني في الأدوية المفردة)(١٠٤) ٠

وقد صنف المـؤلف هذا الكتـاب تصنيفاً مبتكراً ٠

فهو يعرض فيه الأمراض بالتسلسلوفق الأسـلوب المتبع في ذلـك الوقت : (من الفَرْق الى القدم)(١٠٥) لكنه يكتفيبذكر اسم المرض دون أن يعطي تعريفاً له ، ودون أن يعدد أسبابه أو يصف أعراضه ٠ وتكون أسماء الأمـراض في هـذا التصنيف بمثابة عناوين لفقـرات (أوفصول) في الكتاب ٠

فاسم المرض يصبح في هذا الكتـابعنواناً أما مادة الفصل فهي تعداد أسماء الأدوية المفردة(١٠٦) المستعملة لعلاج هذاالمرض ، وهي كثيرة في معظم الأحيان ٠

ويكون تسلسل الأدوية في كل فصل(أو فقرة) وفق الترتيب الهجائي ٠

وفي هذا الكتاب لا يفصل ابن البيطار في الحديث عن هذه الأدوية بل يكتفي بالاشارة الى فائدتها لعلاج هذا المرض ٠وقبـل أن يكتب ابن البيطـار كتابـه (المغني) ، كان الاسلوب المتبع هو تعدادأسماء الأدويـة المفـردة وفـق الترتيب الهجائي أيضاً ، ولكن مع ذكر خواصهـاومميزاتها وأوصافها وتأثيرها الدوائي ٠

أما هذا الكتاب فالأساس فيه هو عرض الأمراض حسب الأعضاء الألمة وذكر أسماء الأدوية المستعملة لعلاج هذه الأمراض بشكل مقتضب •

وقد اهتم ابن السويدي بهذا الأسلوب فاتبعه في كتابة كتاب ضخم سماه :

(التذكرة الهادية والذخيرة الكافية) [١٠٧] لكن ابن السويدي في هذا الكتاب قلد أيضاً كتاب (الجامع •••) لابن البيطار في أحد مزاياه الهامة ، ذلك أنه اختار فيه مجموعة كبيرة من المقتبسات[١٠٨] أخذها من أهم المؤلفين في هذا الحقل، ومن هنا جاء حجم الكتاب الضخم •

فتذكرة ابن السويدي اذن تجمع ميزتين هامتين من كتابيّ ابن البيطار (المغني ••) و (الجامع ••) : من (المغني ••) أخذ أسلوب (الأدوية المفردة المقابلة للأمراض) ، ومن (الجامع ••)أخذ أسلوب الاكثار من الاقتباسات •

وهذا يفسر لنا الشهرة التي تمتع بها هذا الكتاب لعدة قرون •

ويبدو أن أسلوب تعداد الأدوية المفردة المستعملة لعلاج الأمراض مرضاً مرضاً كان شائعاً في هذا العصر ،ولعل هذا التقليد بشكله المبسط يعود الى أيام ابن بطلان[١١٠] وابن جزلة[١١١] أي الى القرن الحادي عشر الميلادي ــ (القرن الخامس الهجري) ، حيث ظهر أسلوب (الجداول) في الكتاب الطبي •

فاذا نظرنا في كتاب ابن جزلة (تقويم الأبدان••) واخترنا الأقسام المتعلقة بأمراض العين على سبيل المثال : وجدناه يعدّ أولاً أمراض الجفن، وبعدها أمراض المأق ، ثم أمراض الملتحمة ، ثم أمراض القرنية ، وهكذا • ويذكر الى جانب كل مرض اسم الدواء المتوفر المناسب له ،أي الدواء المتوفر في كل زمان ومكان والذي يمكن الحصول عليه بثمن زهيد • ثم يذكر الأدوية الأخرى • وبعدها يذكر ما يسميه (التدبير الملوكي) وهو الدواء الذي لا يكون له مذاق مرّ ، والذي لا يزعج المريض فيوصف للملوك أو للأطفال •

وقد اعتمد هذا الأسلوب البسيط على شكل الجدول الذي يحتوي على خانات أحدها تذكر الفصل الذي يكثر فيه انتشار المرض ، وأحدها يعيّن السن الذي يشاهد فيه المرض ، وأحدها يجيب: هل يستفيد المريض في المعالجة من أسلوب الفصد أو لا يستفيد ، وفي خانة أخرى يذكر أشكال التدبير الذي يُلجأ اليه في

المعالجة اضافة الى المداواة كاللجوء الى الحمام أو الحمية أو الجراحة الخ ٠ ويبدو أن ظاهرة (تعداد) الأدوية المختلفة المناسبة لكل مرض من الأمراض هي التي تطورت ووصلت الى ما نحن بصدده في هذا العصر ٠٠

ومن المؤلفين الذين اعتمدوا هذا الأسلوب في التأليف كحّال أندلسي جاء الى بغداد ، وكتب فيها كتاباً سماه (النهاية في علم العين)(١١٢) وفي أحد أقسام الكتاب يعدد المؤلف أمراض العين مبوّبة حسب التقسيم المتبع في ذلك العصر ، ثم يذكر الى جانب كل مرض أسماء الأدوية المفردة المخلتفة التي تستعمل لعلاجه ٠ وهذا الكحّال هو عبدالله بن قاسم الحريري الاشبيلي المتوفي قبل انتصاف القرن الثالث عشر الميلادي ٠

ولعله من المهم في تاريخ الطب العربي أن نحاول التعرف ما اذا كان ابن البيطار والحريري الاشبيلي قد تأثرا بمؤلف لا نعرفه نسجا على منواله في هذا الأسلوب الجديد في التأليف ٠

أما ابن السويدي فلا شك أنه تأثر بابن البيطار وسلك سلوك أحد تلامذته ٠

سابعاً : المؤلفات الجراحية :

في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي ، (وربما في السنوات الأولى من القرن الرابع عشر) كتب يحيى بن أبي الرجاء الحموي كتاباً في طب العين سماه (نور العيون وجامع الفنون) ٠ وقد اشتهر هذا المؤلف في أوساط الاستشراق ومؤرخي الطب في العصر الحديث باسم صلاح الدين بن يوسف(١١٣) ، ولعل هذا الكتاب أحد أهم كتب الكحل المتأخرة التي كتبها العرب ٠

وفي مقدمة الكتاب يذكر المؤلف انه اعتمد في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب بشكل رئيس على بعض الكتب ، أحدها هو كتاب الزهراوي(١١٤) (التصريف لمن عجز عن لتأليف) ولكنه في متن الكتاب يستشهد بأكثر من ستين مؤلفاً في الطب ٠

وفي هذا الكتاب (نور العيون ...) نجد تأثير الزهراوي واضحاً في الجراحة العينية ، كما نجد أيضاً تأثيراً لابن زهر(١١٥) ٠

وفي الحقيقة فان مؤلفنا الحموي لم يكن وحده الذي استعان بهذين الأستاذين الأندلسيين ، بل استعان بهما أيضاً زميله الحلبي : خليفة بن أبي المحاسن ، في كتابه (الكافي في الكحل)(١١٦) الذي ظهر في الربع الثالث من القرن الثالث عشر ٠

ومن نافلة القول أن نشير الى أن اعتماد هذين المؤلفين الكبيرين كان بالدرجة الأولى على الكحالين الكبيرين علي بن عيسى البغدادي(١١٧) وعمار بن علي الموصلي(١١٨) .

وفي الحقيقة فان جراحة العين لم تكن هي وحدها التي أحرزت ذلك التقدم الكبير في هذا العصر ، بل تقدمت الجراحة العامة أيضاً .

ولعل أبرز الوثائق الباقية عن تطور علم الجراحة ، وتقدم فن التأليف فيه هو كتاب (العمدة في صناعة الجراحة)(١١٩) الذي كتبه ابن القف الكركي ، المتوفي عام ١٢٨٦ م = ٦٨٥ هـ .

وابن القف أحد تلامذة مدرسة الطب الشامية، رافق الجند في عجلون، واكتسب خبرة كبيرة في مجال الجراحة .

ويكاد كل فصل من فصول (العمدة..) ينطق بغنى التجربة الشخصية للمؤلف ..

ولم يكن ابن القف الطبيب الوحيد الذي رافق الجيوش ، بل ذكرت لنا كتب المصادر أسماء الأطباء الذين اختارهم أمراء الأيوبيين لمرافقتهم في مختلف المدن السورية .

ولعل خليفة بن أبي المحاسن قد عمل أيضاً في مجال الطب العسكري(١٢٠) .

ثامناً : نظرية الأبصار

حينما أخذ العرب الطب الاغريقي تبنوا أيضاً التقسيم المعتمد لدى الأساتذة اليونان : فالطب في عرفهم ينقسم الى قسمين : العلم والعمل أو النظر والعمل(١٢١) .

أما العلم فهو (العلوم النظرية) أو (كليات الطب) : علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، ونظريات الأمراض الخ .

وأما العمل فهو علم أيضاً ولكنه علم يُعنى بالممارسة الطبية العملية ، أو السريرية ، ويشمل علم الأعراض والتشخيص وعلم الأدوية وفن المداواة الخ .

وعند الكحالين تشتمل (الكليات) على علم تشريح العين وكان يسمى

(خلقة العين) أو (تركيب العين) وعلم وظائف العين وكان يسمى (فعل العين) أو (الأبصار) .

وتحت باب (الأبصار) عَرَضَ المؤلفون العرب نظرية الأبصار التي تبناها جالينوس ، فعل ذلك ابن ماسويه[122] في كتابه (دغل العين) ، وفعل ذلك أيضاً حنين ابن اسحق[123] في كتابه (العشر مقالات في العين) وهكذا .

لكن علي بن عيسى[124] عرض هذه النظرية باختصار شديد في كتابه (تذكرة الكحّالين) . وابن سينا لم يتطرق الى ذلك في القسم المتعلق بالعين من كتابه (القانون) ، ذلك أن مفكري تلك الحقبة (نهاية القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر) اعتبروا أن الاشتغال بنظرية الأبصار هو شأن فلسفي[125] يُعنى به الفيلسوف أو الطبيب الفيلسوف (الحكيم) ، ولا ينبغي أن يتوسع الطبيب الممارس (المتطبب) في معرفته أو الاهتمام به .

وعلى ذلك فان ابن سينا الذي لم يعرض (نظرية الابصار) في (القانون) عرضها في كتابه الفلسفي (الشفاء)[126] .

وبعد ابن سينا صارت (نظرية الأبصار) موضوعاً بعيداً عن اهتمام المؤلفين ، وبخاصة مؤلفي كتب الكحل . وقد ظل الأمر على هذه الحال طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين (ق ١١ ــ ١٢ م = ق ٥ ــ ٦ هـ)

في مطلع القرن الثالث عشر أشار الحريري في بغداد اشارة سريعة الى نظريات الابصار التي تبناها الأساتذة الاغريق ، وكذلك فعل خليفة بن أبي المحاسن في حلب في الربع الثالث من هذا القرن ، رغم أن خليفة عبّر صراحة عن رأي ابن سينا في أن هذه المسألة ليست من اختصاص الكحال .

أما صلاح الدين (يحيى بن أبي الرجاء) ، فقد تمرد على هذا الرأي وخصص في كتابه (نور العيون ..) مقالة كاملة لنظريات الأبصار[127] .

عرض يحيى بن أبي الرجاء (صلاح الدين) نظريات أصحاب الشعاع المختلفة وسمّى من الأساتذة الاغريق هيبارخوس وامبادوقلس وديموقريطس وابيقورس (ابيقور) واقليدس ، وعرض نظرية الانطباع وفصّل في شرح رأي أرسطوطاليس وابن سينا ثم عرض نظرية أفلاطون (نظرية اجتماع الضياء).

ويتضح للقارىء المدقق تأثير صلاح الدين بما سبق أن كتبه فلوطرخس حول هذه النظريات[١٢٨] . وقد أغنى صلاح الدين كتابه بأشكال فيزيائية وضّح فيها نظريات الابصار المختلفة هذه تذكرنا بالأشكال الواردة في كتاب اقليدس (المناظر) وأضاف أشكالاً أخرى الى الموروث اليوناني .

أما ابن النفيس ـ الذي عرض هذه النظريات في كتابه (المهذب ...) ـ فقد آثر أن يشرح نظريته الخاصة .

خصص ابن النفيس في (المهذب ..) عشرة فصول لدراسة (فعل العين) ، فعرض الآراء القديمة وفنّدها ، وبين كيف ينتصر أصحاب هذه النظريات لآرائهم ، وردّ عليهم ، ثم بين رأيه الخاص وشرحه ، وذكر ما يمكن أن يسوقه الآخرون من اعتراضات على نظريته ، ورد على هذه الاعتراضات .

والفرق بين ابن النفيس وصلاح الدين أن صلاح الدين عرض نظريات الآخرين عرضاً حيادياً ، فلم ينتصر لأي منها . أما ابن النفيس فقد عرضها ورفضها ، ووضع نظرية خاصة به .

وهنا يتبين لنا أن هذين الطبيبين كانا من طبقة (الطبيب ـ الفيلسوف)[١٢٩] وليس المتطبب البسيط .

تاسعاً : الموقف من النظريات الطبية

تميزت بعض المؤلفات الطبية العربية باحتوائها على أقسام مفصلة مخصصة للطب النظري ، وأقسام أخرى مكرّسة للطب العملي[١٣٠] .

ولكن بعض الكتب الأخرى لم تخصص أي جزء للطب النظري ، واعتُبرت بمثابة كناشات أو كتب سهلة الحمل غرضها الأساسي أن تكون بمتناول الطبيب دوماً لصغر حجمها ووضوح تبويبها .

ولعل كتاب ابن جزلة[١٣١] (تقويم الأبدان في تدبير الانسان) . هو أحد أهم هذه الكتب التي صدرت في القرن الحادي عشر الميلادي (ق ٥ هـ) .

وليس من السهل ـ في حدود ما وصل اليه البحث العلمي اليوم ـ أن نجيب عن التساؤل التالي :

هل نجد في هذا النوع من الكتب نوعاً من التخلي عن نظريات الطب التقليدية؟ وهل يمكن أن نرى في هذه الكتب شيئاً ينم على أن مؤلفيها ضاقوا ذرعاً بنظريات الطب الموروثة ؟

لكننا نعرف في المقابل ظاهرة أخرى: وهي أن بعض المؤلفين الذين شرحوا المؤلفات المدرسية اتخذوا من هذا (الشرح) وسيلة لمعارضة آراء الأساتذة والرد عليها ونقدها ، وكل ذلك تحت (غطاء) شرح هذه الآراء .

لذلك فاننا لا نستبعد امكانية العثور على مؤشرات أخرى تدل على معارضة الأطباء العرب لنظريات الطب المدرسية .

ونحن نعرف أن ابن النفيس حينما عارض جالينوس وابن سينا في مسألة (الدوران الرئوي) كان يفعل ذلك تحت ستار شرح القسم المتعلق بتشريح القلب والرئة من كتاب ابن سينا (القانون) ، ولذلك أسمى كتابه (شرح تشريح القانون) .

ونحن نرى في كتاب القيسي[١٣٢] (نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر) ، ظاهرة من ظواهر التخلي عن واجب عرض (كليّات الطب) في المؤلفات الموجهة للمارسين .

والمؤلف في هذا الكتاب يقتصر على عرض الطب السريري ويدقق في مسألة الاعراض والتشخيص ، ويختار ما يراه مناسباً من الأدوية ويتخلى عن الوصفات العلاجية التي لا تعجبه ، ولا يورد من تشريح العين إلا فصلاً مختصراً واضحاً .

وقد عبر المؤلف صراحة عن دوره الانتقائي الفعّال في اختيار الأدوية التي يدونها في كتابه ، فهي أدوية (صحت تجربتها ، واتضحت معرفتها) .

وهو يتبع في هذا النهج الطبيب القاهري عمار بن علي الموصلي صاحب (المنتخب في علاج أمراض العين) .

عاشراً : بعض الأمثلة على المساهمات الأصيلة في اغناء المعرفة

نقتصر هنا على إعطاء مثلين اثنين يسهل فهمهما على غير الأطباء ، ونختارهما من حقل طب العيون[١٣٣] .

فقد حاول ابن النفيس تفسير ظاهرة الشَّفَع (وهي رؤية الشيء شيئين)

وربط بين الشفع وشلل إحدى عضلات العين ، وقد عرف كشيرون العلاقة بين (الماء) وبين الغثيان والقيء ، معبرين عن قدرة على ربط الأعراض العينية بالأعراض العامة، وأهم الأعراض العينية هنا هي (أن يبصر المريض وكأنه في ضباب) ، كما أنهم تمكنوا من معالجة هذه الحالة المرضية باعطاء المسهلات ·

ومن الواضح هنا أن (الماء) يعني ارتفاع توتر باطن العين في هذه الحالة ، وليس تكدر البلّورة · وعلى ذلك فالماء عند الأطباء العرب قد يكون السادّ[١٣٤] وقد يكون الزرق[١٣٥] ·

★ ★ ★

□ الحواشـي :

١ ـ اقدم هذه الأبحاث قام بها المستشرق الفرنسي الطبيب الشهير لوسيان لوكلير الذي كتب عام ١٨٧٦ كتابه الهام (الطب العربي) في جزئين · وآخر هذه الدراسات الهامة هي ما كتبه الزميل الأستاذ الدكتور ابن مراد (تونس) بعنوان : (من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين) ، (أنظر : قائمة المراجع) ·
ومن أهم هذه الدراسات تلك التي كتبها الأستاذ الدكتور زهير البابا (دمشق) بعنوان: (المدرسة الطبية الدمشقية في ظل البيمارستان النوري) ، (أنظر : المراجع) ·

٢ ـ لوكلير اعتمد على ابن أبي أصيبعة بينما استعان آخرون بالمقريزي أو القلقشندي أو ابن كثير أو ابن العماد أو غيرهم ·

٣ ـ مثلا : رحلة ابن جبير ·

٤ ـ وأهم هذه الكتب :
ـ نتيجة الفِكَر : للقيسي · ـ المهذب : لابن النفيس · ـ الكافي في الكحل : لخليفة · ـ نور العيون : لصلاح الدين · ـ النهاية في الكحل : للحريري ·
وهذه كتب في (طب العين) ·
ـ انظر عناوين هذه الكتب وأسماء مؤلفيها بشكل مفصل في قائمة (المصادر) ·
وثمة كتاب هام آخر :
ـ امتحان الألبّاء ··· للسلمي ، وهو كتاب مخصص لامتحان الأطباء (أنظر : المصادر) ·

٥ ـ ينبه الأستاذ ابراهيم بن مراد في مقالته (ص ٩٦) الى القصة التي رواها القفطي (جمال الدين /أبو الحسن/ علي بن يوسف) في كتابه (إخبار العلماء باخبار الحكماء) حول الطبيب الاندلسي أبي الحكم عبدالله بن المظفر المرسي ، الذي مرّ بدمشق في طريقه من العراق الى الأندلس ، فاعجبه فيها رخاؤها ، فاختار الاقامة فيها ، وذلك بعد عام ١١٢٧ م = ٥٢١ هـ وفيها توفي سنة ١١٥٤ م = ٥٤٩ هـ ·
انظر: القفطي ، ص ٤٠٥ (باخراج ليبرت) ، ابن العبري، مختصر ، ص ٢١١ · ابن مراد ، ٩٦ ·
وحول هذا الطبيب : أنظر اضافة الى هذه المراجع : ابن أبي أصيبعة ٢:١٥٤ ·

٦ ـ جاءها أطباء من مختلف المدن طلباً للدراسة أو استقروا فيها : من قلعة جعبر ، ومن حلب وحماه والرحبة والقدس والكرك ، وبعلبك وصور وغيرها ·

٧ ـ ومنها طبريا ، حول عمار بن علي :
انظر : نشات الحمارنة (دور العرب في تطور طب العين) الجزء ١ ، ص ١٣٥ ، و (تاريخ أطباء العيون العرب) الجزء ١ ، ص ٦٢ـ٦٤ ، و (مقدمة حول طب العيون العربي) ص ١٦٨ ·

٨ ـ مر بها أيضا : ابن بطلان في طريقه من بغداد ، وعبداللطيف البغدادي في طريق عودته من القاهرة الى بغداد ، وغيرهما كثيرون ·
فقد أحصى الأستاذ ابراهيم بن مراد أحد عشر طبيباً استقروا في دمشق جاءوا اليها من العراق أو المغرب أو الأندلس (انظر : ابن مراد ، ص ٩٦ـ٩٧) وذلك استناداً الى ترجماتهم في (عيون الانباء) ·

٩ ـ صحيح أن عملية ترجمة الطب من اليونانية أو السريانية الى العربية بدأت في الشام أيام الأمويين ، الا أن الظاهرة لم تتسع وتصبح تياراً حضارياً زاخراً الا في بغداد أيام العباسيين ·

١٠ـ حذت بغداد حذو جنديسابور في بناء أقدم مشافيها ، وجعله مركزاً للاستشفاء ومدرسة لتعليم الطب للتلامذة. وللتوسع في موضوع انتقال الطب من الأمم السالفة الى العرب أنظر : مقالة كاتب هذه السطور :
(مقدمة حول طب العيون العربي ـ الكحالة ٠٠) في مجلة التراث العربي ـ دمشق ، العدد ١٧ (١٩٨٤) ، ص ١٦٢ ـ ١٦٦ ٠

١١ـ مهذب الدين أبو الحسن علي بن عبدالله النقاش المتوفى سنة ١١٧٨ م = ٥٧٤ هـ ٠
ابن مراد ٩٧ ، ١٠٣ ، البابا ٧٣ ، ابن أبي أصيبعة ★ ٢:١٦٢ـ١٦٣ ٠

١٢ـ وحينما درس ابن مراد هذا الباب بتعمق تبين له بعض نواحي النقص في كتاب لوكلير فاستدرك ذلك ٠
أنظر مثلا : ابن مراد ، ص ١٠٩ ، الهامش رقم ٢٣ ٠

١٣ـ نخص بالذكر الأستاذين : محمد زهير البابا ـ من دمشق، وابراهيم بن مراد ـ من تونس ٠
وكان كاتب هذه السطور قد تعرض لدراسة هذه الموضوعات في حقل طب العيون، ولخص النتائج في كتاب: (دور العرب في تطور طب العين) الجزء الأول ٠ تطور التعليم الطبي : ص ٢٢ ٠ تطوير الممارسة الطبية والمؤسسات الصحية : ص ٢٣ ٠ التاليف والابداع : ص ١٦ـ٢١ ٠ الاكتشافات العلمية٠٠٠ : ص ٢٥ـ٢٧ ٠
أنظر كذلك : نشات الحمارنة : (مقدمة حول طب العيون العربي) ص ١٧٠ـ١٧٦ ٠

١٤ـ في عام ١١٢٨ وحّد حلب والموصل ، وفي عام ١١٤٤ حرر الرها ٠

١٥ـ قتل عمادالدين غدراً عام ١١٤٦ ٠

١٦ـ ضم حمص عام ١١٤٩ ، ودمشق عام ١١٥٤ ، ومصر عام ١١٧٤ ، وتوفي عام ١١٧٤ (١٥ أيار) ٠

١٧ـ أعاد صلاح الدين توحيد البلاد فضم الى مصر ودمشق وحلب ١١٨٣ ، والموصل عام ١١٨٦ ، وانتصر في حطين عام ١١٨٧ ، واسترد القدس عام ١١٨٨ (=٥٨٣هـ) ٠

١٨ـ ابن العماد : شذرات الذهب ٠ ابن جبير : الرحلة ٠

١٩ـ ابن جبير : الرحلة ٠ ابن أبي أصيبعة : العيون ٠٠٠

٢٠ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٠ ابن جبير : الرحلة ٠

٢١ـ ابن أبي أصيبعة : العيون ٠٠٠ ابن تفري بردي : النجوم الزاهرة ٠٠٠

٢٢ـ ابن كثير : البداية والنهاية ٠ ابن تفري بردي : النجوم الزاهرة ٠

٢٣ـ ابن العماد : شذرات ٠٠٠

٢٤ـ إ. أ. أ. ٢:١٥٥ ، ابن مراد ٩٦ ، البابا ٧٢ ٠

٢٥ـ ابن مراد : ٩٩ـ١٠٢ ، البابا : ٦٨ـ٨٩ ٠

٢٦ـ ومنهم :
١ ـ سديد الدين (ابن الرقيقة) في حماه ٠
٢ ـ سيف الدين الآمدي في حماه ٠
٣ ـ ابن أبي أصيبعة (مؤرخ الطب الشهير) في صرخد ٠
ـ سديدالدين محمود بن عمر بن رقيقة ٠ ت ١٢٣٧ م = ٦٣٥ هـ ٠
ـ سيف الدين علي بن محمد الآمدي ٠ ت ١٢٣٨ م = ٦٣٦ هـ ٠
ـ موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة ١٢٧٠ م = ٦٦٨ هـ ٠
حول هؤلاء أنظر : ابن مراد ٩٨ ٠
وحول ابن الرقيقة أنظر أيضاً : البابا ٨٨ ٠

٢٧ـ مهذب الدين أبو الحسن علي بن عبدالله النقاش ٠ ت ١١٧٨ م = ٥٧٤ هـ ٠
إ أ أ ٢:١٦٢ـ١٦٣ ، ابن مراد : ٩٧ـ١٠٣ ، البابا:٧٣ ٠

٢٨ـ البابا : ٧٤ ـ ٨٥ ٠

٢٩ـ ابن مراد : ١٠٤ إ أ أ ٢:١٩١ـ١٩٢ ٠

٣٠ـ ابن المطران (ت ١١٩١ م = ٥٨٧ هـ) :
(موفق الدين أبو نصر اسعد بن الياس بنجرجس المطران) إ أ أ ٢:١٨١ ، البابا ٧٥ـ٨٨ ، ابن مراد ١٠٦ ٠

٣١ـ الدخوار (ت ١٢٣٠ م = ٦٢٨ هـ) :
(مهذب الدين عبدالرحيم بن علي الدخوار) إ أ أ ٢:٢٣٤ ، ٢:٢٤٤ ، البابا ٧٧ ، ٨٨ ، ابن مراد ١٠١ ، ١٠٤ ٠

٣٢ـ الرحبي (ث ١٢٣٣ م = ٦٣١ هـ) :
(أبو الحجاج رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحبي) ، إ أ أ ٢:١٩٢ـ١٩٥، البابا ٧٥، ٨٨، ابن مراد ٩٧، ١٠٤ ٠

٣٣ـ حول (المدرسة الدخوارية) راجع : البابا ٧٧ ، ٨٨ ، ابن مراد ١٠١ ، ١٠٤ ٠

٣٤ـ البابا : ٧٧ـ٨٠ :
اختار الأستاذ البابا هؤلاء الأطباء وأعطى نبذة عن كل واحد منهم ، وذلك للتدليل على أهمية تلامذة الأستاذ الدخوار ، وعلى الدور البارز الذي لعبوه في الحياة العلمية والاجتماعية ، وخاصة في ممارسة المهنة الطبية والتدريس ٠
ففي مصر : اشتهر ابن النفيس ، ورشيدالدين أبو حليقة ، ورشيدالدين أبو سعيد ٠
ويمكن العودة الى تراجمهم في (عيون الأنباء ٠٠٠) أو في كتاب لوكلير (الطب العربي) وقد أخذ عن ابن أبي أصيبعة كما بينّا ٠ أما في الشام : فان الحديث عن أطبائها سيأتي ٠

٣٥ـ حول ابن النفيس : أنظر : البابا ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٩ ٠
وكذلك : (وصف الحول عند ابن النفيس) لكاتب هذه المقالة في مجلة تاريخ العلوم العربية ، المجلد ٨ (١٩٨٤) ص ٣ـ٦ ٠
وكذلك : كاتب هذه المقالة في (تاريخ طب العيون في بلاد الشام) ، ص ٢١ـ٢٢ ٠
وكذلك : كاتب هذه المقالة في (المهذب في الكحل) في مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد ٢٠ (١٩٨٥) ، ص ١٤٩ـ١٥٢ ٠

٣٦ـ أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي المتوفى عام ١٢٧٠ م = ٦٦٨ هـ ٠
أنظر : إ أ أ ٢:١٩٨ ، ٢:٢٢١ـ٢٢٢ ٠

٣٧ـ (أبو زكريا يحيى بن محمد) ت بعد ١٢٦٨ م = ٦٦٦ هـ ٠ البابا ٧٨ ، ابن مراد ٩٨ ، إ أ أ ٢:١٨٥ـ١٨٩ ٠

٣٨ـ ابن قاضي بعلبك : بدرالدين المظفر المتوفى عام ١٢٧١م = ٦٧٠ هـ ، البابا ٧٩ـ٨٥ـ٨٩ ، ابن مراد ١٠٢ ، إ أ أ ٢:٢٥٩ـ٢٦٣ ٠

٣٩ـ عزالدين ٠ أبو اسحق ابراهيم ، المتوفى عام ١٢٩١ م = ٦٩٠ هـ ، البابا ٧٨ـ٨٦ ، ابن مراد ١٠١ـ١٠٦ ، إ أ أ ٢:٢٦٦ـ٢٦٧ ٠

٤٠ـ وهم : ابن المنفاخ ، شمس الدين الكلي ، موفق الدين عبدالسلام ٠
أنظر : البابا ٧٩ ٠

٤١ـ يسمي الأستاذ البابا (ص ٨٠) عدداً من المدارس كانت تقع الى جانب البيمارستان النوري أو بقرب البيمارستان القيمري في الصالحية ٠
وقد فصل الأستاذ ابن مراد في موضوع المدارس الطبية في مقالته التي نشير هنا اليها ٠
ابن مراد ، ص ١٠١ـ١٠٤ ٠
ولم يدع هذان الأستاذان المحترمان مجالا لمستزيد ٠

٤٢ـ البابا ٨٤ـ٨٦ ٠
٤٣ـ البابا ٨٤ ٠
٤٤ـ البابا ٨٥ ، ابن مراد ١٠٠ ، إ أ أ ٢:١٩٢ ٠
٤٥ـ البابا ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٩ ٠
٤٦ـ البابا ٨٥ ، ٨٩ ٠
٤٧ـ البابا ٨٦ ٠
٤٨ـ ابن مراد ٩٧ ـ ٩٨ ٠
٤٩ـ أنظر : ابن مراد ٩٨ ٠

٥٠ـ فخرالدين رضوان ابن الساعاتي المتوفى في النصف الأول من القرن السابع الهجري (= القرن ١٣ م) ٠
إ أ أ ٢:١٨٣ـ١٨٤ ٠

٥١ـ مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري المتوفى ١٢٢٧م = ٦٢٤ هـ ، أنظر : إ أ أ ٢:٢٣٣ـ٢٣٤ ٠

٥٢ـ أبو الحسن ابن غزال بن أبي سعيد المتوفى ١٢٥٠ م = ٦٤٨ هـ ، أنظر : إ أ أ ٢:٢٣٤ـ٢٣٩ ٠

٥٣ـ نجم الدين أبو زكريا يحيى اللبودي المتوفى بعد ١٢٦٨ م = بعد ٦٦٦ هـ ، أنظر : إ أ أ ٢:١٨٥ـ١٨٩ ٠

٥٤ـ ابن مراد ٩٨ـ٩٩ ٠
٥٥ـ ابن مراد ٩٩ ٠

٥٦ـ شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف الرحبي المتوفى حوالي ١٢٦٨ م = ٦٦٧ هـ ٠ ابن مراد ١٠٢ ، البابا ٨٩ ٠

٥٧ـ بدرالدين المظفر المتوفى عام ١٢٧١ م = ٦٧٠ هـ ٠ ابن مراد ١٠٢ ، البابا ٨٩ ٠

٥٨ـ الدنيسري المتوفى ١٢٨٧م = ٦٨٦هـ ٠ ابن مراد ١٠٢ ٠
٥٩ـ ابن مراد ١٠٤ ٠
٦٠ـ ابن مراد ١٠٤ ، بروكلمان (تاريخ ٠٠٠) الذيل ١:٨٩٤ إ أ أ ٢:١٩١ـ١٩٢ ٠
٦١ـ ابن مراد ١٠٤ ، البابا ٨٨ ، إ أ أ ٢:٢٤٦ـ٢٥٩ ٠
٦٢ـ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللبودي ، ابن مراد ١٠٤ ، إ أ أ ٢:١٨٤ـ١٨٥ ٠

٦٣ـ والدراستان أعطتا الموضوع حقه وبينتا فضل المدرسة الطبية الدمشقية ، ودور بلاد الشام في تطور الطب وأهمية هذا العصر الذي نحن بصدده ٠
والجزء التالي من هذه الدراسة سيتعرض الى المعلومات الحديثة المأخوذة من الدراسة الموضوعية للمحتوى العلمي لكتب التدريس التي ظهرت في هذا العصر ٠
فهذه الدراسة اذن تكمل بحثي الأستاذين الكريمين ٠ وبدون معرفة ما أورده هذان الباحثان لا يمكن أن نعرض نتائج بحثنا ٠ وهذا يفسر حرصي على عرض محتوى هاتين المقالتين القيمتين ٠

٦٤ـ للاستزادة في هذا الموضوع :
أنظر: مقالتنا (مكتبة الكحال في عصر الرازي) ص ١٠ـ١١ ٠
أو: مقالتنا (تاريخ طب العيون في بلاد الشام) ص ٥ـ٨ ٠

٦٥ـ نذكر هنا عشرة ممن كتبوا في طب العين من أهل القرن الثامن الميلادي : ماسرجويه البصري ، ماسرجويه الجنديسابوري ، ثياذوق ، أبو جريج الراهب ، جورجيس ابن جبريل بن بختيشوع ، بختيشوع بن جورجيس ، جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس ، يحيى بن البطريق، عيسى بن حكم الدمشقي ، جبرائيل كحال المأمون ٠
وعشرة آخرين من أهل القرن التاسع الميلادي (= ق٣هـ)٠
يوحنا بن ماسويه ـ حنين بن اسحق ـ علي بن ربن الطبري ـ حبيش بن الحسن الأعسم الدمشقي ـ قسطا بن لوقا ـ اسحق بن سليمان الاسرائيلي ـ خلف الطولوني ـ يوحنا بن سرابيون ـ سابور بن سهل ـ عيسى بن ابراهيم بن يحيى ٠

وللتوسع: انظر: مقالتنا (مكتبةالكحال٠٠) ص١٦ـ١٧ ٠

٦٦ـ اصطلح العرب على تسمية هـذا الفرع من التخصص (طب العين) الكحالة وطبيب العيون هو الكحال ٠
انظر : مقالتنا (مقدمة حول طب العيون ٠٠٠) ص ١٥٥ـ١٥٦ ٠ وذلك للتوسع في معنى هذا المصطلح وظروف ظهوره ٠

٦٧ـ واشهر جراحي هذا القرن هو الزهراوي الذي عاش في الأندلس في نهاية القرن العاشر وتوفي في أوائل القرن الحادي عشر ٠ وكتابه (التصريف ٠٠٠) يحتوي على مقالة مخصصة للجراحة تشغل ثلث مادة الكتاب وهي المقالة الثلاثون (الأخيرة) ، وتعتبر أهم ما كتب في العصور الوسطى في مادة الجراحة ، وعنها نقل جراحو أوروبا ٠
ومن أساتذة بغداد الذين كتبوا في الجراحة يعقوب الكشكري الذي كتب كتابه بين عامي ٩٢٣ ، ٩٣٢ م ٠
انظر : نشات الحمارنة (دور العرب ٠٠٠) ص ٢٧ ٠

٦٨ـ وخاصة في كتاب (العمدة) لابن‌القف وسنفرد لابن القف فصلا خاصا فيما بعد ٠

٦٩ـ مثلا في كتاب (الكافي) لخليفة ابن أبي المحاسن ٠

٧٠ـ توفي السلمي عام ١٢٠٧ م = ٦٠٤ هـ ٠
وحول السلمي : انظر : ابن مراد ١٠٤ ،
إ. أ. أ. ٢:١٩١ـ١٩٢ ، بروكلمان (تاريخ٠٠٠) الذيل ١:٨٩٤ ، لوكلير ٢:٤٦ـ٤٧ ٠

٧١ـ يشير المؤلف الى : الجرائحي في باب ، والمجبر في باب آخر ، تماما كما يشير الى الكحال في باب مستقل ، مما يمكن أن يشير الى استقلال هذه الفروع التخصصية عن بعضها البعض ٠

٧٢ـ انظر : ابن مراد ، ص ١٠٥ـ١٠٨ ٠

٧٣ـ البابا ٨٨ ، ابن مراد ١٠٤ ، ١٠٦ـ١٠٧إ‌أ‌أ ٢:٢١٦ـ٢١٩ ، وكاتب هذه المقالة في (تاريخ طب العيون في بلاد الشام) ص ٢٤ ٠

٧٤ـ هذان الباحثان هما : مايرهوف وبروفر ، وللتوسع في هذه المسالة يمكن العودة الى الأملية الجامعية التي‌كتبها مؤلف هذا البحث لطلاب الدراسات العليا (فرع تاريخ العلوم الطبية) في معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب ٠

٧٥ـ حول هذا الكتاب : انظر : مقالتنا (مكتبة الكحال في عصر الرازي) عام ١٩٩١ ، ص ٤٤ ٠
ومن المعروف أن ثمة مخطوطتين من هذا الكتاب : الأولى في بطرسبرغ ، والثانية في القاهرة ٠
وقد عثرنا على مخطوطة ثالثة لم يتعرف عليها أحد من قبل في استانبول ٠

انظر : نشات الحمارنة (دور العرب٠٠٠) ص ٤١ـ٤٥ ٠

٧٦ـ ابن أبي أصيبعة ١:١٩١ـ١٩٢ ٠
وقد تتلمذ موفق‌الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار السلمي على الياس بن جرجس المطران (والد ابن المطران الأستاذ الشهير) وعمل في البيمارستان النوري ، ثم صار أستاذا في الطب (٠٠٠ وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب) إ‌أ‌أ ١:١٩٢ ٠
والمؤلف (موفق‌الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار) هو والد الطبيب الشهير (سعدالدين بن عبدالعزيز السلمي) الذي توفي ٦٤٤ هـ = ١٢٤٦ م والذي صار أيضا أستاذا للطب (٠٠٠ وله مجلس عام للمشتغلين عليه بصناعة الطب) ٠ إ‌أ‌أ ١:١٩٢ ٠
وحول المؤلف انظر : بروكلمان : (تاريخ الأدب العربي) (GAL) الذيل الجزء ١ ، صفحة ٨٩٤ ٠

٧٧ـ حول عمل المحتسب يمكن العودة الى بعض المصادر المتعلقة بنظام الحسبة :
ومنها :
- ابن الاخوة ـ معالم القربة في احكام الحسبة ٠
- الشيزري ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٠

٧٨ـ الكتاب الملكي ، أو (كامل الصناعة الطبية) : لعلي بن العباس المجوسي (في جزئين : العلم ، والعمل) ، انظر: نشات الحمارنة (طب العيون العربي٠٠) ص ٢٩ ٠

٧٩ـ القانون في الطب لابن سينا : في خمسة كتب ٠

٨٠ـ ثمة ترجمات لأهم كتب جالينوس الطبية أنجزها كثيرون أهمهم حنين بن اسحق ٠ وثمة شروح على كتب جالينوس أو مختصرات لها كتبها عدد كبير من الأساتذة أهمهم حنين وثابت بن قره ٠ وثمة اقتباسات مبوبة جمعها الرازي نجدها في ثلاثة مواضع ، أولها : كتبه المتخصصة التي تشكل بمجموعها موسوعة طبية من تاليفه ، بدأ بكتابتها ولكنه توفي قبل أن ينتهي من اخراجها ٠ وثانيها : (الجامع) الذي أراد له أن يكون موسوعة طبية كاملة ٠ وثالثها : (الحاوي) الذي هو مجموعة ضخمة من الاقتباسات من كل الأساتذة القدماء بمن فيهم جالينوس ، وذلك بمثابة بطاقات مبوبة ، تصلح مرجعا للتاليف٠ وعليها اعتمد الرازي في تاليف كتبه ٠ وقد توفي الرازي وظلت هذه المجموعة مرتبة ترتيبا أوليا فأخرجها تلامذته ٠ أي أن الرازي لم يؤلف الحاوي بل جمعه ، وأعطاه شكله البدائي ٠ أما مسؤولية تحرير الكتاب فتقع على عاتق تلامذته ٠
وللتوسع : انظر مقالتنا حول الرازي بمناسبة أسبوع العلم الحادي والثلاثين (١٩٩١) ٠

٨١ـ تتلمذ اسحق بن سليمان الاسرائيلي على اسحق بن عمران.
٨٢ـ كتاب الزهراوي (التصريف لمن عجز عن التاليف) ظهر في الأندلس في أواخر القرن العاشر الميلادي وهو موسوعة طبية امتازت بموضوعين ، أولهما : علوم الأدوية والعقاقير والصيدلة . والثاني : العلوم الجراحية . أنظر : نشات الحمارنة (طب العيون العربي حتى نهاية ...) ص ٣٩ .
٨٣ـ كتاب ابن زهر (التيسير في المداواة والتدبير) من أهم كتب الطب السريري العربية ظهر في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي .
ويعتبر هذا الكتاب بمثابة الجزء الثاني من موسوعة طبية أندلسية ـ وهذا الجزء مخصص للطب العملي . أما الجزء الأول فمن تاليف ابن رشد وهو مخصص للطب النظري ، لذلك سماه مؤلفه (الكليات في الطب) . والكليات هنا بمعنى العلوم الكلية أو الأساسية ـ النظرية .
٨٤ـ ابن القف الكركي (ت ١٢٨٦ م = ٦٨٥ هـ) الجراح الشهير ، ومؤلف كتاب (العمدة) .
٨٥ـ توفي الرازي ٩٢٥ م = ٣١٣ هـ . حول الرازي : أنظر مقالتنا التي أعدت (لأسبوع العلم الحادي والثلاثين /اللاذقية/١٩٩١) وستظهر أعمال (أسبوع العلم) هذا قريبا عن (المجلس الأعلى للعلوم ـ دمشق) .
٨٦ـ للتوسع في هذا الموضوع أنظر مقالة : الدكتورة سحر بحادي عن أمراض الأطفال عند الرازي . ومقالة : الدكتور محسن الخيِّر عن الجدري والحصبة عند الرازي في أعمال (أسبوع العلم الحادي والثلاثين) المشار اليه .
٨٧ـ ابن الجزار : توفي عام ٩٨٠ م = ٣٦٩ هـ .
أنظر : نشات الحمارنة (طب العيون العربي حتى نهاية القرن العاشر الميلادي) ص ٢٧ .
٨٨ـ أغلب الظن أن ابن الجزار هو مؤلف هذا الكتاب . وليس الرازي كما قال الزميل الكريم الأستاذ الدكتور سلمان قطاية ، الذي حقق الكتاب ونشره .
٨٩ـ خصص السلمي في (امتحان الألباء ...) :
الباب الأول ـ للنبض . والباب الثاني ـ للبول . والباب الثالث ـ للحميات والبحارين .
٩٠ـ أشارت سيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب ...) الى هذه المسألة بشيء من التفصيل .
٩١ـ أنظر مقالتنا : (وصف الحول عند ابن النفيس) في مجلة: تاريخ العلوم العربية ـ حلب ، المجلد ٨ (١٩٨٤) ، ص ٢٣ـ٢٩ .

٩٢ـ كتاب جالينوس (في الأدوية المفردة) ، ترجمة حبيش بن الحسن الى العربية ، وثمة ترجمة قديمة استعملها جابر بن حيان لعلها من وضع يحيى بن البطريق .
٩٣ـ وكتاب ديوسقوريدس: هيولي الطب (Materia Medica) نقله حنين بن اسحق من اليونانية الى السريانية، ونقله اصطفن بن باسيل من اليونانية الى العربية ، وقد راجع حنين هذه الترجمة وأجازها . وقد تمت هذه الترجمة البغدادية في القرن ٩ م (= ق ٣ هـ) قبل عام ٨٦١ م = ٢٤٧ هـ . وقد أبقت هذه الترجمة على كثير من أسماء النباتات باليونانية لأن اسمها العربي لم يكن معروفا . أو أنها عربت اسماً يونانيا باسم آخر فارسي معروف في بغداد ومتداول بين الأطباء . وقد جرت في قرطبة في القرن العاشر م (ق ٤ هـ) مراجعة لهذه الترجمة عربت فيها معظم الأسماء اليونانية بأخرى بربرية أو فسرت بعامية الأندلس التي هي لاتينية في أصلها .
٩٤ـ ومن هؤلاء المؤلفين الشرقيين نذكر على سبيل المثال :
١ ـ ابن ماسويه : ت ٨٥٧ م = ٢٣٤ هـ .
٢ ـ حنين بن اسحق : ت ٨٧٣ م = ٢٦٠ هـ .
٣ ـ علي بن ربن الطبري: ت بعد ٨٥٥م = بعد ٢٤٠هـ . حوالي ٨٦٤م = حوالي ٢٥٠هـ.
٤ ـ اسحق بن حنين : ت ٩١٠ م = ٢٩٨ هـ .
٥ ـ حبيش بن الحسن : توفي في مطلع القرن العاشر م .
٦ ـ محمد بن زكريا الرازي : ت ٩٢٥م = ٣١٣هـ .
٧ ـ البالسي : من أهل القرن العاشر م (٤ هـ) .
٨ ـ ابن أبي الأشعث: من أهل القرن العاشر م (=٤هـ) .
٩ ـ علي بن العباس المجوسي: من أهل القرن العاشر م (= ٤ هـ) .
١٠ـ التميمي : ت ٩٨٠ م = ٣٧٠ هـ .
١١ـ المسيحي : من أهل القرن العاشر م (= ٤ هـ) .
١٢ـ البيروني : ت ١٠٤٨ م = ٤٤٠ هـ .
١٣ـ ابن رضوان : ت ١٠٦٨ م = ٤٦٠ هـ .
١٤ـ ابن جزلة : ت ١١٠٠ م = ٤٩٣ هـ .
١٥ـ أبو الحسن صاعد بن هبة الله: ت ١١٠١م = ٤٩٥هـ .
٩٥ـ ألف ابن جلجل (ت بعد ٩٩٤ م = ٣٨٤ هـ) . مقالة في (ذكر الأدوية التي لم يذكرها (ديوسقوريدس في كتابه).
٩٦ـ ألف ابن جلجل (ت بعد ٩٩٤ م = ٣٨٤ هـ) كتاباً في هذا الغرض سماه : (تفسير أسماء الأدوية المفردة) من كتاب ديوسقوريدس) .

كما الف أبو العباس النباتي (ت ١٢٣٩م = ٦٣٧ هـ) كتاباً سماه (شرح أدوية ديوسقوريدس وجالينوس والتنبيه على أوهام مترجميها) •
واخيراً الف ابن البيطار (ت ١٢٤٨م = ٦٤٦هـ) كتاباً سماه (تفسير كتاب ديوسقوريدس) •

٩٧ـ بدأت ظاهرة اضافة الأدوية المفردة التي لم يذكرها ديوسقوريدوس باسحق بن عمران • وبعده جاء ابن جلجل ثم ابن الجزار • وقد سبق أن ذكرنا أن ابن جلجل كتب مقالة يستدرك فيها الادوية التي أهملها ديوسقوريدوس• وكذلك فان البالسي (ق١٠ م = ق٤هـ) ذكر في كتابه (التكميل في الادوية المفردة) عدداً من الأدوية الهندية التي لم يعرفها الاغريق • وقد استمر هذا التقليد أيام الغافقي والشريف الادريسي ، واستمرت مع أبي العباس النباتي وابن البيطار •

٩٨ـ يدعى أبو العباس النباتي أيضا باسم(ابن الرومية) •

٩٩ـ تعتبر المدرسة الأندلسية في علم الادوية المفردة استمراراً للمدرسة التي ظهرت في القيروان على يد اسحق بن عمران أولا ثم ابن الجزار ثانياً ، هذه المدرسة التي اعتمدت على تقاليد المدرسة البغدادية الشرقية • وعلى ذلك فاننا نستطيع الكلام عن مدرسة مغربية ـ أندلسية • اهم أساتذتها هم :
١ ـ اسحق بن عمران : ت ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ •
٢ ـ ابن سمجون : ت في النصف الثاني من القرن ١٠م (= ق ٤ هـ) •
٣ ـ ابن الجزار : ت ٩٨٠ م = ٣٦٩ هـ •
٤ ـ ابن جلجل : ت بعد ٩٩٤ م = ٣٨٤ هـ •
٥ ـ عبدالرحمن بن الهيثم : ت في أواخر القرن ١٠ م (= ق ٤ هـ) •
٦ ـ الزهراوي : ت حوالي ١٠١٣ م = ٤٠٤ هـ •
٧ ـ مروان بن جناح : ت بعد ١٠٤٠ م
٨ ـ ابن وافد : ت بعد ١٠٦٨ م = ٤٦٠ هـ •
٩ ـ أبو عبيد البكري : ت ١٠٩٤ م = ٤٨٧ هـ •
١٠ـ محمد بن عبدون : توفي في نهاية القرن ١١ م أو مطلع القرن ١٢ م (ق ٥ـ٦ هـ) •
١١ـ ابن بكلارش : عاش في النصف الثاني للقرن ٥ هـ والنصف الأول للقرن ٦ هـ (= ق ١١ـ١٢ م) •
١٢ـ أمية بن أبي الصلت : ت ١١٣٤ م = ٥٢٩ هـ •
١٣ـ ابن باجه : ت ١١٣٨ م = ٥٣٣ هـ •
١٤ـ الشريف الادريسي : ت ١١٦٥ م = ٥٦٠ هـ أو ١١٦٦ •
١٥ـ الغافقي : ت ١١٦٥ م = ٥٦٠ هـ •

١٠٠ـ كتب ابن البيطار كتاباً يعارض فيه ابن جزلة في كتابه (منهاج البيان في ما يستعمله الانسان) وقد سمى هذا الكتاب (الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام) • وهذا تقليد عريق في المدرسة الأندلسية في الأدوية • فابن الهيثم (عبدالرحمن بن الهيثم ـ من أهل القرن ١٠ م) كتب كتاباً سماه (الاقتصار والايجاد في خطا ابن الجزار في الاعتماد) ينتقد فيه ما ورد في كتاب (الاعتماد) الشهير • والغافقي نقد كثيرين في مقدمة كتابه (الأدوية المفردة) •
وأبو العباس النباتي نقد الغافقي في كتاب خاص سماه (التنبيه على أغلاط الغافقي) •

١٠١ـ ظهر هذا الكتاب بعد عام ١٢٤٢ م (= ٦٤٠ هـ) وتوفي المؤلف عام ١٢٤٨ م (= ٦٤٦ هـ) ويمتاز هذا الكتاب بضخامة حجمه اذ جمع فيه المؤلف كمية ضخمة من المقتبسات التي اختارها بعناية •

١٠٢ـ توفي ابن السويدي في دمشق عام ١٢٩٢ م (= ٦٩٠ هـ)

١٠٣ـ يعود الفضل في جعل كتاب (الأدوية المفردة) معجماً ثنائي اللغة الى ابن جلجل ، الذي كان أول مؤلف عربي يورد أسماء النباتات الطبية باللغتين اليونانية والعربية بشكل منهجي • وفي هذا سبق هام في عالم الأدوية ، كما أنه فتح جديد في التاليف المعجمي العلمي • وكتاب ابن جلجل هو (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس) • أما ظهور الأسماء العديدة للنبات الواحد (المترادفات) فهو تقليد يعود الى أيام ابن الجزار في كتابه (الاعتماد) •
وأما الاهتمام بالجانب اللغوي الاصطلاحي في كتب الأدوية فقد جاء في مرحلة متاخرة ، على يد الادريسي والغافقي (ونحن لا نعرف من منهما كان سباقاً الى تاليف كتابه) • فقد كتب الادريسي (الجامع لصفات أشتات النبات) بينما كتب الغافقي (الأدوية المفردة) وقد توفيا في العام نفسه ١١٦٥ م = ٥٦٠ هـ •
وهكذا فقد صار لكتاب الأدوية أهمية في عالم اللغويين•

١٠٤ـ كتب ابن البيطار هذا الكتاب في زمن يقع بين عامي ١٢٣٨ـ١٢٤٠ م (= ٦٣٥ هـ ـ ٦٣٧ هـ) • وهذا يعني أنه كتبه بعد كتابيه : (تفسير كتاب ديوسقوريدس) الذي ظهر بعد عام ١٢٢٤ م وقبل عام ١٢٣٦ م و (الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام) الذي ظهر بعد ظهور (تفسير •••) فكتاب (المغني•••) اذن هو ثالث كتب ابن البيطار الهامة من حيث زمن ظهوره • وهذا يعني أن (المغني•••) ظهر قبل ظهور

(الجامـع ...) ، وتحمل احدى مخطوطات هذا الكتاب اسم (المغني في فن الطب) .

١٠٥ـ وهو أسلوب قـديـم ومعروف يبـدأ بامراض الرأس (الجملة العصبيـة المركزية) ثم أمراض فروة الرأس، فامراض العين فالأذن فالأنف فالأسنان وهكذا ...

١٠٦ـ وليس الأدوية المركبـة .

١٠٧ـ بعض مخطوطات هـذا الكتاب تحمل عنوان : (التذكرة المفيدة والذخيرة الحميدة) .

١٠٨ـ لا يوجد احصاء دقيق لهذه المقتبسات الا انه قيل انها اخذت من حوالي ٤٠٠ كتاب .

١٠٩ـ توفي ابن السويدي عام ١٢٩٢ (= ٦٩٠هـ) وقام الامام الشعراني (المتوفى عام ١٥٦٥ م = ٩٧٣ هـ) باختصار التـذكرة .

وكان بدرالدين القوصوني (المتوفى بعد عام ١٥٢٥ م = ٩٣١ هـ) قد اختصرها من قبل ولكنه توفي قبل ان ينجز عمله هذا ، فقام ابن غانم المقدسي (المتوفى عام ١٥٩٦ م = ١٠٠٤ هـ) باتمام هذا العمل وفرغ منه عام ١٥٥٥ م = ٩٦٣ هـ وكذلك قـام مؤلف مجهول باختصار تذكرة ابن السويدي في زمن لا نعرفه على وجه الدقة .

فتذكرة ابن السويدي اذن شغلت الناس حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي على الأقل، اي ان صداها ظل يتردد ثلاثة قرون .

١١٠ـ ابن بطلان : (من اهل القرن ١١ م = ق ٥ هـ) . في كتـابه (تقويم الصحة) حيث يعـدد في جداول واضحة الأدوية المختلفة المستعملة لعلاج الأمراض . ويبوب هذه الأمراض حسب الأعضاء الآلمة .

١١١ـ ابن جزلة في كتابه (تقويم الأبدان ...) وهو كتاب تاثر مؤلفه فيه كثيراً بكتاب ابن بطلان فاعتمد أسلوب الجداول .

انظر : نشات الحمارنة ـ المخطوطات العربيـة في طب العيون . اصدار خاص من مجلة الكحال ـ دمشق١٩٨٠ ص ٣٢ـ٣٥ .

١١٢ـ ويسمى الكتاب ايضا : (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار) وقد بقي من هذا الكتاب ثلاث نسخ كاملة :

الأولى في المتحف العراقي في بغداد حققها الزميلان مصطفى شريف العاني وحازم البكري وظناها فريدة .

والنسختان الثانية والثالثة كان لنا شرف اكتشافهما : واحدة في طهران والأخرى في استانبول . ونسخة طهران منحولة لابن النفيس ، أما نسخة استانبول فلم يتعرف علماء استانبول على مؤلفها: (ششن وزميلاه على سبيل المثال) وقد وجدنا الجزء الأخير من هذا الكتاب (الذي هـو القرابادين الكتاب) في مخطوط مستقل في دبلن ، واعلنا عن ذلك ، ثم كتبت عنه الزميلة هيا الدوسري. وانا مدين للزميل عبدالحسين حائري ـ طهران ، الذي اهداني صورة عن مخطوط طهران من هذا الكتاب .

١١٣ـ اول من قال عن المؤلف انه (صلاح الدين بن يوسف) هو لوكلير ، اعتماداً على مخطوطة الكتـاب الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس . وعن لوكلير اخذ هيرشبرغ (عام ١٩٠٥) هذا الاسم . أما التدقيق في قراءة خطبة الكتاب فانه يؤكـد ان المؤلف نفسه كتب اسمه على الشكل التالي : (يحيى بن أبي الرجاء) . وقد رجعنا الى مخطوطات الكتـاب المعروفة في الاسكندرية وغوتا وباريس ثم اكتشفنا نسختين جديدتـين : واحـدة في استانبول والأخرى في دبلن . للتوسع في معرفة المزيد عن هذا الكتاب انظر : كاتب هذه السطور في (تاريخ طب العيون ...) ص ٢٩ .

١١٤ـ أنظر نشات الحمارنة (دور العرب...) ص١٢٦ـ١٣٣، وكذلك نشات الحمارنة (طب العيون العربي..) ص٣٩.

١١٥ـ ذكر يحيى بن أبي الرجاء (صلاح الدين ...) في مقدمة كتابه أيضاً اعتماده على ابن زهر .

١١٦ـ حول خليفة انظر: نشات الحمارنة (تاريخ طب العيون..) ص ٢٦ـ٢٧ . وحـول (الكافي ..) نشات الحمارنة : (الكافي في الكحل..) في مجلة التراث العربي، العدد٢٩ ص ١٢٦ـ١٥٩ .

١١٧ـ علي بن عيسى الكحال البغدادي : عاش بين القرنين العاشر والحادي عشر ، وظهر كتابه (تذكرة الكحالين) حوالي عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م .

وهذا الكتاب هو قانون أطباء العيون العرب . أنظر : نشات الحمارنة (مقدمة ...) ص ١٦٩ . وكذلك (تاريخ أطباء العيون ...) الجزء ١ ، ص ٦٠ـ٦٤ .

١١٨ـ عمار بن علي الموصلي كتب (المنتخب في علاج أمراض العين) في نفس الوقت الذي كتب فيه علي بن عيسى كتابه ، أنظر : نشات الحمارنة (دور العرب) ص١٣٥، نشات الحمارنة (مقدمة) ص ١٦٨ وكذلك (تاريخ أطباء العيون) الجزء ١ ، ص ٦٢ـ٦٤ .

١١٩ـ ظهر هذا الكتاب محققا بفضل دائرة المعارف العثمانية في حيدر أباد الدكن ، الهند ، ولعل أهم ما كتب عن ابن القف هو ما كتبه الأستاذ سامي خلف حمارنة الذي حقق بعض كتبه أيضاً • أنظر: سامي حمارنة (فهرس مخطوطات الظاهرية (١٩٦٩) •

١٢٠ـ ترد في كتابه عبارات يمكن أن تشير الى كثرة تنقله : (•• في الحل والترحال••) ، (•• في الغربة والتوطن••) •

١٢١ـ أنظر : نشات الحمارنة : دور العرب في تطور طب العين ـ الجزء ١ ـ علي بن العباس ، ص ٣٤ ـ الزهراوي ، ص ٣٦ •

١٢٢ـ أنظر : نشات الحمارنة (تاريخ أطباء العيون العرب) الجزء ١ ـ ص ٤٤ـ٤٨ •

١٢٣ـ المرجع السابق ـ ص ٥٣ـ٥٦ •

١٢٤ـ المرجع السابق ـ ص ٦٠ـ٦٤ •

١٢٥ـ اعتبرت (نظرية الأبصار) جزءاً من (العلوم الطبيعية)، فهي اذن من اختصاص (الفلسفة) • أنظر : نشات الحمارنة (دور العرب•••) ص ١٩ •

١٢٦ـ أنظر : نشات الحمارنة (المهذب••) ص ١٥١ ، وكتاب الشفاء يتكون من عدة أجزاء : الالهيات ، الطبيعيات، الرياضيات •• الخ والطبيعيات في الشفاء مقسمة الى عدة اقسام (فنون) منها : السماء والعالم ، الكون والفساد ، المعادن والآثار العلوية ، النفس•• الخ • والنفس هو الفن السادس من طبيعيات الشفاء • ويتكون كتاب (النفس) من خمس مقالات ، المقالة الثالثة منها (في الأبصار) •
وكتاب الشفاء محقق : حققه الأب قنواتي وسعيد زايد، وراجعه ابراهيم مدكور عام ١٩٧٥ • وكان يان باكوش قد نشره محققا عام ١٩٥٦ •

١٢٧ـ أنظر: نشات الحمارنة (تاريخ طب العيون••) ص ٢٩ •

١٢٨ـ أنظر : ترجمة عبدالرحمن بدوي (في الآراء الطبيعية التي يقبل بها الفلاسفة) •

١٢٩ـ يعتقد الأستاذ الدكتور البير زكي اسكندر أن ابن النفيس يمثل شخصية (الطبيب ـ الفقيه) وذلك اعتماداً على مجمل نشاطه ومؤلفاته • ولا يسعنا هنا الا أن نتوقف عند هذا الرأي الذي يخيل الينا أنه بحاجة الى تدقيق • فابن النفيس في شرحه للدورة الدموية الصغرى ، وفي عرضه لنظريات الأبصار ومناقشته لأصحابها والرد عليهم ، وفي كتابه (فاضل ابن ناطق) يبدو فيلسوفا من درجة رفيعة ، وهو أيضاً فقيه • وقد قام ابن النفيس بتدريس الفقه في المدرسة المسرورية في القاهرة • أما عرض يحيى بن أبي الرجاء (صلاح الدين) لنظريات الأبصار فيدل أيضا على أنه طبيب ـ فيلسوف ، وليس مجرد كحال بسيط ممارس•

١٣٠ـ وأهم هذه الكتب : قانون ابن سينا • وكامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس ، وقد سبقت الاشارة اليهما• وقد كان كل منهما بمثابة موسوعة طبية شاملة • أي أن الكتاب كان يحوي بين دفتيه المعرفة الطبية اللازمة •

١٣١ـ توفي ابن جزلة عام ١١٠٠ م = ٤٩٣ هـ •

١٣٢ـ القيسي : فتح الدين احمد بن عثمان ويسمى أيضاً ابن أبي الحوافر وهو ابن الطبيب الذي سبق الحديث عنه• جمال الدين عثمان بن هبة الله القيسي المتوفى عام ١١٩٧ م = ٥٩٥ هـ • وقد كان الأب رئيساً للأطباء في مصر ، بينما عمل الابن في مصر والشام • وقد ظهر كتاب (نتيجة الفكر ••) بين عامي ١٢٤٠ ، ١٢٤٩ م (= ٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ) • أنظر : نشات الحمارنة : (تاريخ طب العيون في بلاد الشام) ص ٢٤ـ٢٥ •

١٣٣ـ للتوسع في هذا الموضوع • أنظر : نشات الحمارنة : (مقدمة حول طب العيون العربي) ، ص ١٧٤ـ١٧٥ •

١٣٤ـ تكثف البلورة أو تكدرها أو نقصان شفوفها Cataract •

١٣٥ـ الزرق : Glaucoma ارتفاع توتر باطن العين •

★ ★ ★

أولاً ـ المراجع :

محمد زهير البابا :
المدرسة الطبية الدمشقية في ظل البيمارستان النوري •
في مجلة : المناضل ـ دمشق ـ العدد (١٢٦) عام ١٩٧٩ (تشرين الأول) الصفحات : (٦٩ـ٨٩) •
وكان المؤلف قد القى هذا البحث على شكل محاضرة في حفل أقيم بمناسبة تحويل مبنى البيمارستان النوري الى متحف للطب والعلوم ، وذلك في دمشق بتاريخ ٧٨/١١/٢١ •
ابراهيم بن مراد :
من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين •
في مجلة : التراث العربي ـ دمشق ـ العدد (١٩) عام ١٩٨٥ ، الصفحات ٩٥ـ١١٠ •
وكان المؤلف قد القى هذا البحث على شكل محاضرة في دمشق ـ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٨٤ •
في ندوة: السمات الانسانية للعلم والعمل في بلاد الشام•
نشات الحمارنة :
تاريخ أطباء العيون العرب ـ الجزء ١ ـ ط ٢ ـ دمشق ١٩٨٥ (٨٠ صفحة) •

نشات العمارنة :
تاريخ طب العيون في بلاد الشام ، ص ١-٣٤ •
في كتاب بعنوان : رواد طب العيون في سورية ، أصدره الدكتور سمير أنطاكي - دار الذاكرة - حمص ١٩٩٣ (٣١٦ صفحة) •
نشات العمارنة :
دور العرب في تطور طب العيون - الجزء ١ •
اصدار خاص من مجلة الكحال - دمشق ١٩٨٥ (المجلد الثالث - لعدد الثالث) ، (١٦٨ صفحة) •
نشات العمارنة :
طب العيون العربي حتى نهاية القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) - اصدار خاص من مجلة الكحال - دمشق ١٩٨٤ (المجلد الثاني - العدد الثاني) ، (٧٢ صفحة) •
نشات العمارنة :
الكافي في الكحل لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي •
في مجلة : التراث العربي - دمشق - العدد (٢٩) تشرين الاول ١٩٨٧ - ص (١٢٦-١٥٩) •
نشات العمارنة :
المخطوطات العربية في طب العيون - اصدار خاص من مجلة الكحال - دمشق ١٩٨٠ - (المجلد الأول - العدد الثاني)، (٦٤ صفحة) •
نشات العمارنة :
مقدمة حول طب العيون العربي (الكحالة) •
في مجلة : التراث العربي - دمشق - العدد (١٧) تشرين الأول ١٩٨٤ ، ص (١٥٣-١٨٥) •
نشات العمارنة :
مكتبة الكحال في عصر الرازي - المجلس الأعلى للعلوم - دمشق ١٩٩١ •
بمناسبة أسبوع العلم الحادي والثلاثون في جامعة تشرين - اللاذقية ١٩٩١ ، (٦٤ صفحة) •
نشات العمارنة :
المهذب في الكحل لابن النفيس •
في مجلة : التراث العربي - دمشق - العدد (٢٠) - تموز ١٩٨٥ - ص (١٤٤-١٧١) •
نشات العمارنة :
وصف الحول عند ابن النفيس •
في مجلة : تاريخ العلوم العربية - حلب - المجلد (٨) ١٩٨٤ ، ص (٣-٥٧) •

ثانياً - المصادر المطبوعة :

ابن أبي أصيبعة :
عيون الأنباء في طبقات الأطباء - تحقيق : أوغست مولر، القاهرة ١٨٨٢ م (١٢٩٩ هـ) جزءان •
ابن العبري :
غريغوريوس، أبو الفرج بن أهرون، تاريخ مختصر الدول• تحقيق : الأب أنطون صالحاني اليسوعي - ط ٢ - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٥٨ •
القفطي :
إخبار العلماء باخبار الحكماء •
باعتناء : ليبرت - لايبزغ ١٩٠٣ •

ثالثاً - المصادر المخطوطة :

ابن الأكفاني :
شمس الدين محمد بن ابراهيم الأنصاري السخاوي •
كشف الرين في أحوال العين • مخطوط القاهرة (الأزهر)•
(وثمة نسخ أخرى عديدة بعضها في القاهرة - دار الكتب) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا : (الكشف٠٠٠ لابن الأكفاني) •
الحريري :
عبدالله بن قاسم الحريري الاشبيلي - نهاية الأفكار ونزهة الأبصار (النهاية في الكحل) •
- مخطوط بغداد - المتحف العراقي • (وثمة نسختان مطخوطتان كاملتان : واحدة في طهران ، والأخرى في استانبول، وهناك نسخة ثالثة ناقصة في دبلن) • (والكتاب مطبوع في مجلدين ، بتحقيق : مصطفى شريف العاني وحازم البكري - بغداد ١٩٧٩ - ١٩٨٠) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا : (النهاية ٠٠٠/للحريري)•
خليفة :
خليفة بن أبي المحاسن الحلبي - الكافي في الكحل •
- مخطوط استانبول (بني جامع) ، (وهناك نسخة أخرى من الكتاب في باريس) • (الكتاب مطبوع : بتحقيق الزميلين محمد ظافر الوفائي ، ومحمد رواس قلعجي) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا (الكافي ٠٠٠/لخليفة) •
السلمي :
موفق الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار السلمي •
امتحان الألباء لكافة الأطباء • مخطوط فينا (مطبوع) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا (امتحان ٠٠٠/السلمي) •
صلاح الدين :
صلاح الدين بن يوسف (يحيى بن أبي الرجاء) •
نور العيون وجامع الفنون • مخطوط استانبول (حميدية)
(وثمة مخطوطات أخرى من هذا الكتاب في باريس ، دبلن ، غوتا ، الاسكندرية) • الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور محمد ظافر الوفائي ، الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعجي (الرياض ١٩٨٧) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا (نور العيون٠٠/لصلاح الدين)•
الصوري :
رشيد الدين ، الكافي في طب العين، مخطوط دمشق (الظاهرية)•
القيسي :
أبو العباس • فتح الدين • أحمد بن عثمان •
نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر • مخطوط غوتا •
(وثمة نسخ عديدة مخطوطة من الكتاب : بعضها في استانبول ، ودبلن ، ودمشق) • (والكتاب مترجم الى الألمانية في اطروحة جامعية) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا : (النتيجة ٠٠٠/للقيسي) •
ابن النفيس :
علاء الدين أبو العلاء علي بن أبي الحزم القرشي •
المهذب في الكحل • مخطوط دمشق (الظاهرية)
(وثمة نسخ أخرى في برلين واستانبول والقاهرة والفاتيكان)•
(الكتاب مطبوع بتحقيق الزميلين: محمد ظافر الوفائي ، ومحمد رواس قلعجي) •
أشرنا الى هذا الكتاب هكذا: المهذب٠٠٠/لابن النفيس)•

الحياة العمرانية في دمشق في العهد العثماني

م . نزيه الكواكبي

● **تمهيـــد :**

يلاحظ الباحث في تاريخ العمران والعمارة ، ندرة ما كتب من أبحاث عن الفترة العثمانية ، وأن ما كتب عن الفترات التاريخية الأخرى ، أكثر بكثير مما كتب عنها . وليس السبب في ذلك ندرة المخطوطات والوثائق بل فتور الهمة ، والخوف من الكتابة عن هذه الفترة ، اذ أن الوثاق متوافرة بكثرة ، وثمة مخطوطات عربية كتبها شهود عيان عاصروا ما حدث أو عاصروا فترة قريبة مما حدث . هذه الوثائق مبعثرة في شتى أرجاء المعمورة ، أضف الى ذلك أن الوثائق العثمانية التي بدأ الاهتمام بها مؤخراً ، الى جانب رسائل القناصل الفرنسيين والانكليز والروس ... تشكل بمجملها مصدراً هاماً لتكون فكرة صحيحة عن تاريخ تلك الفترة بعد متابعة جميع هذه الوثائق وقراءتها بدقة وروية وحياد .

المدن العربية والاساءة الأوربية المتعمدة للتاريخ العثماني :

يقول الأستاذ أندريه ريمون : « ان قلة معلوماتنا عن تاريخ المدن العربية تبدو واضحة بصفة خاصة بالنسبة للفترة « الحديثة » التي نهتم بها هنا ، أي خلال القرون العثمانية الأربعة (ق ١٦ ـ ق ١٩) . وأسباب هذا النقص في المعلومات عديدة ؛ في البداية أود الاشارة الى فقدان الاعتبار تجاه الفترة العثمانية التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر وانتهت بتفكك الدولة وسط أعمال عنف

أدت الى تعتيم صورة القرون العثمانيــةالسابقة • ويقع جزء من المسؤولية أيضاً على عاتق الغربيين الذين أدى نفورهـمـمن الفترة العثمانية السابقة للاستعمار الى الاساءة بوعي الى حد ما ، الى ما كانقائماً قبل سيطرتهم، وهيسيطرة يهدفون منها الى « تحديث » البلاد التي يغزونها .

ومع ذلك ، فان الحقبة العثمانية توفر مزاياضخمة للبحوثفيالمجالالعمراني. إن المدن القديمة التي نعرفها هي أولاً وقبل كل شيء ميراث مباشر لعصر كـان طويلاً للغاية (أربعة قرون في سوريــةوفلسطين) وبالتالي فان هذا العصر لابد أنه قد أثر بعمق في البيئة العمرانيــة •وبالرغم من التدمير الذي حـدث بسبب الانفجار المديني وبسبب تحديث هـذهالمدن في الفترة الأخيرة ، إلا أن المراكز القديمة قد حافظت على ثروة وفـيرة منالروائع التاريخية والأشكال المدينية التي يمكن بدراستها توضيح البحوث الخاصة بالبنيان وبالوظائف العمرانية » •

« ويمكن أن نتوقع من الأعمال الجارية الآن ، تجديـداً شاملاً لمعارفنـا عن المدن العربية » ، « إن هذا التقدم يجعلنانتوقع حدوث انقلاب خلال بضع سنوات في معارفنا عن المدن العربية الكبرى » •

أقول : ان من يتفحص اليوم شوارعدمشق القديمة وامتداداتها الطبيعيــة : العقيبة ، ساروجة ، القنوات ، باب سريجة ــ قصر حجاج ــ باب مصلى،الميدان، الصالحية مع متابعتها في كتاب القلائد أوالمفاكهة أو البداية والنهاية أو الروضتين أو خلاصة الأثر أو سلك الدرر أو حوادثدمشقاليومية أو دمشقالمدينة الاسلامية، ويقارنها بما ورد في النصوص يرى في ذلك متعة كبيرة ويشده ذلك ، ذلـك لأن المدينة ما زالت محافظة على حالها رغمما تعرضت له من التغييرات السريعة التي تتم الآن بشكل لا يمكن وصفه ، والتــيتقضي على معالم دمشق العمرانية قضاء مبرماً وتغيرها تغيراً جذرياً •

وهكذا نرى أن الاساءة متعمدة وأنالتعتيم مهيأ له ، ومن المؤسف تبني كثير منا لما كتبه الغرب ، إن لم يكتب أحـدمنا ما يمكن للغرب معه أن يتبينه ويتبناه لذلك علينا من خلال دراسة سجلات الادارة العثمانية المحفوظة في استانبـول وفي عواصم الولايات وفي وثائق الأوقــاف وسجلاتالمحاكم الشرعية أن نوضحالصورة

وأن نكتب بهدوء وحياد عن هذه الفترة دون أية خلفية مسبقة ، وما هذه الأوراق إلا البداية عن عمران وعمارة دمشق في تلك الفترة العثمانية ٠

حال دمشق قبل الفتح العثماني :

كان وضع دمشق بائساً للغاية ، إذ كان تيمورلنك على أبواب دمشق وكانت الخلافات والصراعات والاغتيالات بين الأمراء في القاهرة خلال الفترة التي كانوا يتهيؤون فيها للقدوم الى نجدة دمشق على أشدها ٠ أخيراً ، دخل السلطان دمشق في يوم الخميس ٢٣ كانون الأول ١٤٠٠م / سادس جمادى الأولى ٨٠٣ هـ وضرب خيامه في قبة يلبغا جنوبي دمشق ،في الوقت الذي كانت فيه جيوش تيمورلنك قد وصلت الى البقاع ، ونزل تيمورلنك في قطنا الى الغرب من جيوش السلطان ، ثم تحول الى سطح قاسيون وتمركز في قبة سيار يراقب السلطان ، والسلطان يراقبه ، وبدأ الجيشان بحفر الخنادق ،أما أولى المناوشات فقد بدأت يوم السبت ٢٥ كانون الأول ١٤٠٠ م / ٨ جمادي الأولى ٨٠٣هـ حيث ملأت جيوش تيمورلنك الأفق ، وجيش السلطان يستعد للقتال ٠ وفي الخامس من كانون الثاني ١٤٠١ م / ١٩ جمادي الأولى ٨٠٣ هـ ، رحل تيمورلنك الى شقحب قرب الكسوة في محاولة لجمع الميرة والأعلاف ، وفي اليوم التالي الخميس ٦ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٢٠ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ، عبأ تيمورلنك قواته بطريقته المعهودة ، وهي عبارة عن صفوف طويلة من المشاة ،وصلت الى أكثر من سبعين صفاً، يراوح طول الصف الواحد بين ١٢ ـ ١٦ كيلومتراً تتقدمها الفيلة ٠ أما الغريب في الأمر فهو الانسحاب الفاجيء للسلطان والجيش المصري من دمشق تحت جنح الظلام بسبب خلافات داخلية في القاهرة وتركها بمفردها أمام تيمورلنك وجهاً لوجه ، وتم الانسحاب مساء يوم الخميس ٦ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٢٠ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ، حيث سُمعت في معسكر المصريين جلبة وضوضاء وشاحنات ، وصلت الى سمع تيمورلنك ، بل إنه رآها بينه ، واستنتج ببساطة أن المصريين على وشك الفرار ، فعاد الى معسكره وقضى الليل فيه آمناً مطمئناً ، وهاجم تيمورلنك مدينة دمشق يوم الجمعة بعد رحيل السلطان ، فتصدى له عوام دمشق وغلمانها ، ومن بقي فيها من المماليك وقاتلوه بضراوة ٠

طبعاً ، دخل السلطان القاهرة يوم الخميس ٢٢ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٥ جمادى الآخرة ٨٠٣ هـ وبينما القتال يدور كان تيمورلنك يزور أضرحة آل البيت في مقبرة باب الصغير ويناظر علماء دمشق ، ويأمر ببناء قبتين على ضريحي أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما ، ولم يستغرق بناؤهما معاً أكثر من خمسة وعشرين يوماً ، مع ما كان يعانيه أهل دمشق آنذاك من العنت والمصادرات ، ثم زار ضريح بلال الحبشي ، وعاد الى مقره في القصر الأبلق .

أما الكارثة الفعلية ، فلم تبدأ الا بعد سقوط القلعة ، رغم أن بطولات المدافعين عنها تفوق الوصف ، فقد استمات المدافعون عنها الى درجة أعجزت تيمورلنك وحيرته . واستمر القتال الضاري زهاء الشهرين ، ثلاث وأربعون رجلا معظمهم من الأحداث يواجهون تيمور لنك وجنوده، ولما أعياهم الحال وكثرة الجراح وانعدام الأمل لم يجدوا بداً من طلب الأمان ، فأمنهم تيمورلنك ، ونزلوا اليه يوم الجمعة ٨ آذار ١٤٠١م / ٢١ رجب ٨٠٣هـ، وكان أول ما فعله أن هدم القلعة وسواها بالأرض ..

وإثر سقوط القلعة ، لم يعد يمنع دمشق من تيمورلنك مانع ، ذلك أن تيمورلنك ، ما إن استحوذ على كل شيء في دمشق ، حتى قبض على ابن مفلح المفاوض وألزمه وأعوانه بأن يكتبوا له أوراقاً بجميع خطط دمشق وحاراتها ودروبها ودورها ، ثم وزع هذه الأوراق على أمرائه وقسم المدينة بينهم ، ودخل الأمراء المدينة ، وسار كل منهم الى الحارة التي أقطعت له .. وبعد أن أتى الأمراء على المدينة ولم تعد لهم بها رغبة، أصدر تيمورلنك أمره للجنود بالنهب العام ، فدخلوا المدينة يوم الأربعاء ١٦ آذار ١٤٠١ م / آخر رجب ٨٠٣ هـ وبأيديهم السيوف مشهورة ، فقاموا بما قاموا به ، ثم أضرموا النار في المنازل ، وكان يوماً شديد الريح ، فعم الحريق المدينة بأسرها ، واستمرت النار مندلعة مدة ثلاثة أيام بلياليها ، وأتت النار على الجامع الأموي فأزالت النار محاسنه ولم يبق منه الا جدره وقد تفطر منها الرخام الذي كان يغطيها . ويقول المؤرخ الفارسي يزدي : أن تيمور حاول انقاذ المسجد من الحريق ، فأرسل قائده شاه ملك لهذه الغاية ، ولكن سقف المسجد كان قد انهار قبل وصوله ، ويشير المؤرخ متعجباً الى أن النيران قد حولت الحجارة الى رماد في ذلك المسجد لكنها لم تصل الى مئذنة عيسى .. ويقول المقريزي :« أن المدينة أصبحت أطلالا بالية ورسوماً خالية قد أقفرت من الساكن وامتلأت أرضها بجثث القتلى . ولم يبق بها دابة

تدب الا الأطفال لا يتجاوز عددهم الآلاف » • وكان الذي أضرم النار في الجامع الأموي الفرق الخراسانية في جيش تيمورلنك • وقد استمر النهب العام ثلاثة أيام كان آخرها يوم الجمعة ١٨ آذار ١٤٠١ م / الثاني من شعبان ٨٠٣ هـ •

ويقول المؤرخ الدمشقي ابن عربشاه : « فاقسم بالله ، لقد كانت الأيام علامة من علامات يوم القيامة ، ولقد كان أشد شيء على دمشق حريقها ، لا ما أخذه تيمورلنك •
وأخيراً ، وبعد ثمانين يوماً من المعاناة والدمار ، لم يبق من دمشق غير الأطلال ، غادر تيمورلنك دمشق يوم السبت ١٩ آذار ١٤٠١ م / الثالث من شعبان عام ٨٠٣ هـ ، بعد أن هدم القصر الأبلق •

دمشق بعد رحيل تيمورلنك :

بعد رحيل تيمورلنك بيومين ، تحركت القوات المصرية لنجدة الشام ، الا أنها عادت أدراجها بعدما وصلت الأخبار بعودة تيمورلنك الى بلاده • أما دمشق فقد هاجمها الجراد بشكل لم تعهده منذ قرون ، وأتى على كل شيء ، فتاه أهالي دمشق في البراري يجمعون الجراد ومخلفات تيمورلنك ، يبيعونها ليقتاتوا بثمنها ، وأصبح الجراد طعام غالبية ممن بقي في بلاد الشام • ثم انتشر اللصوص والأراذل فهجموا على الناس وصاروا ينهبون ويقتلون واستمر الحال حتى عودة نائب الشام « تغري بردي » اليها بعد أكثر من شهرين من رحيل تيمورلنك في أيار ١٤٠١ م / الخامس من شوال ٨٠٣ هـ •

استمر الخراب في دمشق ، بعد رحيل تيمورلنك ، مدة طويلة ، وفي الشواهد التالية ما يعطي فكرة : ففي آذار ١٤٠٢م / شعبان ٨٠٤ هـ أقيمت الجمعة في الجامع الأموي وهو خراب ، كما كانت المدينة كلها خراب لا أنيس بها ولا ساكن. وأخذ الناس يبنون في الغوطة خارج الأسوار ، واستولوا على معظم أراضي الأوقاف ، فنودي في البلد بالعودة اليها ، وهدمت البيوت التي بنت خارجها •

وبعد سبع سنوات أي سنة ١٤٠٨ م/٨١١ هـ أمر نائب الشام أهل المدينة بعمارة مساكنهم والأوقاف التي في البلد.

ثم قرىء كتاب الناصر محمد بن قلاوون ، بالزام الناس بعمارة ما خرب من المدارس في دمشق • ويقول العلموي عن المدرسة القليجية : « احترقت في فتنة

اللنك سنة ٨٠٣ هـ واستمرت كوم تراب الى حدود سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م حيث أعيد بناؤها ٠

ويقول ابن قاضي شهبة في حوادث دمشق سنة ١٤١١ م / ٨١٤ هـ : « وفي يوم الجمعة ثاني رمضان ، رأيت المؤذنين يسلمون ويؤذنون في المنارة الغربية ، وأظنه أول يوم أذن فيها بعد عمارتها من فتنة تيمورلنك » ٠

ويذكر العلموي : أن المدرسة الجقمقية شمالي الجامع الأموي بقيت خراباً حتى أعيد بناؤها سنة ١٤١٨ م / ٨٢١ هـ ٠

أما القلقشندي فقد ذكر أن حارات دمشق وبيوتها كانت ما تزال مدمرة حتى عهده سنة ١٤١٦ م / ٨١٩ هـ ، ولم يعمر في دمشق إلا القلعة لضرورات الحكم ٠

لقد أسفر اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام عن نتائج بالغة الأهمية : فمن الناحية العمرانية تعرضت المدن لما يشبه التدمير التام ، ومن الناحية الاقتصادية تدهورت الزراعة لسنوات طويلة نتيجة الابادة الجماعية التي قام بها تيمورلنك للانسان والأرض ٠ كذلك تدهورت الصناعة للسبب نفسه ، ونقص المال لما جمعه تيمورلنك من الأموال ، ويتضح ذلك من عجز الناس عن بناء بيوتهم المهدمة لما هم فيه ضائقة مالية ٠

ومن العجيب أن تيمورلنك بعد ذلك ، استطاع أن يقيم علاقات ود وصفاء ومودة مع الناصر فرج ، ووقع معه «معاهدة سلام» ختمت بقول الناصر « يا أول الصفو ، هذا آخر الكدر » ٠٠

إذن هذا باختصار وضع دمشق قبل دخول العثمانيين ، لقد تسلم العثمانيون مدينة شبه مدمرة لما تنهض من دمارها بعد ، فبذلوا جهدهم في ترميم ما تهدم وقاموا بالبناء والتشييد لدرجة تضاعفت معها مساحة دمشق في عهدهم كما سنرى فبلغت مساحة دمشق ٣١٣ هكتاراً بعد أن كانت حوالي ١٥٠ هكتاراً ٠

دمشق في الفترة العثمانية :

في ٢٤ آب ١٥١٦ م / ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ : هُزمت القوات المملوكية في معركة مرج دابق قرب حلب ، مما مكن السلطان سليم الأول من فتح بلاد الشام ، ودخول دمشق دون أي مقاومة في ٢٨ أيلول ١٥١٦ م / ١ رمضان ٩٢٢ هـ ٠ ثم غادرها الى مصر للقضاء على دولة المماليك ، حيث هُزمت قواتها التي كانت

تحمي مصر قرب غزة ... ثم عاد الى دمشق في ٢٧ أيلول ١٥١٧ م / ١١ رمضان ٩٢٣ هـ ومكث فيها حتى ٢٢ شباط ١٥١٨ م / ١٠ صفر ٩٢٤ هـ . أي مدة أربعة أشهر ، أمر خلالها ببناء قبة على ضريح الشيخ الصوفي الشهير محي الدين بن عربي ، والى جانبها جامع بخطبة سمي : بالجامع السليمي ؛ وفي ١ شباط ١٥١٨ م / ٢٠ محرم ٩٢٤ هـ رسم ببناء تكية شمالي الجامع دعيت بالتكية السليمية ، تولى نظارتها تقي الدين باكير الرومي ، وكذلك جدد ناعورة لذلك ، كما سنتحدث مفصلا عن أول مبنى عثماني في ضاحية الصالحية في دمشق . ومن الجدير بالذكر أن نائب الشام جانبردي الغزالي الذي رشحه السلطان قانصوه الغوري لهذا المنصب ، قد انضم للجيش العثماني ، لذلك عينه السلطان سليم نائباً على الشام ، إذ لم يُجر في تلك الفترة أية تغييرات إدارية .

بدا وصول العثمانيين للدمشقيين مجرد حادث محلي ، لا مناسبة ملحوظة ستفتح عهداً جديداً ، فقد كانت بالنسبة لهم مجرد تغيير حكام ، إذ خلف المماليك مجموعة أخرى أصبحت ذات امتياز هي الانكشارية . على أي حال ، كان هناك رد فعل الأمراء ، ظهرت بأن أحاط نائب الشام جانبردي الغزالي نفسه بجميع العناصر المناوئة للعثمانيين ، وما لبث إثر وفاة السلطان سليم الأول عام ١٥٢١ م / ٩٢٧ هـ الذي عينه ، أن رفض الاعتراف بسلطة السلطان سليمان ، وقام بثورته للانفصال عن الدولة العثمانية ، فحاصر القلعة ، وأقفل الجامع السليمي وكذلك التكية السليمية وصادر ما فيها من مؤن وأدوات طبخ ، ثم أعاد الجامع وأبقى التكية مقفلة . وسرعان ما أصبح الثائر سيد طرابلس وحمص وحماة وزحف محاصراً حلب دون نجاح ، ثم عاد الى دمشق ليجابه القوات التي أرسلها السلطان سليمان ، وفي معركة القابون ، شمالي دمشق في ٢٧ كانون الثاني ١٥٢١ م / ١٧ صفر ٩٢٧ هـ . هُزم جانبردي الغزالي وقتل .

وتحت حكم السلطان سليمان ، تغيرت القوى السياسية ، وتوطدت الدولة ، وأظهرت الادارة العثمانية بعض ملامح التنظيم . ففي عام ١٥٢٥ ـ ٢٦ م / ٩٣٢ هـ قام العثمانيون بأول مسح للأراضي والسكان ولضرائب دمشق ؛ دمشق التي لم تعد سوى باشوية متوسطة في رحاب الامبراطورية الكبيرة ؛ لقد كرس العثمانيون دولة جديدة تتميز بازدهار الريف والمدن نتيجة للاهتمام بالفلاحين

من ناحية وانطلاق التجارة من ناحية أخرى ، سواء ضمن المناطق الواسعة التي أصبحت تمتد فيها الدولة العثمانية أوسع الدول المجاورة · ان الفتح العثماني لبلاد الشام بشكل عام ولبلاد الشام الجنوبية بشكل خاص ، قد فتح صفحة جديدة من الازدهار في تاريخ المنطقة ·والوثائق العثمانية تبرز بوضوح الاستقرار في الريف والازدهار في المدن خلال السنوات الخمسين الأولى للحكم العثماني، اذ نمت القرى وتوسعت المدن بعد أن كادت تندثر اثر سقوط الحكم المملوكي · وهكذا أخذت تظهر الآن قرى جديدة وأخذت القرى القديمة تنتعش وتتطور ، مما أدى الى زيادة كبيرة لعدد السكان في العقود الأولى للحكم العثماني في بلاد الشام · ففي لواء دمشق على سبيل المثال ، استناداً للسجلات العثمانية زاد عدد القرى من ٨٤٤ قرية سنة ١٥٢١ م / ٩٢٧ هـ الى ١١٢٩ قرية في سنة ١٥٦٩ م / ٩٧٦ ـ ٧٧ هـ بينما ازداد عدد بيوت الفلاحين من ٧٠٦٩١ في عام ١٥٢٨ م / ٩٣٤ ـ ٣٥ هـ الى ١٠٧٦٠١ في عام ١٥٤٨ م / ٩٥٤ ـ ٥٥ هـ أي بزيادة قدرها ٥٤٪ ·

ان هذا الازدهار الكبير للريف يبدو موازياً للازدهار العمراني الكبير للمدن في بلاد الشام في مطلع العصر العثماني ·وفي الحقيقة ، كما رأينا ، عانت المدن الشامية كثيراً في القرن الأخير للحكم المملوكي ، فدمشق نهبت في فتنة تيمورلنك ، ثم عانت دمشق من أزمة اقتصادية كبيرة تحت ظل المماليك لدرجة أن السلطان سليم الأول حين دخل دمشق لم يدخل سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال ·

وفي أوائل القرن ١٧ م / ١٢ هـ وفي أواخر القرن ١٦ م / ١١ هـ ، ضعف نفوذ السلاطين واضطربت الحدود العثمانية ، الآن الامبراطورية بقيت واسعة لدرجة تحمي معها دمشق التي تقع في موقع متوسط من الامبراطورية والتي كانت على شيء من الرخاء بسبب التجارة والحج الى مكة ، فشهدت دمشق على امتداد طريق الحج باتجاه الجنوب توسعاً عمرانياً كبيراً على مسافة تمتد كيلو مترين وهو يمثل احدى السمات الأساسيه لتاريخ المدينة العمراني في العصر العثماني ·

ويتجلى النشاط التجاري في بناء أسواق وخانات ومجمعات عمرانية مختلفة ففي عام ١٥٢٥ ـ ٢٦ م / ٩٣٢ هـ قرر قاضي القضاة ولي الدين بن الفرفور وشرع في بناء سوق يقع قبالة باب جيرون وغطاه بقباب مبنية من الآجر المشوي ،

محمولة على أقواس وتجعل السوق في منأى عن خطر الحريق ، ولم يسبقه أحد كما يقول المؤرخ ابن طولون بمثل هذا النموذج من الأسواق في دمشق .

كذلك بنيت بعض الزوايا والترب والجوامع الى جانب المباني التجارية كالأسواق والخانات . ففي عام ١٥٢٥ ـ ٢٦ م / ٩٣٢ هـ بنيت الزاوية الصمادية داخل الشاغور قرب الباب الصغير ، وفي عام ١٥٣٣ م / ٩٤٠ هـ بنيت تربة لطفي باشا شرقي جامع دنكز لتضم جثمان الوالي لطفي باشا .

ويزداد النشاط التجاري اثر توقيع اتفاقية المرافيء بين فرنسا والدولة العثمانية في أوائل عام ١٥٣٥ م / ٩٤٢ هـ حيث فتحت المرافيء العثمانية أمام تجار فرنسا مما أمكنهم من العمل عبر شرقي المتوسط لدرجة أصبح معها في نهاية القرن الثامن عشر ثلاثة أخماس التجار الأوربيين من الفرنسيين ، حيث قاموا باستيراد البضائع المصنعة ، وصدّروا المواد الأولية والتوابل . وهكذا رأينا بناء سوق الخياطين عام ١٥٤٣ م / ٩٥٠ هـ ولاحظنا بناء خان الجوخية أو ما عرف فيما بعد بخان الخياطين من قبل أحمد شمسي باشا . أما جامع عيسى باشا الذي توفي عام ١٥٤٣ م/ ٩٥٠ هـ فكان قد بني خارج الأسوار تجاه باب النصر . أما المبنى المتميز الذي شيد خارج الأسوار فهو التكية السليمانية التي بنيت كمجمع عمراني يضم جامعاً ومدرسة وتكية وسوقاً وسبيلا في عام ١٥٥٤ ـ ٦٦ م/ ٩٦٢ ـ ٧٤ هـ ، وفق الطراز العثماني البحث بمئذنتين رشيقتين وبهندسة من المعمار سنان. وفي عام ١٥٥٤ م/٩٦٢ هـ بنيت الزاوية السعدية البرانية على طريق الحج في منطقة الميدان . وفي عام ١٥٥٥ ـ ٥٦ م/٩٦٣ هـ بنى أحمد شمسي باشا التكية الأحمدية داخل السور ، وفي عام ١٥٦١ م /٩٦٩ هـ بني مسجد القرماني . أما الوزير لالا مصطفى باشا ، الذي ولي على دمشق في الفترة بين ١٥٦٣ ـ ٦٩ م/ ٩٧١ ـ ٧٦ هـ فقد بنى الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق عام ١٥٦٣ م/ ٩٧١ هـ ، ثم بنى حماماً في سوق السروجية عام ١٥٦٣ م/ ٩٧١ هـ وبنى جامعاً قرب الخان عام ١٥٦٤ م/٩٧٢ هـ ، أما سنان آغا الانكشارية فقد بنى جامعاً قرب باب الفرج سنة ١٥٦٥ م / ٩٧٢ هـ بالقرب من القلعة أيضاً ، مجاوراً لسوق المناخلية .

لقد بقيت التجارة الخارجية نشطة جداً، ولم تتمكن الحوادث السياسية من ايقاف نشاط التجارة الواسع والكثيف مما أدى الى بناء عديد من الخانات خدّمت كفنادق للتجار الى جانب التبادل التجاري وحفظ المواد فيها• كذلك لاحظنا تعرض بعض الأسواق للحريق كسويقة الميدان المحروقة ، والتي بنى فيها مراد باشا مكان خان من الخانات تكيته الشهيرة بتكية مراد باشا النقشبندي عام ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م والتي تضم مسجداً وغرفاً وسبيلين قبلي وشرقي وتربة دفن فيها اثر وفاته عام ١٥٧٤ م / ٩٨٢ هـ •

أما الوالي درويش باشا ، ففي واحد من أهم وأقدم الخانات التي بناها كخان الحرير عام ١٥٧٣ ـ ٧٤ م / ٩٨١ هـ في المدينة القديمة ضمن الأسوار ، رأينا في سقطه الترتيب الشامي المعتاد : باحة سماوية كبيرة مربعة الشكل ، محاطة برواق ذي أقواس ، تنفتح برواق ذي أقواس ، تنفتح عليه المحلات والاسطبلات ، بينما يخصص الطابق الذي يعلوه للنوم، كذلك قام الوالي درويش باشا أيضاً ، ببناء حمام داخل السور عرف بحمام القيشاني عام ١٥٧٣ ـ ٧٤ م / ٩٨١هـ وبنى خارج السور مجمعاً عمرانياً وجامعاً ضخماً يتميز بقاشانيه الجميل في بداية حي القنوات ، مع تربة له ومدرسة فوق الساباط وسبيل ينهل منه الناس والحجاج وميضأة ، إن هذا النمط من التزيين أتى مع العثمانيين ، حيث زرع فن من فنون مدينة استانبول في دمشق • وهكذا أخذ يتأكد ظهور طراز معماري جديد في نسيج دمشق العمراني ، إذ أن المسجد العثماني مصمم من حرم مربع تعلوه قبة نصف كروية محمولة على مثلثات كروية ، مع رواق واحد مغطى في الأمام أو أكثر ، مع مئذنة واحدة يتم الدخول الى المسجد من تحتها ، أو أكثر، تتميز بجذع متعدد الأضلاع كالدائرة ورأس مخروطي ، فلاحظنا إضافة لما سبق مسجد باب الكنيسة ومئذنته الشهيرة التي بناها التاجر علاء الدين بن الحجيج قبل عام ١٥٨٢ م / ٩٩٠ هـ • أما التكية المولوية فقد بنيت الى الغرب من جامع دنكز عام ١٥٨٥ م / ٩٩٣ هـ والى الشرق من التكية السليمانية •

ومما يجدر ذكره ، أن السلطان العثماني أصبح حامي الحرمين الشريفين، لذلك فقد أبدى اهتماماً خاصاً بالحج الى مكة نتيجة الدور المتزايد الذي أخذ يلعبه طريق الحج الشامي منذ بداية العصر العثماني • فمع ضم بلاد الشام للامبراطورية العثمانية ومع توسعها في جنوب شرق أوربا وانتشار الاسلام فيها، أصبحت قافلة الحج الشامي واحدة من أهم قافلتين للحج في ذلك الوقت، وأضحت

تضم الحجاج من الشام والأناضول والبلقان بالاضافة الى حجاج العراق وآسيا الوسطى ، مما كان يعني عملياً تجمع حوالي ٢٠ ـ ٦٠ ألف حاج سنوياً في دمشق. وقد كان عبور هذا العدد الضخم خلال بلاد الشام من أقصاها الى أقصاها . والاقامة في المدن الواقعة على الطريق وخاصة دمشق التي كان يتجمع فيها جميع هؤلاء ومن ثم ينطلقون معاً ، يؤدي الى تنشيط الحياة التجارية خلال عدة شهور في كل عام . وبالفعل فان قافلة الحج الشامي كانت قافلة للتجارة أيضاً ، إذ كان بعض الحجاج يعمدون الى ممارسة التجارة في الطريق لتغطية نفقاته ، وهكذا وجدنا أن بضائع البلقان والأناضول وآسيا الوسطى تتجمع في دمشق ، حيث يتم تداول بعضها ، بينما يتابع بعضها الآخر طريقه الى الحجاز ، ويتكرر الأمر مع بضائع الحجاز والشام في طريق العودة الى الأناضول والبلقان وآسيا الوسطى . ومن الطبيعي أن تستفيد جميع المدن الواقعة على هذا الطريق من قافلة الحج الشامي ، وبشكل خاص دمشق ، فقد تأثرت البنية العمرانية لدمشق كثيراً باتجاه طريق الحج الذي تسلكه القافلة بالتوسع المستمر نحو الجنوب . إن هذا السيل المتدفق السنوي المتكرر جلب نشاطاً تجارياً كثيفاً ، وكان الحجاج ينتهزون فرصة بقائهم في هذه المحطة العمرانية للتهيؤ لعبور الصحراء ، لذلك كانوا بحاجة لشراء الدواب من سوق الخيل وكذلك مواد التخييم ، وعليهم أن يتمونوا بما يبقى لديهم لثلاثة أشهر من الزاد . وفي اللحظة الحاسمة كان على باشا دمشق ، أي الوالي الذي حمل لقب أمير الحج ترؤس قافلة الحج الرسمية مرافقاً المحمل الشريف ، وعليه أن يعبر طريقه الى المدن المقدسة بحماسة الجيش. وفي طريق العودة كانت دمشق أيضاً أول مركز عمراني هام يستريحون فيه مطولا، فكان الحجاج يبيعون فيه كما أسلفنا ما اشتروه من الجزيرة العربية سواء القهوة أم العبيد .

وكان لدمشق أيضاً دور كبير في إغاثة الحجيج ومساعدته عندما يتعرض للسيل الشديد أو الغرق أو عندما يتعرض لأية أزمات أخرى .

ان هذا السير الى الجنوب والعودة منه الى الشمال ، ساعد في تطور حي جديد قرب السهول خارج باب الجابية . هذا الحي كان حي القوافل ، حيث تجد هناك مختلف أنواع الأدوات ، الى جانب التموين اللازم في الأسواق ، جنباً الى

جنب مع الباعة المتجولين والحدادين وبائعي الجلود . لقد أصبح اسم هذه المنطقة بل الحي : السنانية ، نسبة للجامع الكبير* والمجمع العمراني الذي بناه الوزير العظيم سنان باشا والي الشام بين سنة ١٥٨٦ ـ ٩١ م / ٩٩٤ ـ ٩٩ هـ . يتميز هذا الجامع بعناصره المعمارية وبوابته المقرنصة ومنارته المغطاة بالقاشاني المزجج الأخضر والتي يمكن رؤيتها وتمييزها من مسافة بعيدة جداً . أما المجمع فقد ضم حمام السنانية ومكتب سنان باشا لتعليم القرآن الكريم ، وسبيلا ، الى جانب خان / قيسارية تحتوي على ٣٩ مخزن علوي وسفلي واصطبل كبير في السوق المعروف بالبزورية ، الى جانب سوق كبير يحتوي على ٧٤ دكاناً بطاقات عاليات مع ٣٤ حجرة من الحجرات العاديات ، بالاضافة الى دكاكين أخرى ومخزن وأرض (حوش) الى جنوب الجامع أصبحت تعرف لاحقاً : بسوق السنانية .

لقد كان هذا السوق منشأة جريئة التصميم ، بديعة الشكل ، تمتد نحو الجنوب ١٠٥ أمتار وتقوم على ثمانية عشر قوساً مدببة ومنخفضة .

لقد أخذ أهم تطور عمراني لدمشق في العصر العثماني يتطور ؛ ألا وهو الامتداد الخطي لدمشق عبر ما دعي بالميدان ، بأقسامه الثلاثة : التحتاني والوسطاني والفوقاني ، الذي جعل دمشق تمتد حتى بوابة الله والتي حددت أقصى الحدود الجنوبية للمدينة حيث تتناوب سلسلة من المستودعات عرفت بالبوايك والأوابد المملوكية والعثمانية دون أي انفصال بينها لمسافة ثلاث كيلومترات . نلاحظ في هذه الفترة انتهاء بناء سوق المرادية سنة ١٥٩٧ م / ١٠٠٥ هـ ، وبناء مكتب الحاج حسن التذكرجي عام ١٥٩٧ م / ١٠٠٥ هـ أيضاً ، وبناء جامع سياغوش باشا عام ١٦١٧ م / ١٠٢٧ هـ في منطقة الشاغور ، وبناء حمام البكري عام ١٦١٧ ـ ١٨ م / ١٠٢٧ هـ في منطقة القيمرية ، ولاحظنا بناء مسجد أبي بن كعب خارج باب شرقي عام ١٦٢٠ م / ١٠٣٠ هـ أما تكية العسالي التي بناها الوالي كوجك أحمد باشا في فترة ولايته الثالثة للشام عام ١٦٣٥ م / ١٠٤٥ هـ ، فكانت خارج بوابة الله على طريق الحج . ومن الجدير أن

★ والذي بني عام ١٥٨٦ م / ٩٩٥ هـ .

نلاحظ تجديد مئذنة جامع المعلق بعدانهدام ثلثها من الصاعقة الربانية عام ١٦٤٨ م / ١٠٥٨ هـ أيام محمد باشاكافل الممالك الشامية ، وكذلك تجديد جامع نبرويز بن عبدالله عام ١٦٥٩ م /١٠٦٩ هـ ، وتجديد مئذنة جامع الجوزة في العقيبة عام ١٦٧٦ م ١٠٨٧ هـ ٠كذلك بناء خان الخضيرية في محلة القطانين قبل عام ١٦٨٢ م / ١٠٩٣ هـولاحظنا في سوق ساروجة ، بناء جامع محمد بندق عام ١٦٨٩ م / ١١٠٠ هـ ،أما الشيخ مراد بن علي البخاري النقشبندي ، فقد بنى عام ١٦٩٦ ـ ٩٧ م / ١١٠٨ هـ المدرسة المرادية الجوانية الكبرى وكانت بالقرب من سوق المردية الذي بناه الوزير مراد باشا في باب البريد ، وكانت المدرسة تشتمل على ٥٢ غرفة ومكتبة عظيمة ٠ كذلك بنى الشيخ المدرسة المرادية البرانية التي في بيته في سوق ساروجة وبنى معها مسجداً، وتتألف من باحة سماوية مستطيلة تحيط بها ثلاثون غرفة ، وهكذا نلاحظ أهمية حي سوق ساروجة الذي تكاملت بنيته العمرانية وسكنه كبار القوم والرسميين الأتراك لدرجة دعي معها باستانبول الصغيرة وأصبح حياً متميزاً ٠ كذلك أخذ حي القنوات بتأكيد شخصيته العمرانية المتميزة ، فأصبح حي الذوات وبني فيه حمام ملكة الشهير عام ١٧٢٣ م/١١٣٦هـ وكذلك جامع العجلوني وجامع العداس٠

ان هذه المشيدات الكبيرة الدينية منها والمدنية للفترة العثمانية،بنيت خارج الأسوار مما يؤكد انتشار المدينة خارج أسوار دمشق القديمة، وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الجامع الأموي الكبير لم يعد المركز الوحيد لتجمع المجتمع الاسلامي في المدينة ، رغم أنه مركزها الأساسي التقليدي ٠

ومع تقدم المدفعية ، أصبحت التحصينات القديمة لدمشق بالية ، وبدأت قلعة دمشق تفقد أهميتها ٠ وقلل السلام الذي ساد أرجاء الامبراطورية من قيمة الأسوار المحيطة بالمدينة ، فبدأ الناس بغزوها وتشييد المساكن فوقها ، بينما أصبح الخندق مقلباً للقمامة ،مما استدعى ردمه فيما بعد ونشوء أسواق فوقه ٠ كذلك ظهرت أعمال الناس الخيرية في انشاء السبلان والمدارس والزوايا ٠

وفي أوائل آذار عام ١٧٢٥ م / ١١٣٨ هـ عيّن اسماعيل باشا العظم والياً على دمشق، وكان أول والٍ من آل العظم يعين على دمشق ، تلاه ولاة آخرون من الأسرة نفسها في دمشق وغيرها ٠ كان ظهور آل العظم في هذه الفترة كولاة ، جزءاً من ظاهرة هامة عمت كثيراً من الولايات العربية في القرن الثامن عشر

كذلك شهدت بلاد الشام في هذه الأثناء ، تطوراً هاماً يتعلق بانتقال أمارة الحج الى دمشق ، وتعيين ولاة الشام باستمرار لهذا المنصب منذ عام ١٧٠٨ - ٩ م / ١١٢٠ هـ وحتى نهاية القرن الثامن عشر ٠

وقد نتج عن نقل مركز أمارة الحج الى دمشق ، وعن تكليف ولاة الشام بهذا الأمر باستمرار ، تطورات هامة ، تركت آثارها على تاريخ بلاد الشام بأكملها ، ان أبقيت عليهم مسؤلية أمارة الحج بسبب كثرة اعتداء البدو على الحجاج ، وذلك لدرئها لأن سمعة السلطان كحام للحرمين الشريفين وبالتالي لقافلة الحج ستتأثر نتيجة لذلك ٠ ولقد نتج عن تعين ولاة الشام لمنصب أمير الحج الشامي تعينهم عن دمشق لفترة طويلة سواء في الدورة أم في الجردة ٠ وكانت العادة أن يأتي أمير الحج ، حاكم الصنجق مع قواته الى قبة الحج ، الواقعة جنوبي حي الميدان بدمشق ،خارج باب الله لتسلم قيادة قافلة الحج ٠

وأهم أعمال اسماعيل باشا العظم العمرانية ، بناؤه المدرسة التي في سوق الخياطين والتي تعرف بمدرسة اسماعيل باشا العظم عام ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ الى جانب حمام في سوق الخياطين ، وبنى أيضاً عام ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ حماماً في الشارع المستقيم عرف فيما بعد بحمام حي الخراب ٠

أما سليمان باشا العظم فقد بنى خلال فترة ولايته الأولى خاناً شهيراً عرف باسم خان سليمان باشا أو خان الحماصنة في سوق العبي سنة ١٧٣٢ م / ١١٤٥ هـ وذلك بمسقط أفقي معدل ، اذ أصبح الفراغ المركزي أصغر وتمت تغطيته بقبتين كبيرتين محمولتين على مثلثات كروية ، وأصبحت البضائع محمية من تقلب عوامل الطقس ٠ كان هذا نمطاً جديداً من البناء ، ودمشقياً بشكل خاص. كذلك بنى مدرسة عرفت باسم مدرسة سليمان باشا العظم أو السليمانية الجوانية سنة ١٧٣٧ ٠ أما في ضاحية الصالحية في هذه الفترة فقد بني جامع الشيخ عبد الغني النابلسي المتصوف الشهير ، مكان بيته ، الذي يحوي قاعته الشهيرة وقصره والحمام ، عام ١٧٣٣ م / ١١٤٦ هـ ،أضف الى ذلك أن فتحي أفندي الدفتري، أي الدفتردار ، المشرف على حسابات الولاية أمر في عام ١٧٤٢ م / ١١٥٥ هـ في تعمير طريق الصالحية ، فقلب بلاطه وعمر صفته وأصلح حاله مع الناس ورمم الجامع الأموي عام ١٧٤٣ - ٤٤ م / ١١٥٦ هـ ، وبنى مدرسة في القيمرية عرفت باسم المدرسة الفتحية عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ ، ثم تلاها ببناء حمام في الميدان باسم حمام فتحي عام ١٧٤٥ م / ١١٥٨ هـ ، وكذلك القهوة ٠ ومن أعظم أعماله

تجديده لمنارتي التكية السليمانية التي في المرجة ، وذلك بعد سقوطهما أيام الزلزلة فأعيدتا أحسن مما كانتا ، وله غير ذلك ٠

أما سليمان باشا في ولايته الثانية ، ففي أوائل شهر صفر الخير من عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ جاء خبر عن الحج الشريف ، بأنه غرق في الحسا قرب القطرانة ٠٠ فاستغاثوا بحضرة سليمان باشا العظم والي الشام وأمير الحج ، فحالا نهض وأخذ معه جماعة وذهب نحو مرحلة ، وقد خاطر هو وجماعته ، ثم غاب يوماً وليلة بعدما جدّوا في طلبه ، واذا هو قادم ومعه الأحمال لم تنقص ولا ذرة ثم ناداهم وسلمهم الى أصحابهم ، ولم يدنس حجه بشيء ٠ وقد عدّوا هذه المنقبة لمثله ،من الهمم العالية والمروءة السامية ٠

وفي يوم الأحد غرة جمادى الأولى عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ شرع حضرة سليمان باشا العظم في تعمير وترميم نهر القنوات ، وجعل جميع المصارف من ماله ، فأمر بقطع بعض الصخر عن طريقها ، وبتشييد أركانها، وإصلاح مافسد منها ورفع جدرانها وبضبطها ضبطاً جيداً ، وباصلاح فروض مستحقيها على وجه الحق ، فكانت هذه العمارة والضبط ما سبقه اليه أحد منذ عهد إصلاحها من أيام التيمور لما أصلحت بعده ، وقد تمت عمارته في برهة خمسة عشر يوماً أول مربعانية الصيف ، ولما تم ، مر باطلاق النهر فكان إطلاقه على أهل دمشق فرحة من أبهج الفرج ، ويوم مثل يوم الزحام ٠

بعد ذلك ، تولى أسعد باشا العظم ولاية الشام في ظروف صعبة ، فبسط النظام والأمن في المدينة والقفار حتى هابته العشائر البدية فلم تجرؤ على الاعتداء على قافلة الحج الشامي طوال عهده ،الذي بدأه باحتلال قلعة دمشق من اليرلية في ١٧ آذار ١٧٤٦ م / ٢٢ صفر ١١٥٩هـ وكانت قوة اليرلية الرئيسية في الميدان، وبعضها في سوق ساروجة ، فخدعهم أسعد باشا بمهاجمة ساروجة والتفت بعد ذلك الى إخضاع الميدان حيث يوجد زعيم الزرب ، وهكذا أصاب الذعر يرلية هذا الحي بعد نجاح أسعد باشا في هجومه على ساروجة ، فهرب الأشقياء قبل احتدام القتال ، ونهب عسكر أسعد باشا حوالي خمسمائة دار وهدموا بعضها ، ورغم الفوضى خلال هذه العملية فقد سر الدمشقيون من عمله ٠

ثم التفت الى البناء ، فبنى أول الأمر في عام ١٧٤٩ ـ ٥٠ م / ١١٦٣ هـ قصره الشهير في البزورية ، وفي ١٤ شوال قبل رحيله الى الحج بثلاثة أيام من هذه

السنة انتهت عمارة دار الباشا، التي هي لحرمه ونقل حرمه إليها. ولم يكن قصره مجرد بناء عادي ، قام به أحد الولاة العاديين . إذ لم تشهد الشام في العهد العثماني قصراً لوالٍ محلي بمثل هذه الضخامة ، حتى حسين ناظم باشا ، وبقي قصر أسعد باشا بدون مثيل بين أبنية الولاة العثمانيين . ويدل بناؤه على مقدار النفوذ الذي بلغه أسعد باشا مع أسرته في الشام بعد أن أمضى في حكمها حوالي أربع عشرة سنة .

ثم أمر في عام ١٧٤٩ م / ١١٦٣ هـ حضرة الوزير أسعد باشا العظم ، متولي الجامع الأموي الشيخ ابراهيم الجباوي السعدي بأن يصلح أحوال الجامع المذكور ويتفقد مصالحه ، فحالاً باشروا بترميم المئذنة الغربية وأزالوا ما فيها من الأحجار العاطلة ، وأزالوا ماه من الحصر والطنافس العتق ، وفرشوه فرشاً جديداً بهمة حضرة الباشا . ثم جدد ووسع عام ١٧٥٠ م / ١١٦٣ هـ مدرسة أبيه اسماعيل باشا التي في سوق الخياطين الحجرات الفوقانية ، وجعل في قبليها جامعاً وخطبة، ورتب أجزاء من القرآن وشوربة وزيت وغير ذلك ؛ ثم بدأ بعدها ببناء قيساريته الشهيرة التي تعرف بخان أسعد باشا في سوق البزوريين سنة ١٧٥٢ ــ ٥٣ م / ١١٦٦ هـ وهو من أهم خانات دمشق ، نموذج معماري مسقطه الأفقي مربع الشكل ، مغطى بثماني قباب متوسطة الحجم تحملها أربعة أعمدة حجرية بواسطة مثلثات كروية . ثم التفت ثانية إلى ترميم الجامع الأموي عام ١٧٥٤ م/ ١١٦٨ هـ واشترى طنافس بأربعة أكياس . وتابع عام ١٧٥٥ م / ١١٦٩ هـ ترميمات أخرى فأمر بترميم وإصلاح جامع الياغوشية الذي تحت القلعة . ومن الجدير بالذكر أن المقاهي قد ازداد عددها في المدينة بشكل ملحوظ ، فلاحظنا عام ١٧٥٤ م / ١١٦٨ هـ قهوة سوق الخيل التي صاحبها درويش آغا ، وفي أول رجب عام ١٧٥٥ م / ١١٦٩ هـ تمت قهوة الشاغور التي هي مقابلة للشيخ السروجي. وفي العام نفسه عمرت أيضاً قهوتين بباب السريجة وقهوة أمام باب المصلى . كذلك لاحظنا قبل عام ١٧٥٦ م / ١١٧٠ هـ خان السيد ، قبالة جامع المعلق خارج السور وخان بني الناشف قرب جامع درويش باشا ، وكذلك قبل عام ١٧٥٧م / ١١٧١ هـ خان الدقاقين جنوب البزورية .

وهنا لا بد لنا من وقفة مطولة أمام أهم الأعمال التي قام بها العثمانيون قاطبة في دمشق ألا وهو إعادة بناء الجامع الأموي بالذات ، إثر زلزال دمشق المروع

عام ١٧٠٨ م / ١١٧٢ هـ الذي بدأ في ليلة الثلاثاء ثامن ربيع الأول الموافق شهر تشرين الثاني من هذه السنة في الثلث الأخير من الليل والمؤذنون في المآذن يشتغلون المراسلة ، صارت زلزلة خفيفة ، وتبعها ثانية ثم ثالثة زلزلت منها دمشق زلزالاً شديداً حسبت أهل دمشق أن القيامة قد قامت ، فتهدمت رؤوس غالب مآذن دمشق ودور كثيرة وجوامع وأماكن لا تحصى ، حتى قبة النصر التي بأعلى جبل قاسيون زلزلتها وأرمت نصفها ... واستمرت الى سبع وعشرين ليلة . وفي ليلة الاثنين رابع ربيع الثاني ، خامس كانون الأول في الساعة الخامسة (عربي) صارت زلزلة عظيمة أعظم من الأولى بدرجات ، وقد صارت معها رجة مهولة أسقطت بقية المآذن وأرمت قبة الجامع الأموي الكبيرة والرواق الشمالي جميعه والعواميد تكسرت ، والحائط الشرقي سقط الى الأرض والمنارة الشرقية هدمت ثلث الحرم ، مع مدرسة الكلاسة وباب البريد وأبراج القلعة ، وغالب دور دمشق ... ولقد حصل هذا الزلزال في عهد الوالي عبدالله باشا الشتجي ؛ وفي عهد الوالي محمد باشا الشالك ، يوم السبت ٢٢ رجب ١٧٥٨ م / ١١٧٢ هـ جاء قبجي الدولة العلية سبانخ زاده لأجل الكشف على الجامع الأموي وعمارة قبة وجهته الشمالية ومآذنه المهدومة في الزلزال ومعه باش معماري وفعلة لأجل مباشرة تعمير الجامع المذكور .

وفي عهد العالي عثمان باشا ١٥٧٩ م /١١٧٣ هـ بوشر بعمارة الجامع الأموي ، فدخلته المعمارية والنجارون والدهانون والحجارة ، وبذلوا الهمة بتعمير القبة والجهة الشرقية وما سقط من المآذن وبتحسين جميعه. وكان الجامع لا يفتح الا في وقت الصلاة فقط ، والعمارة أيضاً مشتلة في القلعة وترميمها . وقد تمت عمارة القلعة في شهر رجب عام ١٧٥٩ م / ١١٧٣ هـ ، وتم تعمير الجامع الأموي والجهة الشمالية والقبة وترميم المنائر وتحسينه في شهر رمضان سنة ١٧٥٩ م/ ١١٧٣ هـ .

وفي سنة ١٧٦٣ ــ ٦٤ م / ١١٧٧ هـ بنيت المدرسة المرادية الجوانية الصغرى في منطقة باب البريد . وفي سنة ١٧٦٤ ــ ٦٥ م / ١١٧٨ في عهد الوالي الوزير المعظم الحاج صادق عثمان باشا ، تم تجديد قاعة الشيخ عبدالغني النابلسي بعد انهدامها ، كذلك في عام ١٧٦٥ ــ ٦٦ م / ١١٧٩ هـ تم اعادة بناء منارة المدرسة المرادية البرانية وتم تجديد جامع وسبيل محمد بندق عام ١٧٦٨ م

/ ١١٨٢ هـ ٠ وفي عام ١٧٦٩ م / ١١٨٣ هـ اشترى عثمان باشا والي الشام ماء من القنوات وقام ببناء قناة داخل صحن الجامع الشريف الأموي وجلب لها الماء من نهر القنوات ، وعمر البحرة التي في وسط الجامع في شهر رمضان وصرف في ذلك أموالا كثيرة ، وصار بها فرج للناس عند انقطاع نهر بانياس ، كذلك صنع كسوة جديدة للمحل ٠

أما آل العظم الذين خبا دورهم لفترة ما ، فقد استعادوه مرة أخرى أيام ولاية محمد باشا العظم ، حفيد اسماعيل باشا ، حين عينته الدولة العلية والياً على الشام ١٧٧١ م / ١١٨٥ هـ ، فكان أول من تولاها مرة أخرى من آل العظم بعد نقل أسعد باشا منها ، وأقام بها والياً حتى وفاته عام ١٧٨٢ ــ ٨٣ م / ١١٩٧ هـ ٠ لقد كانت أيامه مواسم أفراح ، وقد عمر في دمشق أبنية كثيرة وقرب اليه العلماء والأدباء وراجت في أيامه سوق الشعر ٠ وخلال الفترة الثانية من ولايته ، ساعد في بناء مئذنة جامع الشيخ عبد الغني النابلسي عام ١٧٧٣ ــ ٧٤ م / ١١٨٧ هـ ، وفي عام ١٧٧٦ ــ ٧٧ م / ١١٩٠ هـ بنى حافظ العظم غربي قصر أسعد باشا وشرقي بيت عبدالله باشا العظم بيتاً له ٠ أما مدرسته التي بدأ ببنائها عام ١٧٧٩ م / ١١٩٣ هـ فسيزيد فيها ابنه عبدالله باشا وستشتهر باسمه فيما بعد ٠ اذ أوقف هذه المدرسة عبدالله بك ابن الوزير محمد باشا العظم والي الشام وأمير الحج ابن مصطفى بك العظم؛ أوقفها عن والده بالوكالة عنه ، وكانت قبل ذلك قاعة غربية من دار الواقف الوكيل التي تحمل بعض زخارفها كتابة تؤرخ عام ١٧٨٠ ــ ٨١ م / ١١٩٥ هـ ، مع مساكن تابعة لها داخلها وخارجها ، فهدم تلك المساكن وبنى المدرسة المذكورة من ماله ، وجعل لها باباً خاصاً بها قنطرته من حجر ، وجعل الباب مصفحاً بالنحاس ، وجعل لها شبابيك مطلة على الزقاق وجعل في الأسفل حجرات وجامعاً وبنى فوقه أيضاً حجرات بقبو ، وجعل في الأعلى حجرات أيضاً ، وجعل القصر الذي بين الطبقة الثانية والثالثة الراكب على الطريق خاصاً بالمدرس الذي يكون في المدرسة ٠

وفي عام ١٧٨٠ ــ ٨١ م / ١١٩٥ هـ عمر محمد باشا العظم سوقاً في باب القلعة من عند سوق الأروام الى فرن الكعك والقناية ، أكثر من مائة وعشرين دكاناً ، وأمر التجار والبازركان ، أن يأخذ كل واحد منهم دكاناً ويضع فيها البضائع

الحسنة ، وصار سوقاً ما له مثيل ، وعمره في قفا السوق سرايا ما بني في الشام أحسن منها ، هذا السوق هو السوق الجديد الذي سيعرف فيما بعد بسوق الحميدية .

أما في عام ١٧٩٤ م / ١٢٠٨ هـ فقدأنشىء سبيل على الجهة الشرقية من جدار جامع الورد القبلي في سوق ساروجة .

وفي عام ١٧٩٦ م / ١٢١١ هـ وخلال فترة الولاية الأولى لعبدالله باشا العظم بنيت الزاوية السعدية الجوانية شرقي القيمرية ، تضم جامعاً بمنارة وزاوية .

وفي عام ١٧٩٧ م / ١٢١٢ هـ بني بيت سعيد أفندي القوتلي ، شمالي الجامع الأموي ، والذي سيصبح مقر القنصلية البريطانية فيما بعد ، أما بيت مراد أفندي القوتلي فلقد بني في نفس الفترة في زقاق العواميد .

وفي عام ١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ بني بيت نظام في منطقة مئذنة الشحم .

* * *

أضواء تراثية على مساجد دمشق

علي القيّم ★

١ ـ ترميمات الجامع الأموي الكبير :

يعدّ الجامع الأموي الكبير بدمشق من أهم المنشآت المعمارية والدينية الهامة في الوطن العربي والعالم الاسلامي ، فبناء هذا الجامع في بيئته العربية التي اختزنت الحضارة الكلاسيكية لألف عام هو أول تشخيص للعقيدة الاسلامية، متمثل في فن العمارة والتصوير الوليدين ، وهو بداية ناضجة لفن تلمس أبعاده أولاً من القيم الثقافية والأدبية للعقيدة الجديدة ، وتحقق بفضل فنانين ومعماريين عرب ، دخل الايمان الى قلوبهم وتفتحت نزعة الأصالة في أعمالهم ، رافضين ذلك التشكل الكاذب لفن غريب ، كان قد ظهر قسراً بأمر السلطة البيزنطية المحتلة .

بعد تحرير دمشق من الحكم البيزنطي سنة ١٤هـ / ٦٣٥ م . وقع اختيار المسلمين على البقعة التي يحتلها الجامع الأموي اليوم ليقيموا فيها صلواتهم، وهي أرض مقدسة ، كرست للعبادة منذ آلاف السنين ، أقيم فيها معبد للاله « حدد » الآرامي ، في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، ثم شيد في العهد الروماني معبد الاله « جوبيتر » ويبدو من آثار هذا المعبد الباقية الى الآن ، إنه يحتل مساحة واسعة ، وكان له سور خارجي تبلغ أطواله (٣٨٠×٣٠٠) متراً ، وكان المعبد الحقيقي مشيداً داخل هذا السور حيث أقيم الجامع الأموي فيما بعد .

★ باحث في أعمال التنقيب والآثار والمتاحف ـ عضو اللجنة العليا لاصلاح وتطوير الجامع الأموي بدمشق . معاون وزير الثقافة .

المسجد الفريد :

وبعد انتصار المسيحية على الوثنية أنشأ الامبراطور « تيودوسيوس » كنيسة داخل المعبد على اسم القديس يوحنا المعمدان ، وبعد الفتح الاسلامي اقتسم المسلمون هذا المعبد الكبير مع المسيحيين ليقيموا الصلوات فيه ، وبقي المسلمون والمسيحيون يؤدون فرائض دينهم متجاورين حوالي سبعين عاماً ، حتى عام ٨٦هـ ـ ٧٠٥ م حين تسلم سدة الخلافة الأموية الوليد بن عبد الملك حيث جرت مفاوضات مع الرعايا المسيحيين لكي يتنازلوا عن نصف المعبد الذي أقاموا عليه كنيستهم ، وتم ذلك مقابل بناء كنائس جديدة في آماكن مختلفة من مدينة دمشق · وتم للوليد ما أراد ، وهدم ما كان داخل جدران المعبد من منشآت رومانية وبيزنطية ، ثم شيد الجامع وفق مخطط جديد مبتكر يتجاوب مع شعائر الدين الاسلامي ، وأغراض الحياة العامة ، فجاء فريداً في هندسته ، لم يبن على نسقه في العهود السابقة أي بناء آخر ووضعت باشادته مبادىء هندسة الجوامع الكبرى التي شيدت بعده في العالم الاسلامي ، وظل المعماريون عدة قرون يستوحون منه وينسجون على منواله ·

لقد استغرق بناء الجامع الأموي قرابة عشر سنوات (٧٠٥ ـ ٧١٥) م وقد وصف الجامع عدد كبير من المؤرخين والعلماء العرب والأجانب ، فكان في غاية الابداع والروعة والجمال وعُدّ بين أعاجيب الدنيا ، وقد وضع الفن الاسلامي والعمارة الاسلامية مبادئهما الأولى فيه ، يقول عنه الفرنسي سوفاجيه « أول نجاح معماري في الاسلام » وقد حافظ على عظمة بنائه وروعة زخارفه قرابة ثلاثة قرون ونصف ، ثم تعرض بعد ذلك للحرائق والزلازل ، وكان في كل مرة يصاب فيها بجهة من جهاته يفقد شيئاً من بهائه ورونقه حتى وصل الى ما هو عليه الآن ·

نزهة الناظرين :

إن حجم الجهد والتكاليف التي أنفقها الوليد في بناء الجامع الأموي الكبير والتي ذكرها المؤرخون تؤكد أن هذا الجهد لا يمكن أن يقتصر على تزيين الجامع ، بل على انشائه أيضاً بحلة جديدة مستفيداً من بعض جدران وأروقة

المعبد فقط ٠٠ لقد استعمل الوليد في انشاءاته الجديدة الحجر المنحوت الذي كان قائماً في سور المعبد الخارجي ،ويؤكدذلك العلامات الاغريقية التي كانت على بعض الأحجار والمتراكمة في البرجين الى يومنا هذا ٠

يقول المؤرخون : لقد أنفق الوليد على بناء الجامع الأموال الطائلة حتى جعله نزهة للناظرين، وأنفق عليه أربعمائة صندوق ، كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، ويقال إن الوليد أنفق عليه خراج المملكة سبع سنين ، وحملت إليه الحسابات بما أنفق عليه على ثمانية عشر بعيراً ،فأمر باحراقها ولم ينظر فيها ، وقال : هو شيء أخرجناه لله فلم نتبعه ٠

وقال الجاحظ : « قال أهل السلف:ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً الى الجنة من أهل دمشق ، لما يرونه من حسن مسجدهم » ٠ وقال في كتابه الحيوان : « وقول الدمشقيين ما تأملنا قط مسجدنا ، وتركيب محرابنا ، وقبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل ، واستخرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها ، وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندري أجواهر مقطعاته أكرم من الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء » ٠

ويصف ابن عساكر الجامع بقوله : « وأفضيت الى جامعه فشاهدت ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ، ولا الرائي أن يعرفه ٠ وجملته أن بكر الدهر ، ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغريبة الأوقات ، ولقد أبقت به بنو أمية ذكراً يدرس ، وخلفت به أثراً لا يخفى ولا يدرس » ٠

أشهرها حسناً :

ويصف ابن جبير زينة الجامع الأموي فيقول : « هو من أشهر جوامع الاسلام حسناً واتقان بناء ، وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ، ومن عجيب شأنه أن لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف » ٠

ويضيف : « وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص المذهبة مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ،

فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع ثلاث قباب المتصلة بها ، ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة ، يتقد ذهباً كله » .

ولم يكن الجامع الأموي الكبير مصلى فحسب ، بل كان بجلال بنائه وأهميته في دمشق عاصمة الامبراطورية الأموية العربية ، مركزاً لفعاليات مختلفة ، ومن أهم هذه الفعاليات، الفعاليات السياسية، ففي هذا الصرح المنيف والرائع بزخارفه كان الخليفة يستقبل عماله ورسله ويقاضي الناس ويفصل في الأمور الجلل .

ويتحدث ابن جبير عن الجامع في أنه كان أيضاً مجمعاً للناس يتحدثون ويتسامرون في صحنه فيقول « ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، من باب جيرون الى باب البريد ، فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، ولا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك ، وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي ، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرون من رمضان العظيم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم » .

وكان المسجد الأموي الكبير بمثابة مدرسة علم وتدريس ، وفيه اعتكف الامام الغزالي وكتب بعض كتبه وقام بالتدريس، ولا زالت هذه الزاوية موجودة حتى اليوم ويقوم شيخ الجامع باعطاء الدروس الدينية فيها .

المخطط والأقسام :

شكل الجامع الأموي مستطيل الشكل أبعاده (٩٧×١٥٦) متراً ، يحتل جانبه الشمالي صحن مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة ، ويحتل قسمه الجنوبي الحرم أو المصلى ، وللجامع ثلاثة أبواب رئيسية تؤدي الى الصحن ، تصله بجهات المدينة الثلاث ، الشرقية والغربية والشمالية . أما أقسامه وعناصره المعمارية فتتألف من:

١ ـ **السور والأبواب :** سور الجامع مبني بالحجارة الكلسية ، مداميك كبيرة الحجم ، مزودة بدعائم جدارية ، وهو من العهد الروماني ، إلا أن أكثر أقسامه جددت في العهود العربية .

٢ ـ **الصحن والأروقة** : الصحن مستطيل مبلط بالحجر ، وقد جدد بلاطه في عهود متعددة وارتفعت سويته ، ثم أعيد مؤخراً الى مستواه الأصلي ، بناء على دراسات دقيقة أجريت عليه .

٣ ـ **الحرم** : يتألف من ثلاثة أروقة للقبلة ، محمولة على صفين من الأعمدة الحجرية مؤلفة من طابقين : السفلي مؤلف من قناطر كبيرة نصف دائرية والثاني يتألف من عدد مضاعف من القناطر، كما هي الحال في الأروقة المحيطة بالصحن ، ويغطي الحرم سقوف سنامية الشكل (جمالونات) صنعت من الخشب وصفحت من الخارج بالرصاص .

٤ ـ **المآذن** : كان للمعبد أربعة أبراج لم يبق منها حين تشييد الجامع سوى البرجين الجنوبيين فاتخذا مئذنتين، ثم شيدت مئذنة ثالثة الى جانب الباب الشمالي على هيئة برج مربع وهي التي عرفت فيما بعد بمئذنة العروس ، وشيدت المئذنة الشرقية فوق برج المعبد ودعيت مئذنة عيسى . **أما المئذنة** الغربية فهي أجمل المآذن ، شيدت أيضاً فوق برج المعبد .

أما فسيفساء الجامع الأموي التي غطت جميع سقوف وجدران الأروقة ، وبطون الأقواس والدهاليز والأقسام العليا من الحرم بعد ارتفاع سبعة أمتار.. فتعتبر على الرغم من زوال أكثرها ثروة فنية اسلامية لا تقدر بثمن ، وتتميز هذه الفسيفساء بمواضيعها الخالية من الصور فهي تقتصر على مشاهد الطبيعة والعمائر والزخارف النباتية والهندسية ، ويعتقد بأن لوحة الرواق الغربي تمثل نهر بردى وعلى ضفافه القصور والدارات والجسور، التي تمثل قرى جميلة تتخللها الأشجار المختلفة الأنواع ، ويحيط بها اطار من الزخارف الهندسية .

◍ ترميمات جديدة :

ان جامع بني أمية الكبير كما ذكرنا سابقاً ، لم ينجُ من مصائب الزمان ، فتعرض للحرائق والزلازل أكثر من عشر مرات خلال تاريخه الطويل ، وكان أول حريق سنة ٤٦٠ هـ / ١٦٠٧ م ودمر الحرم بكامله . فرمم في بضع سنين، ووقع الحريق الأخير سنة ١٨٩٣ م ودمر الحرم أيضاً ، ورمم أيضاً حسب الظروف والامكانات الفنية المتوافرة، ولكن مما يؤسف له أن محاولات إعادة البناء والزخارف

في كثير من الأحيان لم تكن مدروسة بشكل كاف ، لذلك جاءت بعض أعمال الاعادة والترميم لا تتناسب مطلقاً مع قيمة هذا الأثر الخالد من آثار الحضارة العربية الاسلامية ، فكان القرار الجمهوري رقم /٣٦/ تاريخ ٦/١٠/١٩٩١ الصادر عن السيد الرئيس حافظ الأسد بتشكيل لجنة مؤلفة من كبار المؤرخين والاختصاصيين والمعماريين ، أنيطت بها مهمة اصلاح وتطوير الجامع الأموي الكبير حتى يعود الى سابق عهده ، كما كان أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك ٠٠ وزودت هذه اللجنة بامكانات مادية وفنية كبيرة حتى تستطيع انجاز عملها على أكمل وجه في مدة زمنية لا تتجاوز سنتين من تاريخ صدور القرار ٠

ان هذه اللجنة تتابع أعمالها بسرعة كبيرة فمن يزر الجامع الأموي بدمشق في هذه الأيام يشاهد ورشات العمل الفنية والهندسية والمعمارية تقوم بأعمالها على قدم وساق وتصل الليل بالنهار وبخاصة انجاز الأعمال العاجلة، مثل ترميم المئذنة الغربية بشكل كامل وازالة الحظر عنها ،واكمال ترميم ميضأة الجامع وجعلها قيد الاشغال بصورة لائقة ، واتمام الاكساءات الرخامية والعمل بالسرعة الكلية على ترميم الأسقف والجمالونات وترميم قبة النسر وفق التشققات الحاصلة ، واصلاح فرن تذويب الرصاص ، وترميم المظلة الواقية في المشكية ، واعادة احياء ورشة الفسيفساء التابعة للجامع ٠ دعمها بكادر فني جيد ، ودراسة مشروع انارة جديدة للجامع وفق الطرق الحديثة ، وترميم وتزيين صالة الاستقبال ، وترميم واصلاح الآيات القرآنية والجدارية الموجودة في أقسام الجامع كافة ، وترميم اللوحات الفسيفسائية، وترويب واصلاح أرضيات الجامع بما فيها أرضيات الصحن ومشاهده ، وترميم مشهد الحسين ترميماً شاملاً بقسميه الداخلي والخارجي وفق دراسة تاريخية وفنية دقيقة ، وتتمة اكساء الرواق الغربي وجدران أسفل قبة النسر بمادة الفسيفساء حسب الرسومات القديمة وبالطرق المتبعة أصولاً ٠

ان هذه الأعمال الهامة سوف يكون لها انعكاساتها الكبيرة في اعادة المجد والرونق والحضارة والجمال الكامل الى آبدة دينية ومعمارية نادرة الوجود في تاريخ العرب والاسلام ، وفق أسس علمية ووثائق تاريخية ودراسات مستفيضة دقيقة ٠

٢ ــ مآذن دمشق : تاريخ وطراز :

تنتشر في دمشق اليوم أعداد كبيرة من المآذن القديمة والمعاصرة والحديثة، وتتوزع أساليب عمارتها في اتجاهات شتى، فمنها ما حافظت على الطابع الأصيل لخصائص العهد الذي أقيمت فيه، ومنها ما تعرضت للتجديد أو حتى البناء، الأمر الذي أدى الى تغيّر معالمها التاريخية . كلياً أو جزئياً نتيجة تهجين عناصرها المعمارية، ومنها أيضاً ما شيد في الأصل بعمارة لا تلتزم بنهج معين مما أفقدها هويتها الطرازية المحددة .. وقد تعرضت بعض المآذن الدمشقية ذات الجذور التاريخية من العهود المتلاحقة الى كثير من عمليات الترميم في حقب مختلفة، وفي كل مرة تجري عليها مثل هذه العمليات، كانت معالمها الطرازية تتبدل بحيث يصبح الناتج خليطاً مهجناً يعكس فوضوية ذلك العمل .

حول « مآذن دمشق » صدر حديثاً بدمشق دراسة ميدانية مصورة تقع في (٦٤٧) صفحة من القطع الكبير للدكتور قتيبة الشهابي، وقد قام بعمله الهام بتوزيع مآذن دمشق وفق مظهرها الخارجي (أطرزة واشتقاقات ومجموعات)، ونتيجة لتحليل مختلف الأساليب المطبقة في عمارة المآذن الدمشقية، استطاع التوصل الى ترتيبها وفق العهود والطرز مسلسلة حسب القدم منذ العهد الأموي وحتى العهد الحديث، وقد أحصى منها تسعة عشر طرازاً عمرانياً شيدت بها مآذن دمشق .

ــ لقد تميزت جذوع المآذن في العهد الأموي بالشكل المربع البسيط الخالي من العناصر التزيينية أو الزخرفية، وكانت هذه الجذوع استمراراً شكلياً لطراز الأبراج الرومانية ثم الكنسية المربعة، ومن المؤسف ألا يبقى في دمشق أي مئذنة أموية واحدة، لم تتعرض الى عوامل الترميم أو التجديد أو إعادة الاعمار في عهود مختلفة، نتيجة تعرضها للحرائق والزلازل والحروب والغزوات .. الأمر الذي بدّل كثيراً من معالمها الأصلية، أو جزئياً، وأضفى عليها مزيجاً من الطرز العمرانية، كانت تختلف باختلاف خصائص تلك العهود، غير أن بعض المآذن الأموية القليلة خارج دمشق لازالت تحتفظ بشكلها القديم تقريباً رغم تعرضها للتجديد، مثل مئذنة الجامع العمري في مدينة بصرى الشام .. وفي دمشق لم يبق فيها سوى مئذنتين أمويتين في الجامع الأموي الكبير هما مئذنة

(العروس) ومئذنة (عيسى) ، أما الثالثة المعروفة بمئذنة (قايتباي) فمن العهد المملوكي وعلى طرازه ٠

ــ لم تترك العهود التي مرت على دمشق ، منذ سقوطها في أيدي العباسيين سنة ١٣٢ هـ ــ ٧٥٠ ميلادية ، الى نشوء الدولة النورية سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م من البصمات العمرانية إلا قلة محدودة ، وفي بعض الأحيان لم تترك شيئاً على الاطلاق ، فالعهد العباسي لم يخلّف في دمشق ولا مئذنة واحدة تنسب إليه ، وكذا الأمر بالنسبة للدولة الطولونية ، والدولة الاخشيدية والدولة الفاطمية ، والمرحلة السلجوقية ، ومن العهد النوري ، هناك مئذنة الباب الشرقي التي تعود الى القرن السادس للهجرة ــ الثاني عشر للميلاد ، وهي مشيدة فوق الباب الشرقي نفسه ، وحالتها الراهنة تعكس خصائص الجذع الأيوبي المربع ، المتقشف ، الخالي من العناصر التزيينية أو الزخرفية ، وكذلك الشرفة البسيطة ، وهناك مئذنة جامع حسان التي بحالتها الراهنة مزيج من أطرزة متعددة نتيجة أعمال الترميم التي جرت عليها ٠

ــ وبحلول عام (٥٦٩ هـ ــ ١١٧٤م) استولى صلاح الدين الأيوبي على دمشق ، فانتهى بذلك العهد النوري ، وبدأ عهد الدولة الأيوبية التي خلفت وراءها تراثاً عمرانياً لا زال الكثير من آثاره قائماً الى اليوم في المدينة ، وقد تميزت عمارة المآذن خلال تلك الفترة بخصائص هي أقرب الى التقشف منها الى البذخ ، فالجذع مربع أموي الطراز ، بسيط البناء ، خال من الزخارف والتزيينات ، ويدل على ذلك المآذن العديدة التي تركت في دمشق وغيرها ، ويظهر أن انشغال الدولة الأيوبية بالحروب الصليبية وتحرير أجزاء البلاد من آثارها دفعها الى اتباع سياسة التقشف العمراني في بناء المساجد ، ومثال ذلك مئذنة المدرسة الشامية البرانية ومئذنة المدرسة الأتابكية والماردانية ، وتتميز مآذن العهد الأيوبي بأنها :

١ ــ ذات جذع مربع بسيط ومتقشف في عمارته ٠

٢ ــ شرفتها وحيدة ومربعة ٠

٣ ــ مظلتها مربعة أيضاً ٠

٤ ـ خالية من المقرنصات وبقية العناصر التزيينية والزخرفية ٠

٥ ـ ينتهي رأسها غالباً بخوذة ٠

ـ في عام (٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م) صارت دمشق ولاية مملوكية ، وبدأ فيها العهد المملوكي الذي استمر ما ينوف عن قرنين من الزمن ، كانت البلاد خلالها مسرحاً للغزوات الصليبية والمغولية ، وعلى الرغم من الصراع الذي دار بين المماليك والغزاة ، وبين المماليك أنفسهم، تميز ذلك العهد بالبصمات العمرانية الكبيرة التي خلّفها لتحكي لنا أقاصيص تنافس سلاطينهم بالبناء والانشاء والتشييد إشباعاً لرغبتهم وهواياتهم العمرانية ، وتعبيراً عن عظمة إمكانياتهم، فكثرت إقامة المآذن في العاصمة الثانية لدولتهم دمشق وفي حلب وغيرها من الديار الشامية ، وحدث في هذا العهد تطور حقيقي وهام لأشكال المآذن وعناصرها المعمارية ، والزخرفية ، فبعد أن كان الجذع الأيوبي المربع سائداً لفترة طويلة من الزمن ، بقي في هذا العهد مستمراً ، (مئذنتا جامع مسجد الأقصاب وجامع برسباي) جنباً الى جنب مع أطرزة مغايرة ، كطراز الجذع المثمن (مئذنة قايتباي) والجذع المتنوع الأضلاع (مئذنة جامع تنكز) ، كما عاد الجذع الاسطواني الى الظهور ، كذلك تعددت الشرفات في المئذنة الواحدة ، وشاع استعمال الزخارف والمقرنصات والشرفات والحشوات الهندسية والأشرطة التزيينية والكتابية والنقوش ، كما ظهرت الذروة الصنوبرية لأول مرة في دمشق (مئذنة قايتباي) ٠

وقد استمر التأثير المملوكي في بناء المآذن في الطراز المعاصر ، وسار جنباً الى جنب مع بقية الطرز الأخرى ، وكانت مئذنة جامع (لالا باشا) هي المئذنة الأولى ، وهي محاكاة لمآذن مملوكية في القاهرة ، وتفرع عن الطراز المملوكي مجموعات كثيرة نجدها في كثير من مساجد دمشق المعاصرة ٠

ـ وفي عام (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) احتل السلطان سليم الأول دمشق ، فانتهى بذلك العهد المملوكي ، وبدأ العهد العثماني ، فنشأت خلاله مشيدات عمرانية لا زالت ماثلة الى اليوم في دمشق وغيرها من مدن بلاد الشام ، وقد تميزت عمارة المآذن في ذلك العهد بطابع فريد متطور ، عن أسلوب عمارة المآذن السلجوقية فاتسمت المئذنة وليس دائماً بنحول الجذع والرشاقة والارتفاع ، كما اتسمت

بالشكل الاسطواني ، أو الشكل كثير الاطلاع الذي يجعلها أقرب الى الاسطوانة، وظهرت القلنسوة المخروطية المصفحة بالرصاص في أعلى المئذنة بديلة عن الذروة الصنوبرية التي شاعت في العهد المملوكي، ويشبه الباحثون هذه القلنسوة برأس قلم الرصاص (المبري جيداً) أو المخروط المدبب ، كما تناقص استعمال الزخارف والعناصر التزيينية الأخرى الى حد كبير إلا في بعض المآذن التي شيدت بالحجر الأبلق (ويسمونه في مصر الحجر المشهر)وهو المداميك الحجرية ذات اللونين المتناوبين (مئذنة جامع فتحي ٠ومئذنة مسجد الرفاعي) ٠ أما المقرنصات فبقيت شائعة على نطاق واسع في عدد كبير من مآذن تلك الفترة ، وقد شيدت ابان ذلك العهد بضعة مآذن على طراز العمارة المملوكية ذات الجذوع المثمنة والذروة الصنوبرية ، (مئذنة جامع مراد باشا)وقد استمر هذا الطراز في العهد العثماني أكثر بكثير من استمرار الجذوع الأيوبية المربعة فيه ، كذلك لم يكن عدد الشرفات في المآذن العثمانية ثابتاً ، فهي مفردة (مئذنتا التكية السليمانية ، ومئذنة سنان باشا وثنائية (مئذنة عيسى) في الجامع الأموي ، ولكن لم تشيد في دمشق خلال ذلك العهد ولا مئذنة بثلاث شرفات على غرار مثيلاتها في استانبول وبقية المدن التركية ، (ص ٣٢٥) وهذا ما أدى الى ما يعرف بالطراز الشامي بتأثير عثماني ، مما أعطى للمئذنة شكلاً خاصاً محدداً يميزها عن بقية المآذن المشيدة بطرز أخرى ، وتركز التغيير في الجذوع المشيدة بالمداميك الحجرية ذات اللونين المتناوبين (المعروفة بالأبلق) مما أعطاها هوية تختلف عن هوية بقية المآذن المقامة في تلك الفترة ، وقد استمر هذا الطراز حتى الخمسينات من قرننا الحالي٠

وفي حي « الأكراد » أقيمت مآذن بطابع شامي ونَفَس عثماني ، جذوعها صماء كثيرة الأضلاع يزخرفها شريط بسيط أو أكثر بلون بني أو ترابي داكن، وينتهي جذع كل مئذنة في أعلاه بشرفة كثيرة الأضلاع تستقر فوق أفاريز بديلة عن المقرنصات ويحيطها درابزين من الحديد المشغول كما تغطيها مظلة على غرارها وفوق الجميع « جوسق » كثير الأضلاع أيضاً في أعلاه قلنسوة مخروطية بنفس شكله ، وتمثل مئذنة جامع سعيد باشا شمدين ، المشيدتان في العهد العثماني المتأخر ، خصائص عمارة هذا الطراز ٠

وهكذا ـ كما نرى ـ أصبحت مآذن دمشق متباينة ومختلفة ومتنوعة الطراز والخصائص ، وهذا حصيلة المراحل التاريخية التي مرت على دمشق منذ العهد الأموي ، مما خلق تكوينات معمارية ، وأفقدوا المئذنة الدمشقية في كثير من المراحل شخصيتها المميزة وهويتها المحددة وطابعها المعين ، وكان هذا بداية لظهور الطراز الهجين ثم الطراز الحديث الذي أخذ مجراه في عمارة مآذن دمشق ، منذ بداية السبعينات من قرننا الحالي ،(مئذنة الجامع المحمدي ، ومئذنة جامع عمر بن عبدالعزيز) في حي المزة ، والطراز الحديث في العمارة هو أسلوب يعتمد على تشكيل تكوينات وعلاقات حجمية ومساحية يبدعها المصمم ويبتعد بها عن الأساليب العادية بحيث تبدو الكتلة المعمارية بمظهر جديد وفريد لا يمت الى الطرز المألوفة بصلة ، أو قد يستفيد أحياناً من بعض عناصر تلك الطرز فيستغلها بشكل محدود أو يطورها كي تبدو معها المشيدة ذات لمسات تراثية ضمن الهيكل المعماري المسطور .

ومن غير الممكن اضفاء تحديد طرازي فردي على هذه المآذن الحديثة ، لأن كل واحدة منها تمثل طرازاً قائماً بذاته ولكنها جميعاً تنطوي تحت لواء فكر معطاء وتفكير خلاق لا يخضعان لضوابط معينة ولا لأسس تراثية ولا لمنهجية تاريخية ثابتة تحد من الانطلاق نحو عالم الابداع والتطور ، وبذلك يرسم لنا الدكتور قتيبة الشهابي الركائز الأساسية لبناء المآذن في دمشق عبر التاريخ ، ويلقي الضوء على شريحة عمرانية جميلة في تراثنا العربي الاسلامي لم تتوافر لها في السابق ظروف البحث بالشكل الجدي والموثق والعلمي الذي قام به .

دمشق : علي القيّم

★ ★ ★

الدّيوان الدّمشقي

شِعرٌ نُظِمَ في دِمشقَ قديمًا وحديثًا

عبداللطيف أرناؤوط

وضحه

« الديوان الدمشقي »(١) مختارات من شعر نُظِمَ في دمشق قديماً وحديثاً . وهو من تاليف الأستاذ « محمد المصري » وقال في مقدمته : « الذي حثني ودفعني الى ولوج هذا المضار والجري فيه كثرة ما قرأت في كتب التراث وغيرها من قصائد وأشعار نُظمت في دمشق ، ولم أعثر على ديوان جامع لذلك ، أفلا ينبغي ـ والحال كذلك ـ أن ينظم شعرها في ديوان يكون عقداً يُحلّي صدرها ، وقلادة تتلألأ على نحرها ؟ » .

لذا فقد حرص المؤلف على ضبط النصوص ضبطاً وافياً ، وأضاف الى المختارات ملاحق تضمنت كشّافاً للأعلام والأماكن ، عرّف بكل عَلَم تعريفاً موجزاً يقف فيه القارىء على ما يفيده . فكان دقيقاً في عمله ، وأميناً في جمعه ، مثلما ظهرت موضوعيته فلم يتوان بالرغم من محبته لدمشق ، وهي وطنه ومسقط رأسه ، عن ذكر مقطوعات قيلت في ذمّ دمشق أو القرى التي تحيط بها ، مع أن المرء يتعصّب لوطنه ، وهي نزعة فطرية في الانسان .

إنها خطوة حميدة جميلة ، وفكرة رائعة عذبة مبتكرة ، ذلك أن جمع التراث الأدبي في موضوع معين عمل مفيد للدارسين ، وعشاق الأدب ، والنقاد . وبخاصة ما قيل في البلدان .. وصدر منذ مدة وجيزة عمل مماثل للأديب

---

١ ـ يقع « الديوان الدمشقي » في ٥٩٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع بتعاون بين دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت ، بحلة أنيقة وورق صقيل وخط واضح .

الباحث السعودي « خالد الخنين »[٢] جمع فيه ما قيل في « نجد » من أشعار سلك في ترتيبه مسلكاً آخر ، إذ رتب مادته وفق أغراض تلك الأشعار ٠٠ الا أن الأستاذ « محمد المصري » آثر أن يسلك مسلكاً آخر ، فنسّق قصائد الديوان وفق قوافيها، وهو أسلوب اعتمده السلف غالباً في تبويب الدواوين الشعرية ٠ ولكل من الأسلوبين ميزات ، فمن حسنات تبويب الشعر وفق قوافيه سهولة الرجوع اليه ، وضم القصيدة الى قافية تماثلها يُشيع جواً من التناسق والسلاسة ٠

وثمة ترتيب ثالث يمكن أن يُتبع ،هو الترتيب الزمني للقصائد ٠ ان كان تاريخ نظمها معروفاً ، أو حسب تواريخ وفيات شعرائها الأقدم فالأقدم ، أو وفق بحور القصائد ٠

وماقام به الأستاذ « محمد المصري » ليس بالأمر اليسير ، إذ قد يخيل إلينا أن جمع التراث أسهل من دراسته ، ولكن المستعرض للفسحة الزمنية الشاسعة التي شغلها شعرنا العربي من الجاهلية الى العصر الحديث ، ومقدار التراث الشعري الذي خلّفه السلف في الدواوين المطبوعة أو المخطوطة ، وكتب الأدب الجامعة على مختلف صنوفها ، يُدرك مدى الجهد والمعاناة التي تعترض المتصدي لمثل ذلك العمل الجليل في التنقيب والجمع ، ناهيك عن ضبط كل هذا الذي ضمّه هذا الديوان ، وشرح مفرداته والتعريف بالأماكن ، وترجمة الشعراء من مصادرها ، وذكر مناسبات تلك القصائد والمقطوعات الكثيرة ، والاشارة الى تباين الروايات ، والحواشي المتفرقة على الآثار الشعرية ، مما لا يقدر عليه الا المتمرس بالتحقيق ، ومما ساعد الأستاذ « محمد المصري » على النهوض بهذا العب عمله الطويل في مجال التحقيق ودراسة كتب التراث ، واطلاعه الواسع على المراجع والمصادر ٠

وقد اعترضت المؤلف مشكلة فصل ما قيل في الشام عامة عمّا قيل في دمشق من شعر ، وليس الفصل بينهما بالأمر اليسير ، فاللفظتان تتعاوران الدلالة حيناً ، وقد آثر حلا للمشكلة أن يختار من الشعر ما قيل في دمشق المدينة وضواحيها ، وهو ما يُعرف اليوم بمحافظة دمشق وريفها ٠

---

٢ ـ « نجد ومفاتنه الشعرية » تاليف : خالد الخنين ٠

ودفعاً لاتساع الأمر وتشتت القارىء وتضخيم الديوان ، لجأ الى اجتزاء أبيات من بعض القصائد تتصل بهذا الغرض وترك ما عداها ، وآخى فيما اختاره بين المقطعات التي لا تعدو البيتين أو الثلاثة ، والقصائد الطويلة التي تتجاوز أبياتها صفحة أو أكثر ، مثلما فرض عليه الترتيب الهجائي للقصائد أن يجمع قديم الشعر الى حديثه اذا اتفقت القوافي ، وهو جمع من حسناته دفع الرتابة عن القارىء ، لكنه لا يسمح بتقديم فكرة عن التطور الذي طرأ على معاني الشعر وأساليبه واتجاهاته في موضوع القصائد ·

* * *

موقف بعض الشعراء من دمشق :

ومما جاء في الديوان من تعريض بعض الشعراء بقلة وفاء أهل دمشق قول « محمد رحمة الله الأيوبي » :

قالوا دمشق حوت كل المنى وزهت ... على البلاد ، بها من كل مرغوبِ
فقلت : لكن بها قلَّ الوفاء فلا ... يُرى بها ذو وفاء غير مغلوبِ

ومما ورد في ذم هواء دمشق ومائها، قول الشاعر « الحسن بن صافي عبدالله ابن نزار البغدادي في الشكوى من دمشق:

ولأُرحلنَّ مطيتي عن بلدة ... شعثاء يُكرَه ماؤها وهواؤها
ولأزجرنَّ العيسَ عنها مُعْرضاً ... إنْ أقدرتني دولة ولواؤها

والحق أن موقف بعض الشعراء من دمشق وأهلها هو نتيجة عوامل ذاتية بحتة كقول « فتيان الشاغوري » :

أراني غريباً عن دمشق وأهلها ... بصيرون لكن قد عموا عن محاسني
فيا ضيعتي فيهم وفضلي ظاهرٌ ... كأني لديهم مصحف عند باطني

وهذا الشاعر سليط اللسان لا يتورع حتى عن ذمّ قومه أهل الشاغور ويتهمهم بكل نقيصة :

وبين نُهيرَي الشاغور قوم" يرون الفخر كونهم لصوصا
فكلّهم متى يظفر بشاة تحوّل شوحة ً تغتال صوصا
وما طبخت قُدُورُهُم حلالاً فليتهم بها طبخوا مصوصا
ولو أنّا نصافح خيرِّيْهم لسَلُّوا من خواتمنا الفصوصا

وقد نجد في الديوان ما يُشير الى ما يعترض زائر دمشق من خسارة مادية بسبب براعة تجارها ، أو مرض قد يسببه بردها أو تلوث خضرها كقول الشاعر « ابن الحجازي » :

دمشق قد غدا بها حالي عسيراً وفيها ضاع مالي مع قماشي

وقد يتناول الهجاء أهل القرى المجاورة لدمشق كقول « فتيان الشاغوري » يهجو أهل الزبداني ، وينعتهم بالبخل :

أتبخلون بالخيار خسّة على أناس نزلوا بداركم

وهذه الأبيات هي كل ما جاء في هذا الديوان من ذم ·

دمشق وتفضيلها على البلدان :

فاذا تجاوزنا هذه الأبيات القليلة والتي ليست سوى أبيات متفرقات تعارض إجماع الشعراء على محبة دمشق وتفضيلها على البلدان الأخرى ، وتمجيد شيم أهلها في الكرم والوفاء والتي تبلغ آلاف الأبيات ، طالعتنا في هذا الديوان قصائد رائعة صدرت عن مشاعر صادقة، وتسليم بفضل دمشق وأهلها جاءت ثمرة زيارة الشعراء لها وإقامتهم فيها ومعاشرتهم الطويلة لأهلها ، والاشارة الى تاريخها القومي المجيد ، ودفاعها عن حياض العروبة والدين ، واسهام علمائها وأدبائها في حركة الفكر والابداع ، وشجاعة أهلها وجمال طبيعتها ·· من ذلك قول بعضهم في اعتدال هوائها وروعة أرضها:

أنهارها فضة والمسك تربتها   والخزّ روضتها والدرُّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ تروق به   مَنْ لم يَرِقّ وتبدو منه أهواء
وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها   وكلُّ روض بها في الوشي صنعاء

ومما يتبين لنا ٠٠ أن في « الربوة » ناعورة تنضح الماء من نهر بردى٠٠ وذلك في قول « مجير الدين بن تميم » :

ناعورة مذ ضاع عنها قلبُها   دارت عليه بأدمعٍ وبكاء
وتعللت بلقائه فلأجل ذا   جعلت تدير عيونها في الماء

ويتابع الشعراء طوافهم في متنزهات دمشق العديدة كالصالحية والشاذروان كقول الأمير منجك :

نزلنا الصالحية في العشايا   فأغنانا الضياء عن الضياء
وأبواب القصور لها صرير   ألذُّ لمسمعي من صوت نائي

أو قول الشيخ « أيوب الخلوتي » يذكر ليلة أمضاها في روضة من قاسيون :

وليلتنا على قاسُون لمّا   خرجنا من منازلنا ذهابا
وسرنا والغزال لنا دليل   ووجه غزالة الأفلاك غابا
وغنى والظلام لنا رضيع   وقمتُ وكان رأس الليل شابا
ونادى بالأذان فقلت أهلاً   بذاك وكنتُ أولَ من أجابا
لأن الصبح أشهر سيف حرب   وجُنْحُ الليل كان له قرابا

ولا يقل إعجاب الشعراء بطبيعة دمشق وغوطتها وقراها المنثورة كاللآلىء في بحر الخضرة الدائمة عن إعجابهم بغيرذلك من محاسنها يقول الشاعر أنور العطار في الغوطة :

عالمٌ من نضارةٍ واخضرار   فاتن الوشي عبقري الاطار
ضمَّ دنيا من البشاشة والبشـ   ـر وما تشتهي من الأوطار
من فراش على الخمائل حوّا   مٍ وطيبٍ مع النواسم سار
وينابيع حُفَّل بالأغاريـ   ـد تناجي بالساكب الهدّارِ
وأقاصيص تُسكر القلب والرو   ح روتها قيثارة الأطيار

وأغانٍ مسلسلات رقاقٍ فاتنات سالت من الأوكار
وأناشيد ردّدتها السّواقي والتفاف الأنهار بالأنهار
وحقول بالزهر مؤتلقات من أقاح ونرجس وبهار
وتحاسين تأسر الطرف أسراً وتعاشيب حاليات النثار
ونسيمٍ يُنشي النفوس نديّ أرج نافح الشذا معطار
وثمار كأنها عبق الخلد عِذابٍ أحببْ بها من ثمار
وصبايا من الغراس نِدايا قد نمتها عجائز الأشجار

★ ★

معبد للجمال أبدعه السحر ودشّته قدرة الأقدار
هو دنيا الفتون ملء حوافيه رُواء مجدِّدٌ الأعمار
سلوة الهائمين ، نجوى المحبين ، مراحُ الأرواح والأبصار
تتغنى الحقول نشوى من العطر وتهتز عن ندى مِخمار

★ ★

أنت يا غوطتي مجال اعتباري يا نعيمي ويا مطاف ادّكاري
نهلتْ من جمالك السمح نفسي وتغذّت من وحيه أفكاري
عبقت من شذاك هذا السماوا ت ، وماجت بنفحة الأزهار
أنت ريحانة من الخلد فاحت في نعيم حُلْوِ الرؤى سحّار

★ ★

وفي الديوان ذكر لعادات أهل دمشق فمنها : أنهم كانوا ينصرفون في يوم السبت الى الراحة والتنزه في المرج الغربي ـ حيث يقوم الآن معرض دمشق الدولي ـ قال الشاعر عبد الرحيم بن علي البيساني (القاضي الفاضل) :

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريبْ
لله أيام السبو ت بها ومنظرها العجيبْ
انظر بعينك هل ترى إلا محباً أو حبيب

كـــل يُبلّـــغ نفسَـــه مـــا تشتهـــي مرحـــاً وطيبْ
أرض خلــت ممــن ينغّـــص أو يــراقب أو يعيبْ
في مــوطن غنّــى الحَمــا مُ بــه على رقص القضيبْ
وغـدت أزاهـرُ روضـه تختــال في فــرحٍ وطيبْ

★ ★

ويشيع في الديوان ذكر أديرة دمشق، وما كان يتمتع بها زائروها من اللهو وحسن الوفادة ، ومنها : دير حنا ـ ديرقانون ـ ديرالعصافير ـ ديرقبيس ـ دير معلولا ـ دير النواطير ـ دير مران ـ ودير صليبا ، وفيه يقول الشاعر محمد بن علي المؤمّل :

جنّــة لقبــت بديــر صليبــا مبــدع حسنهــا جمــالاً وطيبــا
شجــرٌ محــدق بــه وميـــاه جاريات والـروض يبــدي ضروبا
جئتــه للمقـــام يومــاً فظلنــا فيــه شهــراً ، فكــان أمــراً عجيبا

★ ★

وتحتل « الربوة » التي ما تزال تحتفظ بشهرتها حتى يومنا هذا بحظوة الشعراء الذين زاروها ، مثلما تثير « المزة » إلهام مَن زارهـا أو قطنهـا من الشعراء وفي ذلك يقول الشيخ عبد الغني النابلسي :

قد دعانا داعي الهوى نحــو مــزّة قريــة تينهــا حــلا وهــي مــزّة
كلمـــا هبــت النسائــم فيهـــا أخــذت معطـف الحدائــق هــزّة
قــد أتينـــا مـــع الصّحـــاب إليهـــا بقلــوب مــن الهــوى مستفزّة
وسمعنــا الطيــور في الــدوح غنّت فأذلّتْ دمــعَ العيــون الأعزّة
وصفـــا في الريـــاض جدولُ مـــاءٍ ونسيــم الصبـــا يّجعّـــد خــزّه

★ ★

وفروع نهر « بردى » شرايين تبعث في دمشق الخصب والحياة والجمال، فليس عجباً أن تثير إعجاب الشعراء ، فينظمون في التغني به وبفروعه أروع قصائـدهم

وأحلى ذكرياتهم ·· قال الأخطل الصغيرمن قصيدة بعنوان : « ضفاف بردى » :

سَلْ عن قديم هواي هذا الوادي — هل كان يخفق فيه غير فؤادي
أنا مذ أتيتُ النهرَ آخر ليلة — كانت لنا ذكّرتُه إنشادي
وسألته عن ضفتيه : ألم يزلْ — لي فيهما أرجوحتي ووسادي
فبكى لي النهر الحنون توجعاً — لمّا رأى هذا الشحوب البادي
للشعر منطلق الجوانح هائماً — بين السواقي الخضر والأوراد
بردى هل الخلد الذي وُعِدوا به — إلاكَ بين شوادن وشوادي
قالوا : تُحب الشام ؟ قلت : جوانحي — مقصوصة فيها ، وقلت : فؤادي

★ ★

وفي الديوان أيضاً ، مقطوعات فريدة نالت شهرة في عالم الغناء والطرب ، كأبيات « أبي فراس طراد علي السلمي الدمشقي المعروف بالبديع » تُبرز حنينه الى دمشق وأحبته فيها :

يا نسيماً هبّ مِسكاً عَبِقا — هذه أنفاسُ ريّا جلّقا
كفَّ عني والهوى ما زادني — بردُ أنفاسك إلا حرقا
ليت شعري نقضوا أحبابُنا — يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا لصبٍّ أسروا مهجته — بسهام أرسلوها حَدَقا
وأداروا بعده كأس الكرى — وهو لا يشرب إلا الأرقا
يا رياح الشوق سوقي نحوهم — عارضاً من سُحْب عيني غدقا
وانثري عقد دموعٍ طالما — كان منظوماً بأيام اللقا
أسروا قلبي جميعاً عندهم — بأبي ذاك الأسيرُ الموثقا
ليت أيام التصابي ثبتت — بالفتى أو ليتَه ما خُلقا

★ ★

ويعقد الشاعر « فتيان الشاغوري» مفارقة غريبة ، فيدفعه حبه الى نهر « بردى » أن يجعل نهر « النيل » جدولاً بالقياس له ٠٠ يقول في وادي بردى :

هنا لكما نهر يُرى النيل عنده إذا فاض في مصر كبعض الجداول
يخال به النيلوفر الغضُّ أنجما سمت في سماء الماء غير أوافل
كأن طيور الماء فيه عرائس جلَيْنَ على شطّيه خضر الغلائل
إذا قابل النهر الدجى بنجومه أرانا بقعر الماء ضوء المشاكل

★ ★

وأما أهل دمشق فقد تغنى الشعراء بعروبتهم وباعتزازهم وبلغتهم وإبائهم ، قال معروف الرصافي :

يا أم لا تخشَيْ فان الله يا أمي مجيري
ودعي البكاء فان قلبي من بكائك في سعير
أعلمت أني في دمشق أجرُّ أذيال السرور
بين الغطارفة الذين تخافهم غيَرُ الدهور
من كل وضاح الجبين أغرَّ كالبدر المنير
حُرِّ الشمائل والفعائل والظواهر والضمير

★ ★

ويشير الأخطل الصغير « بشارة الخوري » الى عروبة دمشق ،فيقول :

باكرتها والزهر يشرق بالندى في فتية شمّ الأنوف صِباحِ
أهل الندى والبأس إن تنزل بهم تنزل على عُرْبٍ هناك فصاحِ
الشام منبتهم وكم من كوكب هادٍ وكم من بلبل صدّاحِ
وطنٌ أعار الخلد بعض فتونه وسقى المكارم فضلة الأقداحِ

★ ★

وينعت العلامة الشيخ محمد المسيري المقدسي أهل دمشق بالعلم والصلاح وطيب الخلق ، والترفع عن العيوب ٠٠فيقول :

وكم ماجد فيها ، وكم عالم بها تجرّ به ذيلاً على ربّة القرط
وكم صالح قد حلّ في فيح سوحها به يُستقى غيث السماء إذا يبطي

بهم سارت الركبان في كل وجهة … وطيب ثناهم قد دعا الناس للغبط
نواديهم بالعلم والذكر حية" … وأرقابهم عن منتمى الخير لا تخطي

★ ★

وأما تاريخ دمشق فتتحدث عنه آثارها وأوابدها · وبطولات أهلها ، كانت محطّ تقدير الشعراء والتغني بها ،قديمهم وحديثهم ، فهم يربطون تاريخ مدينة دمشق بتاريخ بني أمية وأمجادهم وبطولات « صلاح الدين الأيوبي » من ذلك قول الشاعر خليل مردم بك :

رفعت أمية فيك أعظم دولة … كانت قواعدَها سيوف بنيكِ
كم من شموس ليس يغرب نورها … من عبد شمس ضمَّها ناديك
تهوي قلوبهم إليك صبابة … لولا مشاعر مكة حَجُّوك
ورمت بصقر قريش عنك نوىً وإن … حسنت عواقبها فما يسلوك
وغدا صلاح الدين دونك باذلاً … نفساً يُضَنُّ بمثلها ليقيك
وظللت خالصة العروبة حينما … أُخِذت بنوكِ بمحنة التتريك

★ ★

ويجعل الشاعر « نزار قباني » من دمشق بداية التاريخ ، منها كُتب ، وبعزائم أهلها تصنع قدرها ·· يقول :

كتب الله أن تكوني دمشقاً … بك يبدا وينتهي التكوين
علمينا فقه العروبة يا شا … م فأنتِ البيان والتبيين
إن نهر التاريخ ينبع في الشا … م أيلغي التاريخ طِرْحٌ هجين

★ ★

ويمكننا القول ·· إن « الديوان الدمشقي » باقة جميلة من الشعر ، جادت بها قرائح المبدعين من أبناء الأمة العربية ·· يتمتع القارىء بما فيها من ثمار الأدب وكأنه ـ وهو يتصفح قصائدها ـ يتجول في أحد بساتين الغوطة الغناء حيث تقع عينه على صنوف الأشجار والأزهار ·· إذ تأتلف كل طاقات الفن ، لتخلق من تلك الفرائد سيمفونية عذبة يمتزج فيها سحر الفن بسحر دمشق الخالدة ·

دمشق : عبد اللطيف الأرناؤوط

اتساع دمشق في القرن العشرين

للمستشرقة الفرنسية : آن ماري بيانكي *

ترجمة : خليل فريجات

يُجهد عالم الجغرافيا نفسه ، في وصف وتفسير العلاقة ، التي تربط الانسان بوطنه وبيئته • ومن خلال هذا الواقع أريد أن أبيّن وبخطوط عريضة واضحة ، الأحداث التي تتابعت خلال هذا القرن ، في العلاقات بين المدينة وما يحيط بها ، وبخاصة مراحل اتساع دمشق ، نحو ضاحية الغوطة ، التي كانت ولا تزال على ارتباط وثيق بالمدينة •

أنشئت دمشق ، وتطورت في موقع له أهميته وبيئته المرموقتان ، اللتان أعاد تدبيرهما وترتيبهما الانسان الدمشقي • ان هذا الموقع الخاص ، يفرض نفسه ضمن تضاريس ومنحدرات في الغرب والشمال ، واختار الانسان الدمشقي إقامة له في مجالات ثلاثة :

الغوطة والوديان الكائنة خلال الجبال ، وضواحي السهب ، والمنطقة التي تدعى المرج •

لم تصل دمشق ، المحاطة بالحدائق الغناء ، خلال حقبة تاريخها الطويل ، حتى في فترات عظمتها ، سعة المدن الكبرى في المنطقة ، نظير القاهرة وبغداد ، وبقيت دمشق مدينة متوسطة ، تنعم بارتباط كامل وانسجام مع غوطتها • والقرى العديدة التي كانت تحيط بها ، وتسيطر على هذه الغوطة ، بمالكيها الكبار

★ باحثة في التاريخ والآثار والتراث من جامعة ليون ـ فرنسا •

وتجارها ، كانت هي بدورها تمدها بماتحتاج إليه من حاجات وغذاء ، وكان هذا الانسجام والتوازن مبعث فتنة لدمشق وجمالها ، بالاضافة الى أصالتها ، وأعطيا تاريخها استمراراً وكمالاً تستحقهما ٠

حصل بعض التصدع في هذا الانسجام في القرن العشرين ٠ وأصبحت دمشق حاضرة عصرية ، ألحقت بها جميع الضواحي المحيطة بها ، والتي كانت تشكل قرى الغوطة ، وأصبحت شبه محلقات تحيط بها ، وتكاثرت مع الزمن ٠ ولأتمكن من إعطاء فكرة صحيحة عن ذلك ، أستطيع القول : إن سكان دمشق كانوا نحو ١٧٠٫٠٠٠ فقط مائة وسبعون ألف ساكن عام ١٩٢٠ ، وأصبحوا ١١١٢٠٠٠ مليوناً ومائة واثني عشر ألف ساكن ، بموجب إحصاء عام ١٩٨١ ، ولعدم إجراء إحصاء ، منذ هذا التاريخ ، يصعب عليّ أن أضع أرقاماً جديدة ، لسكان دمشق الحاليين ، نسبة للمدن والقرى العادية ، ولكني أعتقد أن مجموع السكان الحالي ، ربما يصل الى أربعة ملايين ٠

* * *

١ ــ إن عوامل اتساع دمشق عديدة ، ولا أقدر على تبيان سوى ما هو كثير الأهمية ٠ كانت دمشق خلال الأعوام /٦٦٠م/ الى /٧٥٠م/ عاصمة امبراطورية عظيمة ، وفقدت هذه المكانة ، ومرّت بصعوبات جمة ٠ لكنها استعادت حيويتها وتطورها ، في عهد نور الدين ، وخلفه صلاح الدين ، عندما احتلت مجدداً مكانة أولى وعظيمة ، في محاربة الصليبيين ٠ هذا ولم تكن في عهد العثمانيين سوى ولاية عظيمة الشأن ٠ غير أنها عادت وأصبحت عاصمة البلاد ، إبان ملكيّة الملك فيصل ، في نهاية الحرب العالمية الأولى ٠

ركّزت سلطات الانتداب الفرنسي ثقلها في لبنان ، وجعلت مركز مفوضها السامي في بيروت ، وليس في دمشق ، وكم حاولت تقسيم سورية ، لكن دمشق التي لا تصبر على ضيم ، استعادت مكانتها الطبيعية ، وأصبحت وبصورة نهائية ، بدءاً من الاستقلال ، عاصمة دولة ذات حدود جديدة ، في حيّز أخذ يستعيد شيئاً فشيئاً حضارة سورية الحديثة ، **وهذه الدولة هي سورية ،** المتمكنة من نفسها ، الواثقة بذاتها ، وقد أصبحت دمشق الخالدة ، عاصمتها ، وها هي تقوم الآن بدور أساسي فعّال ، من الطراز الأول ٠

في نهاية القرن التاسع عشر ، كان افتتاح الطرق ، وسكة حديد ـ دمشق ـ بيروت ـ سبباً لادخال دمشق في عالم المواصلات الحديثة ، وبعد عام ١٩١٨ تخلى الانسان وبسرعة ، عن العربة التي يجرها الحصان في المدينة ، وعن تحميل الأشياء على ظهور الدواب ، وأخذ يستخدم السيارة والشاحنة ، وأضحى من واجبه ، تبني شبكة طرق بدائية ، تتمكن من تحمل نوع المواصلات المدنية والعسكرية ورأى وجوب تجديد مداخل المدن وتعريضها ، لافساح المجال أمام المواصلات الآتية من فلسطين وبيروت ، والطرق الخاصة والهامة ، بالنسبة للسلطة المنتدبة ، ولعبت الضرورات الأمنية دورها أيضاً ، فأخذت قسماً من مخطط دمشق العتيدة ، فرُسمت الأجزاء الأولى لأول محلّق ، خلال بضعة أسابيع ، في بدء الثورة السورية عامي ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ ، لحماية المدينة وسلطات الانتداب المقيمة فيها ، من الثوار الذين كانوا يتخذون من الغوطة مقراً لهم • وللتمكن من السيطرة على أوضاع الغوطة ، وجب القيام بشق طرق صغيرة ، تُستبدل بالطرق القديمة ، التي كان يحدّ جانبيها حواجز ترابية ، اندثرت غالبيتها •

إن سياسة التعريض هذه ، للمداخل وإحاطة المدينة بنموذج من الطرق المحلّقة سوف يتتابع ويترافق بازدياد الأبنية على حساب الغوطة • وشهدت الستينات تدشين أول طرق ، بشبكات حديثة ، كطريق المطار واوتوستراد المزة • إن مخطط الاتساع الذي نظمه السيد المهندس ايكوشار ، سيكون موضع الاعتناء ، من حيث انشاء طرق حديثة ومحلّق جديد •

وأنشئت صناعات عصرية ، هي بحاجة ماسة لمساحات واسعة ، وماء كثير تركزت جميعها منذ الثلاثينات حول المدينة : من الجهة الغربية في وادي بردى ، تبعها غيرها في الجنوب على طريق درعا وفي الشمال الشرقي على امتداد طريق حلب ، بالاضافة الى الجهة الشرقية من الغوطة ، ولحقتها صناعات كيميائية ، وجميعها تصب فضلاتها في بردى وروافده. كما أن وجود منطقة الدباغات في شرق المدينة ، يزيد في خطورة تلويث روافد بردى السبعة •

هناك مشاريع لترحيل هذه الدباغات ، الى أبعد من المنطقة المروية ، كمعمل الاسمنت الذي أنشيء في عدرا • لكن هذه المشاريع ، بعيد تحقيقها ، بينما أن المصانع الصغيرة المتصلة بالسكن ، كانت تكتسح الأمكنة المتصلة بالمدينة مباشرة •

لقد لعب النمو السكاني ، دوراً رئيسياً وأساسياً • غير أن سورية تعلم

أسوة بغيرها من المدن ، التي هي في طريق التطوير ، ان هناك تسرعاً في النمو السكاني ، في النصف الثاني من هذا القرن • ولا يزال معدل النمو مرتفعاً حتى اليوم •

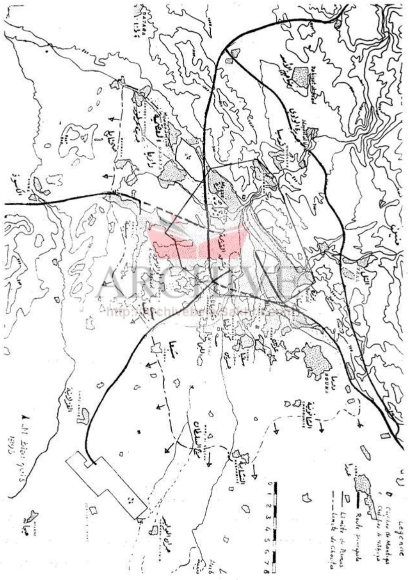
إن تطوير الزراعة والاصلاح الزراعي ، واستثمار الأموال في مشاريع الري الكبرى ، لم تتمكن بعد من الحفاظ على الريف • وهذا الفيض السكاني المتزايد، شاركت به هجرة الريف ، نحو المدن الكبرى في سورية ، ولا سيما نحو العاصمة وصناعاتها ، ووظائف موظفيها ، وجامعاتها •

إنهم كثر اللاجئون ، الذين أسهموا في هذا النمو السكاني ، وقد وفدوا من سنجق الاسكندرونة منذ عام ١٩٣٩ ، وتبعهم في ذلك الفلسطينيون بدءاً من عام ١٩٤٨ ، وتلاهم أهل الجولان ، الذين هجّرتهم اسرائيل عن ديارهم عام ١٩٦٧ ، ولا محالة فان هؤلاء النازحين ، تركزوا وثبتوا أقدامهم حول المدينة أو في الغوطة •

أخيراً إن النمو السكاني في دمشق ، ناتج عن تطور ظروف إقليمية ودولية ، لقد عززت الحروب مع اسرائيل وضع دمشق الستراتيجي ، وكانت سبباً في تكثيف المراكز العسكرية في المنطقة ، وازدياداً في عائلات الجنود • وفي السبعينات ، فان فيضاً من الأموال ، مصدره النفط ، بالاضافة الى انفراج اقتصادي ، جلبا نمواً حضارياً الى سورية بأجمعها • وانطلاقاً من عام ١٩٧٥ ، سببت حرب لبنان دوراً إقليمياً ، ذا مستوى رفيع • فأخذت أثمان العقارات ، بالارتفاع خلال الثمانينات ، جالبة انفراجاً للمدينة ، ونماءً متزايداً في مدن الغوطة الصغيرة ، والضواحي المجاورة ، فيما كانت السلطة تظهر اهتماماً بالغاً باعطاء المدينة طابعاً ذا شأن ، وتجدداً في محاورها •

٢ ـ يمكن إيضاح نمو التوسع السكاني بيانياً ، ضمن بعض المراحل :

في نهاية حقبة الحكم العثماني ، وفي بداية الانتداب الفرنسي ، أنشئت مدينة عصرية مشابهة تماماً للقديمة ، في الجهة الغربية من دمشق ، وامتدت نحو الشمال الغربي ، باتجاه حي الصالحية على الجبل ، وفي بدء هذا القرن ، أطلق على وسط هذه المدينة ، اسم « المرجة » تحيط بها الأبنية الحكومية الهامة ، بالاضافة الى



بناء العابد • وعند مدخل هذه المدينة ،وأنت قادم من الجهة الغربية ، أعني من بيروت ، يواجهك فندق فكتوريا الكبير ،أول فندق بني للسياحة • وإذا نظرت الى الغرب ، على امتداد نهر بردى ،فانك بلا شك واجد خيّالة ، يروضون خيولهم في السهل القريب • وتلك هي فسحة تقودك وإياهم الى مقهى الربوة ، الكائن في أعلى منعطف نهر بردى •

إن دليل بيديكر الصادر في نهاية القرن التاسع عشر ، وبالأحرى في السنوات الأولى لهذا القرن ، يعطي فكرة صحيحة واقعية ، عن دمشق هذه قبل عام ١٩١٤ • فعلى سفوح جبل قاسيون في الجهة الغربية من الصالحية ، أنشىء حي المهاجرين ، وكان من قبل سكناً ، لمن قدم من جزيرة كريت (وتلك شيمة وصفت بها دمشق على مر العصور ، من حيث استقبال المبعدين ، على الرغم من أن وفادتهم تدعو الى إحداث أحياء جديدة حول المدينة) •

وفي ظل السنوات الأولى ، للانتداب الفرنسي ، بدأ يتسع المحور الذي يوصل المرجة بالصالحية ، وأخذ يمتد قليلاً فقليلا • كما أحدثت شوارع جديدة مناسبة ومتناسبة ، وفي أواخر العشرينات، كثرت طلبات الترخيص بالبناء ، وأصبحت عديدة جداً ، وخاصة في حي الصالحية ، أكثر من الأحياء الأخرى •

أما الأوروبيون فقد رغبوا في الاقامة ، حول دير الفرنسيسكان والمشفى الايطالي • وهناك عائلات دمشقية ، أستغنت عن سكنها في المدينة القديمة ، وأقامت مباني في المرتفعات ، بين حدائق دمشق الغناء •

لقد فصلت حدائق (أبو رمانة) ،عن حدائق المزرعة ، بسبب إنشاء هذا الحي الجديد • كما أنشئت حول حي باب توما ، ضاحية جديدة دُعيت القصاع • أما برزة والمزة فهما ضاحيتان بعيدتان كثيراً عن المدينة •

في أواسط الثلاثينات ، قام مكتب دانجيه للهندسة المعمارية، وتنظيم المدن، بالتعاون مع مهندس محلي معماري أيضاً يدعى ميشيل ايكو شار ، بتنظيم مخطط اتساع لدمشق ، جديد ودقيق •وقدم واضعو المخطط مستندات إثباتية، لها علاقة بالأمكنة ، المراد تنظيمها ، ونقاط التقاء السير فيها ، والتي تدعو الضرورة لصيانتها ووجوب التقيد بها •

لقد ثبت لواضعي المخطط ، أن هناك ميلا لتوسيع المدينة نحو الغرب • فيما أن السكان يتطلعون الى الاقامة في المرتفعات •فناشدوا المسؤولين بوضع مخطط امتداد ، يأخذ هذه التوصيات بعين الاعتبار • وكان الاهتمام الأول متجهاً ، نحو مداخل ومخارج المدينة ، وبخاصة للطريق الآتي من بيروت ،والتي يجب أن تكون مظلّلة ، تحد جانبها حدائق غناء ، من الربوة حتى جسر فكتوريا •أ'كمل أول محلق ، وأصبح من الممكن ضم استدارة الأمويين بالجنوب ، بدوار كفرسوسة، وباب المصلى ، وبشارع ابن عساكر ، وباب شرقي ، عند نقطة الانطلاق الى حمص وبغداد في الشمال الشرقي •

خُطط لحيٍّ جديد أيضاً ، بين المهاجرين وطريق بيروت ، وتابعت المدينة امتدادها نحو الغرب ، وأصبحت جميع البساتين الكائنة في مثلث المهاجرين ، والصالحية، وطريق بيروت مُهيأة للزوال• وخُطط أيضاً لحيٍّ آخر في الجهة الشرقية من الصالحية ، وهو حي المزرعة، ويحد المدينة في الشمال شارع بغداد ، ولسوء حظ دانجه أنه رأى أبنية غير منظمة ، تتكاثر في الحدائق المترامية الأطراف حول هذا الشارع •

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ارتاح أن يرى شبكات طرق ، تتلاقى بشوارع منظمة ، كشارع أبو رمانة ، وتنتظم أحياء سكنية ، حول ساحات صغيرة ، مريحة جداً وشوارع عريضة متنوعة ،تكون على الغالب مظللة، بأشجار متقاربة من خط السير العام •

ويُثبت المخطط انموذجاً جديداً للسكن ، إذ تصبح البنايات الجديدة ذات طابقين ، فوق طبقة سفلية ، وستكون متباعدة عن الطريق ، ولن تشغل سوى قسم بسيط من الأرض ، تشترك فيها مواقف للسيارات •

ولكن ليس هناك أي بناء جديد ،مخصص للتجارة،إلا وله وجائب تُستخدم من ثم موقفاً للسيارات • يسعى واضعو المخطط إذاً ، الى الحفاظ على أن تظل دمشق مدينة حدائقية ، على الرغم من تحديثها • وللأسف فاننا نرى الآن الحدائق ، وقد أصبحت حول البيوت ، وفي مساحات من الشوارع والساحات العامة ، بدل أن تكون في ساحة خاصة مغلقة قرب المسكن• ولبناء هذا النموذج، طُلب أن تبنى في دمشق في الأربعينات والستينات •

وفي الستينات عهدت السلطات السورية ، الى المهندس المعماري ، ميشيل ايكو شار بالاهتمام بوضع مخطط، تكون عليه دمشق في نهاية القرن العشرين •

إذ يجب أن تنظم المدينة ، ضمن شروط سياسية جديدة ، سكانياً واقتصاديا . ضُممت الدراسات المبدئية ، بدءاً من العام ١٩٦٤ ، وقدم المخطط عام ١٩٦٨ ، واتخذ واضع المخطط على عاتقه ، عدداً من المعطيات ، أصبحت الآن قيد التنفيذ . وضُمت المجموعة الأولى من القرى الى المدينة . وهذه القرى هي الست التالية : المزة ـ كفرسوسة ـ القدم ـ القابون ـ وبرزة ، بالاضافة الى دمر في ضاحية بردى .

يوجد في الجنوب الشرقي من الميدان ، حي كبير للنازحين ، دُعي مخيم اليرموك .

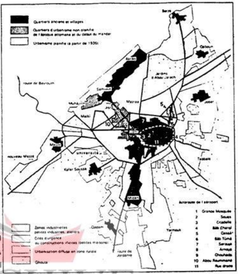
أما حي مساكن برزة ، فهو في طريقه الى التنفيذ ، ولا تزال المباني تتضاعف على سفوح قاسيون ، وتُرى البيوت وكأنها معلقة على جانبيه ، وكثيرة منها مبنية في فرجته التي تمتد على امتداده ، وللأسف فان أرض بعضها ، قد خُسفت واختفت في المقالع المحفورة قرب فرجته ، وكثيرون هم الذين ماتوا بسبب ذلك .

يواجه السيد ايكو شار ثلاث فرضيات ، بالنسبة لسكان دمشق ، في عام ١٩٨٤ حسب معدل النمو المثبت فيما يلي :

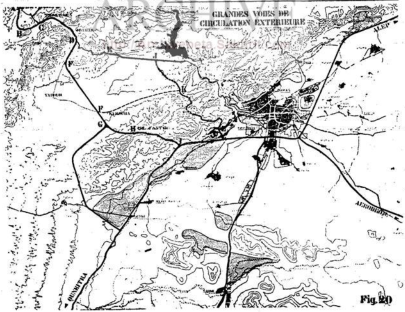
	معدل النمو	السكان عام ١٩٦٠	السكان عام ١٩٨٤
فرضية ضعيفة	٣،٥٪ حتى عام ١٩٧٤ ثم ٣٪ حتى عام ١٩٨٤	٥٢٩،٠٠٠	١،١٥٢،٠٠٠
فرضية متوسطة	٣،٧ ٪	٥٢٩،٠٠٠	١،٢٦٧،٠٠٠
فرضية مرتفعة	٤ ٪ حتى عام ١٩٧٤ ثم ٣،٧٪ حتى عام ١٩٨٤	٥٢٩،٠٠٠	١،٣١٩،٠٠٠

إن السيد ايكو شار عازم أيضاً ، على اتخاذ طريقة أكثر ثقة وأمناً ، مستنداً الى اعتبار معدل النمو ٤،٥٪ والذي يعطي والحالة هذه ، عدداً سكانياً ، يمكن تقديره (١،٥٢٤،٠٠٠) عام ١٩٨٤ ، إن هذه الأرقام ، وهذه الفرضيات ، تُظهر مدى الصعوبات الممكن تداركها في الموضوع السكاني .

الخريطة ١ :
توسع دمشق خلال القرن العشرين – وضع المدينة في عام ١٩٧٨



الخريطة ٢ :
مأخوذة عن المخطط التنظيمي ايكوشار – بانشويا ١٩٦٨



للسيد ايكو شار أهداف ثلاثة :

١ ـ يجب ايواء السكان ، الذين لا يزالون في تزايد كبير ، بالاضافة الى أولئك الذين هجّروا من الجولان ، وتوافدوا الى المدينة قبل الاعلان عن المخطط .

٢ ـ يجب الاهتمام بشبكة الطرق ، وضم الأحياء والضواحي الجديدة ، كما يحسن ربط دمشق ، بالمدن الأخرى في المنطقة .

٣ ـ وأخيراً يجب الحفاظ على الغوط ، وعدم انشاء أي حي ، على حساب البساتين والحدائق ، كما يوصي بتعطيل حركة البناء غير المنظم في الغوطة .

فيجب والحالة هذه ، جعل امتدادالمدينة ، نحو السهول الواقعة قرب سفوح الجبال ، ومدها الى أبعد حدود الأرض المسقية ، أعني على بعد ما يقرب من عشرين كيلو متراً ، وأبعد من ذلك في المستقبل ، إذا اقتضت الحال .

لقد اقترح أيضاً ، طرقاً عريضة لسير السيارات بسهولة ، وبخاصة نحو بيروت ، مارة بالجبل في الجنوب الغربي ، ونحو حلب أيضاً ، ونحو الأردن ، وأخيراً نحو المطار الجديد الذي دشن عام ١٩٦٩ .

وهناك محلق خُطط ليوصل المدينة والقرى ، المنوي ضمها في حلقة مغلقة في الغرب ، قرب الجبل . ومخطط آخر يصون الاخضرار في داخل المحلق ، يسمح للدمشقيين القيام بنزهات في الحدائق القريبة .. والسكن المتوقع هذه المرة ، هو أكثر اكتظاظاً ، ويشمل هذا المخطط أحياء بكاملها وبنايات مرتفعة .

إن شكل المدينة ، الذي سوف ينتج عن هذا المخطط ، يوجب أن يتم الامتداد ، نحو الشمال الشرقي ، نحو برزة حتى عدرا ، ونحو الجنوب الغربي ، باتجاه مطار المزة والمعضمية ، وسفوح الجبال ، حتى قطنا . ويوصي أيضاً أن تكون الأحياء الموجودة في الجنوب ، محيطة بالمحلق ، ويتوقع أن يصل الامتداد ، حتى الكسوة . وبهذا يُحفظ شكل المدينة القديمة ، حيث أن ضاحية الميدان ، هي في امتداد نحو الجنوب ، في وسط البساتين . وللتمكن من إيصال سكن المزة الى برزة ، يقترح ايكو شار إنشاء طريق على سفح قاسيون ، آملاً تدعيم فرجته ، وحينئذ يمكن الاستفادة منها .

أما في الغوطة والمرج ، فان عدداً من القرى ، كان مقرراً تطويرها الى بلدات ريفية .

إن الغوطة وقراها، متغيرة وبعمق، حتى في علاقاتها مع المدينة • ولذا مطلوب التغيير في البنية الزراعية • لذلك فقد بُدىء بالاصلاح الزراعي ، من عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ ، فوضع نهاية للملكيات الكبيرة ، ووزعت الأراضي على صغار الفلاحين ، وكان المرج هو المنطقة ، التي تأثرت كثيراً بهذه التدابير ، لأن مالكين دمشقيين ، كانوا يملكون قرى بكاملها • لكن الأثر الحاسم لهذا الاصلاح ، كانت له أهميته ، في كافة أنحاء الغوطة • إذ أن تلك العلاقة الوثيقة ، بين البرجوازية الدمشقية وفلاحي الغوطة ، قد بُترت ، وأنشئت تعاونيات زراعية ، تسمح للفلاحين بالحصول على قروض ، وتتيح لهم الاستغناء عن تجار المدينة ، وتدبرت الغوطة والمرج أمورهما ، بالنسبة للمدينة •

وحدث تغيير آخر ، له تأثير ملموس على أحوال المدينة ، وحياة القرى • ففي السبعينات جرى تخطيط جديد ، لتنظيم جميع القرى الكبرى المحيطة بدمشق • يتضمن هذا المخطط ، تهيئة إعداد شبكة طرق جديدة وتعريض الشوارع ، وفتح جميع عوائق السير ، والسماح ببناء بنايات كبرى ، على الشوارع الجديدة • وتحتفظ هذه المخططات ، بعدم هدم البيوت القديمة ، ذات المساحات الواسعة واللواوين • فأخذ هذا التغيير يجري قليلاً فقليلاً بفعل ذاته •

أنشىء أيضاً شارع كبير ، يتجه نحو جرمانا ، مخترقاً قرى قديمة ، مبنية بيوتها باللبن والقصب • ثم فتح طريق الى المليحة ، وأقيمت على جانبيه بيوت بُنيت بالاسمنت والحديد ، مع شرفات ظاهرة • وفي دوما وداريا وعربين وسقبا ، فتحت أيضاً شوارع عريضة ومستقيمة ، ضمن القسم القديم من هذه القرى • ومن حين لآخر ، تظهر غالباً لواوين ، ونوافذ مزخرفة جميلة ، في تلك البيوت ، التي شطرها الشارع بالتخطيط الجديد • وأقيمت على جانبيه ، بنايات حديثة ذات طوابق وأقبية جُهزت بحوانيت ، كما نظمت مصانع حديثة على طول الشارع ، وظهرت شؤون تجارية ، لم تكن موجودة قبلا ، الا في المدن ، ومنها العطورات ، وتحضير الحلوى ، والكهربائيات ، وتجهيز الأثاث • كما أخذ أطباء وصيادلة ، يقيمون في هذه القرى ، وبأعداد أقل مما هي عليها الحال في المدينة •

تتوقع هذه المخططات أيضاً مناطق امتداد سكني ، وبعض مناطق صغيرة صناعية ، على حساب أراضٍ زراعية تحيط بالقرى • وعلى مناطق هذا

الامتـداد ، تكثـر مشاريـع تعاونيـاتسكنية ، تسعى الى تأمـين قطـع أرض لأعضائها ، وجُلهم موظفون • ويلاقونصعوبات كثـيرة تمنعهـم عـن السـكن بدمشـق •

٣ ـ الوضع في بداية الثمانينات :

لقد حُقق قسـم مخطط ايكوشار ،وامتدت أحياء المزة وبـرزة ، وتكثفت وتقدم البناء ، حتى الى ما وراء المناطقالمرسومة في المخطط • وحدث هذا في المزة ـ جبل ، وعش الـورور ، وقلما نجداهتماماً كبيراً بالتنظيم المتوقع في الشمال الشرقي وغرب قاسيون • غير أن مدينـةجديدة أنشئت في الشـمال من عـدرا ، دعيت « مدينة العمال » وأخذت تؤهـلوتنمـو •

كما حُقق القسم الكبير ، من تعبيدالطرق المرسومة في المخطط ، وأصبـح طريق حلب ، يسمح بسفر سهل وسريع،حتى قلب المدينـة ، ويتواصل بطريـق مدينة الثورة • وكذلك الأمر فان طريق بيروت،التي لها اتصالباوتوستراد المزة، خفف عن السير ، الذي كان يتكاثف عندنهر بردى ، بين الربوة والهامة ، وجعل المدينة باتصال وثيق ، بسهل الصبورةوالديماس ، في الجهة التي أخذت دمشق الجديدة بالامتداد إليها •

لكن المحلق الذي كان عليه، أن يصل بين هذين الخطين الكبيرين ، لم يتحقق منه سوى قسم بسيط • وقد وقف العمل به ، في الجنوب الشرقي ، قرب اتصالـه بطريق المطار • أما بالنسبة للطريق المرتقب تنفيذها الى الأردن ، فانها لم تصل بالحقيقة ، إلا الى حدود صحنايا ، أيعلى بعـد بعض كيلـو مترات ، جنوب المدينـة •

نُفذت عدة طـرق على الجبل ، وستنفّذ طريق عاجلـة ، لتربط طريـق بيروت ، بطريق حلب ، بفضل جسرينلهما أهميتهما : يجتاز الأول وادي بردى عند الهامة ، فيما أن الثاني هو في طريقهالى الانجاز •

تأخر العمل قليلاً ، بانشاء المحلق بالنسبة لتوصيات المخطـط المرسـوم ، ولا يزال قيد الانجاز ، لكنه لن يستطيعإحاطة المدينة ، لأن التقدم في البناء غير الشرعي ، يجعل من الصعوبة بمكـان ،تحقيق تنفيذه في الشرق ، وكذلك الأمر يحول دون إكمال طريق الأردن •

إن المدينة وللأسف ، تُكمل اتساعها • دافعة ببنائها باتجاه قرى الغوطة ، ويتقدم هذا البناء ، أكثر فأكثر نحو سفح قاسيون ، ضمن ظروف خطيرة على الغالب • إن فرز وتخصيص هذه الأراضي بنوع غير قانوني ، يتابع على حساب البساتين القريبة من المدينة ، وأتمكن من تقدير عدد سكان هذه المناطق ، بأكثر من مليون نسمة ، وأقاموا أبنية غير منظّمة حول المدينة (جبل وغوطة) •

لقد كبرت القرى وامتدت واتصلت ببعضها ، وتتوزع الصناعات الصغرى في البساتين ، ومقالع الحجارة ، وتتكاثر مشاغل الميكانيك ، على شبه نصف حلقة ، لعدة كيلو مترات حول المدينة ، مستخدمة المياه الكثيرة ،مجففة البساتين ، مانعة وجاعلة عوائق ،أمام طرق الغوطة ، وقطعت الأشجار ، وبخاصة أشجار الجوز الجميلة ، وتضاعف غرس أشجار الحور ، ولم يبق دور للزراعة في وسط الغوطة ، الا القليل ، في هذه المنطقة التي كانت أبهى منظراً وأغنى موسماً •

لوثت المدينة وصناعاتها ، شبكة السقاية ، حتى حقول المياه الجوفية • وللأسف فان نهر بردى وروافده ، تجحف ماء أسود كثيفاً ، ينشر رائحة جد كريهة ، ولاكفاء المدينة بماء شرب نقي ، جرت أعمال كبرى في نهاية السبعينات ، فقد أنشىء سد تحت الأرض ، بالقرب من نبع عين الفيجة ، سمح بارتفاع منسوب المياه المتدفقة من النبع • وسوي مجرى جديد ، بمنسوب مياه كبير ، خلال الجبل لايصال الماء الى دمشق • والضخ قائم حول نبع بردى ، في سهل الزبداني ، في سبيل زيادة منسوب نبع عين الفيجة •

إن مدينة دمشق ، تستهلك كمية كبيرة ، كان يُستخدم سابقاً قسم منها لسقاية الأراضي ، وتستقي مياهاً جوفية عميقة ، موجودة في قلب السهول المحيطة بها • والماء الذي كان غزيراً ، نظيفاً ، نقياً ، أصبح الآن نادراً ، وذا طعم غير مقبول • أما المدن الأخرى فتسقى من المياه الجوفية • وبعض سكان محيط دمشق ينقلون ماء شربهم منها •

يترافق النمو السريع غير المنتظم ، باصابات خطيرة في البيئة وأذى لا يمكن رده • وهذه حالة ربما تحدث في غير أماكن • كما حدث في القاهرة مثلاً ، إذ أن اتساعها مُتلف ومكلف حول المدينة ، هناك أراضي الدلتا الغنية ، التي لاتصلها بعد مياه النيل ، لذا فقد اقتُلعت أشجار الليمون ، وجُففت الأرض ، لتُفسح مجالاً لتقدم البناء غير المنظم •

إذا كان هذا التنظيم وللأسف ، خاص بدمشق ، فقد يبدو هذا خطيراً ،لأنه يُصيب وسطاً ضعيفاً حيث يندر الماء •وهذا أمر مأسوي جداً ، لأنه يهدم إرثاً تاريخياً ، لأن الغوطة تحفة اللباقة ، وسبب لتشغيل الناس ، وهي خاصة برغبة الدمشقيين الملحة ، والجيل الحاضر شاهدعلى التقهقر،ولا تزال حاضرة فيذاكرته، حياة دمشق القديمة الهادئة ، التي تحيط بها الخضرة وتزينها • والذين يبحثـون عن هذه المدينة ويتعشقونها ، لا بد أن يتحرك ضميرهم، عند خسارة إرث وحيد، تشهد به آلاف السنين ، وكان له رباط وثيق بين المدينة وريفها •

لنمو دمشق الحالي ، صفات أصيلة، تهيب بنا الى التغاضي عن هـذا الوضع ، والابقاء في النفس على أمل يبشر بمستقبل حسن •

لا يزال قسم من الغوطـة ، بحالة جيدة ويمكن زرعه ، وبخاصة في القسم الشرقي منها • فتجب العناية به ، والحفاظ عليه ، ضد البناء غير الشرعي ، وغير المنظم • وكان كما يؤمل ويرجى فان الزراعة في تقدم حتى خارج الغوطة • أما المرج فقد تغير وضعــه ، وجفت مياهــه بصورة طبيعية ، في سنـوات الجفاف ، وانخفاض منسوب المياه الجوفية ، حتى أن الضخ لم يبقَ له مفعــول • ونجحت منابت الحدائق ، وجرى توظيف واستثمار أموال ، بصورة جادة بمشاريع حـول الغوطة • وهناك أيضاً قرى تتطور وتدب فيها الحياة •

إن البناء حول مجمع مياه ، يجمع فضلات مياه المدينـة والمصانـع ، وقـد أنشيء مؤخراً معمل لمعالجة هذه المياه في منطقة عدرا • هذا واننا نوصي بانقاص تلويث شبكة السقاية ، وحقـول المياه الجوفية • وحينئذ يمكـن تمديـد ماء نظيف للزراعة ، ضمن شبكات سقايـة جديدة.وإذا تعذرت رؤية هذه المعطيات، ولم نتمكن من إصلاحها وتقويمها ،نكون قد خسرنا وتأثرت نفوسنا عند قيامهـا بنزهة في تلك القرى المحيطـة بدمشق ،التي فقدت مناظرها التقليدية الخلابة ، ولم يبق أمامنا سوى أحياء عادية بسيطة لا يؤبه بها وعلى الرغـم مـن أن هـذه الضواحي ، أصبحت الآن مستقلة إدارياً ، بعد إلحاقها بمحافظة ريف دمشق ،وقد جُعلت فيها بلديات ، تجتهد في تنظيم نموها ونشاطها ، وتعيد اليها دورها التليد الخالـد •

ألا يجدر بنا هنا ، أن نعكس السؤال ، ونطرحه على الوجـه التالي : ماذا

كان يحدث لدمشق ، منذ عشرين عاماً ،لو لم يظهر هذا النمو المتسارع في القرى. ولم تتحول الى مدن ولو بسيطة تابعة لها ؟ إن هذا التطور بمحاور حضارية مستقلة ، في إطار يمكن تقديره بعشرين كيلو متراً ، منتشر حول دمشق ، وقادر على حفظ قسم من المدينة من الاتساع ، يتجاوز قدراتها ، ويكون سبباً لتقويض الغوطة •

إن إنشاء مدينة من لا شيء ، أمر على جانب عظيم من الصعوبة ، والقدرة على إعطائها حياة أصعب ، وبكلمة موجزة، إن بلداناً عدة ، حاولت جادة لتصبح مدناً جديدة فلم تفلح • وهذا المنظور المرتقب ، على العموم بطيء ، ونجاحه غير مضمون• إن كل قرية من التي تحوط بدمشق ، يمكنها الاعتماد على هوية خاصة ، وتاريخ مشابه لتاريخ دمشق القديم المجيد • ولذلك فان دوما وداريا، كانتا في العصور الوسطى ، عاصمتي الغوطة ، كما يوجد أيضاً تاريخ لداريا ، يبدأ من القرن الحادي عشر • إن حقيقة هذه الهوية، التي تتأكد بالنسبة للمدينة، وقرى أخرى ، هي مبعث فعالية • ولا نغفل عن ذكر التل والقائمين على إعادة تاريخها ، وعربين وضامني العمل فيها ،ومكاتب مهندسيها • إنها جميعها تستحق وبحق الاهتمام بها والابقاء على عظمة تاريخها •

أما دمشق الخالدة ، التي تجهز مخططات واسعة ، في سبيل تنظيمها ، عدا ما كان منها في الجبل ، خلف قاسيون ، حيث بوشر بمشروع كبير • ألا يجب والحالة هذه ، الاستناد الى محاور موجودة سابقاً ، والتخفيف من تطوير مدن جديدة ، التي يجب ألا تؤثر على المنطقة القابلة للري ، والتي وهبتها الطبيعة نشاطات مختلفة ، وسوف تشكل بدورها مراكز تجذب اليها الأرباض الكائنة حولها ، تعادل الفتنة التي تبعثها دمشق •

□ **الحواشي :**

١ ـ جاءت دمشق الكاتبة الفرنسية Myriam Harry عام ١٩٢٠ م ، ولها مؤلفها كتاب : دمشق جنة الاسلام برفقة حاشية الملك فيصل لدى عودته من فرنسا• وكتبت تقول: ان الأوابد الثابتة كانت ظاهرة في تكية السلطان سليم ، وساحة المرجة ، وضفة بردى ، وقد بدىء بإنشاء الصالحية والمهاجرين وما تبعهما من زحف نحو قاسيون •

٢ ـ من زار دمشق عام ١٩٣٤ م وأحب التعرف على شارع بغداد الحالي فانه غير واجد فيه سوى جامع عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق الذي لا يزال قائماً حتى الآن متاخماً لمديرية تربية دمشق حديثة البناء • والى الغرب منه أنشىء بيت لقائد الثورة سلطان باشا الأطرش ، هذا وكانت البساتين تحيط به من الشمال حتى الصالحية ، ولا أنسى أن المستشفى الفرنسي الحالي كان مغمورا أيضا بالحدائق والبساتين •

٣ ـ اتساع مدينة دمشق ظاهر ، والمزة وما تحتوي من بنايات حديثة ضخمة شاهد على ذلك •

٤ ـ كان الريف ولا سيما من حوران يصل الى بوابك حبوب باب المصلى فانظر امتداد دمشق الى الجنوب وعلى الجانبين •

٥ ـ هجوم الريف الى دمشق واقتلاع أشجار الغوطة ، وتجريد جونا من جماله ونضارته ورطوبته ، تشهد أيضا بذلك •

دمشق أقدم مدينة في العالم

تحقيق أثري تاريخي

د. عفيف البهنسي

حدود مدينة دمشق اليوم تبتدىء من سفوح قاسيون حتى البادية يفصلها شريط أخضر يسمى (الغوطة) ، ويروي هذه المدينة نهر بردى (قرقر) بأقنيته التي توزعت على مصاطب المدينة من الغرب الى الشرق لتروي المدينة بجميع مناسيبها ، ولتروي الغوطة المحيطة بها ، ثم يصب ببحيرة الهيجانة في أقصى الغوطة . وأقدم ما ورد من حديث عن هذا النهر يعود الى الألف الأول قبل الميلاد(١) .

ولكن ليس من السهل وضع حدود ثابتة لمدينة دمشق قبل التاريخ ، ذلك أنه ليس من أثر لأي أسرار تساعدنا على ذلك .

هناك رأي سائد عند المؤرخين(٢) هو أن دمشق هي أقدم مدينة مازالت موجودة في العالم . ويرجع المؤرخ القديم يوسفوس تاريخ إنشائها الى عهد عز ابن ارام ابن سام ابن نوح ، وهو افتراض توراتي ، ولكن البحث الأثري لايخضع لتاريخ الأنساب .

إن أقدم ما تؤكده الدراسات التاريخية ، إن دمشق في العهد الآرامي (الألف الأول قبل الميلاد) كانت متوضعة في شرقي المدينة . وأن المعبد الآرامي (معبد حدد) كان في موقع الجامع الأموي اليوم، هذا الموقع الذي احتل مكان المعبد الروماني (معبد جوبيتر)(٣) .

والاله حدد رامان هو إله الرعد والخصب ، ومن المعتقد أنه كان يعبد في هذا

المكان المقدس ، بدلالة العثور على لوح بازلتي (سنة ١٩٤٠) عليه نقش بارز يمثل أبا الهول ، لعله يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد · · وهذا اللوح محفوظ في المتحف الوطني بدمشق ·

لقد توقع الباحثون وجود آثار أرامية في منطقة (السمّاكة) قرب الباب الشرقي للمدينة ، ولكن لم تجر تنقيبات أثرية بعد هناك · على أن الآثار الرومانية لا تخفي نفسها[٤] · ويرى سوفاجيه أن المنطقة التي تسمى البريص أي الحصن ، تحوي آثار قصر انطوخيوس الرابع الذي حكم دمشق في نهاية القرن الثاني ق·م ، بل انه يعتقد أن هذا القصر ، أنشيء على أنقاض قصر آرامي ·

وهكذا فان المحور الأساسي للمدينة كان في ذلك الوقت وحتى العهد الروماني يمتد من القصر في تل السماكة وحتى المعبد في موقع الجامع الأموي · بيد أن الوثائق المكتوبة لم تتحدث عن مدينة دمشق في منتصف عصر البرونز ، وفي القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ابتدأ اسم دمشق بالظهور · ولكن هذا لا يعني أن دمشق ابتدأت منذ ذلك التاريخ ، إذ ورد اسمها (دامسكي) في وثائق ايبلا التي تعود الى عام ٢٣٠٠ ق·م ·

وثمة دراسات استقرائية تتم اليوم للبحث عن تاريخ دمشق قبل العهد الآرامي ، من خلال اسم آخر يعتقد أنه كان يطلق على هذه المدينة هو (آبوم)[٥] ·

لقد ورد اسم دمشق في ألواح تحوتمس الثالث ، فرعون مصر بلفظ ، تيماسك مع أسماء المدن التي احتلها ، ونقش ذلك على جدران معبد الكرنك في الأقصر (القرن ١٤ ق·م) · وورد هذا الاسم ذاته في ألواح تل العمارنة التي كانت ترد من دمشق ، لقد قرئت هكذا : دمشقا ، أو دومشقا أو تيماشكي · وفي حفريات كميد اللوز في لبنان ، عثر على رسالة موجهة الى ملك تامشقا واسمه (زالايا) · وفي التوراة ورد الاسم هكذا دامّيسيك ودومّيسيك ودارميسيك وفي نصوص آشورية حديثة ورد الاسم ، دمشقا أو دمشقي أو دمشقو · وفي الكتابات الآرامية القديمة ورد الاسم كما نعرفه اليوم (دمشق)[٦] وفي وثائق ايبلا ورد الاسم (دامسكي) كما يقول بيتسيناتو ·

(إن هذا الاسم ، كما يبدو ، مؤلف من مقطعين الأول (دو) أو (دا) وهي تعني اسم الاشارة ذو أو ذا ، أو دار وتعني موقعاً حصيناً • والمقطع الثاني (ميسيك) وهي كما يبدو مشتقة من (سقي) كما يقول هوبت[٧] وهكذا تعني التسمية دارميسيك الأرض المسقية •

ويرى أولبرايت[٨] إن كلمة ميسيك هي أصل الكلمة العربية (الشق) وتعني الحجر الجصّي ، وأن التسمية دومشق تعني (ذو الحجر الجصّي) ، ويؤكد سوفاجيه هذا الرأي •

لقد أبانت الدراسات أن مملكة آبوم كانت قائمة في الألف الثاني قبل الميلاد ، وتلتها مملكة آرام في الألف الأول • ولقد ظهر اسم آبوم لأول مرة في وثائق سقاره في مصر ، وكان أولبرايت أول من حدد موقع آبوم في دمشق[٩] • ولقد ظهر هذا الاسم أيضاً في ألواح تل العمارنة في شكلين (آ بي) و (أو بي) و (بي) كما ظهر في النصوص الحثية (آ بى) أو (آبا) • ويبرر هذه التحولات اللفظية ، اختلاف اللهجات والألسنة والقراءات ، ولكن اولبرايت يفضل استعمال اسم ابوم ويعني (القصب الكثيف) وهذا الاسم ينسجم مع هذا النبات المعروف في غوطة دمشق ••

وخلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، انتشر اسم (آرام) أو مملكة آرام وعاصمتها دمشق ، وتعني كلمة آرام (الأعالي) ، ولقد أطلق على مناطق أخرى مثل آرام صوبا وآرام بيت رحوب وآرام النهرين وهي ممالك آرامية ، ولكن اسم آرام كما ورد في النصوص يعني فقط دمشق • وعند الدلالة على جميع الممالك الآرامية فكان يطلق اسم (كل آرام) ، كما هو الأمر في لوح سفيره ، وعندما يطلق اسم ملك آرام فانهذا يعني ملك دمشق كما ورد في نقش يعود الى القرن التاسع ق•م •

ولم يستعمل الآشوريون كلمة دمشق ، بل استعملوا اسم (ايميرىشو) أو (شا ايميرى شو) أي مدينة الاله حدداييرى ، أو تعني دمشق باللهجة الآشورية •

لقد ورد اسم ايبوم مقروناً بكلمة (الحك وتعني حاكم ايبوم ، (حك ايبوم) وكان اسمه (آحوكبكابو) •

وهناك احتمال كبير أن مركز هذه المدينة هو تل الصالحية الذي أجريت فيه تنقيبات[10] وتم العثور على آثار أسوار محيطه تعود الى منتصف عصر البرونز، ترتفع أكثر من ثلاثة أمتار وهي مبنية من الطين .

وتمتاز الصالحية بموقعها المشرف على ضفاف فروع بردى وهي مركز استطلاعي هام يساعد على مراقبة المواصلات باتجاه تدمر وقطنه .

وحسب رأي العالمة الأثرية جارود أن دمشق تعود الى العصر الآشولي الحجري الذي يعود الى مئات ألوف السنين ، وكانت مأهولة جداً بالسكان ، وبخاصة في المرتفعات المحيطة بها وعلى شطئان نهري بردى والأعوج ، ذلك أن حوض دمشق ، كان بحيرة كبيرة كما تأكد للعالم فان ليره .

وفي الواقع ، لقد عثر عام ١٩٣٠ على بقايا عظام وظران تعود الى العصر الآشولي في موقعي وادي شركس والأشرفية . كما عثر على أدوات حجرية في حوض نهر بردى وفي برزه حول دمشق ، وهي تعود الى هذا العصر . كما عثر على أدوات تعود الى العصر اللافالوازي والموستري في المزة والهامة[11] وهي عصور حجرية قديمة تعود الى آلاف السنين .

على أن العصر الحجري الحديث الذي يبتدىء من الألف التاسع قبل الميلاد هو أكثر وضوحاً في مدينة دمشق وضواحيها . فلقد قام العالم دوكونتسانسون بالتعاون مع مديرية الآثار باجراء تنقيبات وأبحاث بين عامي ١٩٦٠ ـ ١٩٧٥ في تلال محيطة بدمشق ، اثنان منهما في شرقي المدينة جنوبي بحيرة العتيبة وهما تل أسود ، وتل الغريفة ، وتل ثالث في غربي المدينة (طريق سعسع) هو تل الرماد ، وتعود هذه التلال الثلاثة الى بداية العصر الحجري الحديث أي الى الألف الثامن ق.م . أو الألف السابع ق.م .

لقد قدمت لنا مكتشفات تل أسود شواهد هامة رغم ضآلتها ، فلقد تبين شكل العمارة في العصر الحجري الحديث، والمؤلفة من بيوت من القصب والأغصان والطين ، كما عثر على تماثيل طينية صغيرة لأشكال آدمية أو حيوانية ، وعلى عدد من الجماجم ، وثمة هيكل عظمي لطفل صغير .

وفي موقع الغريفة ، عثر عام ١٩٧٤ على آثار جدار مبني من الطين ، وتأكد أن المنشآت كانت مدعمة أيضاً بقضبان القصب ، وثمة إناء طيني وتماثيل أثبت الفحص بالفحم ١٤ ، أن هذا الموقع يعود الى منتصف الألف السابعة .

أما موقع تل الرماد ، فلقد استمرت التنقيبات فيه زمناً أطول بلغ عشر سنوات أي من عام ١٩٦٣ ـ ١٩٧٣ ، وفيه تم اكتشاف آثار مستوطن سكني ، وكانت المنازل بأبعاد ٣×٤ م ، وكانت الجدران مرفوعة من الطين المدكوك • كما عثر على أفران وعنابر أنشئت أيضاً من الطين وطليت بالجص • ومن أهم المكتشفات جماجم مطلية ومزخرفة بالجص ، تشابه تلك التي عثر عليها في أريحا (فلسطين) ، وتماثيل طينية صغيرة ، وحوامل طينية للجماجم التي كانت تعرض في البيوت تكريماً لأصحابها ، وهذا يدل على سريان عادة عبادة الأجداد ، وعلى الأقل احترامهم وتكريمهم ، كما عثر على أوانٍ فخارية مصقولة ومحزّزة •

وتأكد للمكتشفين(١٢) أن الانسان القديم في هذا الموقع ، كان يمارس الزراعة ، فلقد عثر على حبوب متفحمة متنوعة • وكان يمارس القنص للحصول على اللحوم ، وكان يربي الحيوانات كالابقار والماعز • ولقد عثر على أدوات حجرية على شكل فأس ومنجل وحربة سهم •

ويرجع تل الرماد ـ بحسب تحديد الفحم ـ الى منتصف الألف السابع أيضاً • وهذا يعني أن هذه التلال الثلاثة ، كانت تشكل مواقع سكنية متكاملة حول البحيرة ، مبنية من الطين المدكوك نظراً لندرة الحجر والصخور ، مما يجعلها مختلفة عن موقع أريحا المبني من الحجر والذي يعود الى زمن معاصر ، ومما يجعل هذا المستوطن الذي كان يشكل دمشق القديمة قديماً قدم أريحا ، ولكنه استمر مأهولاً حتى الألف الرابعة ق•م •

أما تل حزامي (ويقع حيث مطار دمشق اليوم) القريب من تل أسود فانه يعود الى الألف الرابعة ، وفيه عثر على آثار بيوت مستطيلة مبنية من الطين تضم عدداً من الغرف تنفتح الأبواب بينها •

وهذا يفسر تحول المدينة القديمة باتجاه موقع المدينة الحالية ولا ندري أين كان موقع مركز هذه المدينة وذلك بسبب التحولات التي تحدثها البحيرات وتشكيلاتها •

ولكن فان ليره ومن خلال كشوفه في تل الصالحية (في سفح جبل قاسيون) ،

وفي موقع الدرخبية على نهر الأعوج أكداستمرار وجود المدينة في بداية منتصف عصر البرونز ، ثم تضاؤل هذه المدينة في نهاية عصر البرونز . وذلك بسبب عدم إرواء غوطة دمشق إرواءً مستقراً . وفي منتصف عصر البرونز تحمل اسم دمشق اسم مملكة آبوم التي تحدثنا عنها وكانت مسوّرة تضم مواقع متعددة ، إذ كانت مدن أخرى قد أحيطت بالأسوار قبل ذلك العصر ، مثل ماري (تل الحريري — على الفرات) ومثل يمحاض (حلب) وقطنه (الشرفه — حمص) .

ومن المحتمل أن مركز هذه المملكة كان تل الصالحية المحاط بالأسوار كما ذكرناه . وكان هذا الموقع يسمح بربط مواقع أخرى مثل تل أسود والرماد والغريقه والتي تقع بين بحيرتي الهيجانة والعتيبة . هذه المواقع التي كانت ضواحي المدينة القديمة كما يبدو .

وهذا يعني أن دمشق اليوم كانت هي مركز هذه المملكة التي تحمل اسم ابوم أي الدغل أو القصب أو دغل القصب، هذا النبات المنتشر في الغوطة .

ويتحدث العالم دوسان الذي نشر ألواح ماري ، عن ورود اسم آبوم في ألواح قصر زيميري ليم في ماري[١٣] وعن ورود أسماء ملوكها (هايا بوم شار) و (زوزو شار معان) كما وردت كلمات (شارابوم) و (إويل ابوم) وأويل، وكلمة (شار) أو (أويل) تعني الملك أو الحاكم أو الرجل . كما عرفنا اسمين آخرين لملوك آبوم هما اريوانا و زالايا .

ويظهر اسم دمشق كدلالة على مركز آبوم بشكل (تيمشك) و (تامسكو) في نقوش معبد آمون في الكرنك خلال عهد تحوتمس الثالث . ثم يظهر مرة ثانية في نقائش معبد طيبة خلال حكم امينوفيس الثالث . وفي رسائل تل العمارنة مقتطفات من معلومات تبين إن دمشق وأرض أو بي (أي آبوم) كانتا معاً تابعتين لمصر في عهد اخناتون .

وبعد عهد رمسيس الثالث (١١٦٦ ق.م) استقلت دمشق عن أي تأثير مصري، وبرزت الى الوجود كشخصية دولية متميزة ثم انتشرت منها الثقافة واللغة الآرامية .

وأول ظهور للآراميين كان فيما وردفي نقوش طيبة عند ذكر الحرب بينهم وبين الآشوريين بقيادة الملك تغلات بلاصر (١١١٦ ــ ١٠٧٦ ق٠م) في منطقة الفرات الأعلى والأوسط ٠

ظهرت مملكة دمشق الآرامية في القرن الحادي عشر ق٠م ، ثم أصبحت المملكة الأكثر قوة في الشرق في منتصف القــرن التاسع ق٠م وجابهت الآشوريين وصدتهم وكانت تمتد حدودها من بحــيرة قطينة شمالاً وحتى بحيرة طبرية جنوباً ٠ ولقد ورد اسم دمشق ــ آرام لأول مرة في عهد شلمنصر الثــالث (٨٥٣ ق٠م) الــذي حاول الاستيلاء عليها ، وكان ملكها حدادياري الذي صد العدوان وجعل مملكته في قمة الازدهار ٠ وتابع ذلك الملك حزائيل الذي استولى على الملك ودافع عــن بلاده في معركة جلعاد (٨٤١ ق٠م)[١٤]٠

لقد كان عصر حزائيل زاهراً، بلغت دمشق ذروة قمتها ونفوذها ، ثم تراجعت في عهد بر حدد الثالث ثم في عهد الملــك مرعي أي في الربع الثــاني من القــرن الثامن ق٠م ٠ وفي عهد ملك آشور تغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق٠م) تم الاستيلاء على الممالك الآرامية وعلى رأسها دمشق التي كانت تحت حكم الملــك رصين (أوريدن) سنة ٧٣٢ منه وتمكن أحد العلماء[١٥] أن يستقــرىء قطعاً من الألواح الآشورية التي تتحدث عن هــذا الاستيلاء ليحدد أبعاد هذه المملكة، مملكة دمشق فذكر مضمونها كمــا يلي « أنــاضممت الى آشور ، الأرض الواسعة التي تخص مملكة حزائيــل والتي تمتــد من مرتفع لبنان قريباً من مدينة جلعاد الى مدينة بيت ملكا والتي تقع عند حــدود بيت عمرى.ونصبت عليها حكاماً وقادة».

ولكن يبدو أن دمشــق عــادت الى الظهور فلقد ذكرت النصوص أن جلعاد أصبحت آخر حدود دمشق ــ آرام ٠ وفي عام ٧٣٢ ق٠م تصبــح دمشــق عاصمة مقاطعة آشورية أطلق عليهــا (مرزبانة آسورا عربايا) ٠

ولا تزال آثار دمشق الآرامية مخفية تحت الأرض ٠ ولقد استطــاع العالــم سوفاجيه ٠ أن يتصور أبعاد هذه المدينــة الآرامية التي تقع تحت المدينة الحالية ٠ وضمن حدود السور ٠ وكانت شوارعها مشابهة للوضــع الراهن ٠ ويعتقــد أن معبد حدد الآرامي كان أول معبد يقع في مكان الجامع الأموي الكبير ، ويؤكد ذلك

العثور عام ١٩٦٥ على أحجار كبيرة تعودالى العصر الآرامي وعلى تمثال بارز من البازلت يمثل أسداً مجنحاً يعتقد أنه يعود الى العهد الآرامي ، وذلك لشبهه بالأسود والأشكال الحيوانية التي تزين السرير العاجي الملكي الخاص بالملك حزائيل ملك دمشق الآرامي والذي عثرعليه في (أرسلان طاش) قرب عين العرب في شمالي سورية ، وكان للمعبد مذبح شهير في اتقانه ودقة صنعه حاول تقليده الملوك الذين زاروا دمشق ٠

ومن المعتقد أيضاً أن القصر الملكي الآرامي يقع في تل السماكة الذي يرتفع عما حوله بمقدار خمسة عشر متراً ٠ولقد تحدثت الروايات التاريخية عن هذه القصر حيث اعتصم فيه ملك دمشق ضدغزوات الآشوريين وكان منيعاً ترف الزخرفة ولقد أوردت الوثائق التاريخيةوصفاً لبعض التحف الفنية التي كان يحتويها مما غنمه ملك الآشور بعد حصاره دمشق عام ٨٠٥ ق٠م وما غنمه فرعون مصر تحوتمس الثالث الذي غزادمشق ٠

والآراميون هم من العرب الشماليين يتكلمون اللغة العربية الشمالية التي تسمى اليوم السريانية ، وهي لهجة قديمة عاشت في وقت واحد من لهجتين أخريين واحدة في العراق وهي الكلدانية وأخرى في الساحل وهي الفينيقية ٠ والآراميون هم سكان دمشق الأصليين الذين استقبلوا الفتح الاسلامي بالفرح والدعم تخلصاً من سلطة الروم ٠ وما زالت أسماء القرى المجاورة لدمشق وأسماء الأنهار آرامية محرفة حتى اليوم ٠

وبعد انتصار الاسكندر المقدوني على دارا الثاني ملك الفرس وامتداد سلطانه على بلاد الشام ومنها دمشق ابتدأ عهدالحضارة الكلاسية منذ عام٣٣٢ق.م وحتى عام ٦٣٠ م ٠

ألف عام تقريباً ودمشق تعيش تحت السيطرة السياسية الاغريقية السلوقية، والرومانية ، ثم البيزنطية ، ورغم قوةتأثير الثقافة الهلنستية، فان دمشق وباقي المدن الشامية ، لم تفقد شخصيتها القومية الثقافية ، بل كان من رجالها قواد وشيوخ وحكماء وشعراء لعبوا دوراً فيمراكز الامبراطورية الرومانية أو في الامبراطورية البيزنطية ٠ ولم تكن دمشق عاصمة في ذلك الوقت ، إلا لمدة محددة ١١٤ ـ ٩٥ ق٠م في العهد السلوقي ثم تصبح في العهد الروماني أيام الامبراطور ديوقلسيان مركزاً لجيوش الرومان ، وأصبحت في عهد أدريان من

أمهات المدن • وحصلت على لقب ميتروبول أي مدينة رئيسية • وفي أيام الأسرة السورية من عائلة سيفيروس حصلت على لقب مستعمرة رومانية مما أكسبها بعض الامتيازات •

وكانت دمشق إحدى المدن العشرة (الديكابوليس) الأكثر أهمية في العالم الروماني ، ومن آثار دمشق في العهد الروماني ، معبد جوبيتر الذي ما زالت آثاره واضحة حول الجامع الأموي الكبير، وبعض أبواب دمشق وأجزاء من سورها، وحسب تصور العالم سوفاجيه فان المدينة محاطة بسور مستطيل الشكل طوله ألف وخمسماية متراً وعرضه سبعمائة وخمسون متراً تخترقه أبواب سبعة لكل باب اسم بحسب الكواكب السبعة ، ولقد أطلق عليها فيما بعد اسم الباب الشرقي وباب الجابية وباب كيسان (أو بوابة سان بول) والباب الصغير وباب توما وباب الجنيق وكان في الغرب ، وباب الفراديس •

ويخترق المدينة من الباب الشرقي الى باب الجابية الغربي طريق مستقيم ، والى طرفيه أروقة محمولة على أعمدة كرونية جميلة ، وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشارع ، الذي تم اكتشافه وتحديد أقسامه كما تم اكتشاف قوس النصر في منتصفه •

وفي شرقي المدينة يقع المعبد في مكان الجامع الأموي ، وكان من أشهر معابد العالم القديمة ، ولقد صمم ونفذ من قبل الدمشقيين ، وما زالت أسوار المعبد الخارجية والداخلية وبعض الأروقة واضحة حتى يومنا هذا •

وتقوم ساحة الآغورا شرقي المسجد فوق حي القيمرية اليوم (ساحة الدوامنة) أما قصر الحاكم فيقع جنوبي المعبد والى غربه المسرح ، وهي كلها مخفية تحت الأرض يدل عليها الشكل العمراني للمنطقة •

ولقد أنشئت في عهد الرومان ـ القناطر المائية وتسمى اليوم القنوات ، ويطلق على الحي والنهر المار عليها اسم القنوات •

وفي العهد البيزنطي حول هيكل معبد جوبيتر الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان وذلك في أواخر القرن الرابع الميلادي ، كما نشأت كنيسة المصلبة في حي باب توما، وكنيسة المقسلاط وكنيسة مريم في باب شرقي حيث تقوم الكنيسة

المريمية ، التي وصفها ابن جبير ، ومن الأديرة دير مرّان في سفح قاسيون ودير سمعان ودير النساء في منطقة الفراديس، وتذكر المصادر وجود قصر هرقل أو قصر شمس الملوك • ووجود قصر جلق ذكره البلاذري ويقع في منتصف الشارع المستقيم • وفي عهد الغساسنة كان في دمشق قصر كبير هو البريص الذي تحدث عنه الشاعر حسان بن ثابت ، وكان العرب ينزلون فيه ضيوفاً على أمراء غسان •

استلم الأمويون الخلافة الاسلامية عام ٦٦١ م • وكان عليهم أن يجابهوا عالماً مهزوماً كان العرب قد انتصروا عليه • وأن يتجاوزوا مستواه الحضاري فيقفزوا بسرعة من ظروفهم البدائية التي كانوا عليها في الجزيرة العربية الى ظروف حضرية راقية • ولقد أثبت العرب من خلال تقدمهم أنهم أمة سريعة التطور والنمو ، شديدة الطموح واسعة المقدرة، فلم يستريحوا ويقنعوا بالحياة الرخية التي كانت عليها بلاد الشام وسواد العراق ، بل أخذوا يضاهون الواقع بمنجزات أفضل ، ثم انطلقوا خارج هذه الحدود التي لم تكن سياستها وادارتها بالأمر السهل ، ومع ذلك استطاع معاوية أن يدير شؤون خلافة امتدت فشملت العراق والجزيرة والشام ومصر ، هذه الأمصار التي ما زال العرب اليوم ، وبعد أكثر من ألف ومائة سنة يطمحون الى إعادة وحدتها ، فوطد الحكم ووضع له مبادىء راسخة سار عليها من خلفه من قادة الغُرّ ، حتى إذا جاء عبد الملك بن مروان ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م بلغت دولة الشام أوج عزها ومجدها في عهده وعهد أبنائه الخلفاء الأربعة ، فقد وصلت الدولة الاسلامية في عهد الوليد وهشام أقصى اتساعها ، فامتدت من شواطىء الأطلسي وجبال البرنه غرباً ، الى نهر الأندلس وتخوم الصين شرقاً (وهو اتساع قل أن تجد له مثيلاً في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة إلا الامبراطوريتان البريطانية والروسية) •

ولقد كان على خلفاء بني أمية الذين حكموا هذه الامبراطورية الواسعة التي تكونت خلال خمسين سنة من الدعوة المحمدية • ومن انطلاق العرب من جزيرتهم ، أن يعززوا سلطانهم في بلاد الشام ، فأقاموا المنشآت التي تدل على عظمة الحكم المسيطرة على هذه الرقعة الواسعة الأرجاء ، مثل مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس الذي أنشأه عبد الملك بن مروان يحدوه في ذلك رغبة اقامة مسجد ضخم يليق بأهمية الاسلام وعظمة دولة العرب ويضاهي في بهائه وفخامته الكنائس التي كانت قائمة في سورية وفلسطين •

كذلك أراد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥ م) أن يخص المسلمين بمسجد كبير في دمشق وهو الجامع الأموي ، الذي أصبح الآبدة الأكثر تعبيراً عن عظمة العرب وروعة الاسلام واتساع سلطانه ٠

كانت دمشق العاصمة في عهد الأمويين مؤلفة من أحياء وحارات تضم بيوتاً مغلقة يتوسطها فناء فيه حوض ماء ذو نافورة وفيه أشجار البرتقال والنارنج وأزهار الياسمين والورد ، وحول الفناء غرف ينفتح أمامها رواق في المنازل الكبرى ٠

وقد نظم الأمويون في دمشق طريقة إروائها من نهر بردى ، وما زال اسم يزيد بن معاوية مرتبطاً بأحد الأقنية وهي فرع من فروع بردى السبعة ٠ ولكن مما لا شك فيه أن الخلفاء الأوائل الذين تربعوا على عرش هذه الامبراطورية الواسعة كانوا قد حملوا معهم عاداتهم البدوية وحنينهم الى الصحراء ، فكانت أكبر منازلهم وقصورهم تقع بعيداً عن العاصمة ، تأخذ أشكالاً بسيطة أو متطورة بحسب الظروف الجغرافية للمنطقة أو الظروف السياسية التي خضع لها الخليفة ٠

ويحدثنا المؤرخون عن السقايات الجارية وعدّد منها ابن عساكر عشرين يرجع أكثرها الى العهد الأموي ، ولقد شيدت الحمامات والفنادق ٠ والقيساريات وهي أبنية تضم المهن بحسب اختصاصها ٠

وفي عهد الوليد أنشئت المشافي ودار الخيل وكان موقعها قرب قصر الخضراء ٠

ولقد توسعت المدينة فنشأت مراكز سكنية عرفت باسم منازل القبائل ، والأرباض ، ومن المنازل : الشاغور والميدان وقصر حجاج وعاليه وقنوات واللؤلؤة الكبرى ، والصغرى ، وصنعاء ، والنيربان ، وبيت لهيا ، وبيت أبيات وأرزه ومقرى وحور تعلا والفردوس والسهم الأعلى والسهم الأدنى ، والشرف الأعلى والشرف الأدنى ٠ هذه المناطق التي أصبح بعضها بساتين ، ثم لم تلبث أن أصبحت حديثاً ، أحياء جديدة معمورة تدخل في أقسام مدينة دمشق الحديثة ٠

وكان في طرفي المدينة ميدانان كبيران الحصى في الجنوب والمرج الأخضر في الغرب ٠

وأنشيء في دمشق منذ عهد عبدالملك دار للبريد ودار لضرب النقود تسمى دار السكة وثكنات للجيش ودارللامارة ·

وفي عهد الفاطميين مع ذلك كانت دمشقجنة الدنيا وكان بظاهر دمشق ، كما يقول المهلبي البهنسي المتوفي عام ٩٩٠ للميلاد « وادي البنفسج تكسيره نحو أربعة أميال ونهر بردى يشقه والوادي كله مملوء بشجر السرو،لا تصل الشمس الى أكثر أرضه · وأرضه كلها بنفسج متشج بعضه ببعض في نهايةالحسن ، وبدمشق عدة من ألوان الورد فمنها أصفر ابريز وأسود وسماقي وورد موجهللورقة لونان من خارجها وداخلها ، وليس للزهر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق» ·

وثمة دار لعبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر ، كانت قائمة مكان بناء المدرسة الشميساطية لصق الجدار الشمالي للمسجد الكبير · وقصر لهشام في مكان المدرسة المجاهدية ·

وتفقد دمشق أهميتها في العصر العباسي بعد أن تنقل العاصمة الى بغداد وتعرضت المدينة للاهمال ، بل للدمار والحرائق عام ١٠٦٥ م ·

وفي عهد الفاطميين تظهر بعض المنشآت التي ما تزال آثارها باقية منها محراب جامع فلوس وضريح السيدة فاطمة وضريح السيدة سكينة ، وزال نهائياً قصر الولاة الذي أنشيء خارج الأسوار ، وكان كحصن للوالي وحاميته هدم بعد أن قضى سكان دمشق على الأمير الفاطمي بدر الجمالي ·

وتهفو قلوب الخلفاء العباسيين أحياناً الى دمشق · يقول ابن عساكر : « لم يزل ملوك بني العباس تخف الى دمشقطلباً للصحة وحب المنظر،أقام بها المأمون وأجرى اليها قناة من نهر منين الى معسكره بدير مران وبنى القمة في أعلى جبل دير مران ·

وازداد نسيج مدينة دمشق العمراني تكاثفاً ، وظهرت الأحياء المستقلة المكتفية بسوقها وجامعها وبابها تغلقهالحماية سكانها · وبقي السور متهدماً فيها الى عهد نور الدين ، حيث تنفست دمشق الصعداء واتجهت اليها عناية السلطة ·

لقد كان نور الدين مصلحاً محباً للعمران فأنشأ كثيراً من المنشآت التي ما تزال باقية حتى الآن ، مثل البيمارستان والمدرسة والحمام ودار الحديث

وأصلح السور والأبراج وفتح باب السلام وباب الفرج ، وخارج السور أنشأ قصر شمس الملوك وخانقاه الطواويس وخانقاه خاتون • وفي عهده ظهرت الصالحية ضاحية مستقلة ، أول من سكنها المقادسة المهاجرون دعاة المذهب الحنبلي • وفيها أنشئت مدارس ما زالت باقية كالجهاركسية والصاحبة والشبلية والركنية والشامية ، التي أنشئت في العهد الأيوبي المتمم لعهد نور الدين •

كما ظهرت أرباض أخرى خارج السور كمنطقة حكر السماق (شارع النصر) وأنشئت مساجد في الصالحية كجامع الحنابلة والماردانية في السفح ، وجامع الجراح في الشاغور والتوبة في العقيبة والمصلى في الميدان ، وأنشىء في الصالحية بيمارستان القيمري •

وأهم المنشآت الأيوبية ، قلعة دمشق التي سنتوسع في الحديث عنها وعدد من المدارس ، العادلية الصغرى والعادلية الكبرى ، والباردائية والناصرية والقلجية والعزيزية والاقباليتان الحنفية الشافعية ، وكان في دمشق مئة حمام وأربعين داراً للوضوء وقيسارية مما تحدث عنه الرحالة في عهد صلاح الدين • ولقد بلغت دمشق أقصى توسعها في عهد المماليك ، الى أن جاء تيمورلنك وحل بها الخراب الكامل •

وكان في دمشق قصر السعادة الذي كان أولاً لنور الدين واتخذه المماليك مقراً لأمرائهم ، كما ازداد عدد المدارس في عهدهم ومنها دار الحديث التي بناها تنكز والمدرسة الخيضرية والمدرسة الجوهرية كما أنشئت الجوامع ومنها جامع هشام والقلعي • كما اتسعت الضواحي ونمت واتصلت بالأسوار فتتسع الصالحية وينشأ في سفحها محلتان الميطور وحمام النحاس والجسر الأبيض وأرزه • وفي شمالي السور تظهر محلة السبع أنابيب والأقصاب والعقيبة وتحت القلعة ، وفي الجنوب الشاغور وباب السريجة والشويكة والميدان •

ومن أهم المنشآت ، القصر الأبلق الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس ، (مكان التكية) وفي جنوب القصر ظهرت أحياء المنيبع والخلخال • وجامع الأمير تنكز (شارع النصر) وجامع الأمير يلبغا (المرجة) وحوله ساحة مزدحمة بالنشاط

التجاري • كانت دمشق في ذلك الوقت من أجمل مدن العالم نضارة ونظافة ومن أكثرها نشاطاً وازدهاراً •

ولقد اقتدى العثمانيون الأوائل بالمماليك في حب العمران فأنشأ السلطان سليم التكية لاطعام الفقراء في الصالحية والجامع وفيه ضريح الصوفي محي الدين بن عربي • كما أنشأ أبنه سليمان القانوني التكية والمدرسة المجاورة لها في مكان القصر الأبلق الظاهري ، وفي عام ١٥٧٤ شيد الوالي درويش باشا الجامع والمكتب والمدفن والسبيل هذه المجموعة المعروفة اليوم بالدرويشية كما أنشأ هذا الوالي سوقاً وفيه خان وحمام (سوق الحرير والقيشاني) ، كما انشيء مسجد سنان آغا (١٥٦٢) وأنشأ مراد باشا مسجداً وتكية ١٥١٨ •

وأنشأت الولاة من أسرة العظم كثيراً من المباني التي ما زال بعضها قائما حتى الآن وبخاصة قصر العظم والخان والمدرسة ، وسوق الحميدية الشهير •

ولعل عهد الوالي ناظم باشا كان من أكثر العهود العثمانية ازدهاراً فلقد أنشأ في بداية هذا القرن القصر في المهاجرين ، المستشفى الوطني ودار المعلمين ، والسراي ودار البلدية والشرطة وجر مياه عين الفيجة الى دمشق ومد خط البرق الى المدينة المنورة وأقام النصب الضخم في ساحة المرجة وباشر بانشاء سكة حديد تربط دمشق ببيروت من الغرب وبالحجاز من الجنوب • وابتدأ في انارة دمشق بالكهرباء منذ عام ١٩٠٥ وسيرت الحافلات الكهربائية منذ ذلك الوقت من الجسر الأبيض الى الميدان • وبنى ناظم باشا حي المهاجرين وسقف أسواق دمشق •

ومنذ ما بعد الاستقلال ١٩١٨ تبدأ دمشق بالانقسام الى مدينة قديمة ضمن الأسوار وحديثة تزداد التحاماً وانتظاماً خارج الأسوار ، ويبلغ التناقض أوجه بين المدينتين في أيامنا هذه •

★ ★ ★

الحواشي :

1 — S. Sauvaget 427-28 .
2 — F. Unger 1957. Porter 1855. Thubron 1969.
3 — Greenfield 1976, PP. 195-198.
4 — C. Watzinger and K. Watzinger 1921, PP. 44-46.
5 — J. Sauvaget.
6 — Porpola (1970) P. 103-4 .
7 — Hawpt (1909) P. 528.
8 — Albright (1931) PP. 46-53 .
9 — Albright (1941) PP. 34-35 .
10— Van der Osten 1950, P. 37-39 .

١١ـ يعود العصر الاشولي الى العصر الجليدي الرابع والىمرحلة العصر الحجري المتوسطة ويعود العصر اللافالوازي الى نفس العصر وكذلك الموستيري وكلها تعود الى مرحلة العصر الحجري المتوسط .

12— De Contenson (1975) P. 184 .

13— Dossin (1939) PP. 97-113 .

14— Thureau - Dangin (1931) PP. 16-61 .

١٥ـ عبدالهادي نصـري ، شمس آرام شمس العرب ١٩٨٦ حلب .

مراجـع البحث :

BIBLIOGRAPHY :

S. Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas. Revue des etudes Islamiques, p. 427-28.

E. Unger : 1957 — Porter 1855 — Thubron 1969.

J. C. Greenfield : The Aramean God Roman IEJ 195-98.

C. Watzinger and K. Watzinger : Damaskus H. 4 Berlin 1921, p. 44-46.

S. Parpola : New Assyrians Toponyms. Neukichen Vluyn 1970, p. 103-4.

P. Haupt : Midian and Sinai ZDMG 1909, p. 528 .

W. F. Albright : A New Archaeoligical Intrepretation BASOR 1961, p. 46-53 .

W. F. : The Land of Damascus betwian 1950 and 1750 B.C. - BASOR 1941, p. 34.

D. A. E. Garrod : An Outline of Pleistosene Prehistory in Palestine — Lebanon — Syria; Quatrenaria 6 - 6, 541 - 46.

H. De Contenson : Ghoraife et la cronologie du Neolithique Damascenien A.A.A.S, p. 18425.

G. P. Pettinato : The Archaive of Ebla - An Empire inscribed in ciy - Doubleday 1981, p. 226.

W. J. Van Lire : A Note on Five Early Neolitiq Sites in Inland Siria A.A.A. 13, p. 117-7 .

H. Von Der Osten : Tell es Salihieh - Lund : C. W. K. Gleerup 1066, p. 37-39.

G, Dossin : Les Archives economiques de Mari ! Syria 1939, p. 97-113.

W. Helk : Die Agiptische Verwaltung in den Syrischen Besitzungen - MDOG - 92 - 1960, p. 6-7 .

F. Thureau Dangin : Arslan Tash - Paris - P. Geuthner 1933, pp. 16-61 .

H. Tadmor : The thouthern Border of Aram - IEJ 12, p. 118 - 1962.

N. Ellisseeff : Dimashk : in Encyclopaedia of a Islam, pp. 277 - 8 - London - Luzac.

★ ★ ★

دمشق

من ٥٣٨ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي

د. عدنان البني

في ذلك الزمن الطويل توالت على سورية(١) قوى من خارج المنطقة العربية : فارسية (أخمينية ٥٣٨ ـ ٣٣٣ ق.م) ثم يونانية (هيلنستية ٣٣٣ ـ ٦٤ ق.م) ورومانية (٦٤ ق.م ـ ٣٩٥ م) تولت هذه القوى شؤون البلاد وأمور الحرب والسلم . لكن أهل البلاد استمروا في تطوير ممالكهم واماراتهم ومشيخاتهم في عدد المناطق مثل تدمر وحمص وأرواد وصور ، وفي متابعة تطوير ثقافاتهم الوطنية ولهجاتهم . وكانت المراكز المدنية الهامة العامرة في البلاد تتصدرها دمشق التي كانت منذ نشأتها مدينة متميزة بموقعها الجميل المنيع وقدسيتها وبسمعة طيبة بقيت لها من أيام زعامتها للمالك في محاربتها اسرائيل والآشوريين .

كانت بلاد الشام الولاية الخامسة في الامبراطورية الفارسية الأخمينية . وفي المصطلح الأوروبي تسمى الولاية « سترابية » والوالي ستراب(٢) وكانت السترابية السورية مقسمة ادارياً الى المقاطعات نفسها التي عرفت في العصر السابق (أي الكلداني) وهي مقاطعة دمشق ، مقاطعة حماه ، ومقاطعة حوران الخ ... وكانت مدينة دمشق وكذلك أرواد وصيدا وحتى طرابلس تصبح بدورها عاصمة للولاية(٣) . وقد ذكر سترابون أن دمشق كانت أهم مدينة في سورية ومركزاً للقوات الفارسية(٤) . وثمة حادثتان تاريخيتان تؤيدان القول بأن دمشق كانت هي المركز الاداري الأكثر أهمية ومقر الوالي . فقد ذكر يوسيفوس(٥) أن الملك الفارسي قمبيز الثاني (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) ابن كورش الثاني ، الذي احتل

مصر بمساعدة أشمون عزر ملك صيدا ،مات في دمشق حيث كان مقيماً عند عودته من مصر • أما الحادثة الثانية فهي ما رواه أريانوس[٦] من أن دارا الثالث بينما كان يتهيأ للمعركة مع الاسكندر المكدوني أرسل رياشه ومتاعه وكنوزه ومؤونته وخيله ورجله وحاشيته الى دمشق دون غيرها ولم يبق معه إلا أهل بيته وخاصته •

وفي اعتقادنا أن اختيار دمشق لم يكن مصادفة أو للأسباب التي يقدمها بعض المؤرخين[٧] • فحين يقرأ المرء أنه بعد هزيمة الملك الفارسي دارا الثالث أرسل الاسكندر المكدوني قائده بارمينيون الى دمشق لوضع اليد على ما خزنه هناك دارا استلم من الحرس ٢٦٠٠ تالانت من النقود و ٥٠٠ باوندا من الفضة غير المضروبة[٨] ، وضع اليد على ٧٠٠٠من دواب الحمل الثمينة ، كما حاز على ٣٢٩ قينة و ٣٠٦ من الطباخين و ١٣حلوانياً و ٧٠ ساقياً و ٤٠ من صناع العطور[٩] • عندما يقرأ المرء ذلك كله يتساءل أين كانت تقيم هذه الحاشية الهائلة وما يتبعها من رياش ومتاع وأدوات ومواد ومؤنة إن لم يكن هناك في دمشق أو في غوطتها وجبالها قصور منيعة ومخازن فسيحة ومؤن وفيرة ، الأمر الذي لا يتوفر إلا في مركز له الوزن السياسي والاداري والاقتصادي اللازم وبالتالي المركز الذي هو العاصمة أصلاً •

لم يترك الفرس الأخمينيون أي أثرمعماري في دمشق اللهم إلا تاجي عمود من الطراز الفارسي هما ما تبقى من قاعة على الطراز الفارسي (أبادانا)[١٠] ، ولم تسعفنا أعمال التنقيب في دمشق ومنطقتها بدلائل أثرية أكثر من هذا عن ذلك الزمن رغم استمراره أكثر من قرنين! (٥٣٨ ـ ٣٣٣) ولم يعثر على شيء من آثار عبادات الفرس مع ما ذكر من أنهم أدخلوا عبادة ربتهم « اناهيت » الى المدينة[١١] ، ويذكر أيضاً جلبهم لدمشق نوعين من العنب • ولم تصل إلينا وثائق مكتوبة تتعلق بدمشق من هذا الزمن •وقد يعزى نقص النصوص الى أن اللغة الآرامية المستخدمة في الادارة الفارسيةكانت تكتب على ورق البردي وغيره من المواد السريعة البلى التي لا تدوم دوام رقم الطين فبادت خلال القرون ولا يبعد أن نقع على بعضها يوماً ما •

ونعرف بصورة غير مباشرة أن معبد دمشق الكبير ظل خلال ذلك العصر موضعاً

للتقدير والاحترام ومركزاً يقصد إليه بالقرابين والهبات والتقدمات ومن ذلك ما رواه المؤرخ البابلي برخوشا عن إهداء تمثال لأفروديت آنايتس للمعبد المذكور في تلك الفترة(١٢) ·

* * *

وفي تشرين الأول ٣٣٣ ق·م اثر هزيمة جيوش الفرس أمام الاسكندر المكدوني في معركة ايسوس ، وبعد مقاومة محلية شديدة للاسكندر دامت سبعة أشهر في صور وشهرين في غزة ، واستيلائه في دمشق على كنوز الملك الفارسي المهزوم دارا الثالث ورياشه وخيله ورجله ، أصبحت الولاية السورية خاضعة كلها للظافرين الجدد · لكن الأمر كان مختلفاً في بعض المناطق التي لم تخضع في الأصل تماماً للفرس ، أو ظلت مستقلة ، كالأنباط الذين حاول انتيغونوس الأعور أحد قواد الاسكندر الاستيلاء على بلادهم فصدوه · وعاود الكرة ابنه ديمتريوس فباء بالاخفاق أيضاً · واستطاع الأنباط في ظل خلفاء الاسكندر من سلوقيين وبطالمة أن يمدوا تخومهم الى دمشق نفسها كما سوف نرى ·

إن التاريخ الرسمي للدولة السلوقية يبدأ في عام ٣١٢ ق·م ولكن هذه الدولة التي امتدت من المتوسط إلى نهر السند ، وكانت سلالتها تعرف باسم السلالة السورية ، لم يبدأ حكمها رسمياً في سورية إلا في ٣٠١ ق·م ، بعد جلاء البطالمة وتخليهم عن احتلالهم المؤقت لسورية · ومؤسس السلالة هو سلوقس نيكاتور (أي الظافر) · وقد جعل عاصمتها أنطاكية التي أسسها على اسم أبيه انطوخيوس · وتقلب على الحكم من هذه السلالة ١٨ ملكاً دام حكمهم أكثر من قرنين انقضيا تقريباً في الحروب مع البطالمة في مصر الطامعين بالسيطرة على سورية بسبب أهمية موقعها ، وبخاصة موانئها الستراتيجية والتجارية التي تؤمن السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط · وعدد هذه الحروب خمسة وعرفت باسم « الحروب السورية » ·

سيطرة البطالمة عملياً وفي غالب الأحيان على سورية الجنوبية ، وكانت دمشق هدفاً من أهدافهم الأساسية ، لأن من يسيطر عليها عملياً يؤمن السيطرة على المنافذ الى فلسطين ومرافىء البحر المتوسط وبلاد الأنباط وبادية الشام ·

واستطاع الملك البطلمي بطليموس الثاني (فيلادلفوس) الاستيلاء على دمشق في عام ٢٧٦ ق·م وأقام فيها معمّرة بطلمية أطلق عليها اسم « ارسينوه »

وهذا الاسم شمل المدينة أو بعضاً منها[١٣]. ثم استعادها انطوخيوس من سلوقس . وكان الاستيلاء على دمشق أهم أحداث الحرب السورية الكبرى .

ومن الأحداث التي لها علاقة بدمشق أيام السلوقيين أن الملك السلوقي انطوخيوس التاسع السيزيكي (١١٢ ــ ٩٦ ق.م) وقد عانى من الثورات والفتن في أنطاكية ، اتخذ دمشق عاصمة له ثم عاد الى أنطاكية فيما بعد . وحوالي ٩٠ ق.م أقام الملك السلوقي ديميتريوس الثاني معمَّرة يونانية جديدة في دمشق سميت ديميتـرياس . وانسحب آخر ملوك السلوقيين انطوخيوس الثاني عشر الى دمشق أيضاً[١٤] . وعلى أحد نقوده من الدراهم المربعة نرى على الوجه الثاني من النقد صورة الرب حدد (رب معبد دمشق) وهو ملتح واقف يكتسي بثوب طويل محاط بأسدين ويحمل ، مثل بعل البقاع ، سنبلة في اليد اليسرى باعتباره رب الخصب[١٥] . وفي متحف دمشق مجموعة هامة من النقود المضروبة بدمشق في العصر السلوقي[١٦] ، وفيما ذكرنا دلائل واضحة على أن دمشق كانت بمثابة عاصمة ثانية للدولة السلوقية .

دخلت دمشق في دولة الأنباط العربية حوالي ثلاثة عشر عاماً (٨٥ ــ ٧٢ ق.م) . فقد استفاد الملك الحارث الثالث[١٧] من ظروف الدولة السلوقية وتفككها التدريجي فاستولى على دمشق واقليمها وعلى سهل البقاع عام ٨٥ ق.م . وقد رحب به الدمشقيون وقلدوه الملكية عليهم وضربوا النقود باسمه . ونجد على هذه النقود التي اتخذت الشكل السلوقي صورته واسمه على وجه النقد وصورة الربة تيكه حامية المدينة أو صورة ربة النصر على وجه الآخر . وقد بقيت دمشق في ممتلكات الأنباط كما ذكرنا حتى العام ٧٢ ق.م حيث توقف ضرب النقود النبطية . ثم استولى على دمشق تيغران ملك ارمينيا الذي توسع في سورية مستفيداً أيضاً من ضعف الدولة السلوقية . وضرب تيغران النقود على الشكل السلوقي أيضاً ، وظلت هذه الحال حتى ترك تيغران سورية عندما علم أن لوكولوس الروماني احتل بلاده ارمينيا .

ويُنسب للأنباط انشاء حي جديد أو منطقة يسميها مؤرخو العرب « النبايطون » . كما أن هناك من يجعل في مكان نهر يزيد الأموي نهراً سابقاً

شـقه الأنبـاط[١٨] الا أن نسـبة هـذا« النبايطون » الى الأنباط القدامى أمر لا يتعدى المشابهـة اللفظيـة والنسـبةللنبيط أكثر صواباً في رأينا[١٩] ٠

ويبدو أن العرب الايطوريين هاجموا دمشق بعد ذلك كمـا حاولت الكسندرا أرملة اسكندر جانوس استغلال الفرصةوأرسلت حمـلة عسكرية مدعية حمايـة دمشق لكنها فشلت ٠ وظل وضع مدينةدمشـق غامضـاً حتـى مجـيء بومبـي الرومانـي ٠ ويذكـر أن الدمشقيـينأصـدروا في ٦٩ ق.م نقـوداً باسمهـم محاولين توكيد استقلالهم[٢٠] ٠ واستعادالأنباط دمشـق في أيام الحارث الرابـع (٩ ق.م ــ ٤١ م) ٠ وقصر المدة يسوّغهالبعض بعدم العثـور على نقود نبطيـة مضروبة بدمشق من تلك الفترة[٢١] ٠

وخلال حكم تيغران كان العرب الايطوريـون في البقـاع من القـوة بحيث كانوا يسيطرون ، فضلا عن البقـاع ،على طرابلس وعرقا وجبيل ويهـددون دمشق كما ذكرنـا من قبل الأمـر الذياضطر تيغران الى الاعتراف بامارتهـم التي كان مركزهـا كالسيس (مجـدلعنجر) كما سمح لهم بضرب النقود التي تحمل ألقابهم بصفتهـم « تتراكيـين »وكهاناً عظاماً في معبد بعلبك[٢٢] ٠

في هذه الفترة التي نحن بصددها كانت دمشق مدينة مزدهرة وبمثابة عاصمة ثانية ٠ وغدت أحياناً عاصمة أولى كما مر بنا من قبل ٠ وفيها طبقـات عديدة من السكان أساسها آرامي / عـربي توضعت معها فئات من اليونانيين المستشرقة (أي هلينستيون) وأقليات أخرى مـنالفئات العرقية والمذهبيـة التي تتشبث عادة بالعواصم والمراكز الكبرى طمعاً في الكسب والمغامرة والغنى ٠ وقد امتدت دمشق في أيام السلوقيين في كل الاتجاهات، وبخاصة الى شرق المركـز الآرامـي القديم الذي كان يشكل مرتفعاً يتنسمهمعبد حدد الذي أصبح يسمى معبد زفس في هذا الزمن الهلينستي ٠ ومن المتفـقعليه ان تنظيـم عمران المدينـة بشـكل مقاسم مستطيلة يتخللها طرق متصالبـةحصل في ذلـك الزمـن[٢٣] وقـد زودت بأغورا (سـوق عامة ومكـان اجتمـاعالمواطنين) شرقي المعبد ، يـرى البعض أن مكانها في زقاق الصحة ، أو في ساحـةالدوامنة[٢٤] ٠ كما زودت بمسرح ، وفي دراسة حديثة اتضح ان المناطق الزراعيةفي شمال وشمال شرق دمشق الهلينستية

كانت مقسمة تقسيمات مستطيلة ومماثلة لتقسيمات المدينة . على ان كل هذه الأمور لم تزل موضع جدل بين مختصي العمران القديم . كما ان مساحة دمشق القديمة غير محددة حتى الآن[٢٥] .

وفي ذلك الحين على الراجح اتخذ نهر بردى مع اسمه القديم « ابانا » أو بدلا عنه نهر الذهب (كريزورواس) وأخذت « الفيجة » اسمها الباقي حتى الآن ومعناه في اليونانية النبع . ولا شك في أنها ترجمة لكلمة آرامية مماثلة مثل « أفقا » أو « عينا »[٢٦] على ان استجرار المياه منه في أطراف الجبل غير محدد الزمن وقد يكون من أيام حكم الرومان .

حصلت منازعات عنيفة حول وراثة العرش السلوقي أدت الى انحلال نهائي للدولة السلوقية . وكان الرومان منذ القرن الثاني قبل الميلاد يطمحون للاستيلاء على شرقي البحر المتوسط والبلاد المحيطة به . وفي بداية القرن الأول قبل الميلاد أصبحت سوريه ثمرة يانعة . لكن روما كانت منشغلة داخلياً وخارجيا وكان الخطر الكبير الذي يدهدها هو القراصنة في البحر المتوسط الذين هددوا تجارتها وامداداتها ومشاريعها بشكل عام . وعُهد الى بومبي بمهمة التخلص من القراصنة وأنهى هذه المهمة بشكل فعّال ومن ثم احتل سورية في ٦٤/٦٣ ق.م وأعلنها ولاية رومانية ممتدة من جبال طوروس الى غزة .

وكانت سورية آنئذ أشبه بموزاييك من الدويلات والمدن وكان في جنوبها نزاع دائم بين الأنباط واليهود وبين اليهود أنفسهم .

★ ★ ★

دخل بومبي دمشق في ربيع ٦٣ ق.م ومن الأمور التي اهتم بها أنه أضاف الى الولاية الرومانية هذه المدينة التي كانت تشكل حلفاً تجارياً مع عشرة مدن منها عمان وجرش وجدرة (أم قيس) وديون في الجولان وغيرها . ويعرف هذا الحلف باسم الديكابوليس (أي المدن العشر) وأصبحت دمشق ترجع في شؤونها الى الوالي الروماني . وقد ولّى بومبي على سورية سكوروس وكان مقره دمشق[٢٧] .

لن نخوض في تفاصيل الأحداث الدامية التي جرت بين القادة الرومان حتى قيام النظام الامبراطوري في روما واعتلاء اوكتافيوس اوغست العرش الروماني . لكننا نود أن نذكر أن قوات عرب سورية من آل شمسيغرام ومن الايطوريين والأنباط والايدوميين هي التي أنجدت يوليوس قيصر عندما حوصر ووقع في مأزق قاتل وكاد أن يغرق في ميناء الاسكندرية !

وفي مطلع زمن الولاية الرومانية كان التأثير النبطي باقياً في دمشق • ومن شواهد ذلك عبادة الرب ذو الشرى فيها[٢٨] • على أن العبادة المركزية في دمشق ظلت للرب حدد الذي توحد مع زفس في الزمن السلوقي ومع جوبيتير في الزمن الروماني • وكان أمراء دمشق وسراتها يعتبرون أنفسهم كهان حدد / زفس / جوبيتير • وسارع الأباطرة الرومان الأول في الاهتمام بتوسعه المعبد القديم الذي كرّس باسم « جوبيتر الدمشقي »[٢٩] كما فعلوا في معبد بعل البقاع (بعلبك) • كما شجعوا تأسيس معابد جديدة تتوحد فيها العبادات ويوحد فيها الأرباب (نبو = أبولون ، اللات = أثينا الخ) وكان هدفهم في رأي البعض رومنة المعتقدات السورية[٣٠] • على أن الدمشقيين أسهموا اسهاماً كبيراً في بناء المعابد ، خلال أكثر من قرنين كما يظهر من الكتابات التي عثر عليها في بقايا حجارة المعبد القديم[٣١] • وطراز المعبد نفسه سوري باجماع الباحثين في تاريخ العمارة القديمة[٣٢] •

وكان معبد جوبيتير آنئذ محور الحياة الدينية والاقتصادية لمدينة دمشق • وحتى عشية انتهاء الوثنية في القرن الرابع الميلادي نجد من يصف دمشق بالمدينة المقدسة والجليلة وأنها مدينة جوبيتر الحقيقية التي تستمد تفوقها من جمال احتفالاتها وعظمة معابدها[٣٣] •

وفي حوالي منتصف القرن الأول الميلادي تعود دمشق للأنباط مرة ثانية وذلك في عهد الحارث الرابع كما ذكرنا من قبل[٣٤] وكان ذلك في أيام الامبراطور كاليغولا وبالاتفاق مع روما • ثم تعود الى ولاية سورية في أيام نيرون (٥٤ ـ ٦٨ م) • وخلال الفترة الفلافية (٦٩ ـ ٩٦ م) تمتعت سورية بمزايا السلم • وفي أيام السلالة التالية ، السلالة الانطونية كان والد الامبراطور تراجان واليا على سورية • كما كان تراجان نفسه محامياً عسكرياً فيها قبل أن يصل الى العرش (٨٩ ـ ١١٧ م) • وفي عهده حدثت أحداث هامة في سورية وفي مقدمتها إنهاء دولة الأنباط وانشاء ولاية في مكانها أطلق عليها اسم « الولاية العربية » (بروفانسيا آرابيا) جعلت عاصمتها بصرى • وعين تراجان المهندس السوري المعمار ابولودور الدمشقي وزيراً للأشغال العامة فبنى روما الجديدة وأروع مبانيها فضلا عن المرافىء الرومانية والجسور • ويرى بعض الباحثين في المنجزات التي

أداها هذا المهندس العبقري أنها في جمالها ورحابتها تأثرت بما كان عرفه مبدعها في مدينة دمشق[٣٥] ٠

وفي عهد تراجان أنشأت بين دمشق والبحر الأحمر طريق استراتيجية تمر ببصرى وعمان ومأدبا وقد عرفت بالطريق الجديدة (فيانوفا) ٠ وعندما خلفه هادريان على عرش روما (١١٧ ـ ١٣٨ م) رفع مدينة دمشق الى مرتبة أم المدن (ميتروبول) ٠ وكانت هذه المدينة قداشتهرت بصناعة السلاح ، ويشيد بليني من أهل القرن الأول بخصب ريف دمشق وبخوخها الممتاز ٠ ولدمشق مزايا كثيرة منها الموقع التجاري الفريد بين الجنوب والبحر والبادية وفي قلبها تدمر ٠ وتمتعت بمزيد من السلام بعد أن أخمدهادرديان ثورة باركوخيا اليهودي وتحول القدس الى معمرة رومانية[٣٦] ٠ ومن أجل اضعاف سلطة الولاة قسم سبتيموس سيفيروس ١٩٤ ـ ٢١١ م سورية الى سورية المجوفة مع فرقتين عسكريتين ، وسورية الفينيقية التي جعلها ولاية بريتورية مع فرقة واحدة وضم دمشق الى هذه الولاية فكانت بمثابة عاصمتها وفي عهد هذا الامبراطور البرقاوي وزوجته الحمصية جوليا دومنا وسلالته عرفت دمشق نهضة معمارية باهرة وتنظيماً عقارياً وتقسيماً مئوياً لحقولها وبساتينها ٠ وكان معبدها العظيم قد اكتمل هيكله المركزي وأسواره وبخاصة تزييناته في عهد هذه السلالة[٣٧] ٠ وفي عهد اسكندر سيفير أحد أفراد هذه السلالة مُنحت دمشق لقب المعمَّرة الرومانية الذي يسويها بروما في الحقوق والواجبات ٠ وتقدمت سورية بشكل عام وقبلها دمشق على جميع الولايات في تلك الفترة ، ففي غضون ثلاثين عاماً صعد الى عرش روما ثلاثة أباطرة سوريين الأول ايلاغبال (اله الجبل) كاهن معبد الشمس الأكبر في حمص (٢١٨ ـ ٢٢٢) والثاني ابن خالته الاسكندر سيفير (٢٢٢ـ٢٣٥) والثالث فيليب العربي ابن شهبا (٢٤٤ـ ٢٤٩) ٠ وفي الستينات من هذا القرن الثالث كان أذينة العربي التدمري حاكم السورية ٠ وفي السبعينات منه كانت الملكة زينب تؤسس امبراطورية قلبها بلادالشام وفيها مصر والأناضول ٠

ويتحدث المؤرخ اميانوس في القرن الرابع وملالاس في القرن السادس عن أهمية دمشق السياسية والحربية خاصة في أيام الامبراطور ديوقلسيان الذي

أسس فيها معامل أسلحة ومستودعات للمهام الحربية[٣٨] في نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي . ونترك أحداث القرن الرابع الميلادي لبحث آخر .

★ ★ ★

اتسعت دمشق وتدفق عليها الناس من كل حدب وصوب منذ القرن الأول الميلادي مع اتساع معبدها القديم وازدهار تجارتها . وكانت فيها حركة تنصر حول القديس حنانيا . وفي دمشق نفسها ، أيام حكم الأنباط الثاني[٣٩] ، تنصر شاول اليهودي القادم اليها لقمع المسيحيين فسمي القديس بولس ، ولذلك أصبح مصطلح طريق دمشق يعني لدى المسيحيين طريق الايمان والهداية .

وبسبب اكتظاظ دمشق بالسكان وتداخل القسم الآرامي بالامتداد الهيلنيستي ، كان لا بد من وضع مخطط جديد أيام الرومان . اكتمل هذا المخطط أيام الأسرة السيفرية كما ذكرنا من قبل . وكان التخطيط الجديد شطرنجياً يقوم على محورين متعامدين هما شارعان رئيسيان ، شرقي غربي يسمى عادة باسم الدوكومانوس ماكسيموس ، والثاني شمالي جنوبي يعرف باسم كاردوماكسيموس . وأقيمت شوالع وطرقات موازية لهما طولاً وعرضاً ، عرضها يتراوح في دمشق بين ثلاثة وخمسة أمتار . وهذه المسالك تحصر بينها جزيرات سكنية مقياس كل منها حوالي ١٠٠ م × ٤١ م . وما زالت الشوارع والطرقات المتفرعة يمنة ويسرة من الشارع المستقيم (مدحت باشا) موجودة ، وهذا الشارع هو الدوكومانس ماكسيموس بطول حوالي ١٥٠٠م . وكان يعرف في دمشق قديماً باسم فياريكتا (أي الطريق أو الشارع المستقيم) . وكان مبلطاً ومؤلفاً من جادة وسطى ورصيفين للمشاة وفوقه مصلبات وأقواس . وكان هنالك شارع مواز له من الناحية الشمالية يربط بين الآغور (الفوروم) والمعبد من جهة باب جيرون .

وأحيطت دمشق بالأسوار الجديدة[٤٠] التي تضم مساحة تنوف قليلا عن مائة هكتار لا نعرف ان كانت مسكونة كلها أم كانت فيها بعض المساحات الخضراء . ومد الى المدينة من نهر بردى فرعان هما نهر قنوات ونهر بانياس[٤١] . وبقيت في المصادر العربية الاسلامية أسماء بعض الأحياء التي كانت أيام الرومان ، كحي الديماس وحي الفرناق وحي الفسقار والأخير في الشارع الطويل[٤٢] .

وثمة نقاط كثيرة يحتاج الباحث لجلائها حول دمشق القديمة وبخاصة أيام الرومان ، وفيما عدا موقع المعبد القديم ليس لدينا يقين عن مكان المعالم الرئيسية

لتلك المدينة • والسؤال يتردد دوماً حول وجود قلعة سابقة أم لا ، وحول مسقط السور أينطبق على سور نور الدين أم يختلف عنه • ومن الصعب أن تجري أعمال التنقيب وبخاصة في مدينة مكتظة بالبناء والسكان والأسواق مثل دمشق • ولا بد من انتظار فرصة سانحة كحفريات أو أعمال عامة وخاصة ، ومن ذلك عملية اكتشاف قوس الخراب ورفعه الى المنسوب الحالي •

أما العملية الثانية فكانت أيضاً في حي الخراب(٤٣) شمال القوس أمام بطريركية الروم والأرثوذكس في مكان استملكته أمانة العاصمة لفتح شارع يصل القيمرية بالشارع المستقيم وبدأت بتهديمه في ١٩٦٦ ، فظهرت معالم أثرية ورغبت المديرية العامة للآثار والمتاحف في استجلائها وقام بالمهمة الأستاذ نسيب صليبي •

ظهرت أربعة قواعد مرتفعة فوقها أعمدة أربعة وبين العمودين الأوسطين انفراج أوسع ، الأمر الذي يستدل منه أننا إزاء مدخل لبناء هام له ثلاثة مداخل وهو ذو طبيعة عامة والأرجح أنه معبد له اتجاه معبد جوبيتر نفسه ومنفتح على الجهة الشرقية • وهو مبنى وثني وليس من منشآت الفترة المسيحية ويطل على الشارع العرضاني (الكاردو ماكسيموس) من الجهة الغربية • والتاريخ المقترح له هو أواخر القرن الثاني الميلادي ومطلع الثالث أي في أيام السلالة السيفيرية السورية(٤٤) ، وقد اتضح من أعمال التنقيب أن الكنيسة المريمية قامت على أنقاض كنيسة أقدم دلت عليها بقاياها المعمارية وبخاصة بقايا الفسيفساء الأرضية • على أن العمليات في تلك الأرجاء لم تظهر أي كسر فخارية أو دلائل أخرى تعود لزمن أقدم من أيام الرومان، ومن المؤكد أن دمشق الآرامية لم تمتد الى تلك النواحي(٤٥) •

ومن المعالم التي تذكر من الفترة الرومانية ملعب (سيرك) في جهات شارع بغداد ، وكذلك مقبرة بعيدة عن المدينة الى الشمال والشرق • وعلى الرغم من أن القانون كان يمنع قيام المقابر على بعد أقل من ميلين عن المدينة ، فان مقبرة ضخمة كانت تمتد لصق السور الغربي وتنتشر جنوباً حتى باب السريجة، ووجدنا مدافن منها في منطقة القصر العدلي وعلى طول شارع النصر • ويظهر أنها امتدت

خلال العصر البيزنطي الى الغرب • وبلغ أوسع امتداد لها في العصر العربي الاسلامي ووصلت لما بعد تكنة الحميدية (الباب المركزي للجامعة السورية) وبين وقت وآخر يعثر فيها على عدد من المدافن وآخرها في منطقة المتحف أمام دار التوليد •

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ ـ أيام الفرس الاخمينين كان يطلق على بلاد الشام اسم « عبر النهر » اما اسم سورية فهو لفظ متطور من « آشورا » الاخمينية •

٢ ـ وهي محورة عن « خشاترابان » وتعني « ملك » في الفارسية القديمة وهي معادلة لمرزبانة الفارسية المألوفة في المأثورات العربية •

٣ ـ كانت مدائن الساحل الكنعانية (الفينيقية) لها اهمية استثنائية لدى الفرس بسبب أساطيلها وخبراتها بالبحار وذلك ضروري لمشاريع الفرس في اليونان ومصر والبحر المتوسط بشكل عام •

٤ ـ ١٦ ، ٢ ، ٢٠ •

٥ ـ الآثار ١١ ، ٢٠ •

٦ ـ ٢ ، ٦ ، ٣ •

٧ ـ يرى المؤلف فوكس في كتابه الهام عن الاسكندر ـ ص ١٦٥ ـ أن الأمر محيّر لكنه يرجح أن السبب هو القرب من طرابلس التي رست عندها مراكب المرتزقة المولجة بالنقل • (مفصل عنوان الكتاب في ثبت المراجع) •

٨ ـ كل تالنت يساوي ٦٢ كغ وكانت النقود المصادرة وحدها تعادل دخل مملكة مكدونيا سنة كاملة •

٩ ـ المرجع السابق ، ص ١٧٦ •

١٠ـ اورد ذلك وتزنجر وولزنجر في كتابهما الشهير (دمشق، المدينة القديمة) ص ٤١ (العنوان في ثبت المراجع) واحد هذين التاجين على الأقل معروف في متحف دمشق وهو مزين في كل زاوية من زواياه برأس ثور •

١١ـ ذكر ذلك ج•م• كوك في كتابه عن الامبراطورية الفارسية ص ١٥٠ (العنوان الكامل في ثبت المراجع) •

١٢ـ عن رينيه دوسو ، معبد جوبيتر الدمشقي ، سيريا ، ٣ ، ١٩٢٢ ، صفحة ٢٢١ ، حاشية ٥ • (راجع ثبت المراجع)•

١٣ـ سليم عبدالحق ، الفن الاغريقي وآثاره المشهورة في الشرق ، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق ١٩٥٠ ، ص ١٨٣ •

١٤ـ دام حكمه في دمشق من ٨٨ الى ٨٤ ق•م وكان يتهيأ لحملة على الأنباط عندما اغتنم اخوه فيليب الفرصة فهاجم دمشق واستولى عليها مؤقتاً بمساعدة قائد حاميتها ثم دب الخلاف بينهما ، وعندما خرج فيليب لحضور سباق الخيل اغلقت الأبواب في وجهه وعاد اخوه للدمشق •

١٥ـ رينيه دوسو ، معبد جوبيتر الدمشقي ، مجلة سيريا ، العدد ٣ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٢١ (العنوان الاصلي في ثبت المراجع) •

١٦ـ نشرها الاستاذ بشير زهدي في الحوليات الاثرية العربية السورية عام ١٩٧٦ ، ص ٧٣ وما بعدها •

١٧ـ الحارث (او حارثة) الثالث أشهر ملوك الإنباط هو ابن عبادة (او عبيدة الأول) خامس ملوك الأنباط المعروفين حكم بين ٨٥ ـ ٦٢ او ٦١ ق٠م على الراجح ويلقب بلقب فيلوهيلين (اي محب اليونان) وكان والده حقق نصراً على السلوقيين في النقب كما حقـق الحارث بدوره نصراً على اليهود المكابيين وحاصر القدس حصاراً شديداً وكادت تسقط لولا توسط الرومان (راجع بحثنا عـن الحارث الثالث في الموسوعة الفلسطينية) ٠ ويستنتج وجود الانباط بدمشق قبل هذه الفترة ، في ايام الحارث الاول من نص في « جامع الكتابات السامية » الجزء ٢ ، رقم ٣٤٩ (عن كارلوس شد ، ص ٨٣) ٠

١٨ـ نيكيتا اليسييف ، الموسوعة العربية ، مادة دمشـق ، ص ٢٨٧ ٠ وذكر الدكتور شفيق الصفدي أن النهر المنسوب ليزيد وسّع ومدد في عهد الخليفة يزيد (راجع مقالته في اقنيـة الري المتفرعة عـن نهر بردى في مؤلف دمشق ، دراسات تاريخية واثرية ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ٤٦ ٠ واستشهد الدكتور قتيبة الشهابي بابن طولون ، العلائق الجوهرية ، ص ٦٦٣ ، في توكيد ذلك (راجع دمشق تاريخ وصور ، ص ٩) ٠

١٩ـ هناك فرق بين الإنباط والنبيط فالآخرون متاخرون عن الاولين ستة قرون ، ونبيط اهـل الشام هم العاملون في الزراعة (راجع مقالنا عن الانباط في الموسوعة الفلسطينية) ٠

٢٠ـ راجع ح٠و٠ بورسوك ، الولاية العربية الرومانية ، ص ٦٢ (ثبت المرجع) ٠

٢١ـ المرجع السابق ، ص ٦٩ ٠

٢٢ـ كارلوس شد ، سلالات حمص ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٣ (ثبت المراجع) ٠

٢٣ـ ان هذا التنظيم لا يستدعي بالضرورة ان نتصور أن الشوارع كلها كانت محفوفة بالأروقة المحمولة على أعمدة ، فهذا الشكل متاخر يعود لزمن الرومان وبالأحرى لزمن الأباطرة السيفيريين السوريين ٠

٢٤ـ ن٠ اليسييف ، مادة دمشق في الموسوعة الاسلامية ، ص ٢٨٧ ٠ ويذكر الأستاذ بشير زهدي أن مكانها في ساحة الدوامنة دون ان يذكر المصدر ٠ راجع نـدوة دمشق القديمة ١٩٨٢ ، ص ٢١٠ ٠

٢٥ـ وبصورة خاصة سوفاجيه ، سيريا ١٩٤٩ ودورثي زاك، دمشق ، ميانس ١٩٨٩ والمناقشة في مقال دودينو ، لوبلان غاليه وفيلنوف عن مشهد سورية القديم (مثل دمشق) سيريا ٢/٦٧ (١٩٩٠) ص ٣٤٩ وما بعدها (راجع ثبت المراجع)٠

٢٦ـ هذا النبع ككل الينابيع تقريبا في الأرض الكنعانية كان مقدساً ٠ وكان يعتبر معبداً بذاته وقام فوقه معبد لربات الماء في العصر الكلاسيكي ٠

٢٧ـ كارلوس شد ، ص ٤٠ ٠

٢٨ـ عن بيغانيول ، تاريخ روما ، ص ٣٧٣ـ٣٧٤ ، عـن كارلوس شد ، ص ١١٠ (راجع ثبت المراجع) ٠

٢٩ـ أطلق في القرن الثاني على جوبيتير اسم (اوبتيموس ماكسيموس جوبيتير الدمشقي) عن ر٠ دوسو ، معبد جوبيتير الدمشقي ، مجلة سيريا ، ٣ (١٩٢٢) ص ٢٢٢ (ثبت المراجع) ٠

٣٠ـ هنري سيريغ ، الآثار السورية ، الجزء ٤ ، ص ١٠١ ، (ثبت المراجع) ٠

٣١ـ من هذه الكتابات كتـابة طريفة منقولة غالباً في باب الغزالية في الجامع الأموي٠ يثني فيها الكاهن الأعظم للمعبد على الدمشقيين الذين « دللوا بافضل الأرباب الجليلة عـن نفوس تفيض بالتقوى » ويدعو لهـم بطـول العمر ٠ نشر هذه الكتابة وادينغتون في مؤلفه عن الكتابات اليونانية واللاتينية في سورية برقم ٢٩٤٥ وراجعها لنا الصديق كرايزايمر من المعهد الفرنسي للآثار بدمشق (راجع ثبت المراجع) ٠

٣٢ـ هذه الخصائص تتمثل بخاصة في فخامة البناء والباحات الداخلية الرحيبة والبوابات الفخمة والحجرة المخصصة للمعبود داخل الهيكل المركزي والنوافذ والشرفات ٠ راجع على سبيل المثال مؤلفنا عن معبد نبو في تدمر والمراجع الواردة فيه (ثبت المراجع) ٠

٣٣ـ ر٠ دوسو ، معبد جوبيتر المذكور سابقا ، ص ٢٢٤ (ثبت المراجع) ٠

٣٤ـ راجع مقالنا نيكيتا اليسييف في الموسوعة الاسلامية المذكورة سابقا ، ص ٢٢٤ ٠

٣٥ـ راجع كتابنا عن أبولودور الدمشقي من منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٠ ، وبخاصة ص ١٨/١٧ ٠

٣٦ـ سميت آيلاكا بيتولينا وشيد مكان هيكل اليهود معبدا لجوبيتر ٠

٣٧ـ ويحمل الباب القبلي للمعبد القديم نماذج بديعة لهذه التزيينات والتي اختلف سابقا على تاريخها وارخت اخيرا بالمقارنة مع المعابد السورية المؤرخة ، راجع بحث فرايبرغر المعرب من قبل قاسم طوير (ثبت المراجع) ٠

٣٨ـ عن جورج حداد ، الحوليات الأثرية السورية ، المجلد ١ ، الجزء ٢ (١٩٥١) ص ٢٧٣ ٠

٣٩ـ راجع ما قبله ٠

٤٠ـ نقول الأسوار الجديدة لأنه لا بد ان تكون لها أسوار أقدم من زمن السور الروماني ٠ ويتبع الباحثون نظرية جان سوفاجيه عن الشكل المستطيل لأسوار دمشق دونبرهان اثري او نص كتابي ويعارض ذلك شيفيدين من جامعة كاليفورينا الذي يقول ان الأسوار تتبع تضاريس المدينة التي تساعد على الدفاع ٠ وهذا هو الحال في أسوار دمشق التي لم يكن مسقطها مستطيلا بل اشبه بالبيضوي٠ وهدم العباسيون هذا السور وجدده نورالدين زنكي في القرن الثاني عشر الميلادي (راجع دمشق دراسات تاريخيةالمذكورة سابقا ، ص ١٧١/١٧٠) ٠

٤١ـ قد يكون نهر قنوات قد شق أيام الأنباط اذا صح ان حيهم في شرق المدينة ٠ وفي اعتقادنا اسم قنوات جمع قناة /قناتا/ كاناليس ملتبس الأصل ٠ وفي راي ايكوشار اناسم نهر قنوات القديم فينية (راجع د٠ صفوح خير ، تطوير توزيع المياه في مدينة دمشق ، الحوليات الأثرية العربيةالسورية ٣٥ (١٩٨٥) ص ٢٢٧ ٢ أما بانياس الذي يتصور البعض أنه تحريف يوناني لاسم أبانا (بردى او فرعمنه) فاننا نعتقد ان الاسم اتى من الحامات كما هي الحال في اسم بانياس الساحل ٠

٤٢ـ يشتق تيكيتا اليسييف ديماس من ديموسيون ومعناه سوق الدهن والواقع ان ديماس في الآرامية تعني السرداب ببساطة ٠ ومعنى الثاني الفواخير والثالث مكان صنعوبيع الفوسكا وهي نوع من الأدوات الزراعية (أو الحربية) بثلاثة رؤوس راجع مقالة دمشق في الموسوعة الاسلامية ، ص ٢٨٧ ٠

٤٣ـ سمي بحي الغراب من جراء خراب هذه الناحية من المدينة خلال محنة المغول في القرن الرابع عشر الميلادي ، ومن الزلزال الذي أصاب دمشق عام ١٧٥٩ ، راجع نسيب صليبي ، تنقيبات حي الغراب في دمشق ، الحاشية ٣ و ٤ ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٣٥ (١٩٨٥)ص ١١٩ وما بعدها ٠ عن دهمان ومحمد كرد علي ٠

٤٤ـ راجع نسيب صليبي ، المقال المذكور آنفا ، ص ١٢٢ ٠

٤٥ـ المرجع السابق ، ص ١٢٢ ٠

★ ★ ★

☐ العنـاوين المفصلة لبعض المراجـع المذكورة في النص :

SAUVAGET, J. Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des Etudes Islamiques, VIII, 1934, PP. 422-480.

WATZINGER, C. & WULZINGER, K. DAMASCUS Die Antike Stadt. Berlin, Leipzig, 1921.

CHAD, Carlos, Les dynastes d'Emèse, Beyrouth, 1972.

ELISSÉEFF, Nikita, Damas, Encyclopédie de l'Islam.

BOWERSOCK, G. W. Roman Arabia, Cambridge Mas, London 1983.

SEYRIG, Henri, Antiquités Syriennes IV.

BOUNNI, Adnan, Le sanctuaire de Nabu à Palmyre, thèse de Doctorat d'État, Paris, 1987.

DUSSAUD, René, Temple de Jupiter Damascenien, Syria 3, 1922.

Corpus Insicriptonium Semiticarum, Pars Secunda.

JOUGUET, Pierre, L'imperialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient, Paris, (1972).

FOX, L. F. Alexander the Great, London, 1974.

COOK, J. M., The Persian Empire, London, 1983.

SAUVAGET, J. Plan antique de Damas, Syrie. T. XXVI, 1949, p. 314 ss.

DODINET, M. LEBLANC, J. B., VALLAT, J. P. & VILLENEUVE, F.

Le paysage antique en Syrie, L'exemple de Damas, Syrie LXVII/2 (1990) 339 ss.

خير صفوح ، تطور توزيع المياه في مدينة دمشق ، الحوليات الاثرية العربية السورية ٣٥ (١٩٨٥) ، ص ٢١١ـ٢٣٠ .

البني عدنان ، ابولودور الدمشقي أعظم معمار في التاريخ القديم ، دمشق ١٩٩٠ .

صليبي نسيب ، تنقيبات حي الخراب في دمشق ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، ٣٥ ، (١٩٨٥) ، ص ١١٩ـ١٣٨ .

حداد جورج ، دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب، الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ١ ، الجزء ٢ (١٩٥١) ص ٢٧٠ـ٢٧٤ .

عبدالحق سليم ، الفن الاغريقي وآثاره في الشرق ، مطبوعاتالمديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق (١٩٥٠) .

الشهابي قتيبة ، دمشق ، تاريخ وصور ، دمشق (١٩٩٠) .

الصفدي شفيق ، اقنية الري المتفرعة عن نهر بردى ، دمشق، دراسات تاريخية واثرية ، دمشق ، (١٩٨٠) ، ص ٤٥ـ٨٥ .

وقائع ندوة دمشق القديمة ، نقابة المهندسين ، دمشق ، (١٩٨٢) .

بعد انهاء محاولتنا في دراسة هذه الفترة من تاريخ دمشق وارسالها للمجلة أهدانا الزميل والصديق الأستاذ الدكتور مفيد رائف العابد كتابه الجديد القيّم عن « سوريةفي عصر السلوقيين ، دار شمال ، دمشق ، ١٩٩٣ » واننا اذ نثبته هنا كمرجع اساسي لهذه الفترة الهامة نؤكد اننا تمنينا لو أسعدنا الحظ بالاطلاععليه قبلهذا الوقت لاغناء بحثنا .

(المؤلف)

صورة مباشرة لحي دمشقي في الأربعينات*

نصر الدين البحرة

حين غادرنا منزلنا في حي مئذنة الشحم ـ وهو في الحقيقة منزل جدي لأمي ـ كان المكان قد ضاق بنا تماماً ، فقدكنا خمسة مع أمي ، وسادسنا أخي الأكبر الذي كان قد تزوج منذ سنوات ،وصار عنده ثلاثة أولاد ٠ وفي المنزل احدى خالاتي وزوجها وأولادها، وخالتي الأخرى وزوجها ٠٠ وجدتي ٠٠ وكان ثمة غرفة صغيرة في الأعلى احتلها شقيق جدتي أيضاً ٠٠ وهناك غرفة في الطابق المتوسط ، أجرتها خالتي الثانية لرجل وامرأته ٠٠ كانا جارين ظريفين لطيفين لا ثقلة لهما ٠

ولم ننتقل ، كما صار يفعل الكثيرون ، الى دمشق الجديدة الغربية ، فقد بقينا داخل المدينة القديمة ، حيث لبثنا سنوات في ذلك البيت في حي القيمرية ٠٠ وكان في الأصل جزءاً من بيت آخر كبير ،مؤلف من جزأين ، كما هي حال البيوت الكبيرة ، السلاملك والحرملك ٠ ويبدوأننا أقمنا في السلاملك ٠٠

كان ذلك أواخر الأربعينات ٠ ولئن كان كثيرون من أهل هذه الأحياء والحارات قد لبثوا قاطنين فيها ٠٠ فانكثيرين أيضاً ، تركوا دورهم، وانتقلوا الى الأحياء الجديدة في المدينة ، مخلفينالمكان للقادمين من الريف ، وخاصة أهل القلمون ٠٠ وقد نزل هؤلاء في تلك البيوت الشاغرة ٠٠

حتى ذلك الزمن ، لم يكن شيء منمعالم الحي قد تغير ٠٠ وإن تكن هوية السكان الاجتماعية ، قد أخذت تتغير ٠٠

(★) محاضرة القيت في ١٩٩٣/١٢/٢٩ في مكتبة الأسد بالتعاون بينها وبين فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب ٠

يومذاك لم أكن أتصور أن غيبتي عن حينا الأول ، حيث مسقط رأسي ، والغرفة التي ولدت فيها ــ وهي ما تزال على حالها حتى الآن ــ سوف تطول حتى تنوف على ربع قرن ·· بل قل : أكثر من ثلاثين سنة ··

صحيح أننا كنا نمر بالحي مرتين في الأكثر كل سنة ، صبيحة اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى ، فنزور عمتي معايدين ، ونشرب فنجان القهوة ونتناول الحلوى ·· ثم نمضي · وأنا شخصياً ، مرت بي ظروف قاهرة ، منعتني سنوات حتى من زيارة قبر والدي في تربة الباب الصغير والمرور لتهنئة عمتي بالعيد، وهي التي كنت أشم منها وحدها رائحة المرحوم أبي ··

ولكن هذه الزيارات جميعاً لم تكن لتعني أن الواحد منا ، قد استطاع أن يعود الى تلمس الحبل السري ، أو أن يراجع الذكريات الغافية ، الغائبة بعيداً في الزمان والمكان ··

·· وعندما هاج بي الحنين ذات يوم الى مرابع الطفولة ، فقد كنت أعلم أن الأمر يحتاج الى عدة زيارات · تماماً مثلما يحدث للحاج الذي يشعر بأن حجة واحدة لا تكفي ··

وإذا كانت الأيام التالية ، قد مكنتني من أن أمعن في البحث والتقصي ، إلا أن انطباع الزيارة الأولى ، ظل هو المهيمن والمسيطر على لحظاتي النفسية جميعاً ·

أردت قبل كل شيء ، أن أطمئن على معالم الحي العمرانية ، ففوجئت بأن بعضها قد تغير تماماً ، وكان ذلك قد حدث بالطبع ، قبل السبعينات إذ شمل مرسوم أصدره الرئيس حافظ الأسد ، دمشق القديمة داخل السور ، بالحماية من الهدم ·

وكان في الحي واحد من خانات دمشق القديمة ، هو « خان النحاس » ، وقد ظل حتى الأربعينات يقوم بوظيفة الخان التاريخية : الطبقة الأولى فيه اصطبلات للدواب ومخازن للبضائع ·· والطبقة الثانية لاقامة النزلاء ··

وأذكر أن أحد أركان الخان كان يشهد نحر الجمال ، لتسلخ من ثم ويبيع لحمها جزارون خاصون في الحي ·

•• ولقد نهض مكان الخان والدكاكين والحوانيت المجاورة جميعاً، بناء حديث ضخم ، ألقى بظلاله الثقيلة ، على كـل المواضع التي كانت تشهد جزءاً هاماً من نشاط الحي التجاري : أبو شاكر الحلاق الذي كان أول إنسان في هذا الحي أضع رأسي بين يديه • وإن أنسَ لا أنسَ كرسيه الخشبي الأنيق ، وتلك السنّادة الخشبية الضيقة المتطاولة التي تنزلق على مسننات حسب ارتفاع هامة الزبون، حتى إذا استقرت أرخى رأسه نحو الوراء مستريحاً على طراحة سوداء صغيرة • ويا الله •• كم كان يطربني صوت السنّادة وهي تنزلق •• في تكتكة لطيفة • وعند الباب كانت تتدلى حبال تسد المدخل تماماً ، وفي كل منها قطع من الخيزران بطول اصبع صغير ، وبين الواحدة والأخرى خرزة ملونة • وكان ذلك لمنع دخول الذباب الى الدكان •

وكان أبو شاكر يرتدي قنبازاً حريرياً من نوع الصاية ، ويلف حول وسطه زناراً ، حريرياً هو الآخر •• مثلما كان بعض الرجال يرتدي في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن •

•• وغير بعيد عن أبي شاكر ، كانت دكان أبي صادق ، وقد حفلت برفوف خشبية على بعضها قطرميزات فارغة •• وبعضها الآخر كان شاغراً تماماً ، إلا من القطط التي كانت تتناثر في جوانب الدكان ••

حسبت في البدء أن أبا صادق بائع قطط ، ولكنهم صححوا لي أنه من أهل الله ، وأنه أخذ على عاتقه العناية بقطط الحي جميعاً •• وهناك من أهل الخير من يعينه في شأنه هذا • كانت دكـان نجار نسيت اسمه ، لكني أذكر أنه كان يُعنى بصناعة إطارات الصور : « البراويظ » وقد صنع لي مرة إطاراً صغيراً وضعت فيه صورة والدي الذي رحل منذ سنوات، وما زلت أحتفظ حتى الآن به •• وبالصورة ذاتها •

•• والتالي كان عجوزاً مقلع الأسنان لكنه يضع على رأسه عمّة من نوع « اللام ألف » الأغباني وينادي باستمرار على بضاعته من الفواكه بصوت متقطع متهدج • وكان متخصصاً ببيع الفاكهة البائتة التي حال لونها قليلاً وانزاحت قشرتها • ومن أجل الترغيب في شرائها فقد كان ينادي هكذا : « المعاين •• حلو» ــ والمعاين تعني الفاسد قليلاً ــ •

أما أبو فايز الزيبق ، فقد اختص ببيع الفحم والدقّ للحي كله ، وهما زاد المناقل التي كان الدمشقيون يفتنّون في صنعها من النحاس ، الفحم يشعل في باحة الدار ، في وعاء خاص يدعى « الشعالة » ، في انتظار أن ينفث غاز الفحم السام ويغدو جمراً ، وحينئذ يوضع الدقّ وتحته قليل من الرماد : « الصفوة » وفوقه الفحم المتوهج ، فاذا ذوى وترمد ، حان موعد اشتعال الدقّ • وكانت سهرات الشتاء تتم حول المنقل ، وعليه أو في جانب من الجمر أو الدقّ تُغلى القهوة ويصنع الشاي •• وفي بعض الأحيان البطاطا •• وربما : البيض ••

•• أما المدفأة ، فكانت أكثر ماتستعمل عند الصباح ، زادها الحطب ، من خشب المشمش أو الزيتون •• على أن في الدار غرفة صغيرة يخزن فيها الحطب ، منذ أوائل فصل الخريف • وكنت أرى الحطابين ، يتجولون في أنحاء الحي ، وأمامهم الجمال المحملة بجذوع الأشجار وعلى أكتافهم الفؤوس الحادة لتقطيعها •• وكانت هذه مناسبة جميلة لنا نحن الصغار ، فنتجمع حول الحطاب ، لنراه كيف ينيخ جمله على الأرض ، وينزل الجذوع المربوطة بحبال على جانبي السنام •• ثم يبدأ تقطيعها وتكسيرها ، قطعاً في حجم تستوعبه المدفأة •

•• أذكر أن أمي رحمها الله ، كانت تغرينا بالاستيقاظ باكراً ، بعد أن صحت قبلنا بزمن ، بأن تقول : إنها أعدت لنا « حريرة » لا تزال حارة •• على المدفأة.

كان ذاك هو الجانب الشرقي من خان النحاس •• أما الجانب الجنوبي ، المطل على الشارع الرئيسي ، وهو جزء من الشارع المستقيم الممتد من باب الجابية حتى باب شرقي ، فقد اختفى أيضاً بطبيعة الحال •• ولكن بعض شاغليه ما يزال في الذاكرة ••

أولهم : أبو داغر التوتونجي ، وكان هذا اسم بائع التبغ ــ وهي كلمة تركية : توتونجي ــ بوجهه المهيب وشاربيه الأبيضين وقامته الباذخة وطربوشه الأحمر الطويل لا يفارق رأسه •• وإني لأراه وسط دكانه الصغيرة وأمامه تلك الرخامة البيضاء النظيفة ••

•• يليه « طيفور » وإخوته •• باعة « العرقسوس » •• وكان طيفور أحدب في أواسط العمر ، وقد غطى شفته العليا شاربان كثان أسودان •• ولم

تكن الابتسامة تفارق وجهه • أما السمان الذي يحاذيه فلست أدري لماذا كان اسمه: « أبو رسلان شرّ » مع أنني لم أره في أي موقف شرير على الاطلاق •

ومهما يكن من أمر ، فان مثل هذه التسميات كانت شائعة في حيّنا • فان صاحب الفرن القريب ، وهو من أكبر أفران الحي ، كان اسمه « فتوش » وهي أكلة دمشقية معروفة • وثمة حمصاني عرفناه باسم « أبو الفار » •• وآخر كان اسمه « أبو منصور الضبع » ••

وهناك واحد من أقربائنا ، كان يدعى « أبا ضلال » وبائع الخضار تحت الجامع اسمه « أبو عبده شدّو مطّو » وبائع المخلل قبالته سموه « أبو أكرم الزيق ميق » • أما بائع « الغلينا » ـ وهو الذي يقلي كلاوي وبيض وكبد الخروف ـ فان اسمه هو « مخ الشاكرية » وكانت إحدى رجليه مقطوعة عند الركبة، فيتنقل بواحدة صناعية يعرج بها •

•• وبين الدكاكين التي كانت عند الجانب الجنوبي من الخان دكان « أبو رعد » • ولم يكن عنده شيء آخر سوى البيض المسلوق •• وبعض الخبز •• بلى: دكان بكاملها لبيع البيض والخبز فحسب.

•• ومن طريف الأمور أن أحد جيرانه كان رساماً ، لكنه كان يبيع البن أيضاً. ولكن أي رسام هو ؟ كان المرء يأتيه بصورة شمسية أو ضوئية ـ والتصوير الضوئي كان قليلاً في ذلك الزمن ـ فيغطي سطحها بمربعات متناهية الصغر.. ثم ينقل الملامح حسب تلك المربعات ، الى رقعة كبيرة ، فوق حامل ثلاثي يحتل صدر الدكان ، وبعد ساعات يعطي الصورة الكبيرة •• طبق ملامح الأخرى الصغيرة تماماً •• وفي الذاكرة وجهه البيضوي الأسمر ، يتوسطه أنفه الأقنى، وتحته شاربان أسودان دقيقان وخطهما الشيب قليلاً •• وفوق عينيه نظارة طبية سوداء أنيقة • وكنت أشعر أن وجوده نشاز وسط تلك الأوركسترا الشعبية المتناغمة •• ولعل هذا هو السر في أن إقامته لم تستمر طويلاً في الحي ••

بين المعالم التي تبدلت في الحي عدة أبنية متجاورة هدمت جميعاً ، ونهض مكانها بناء حديث احتلته مدرسة ابتدائية •

كان ثمة كُتّاب أنشأه أحد أبناء الجالية الجزائرية التي هاجرت الى دمشق في أواسط القرن الماضي ، بعد أن نزح الأمير عبد القادر الجزائري واختار الاقامة في دمشق • وقد أطلق على كتّابه ذاك اسم « مدرسة الارشاد والتعليم » •

وفي أحد فصول الصيف ، وضعتني أمي في هذا الكتّاب ، وكنت قد أنهيت الصف الثاني الابتدائي •• ولكني لم أمكث طويلاً فيه •• وكانت الأمور تسير فيه ، مثلما كانت قبل ظهور المدارس الابتدائية في دمشق : شيخ يشرف على الصف ثم يغيب •• وعريف ، من صف متقدم يتولى تعليم التلاميذ • وثمة العصا الطويلة ، والجلوس على حصيرة من القش على الأرض ، ولوح الأردواز ••• الخ ••

•• ومن الدور الملاصقة المهدومة دار البوارشي ، وقد حول صاحبها جزءاً منها الى مصنع صغير للسكاكر والكرميل • ومن أبناء هذا الرجل الصحفي السوري بشير البوارشي العامل في صحافة الخليج.. وكان شريكاً لنا، بل مموّل ، لمجلة طلابية أنشأناها عام ١٩٥٢ باسم « الشعلة » وصدرت منها عدة أعداد •

•• ودار الأرناؤوط • وكانت هذه نموذجاً ممتازاً للبيت الدمشقي ، أعرفها جيداً لأن أحد أبنائها كان صاحباً لنا ، رغم أنه يكبرني ببضع سنوات ، هو المرحوم محمد الأرناؤوط : ينفتح باب الدار على دهليز طويل معتم يفضي الى باحة الدار الواسعة ، تتوسطها فسقية ماء تتدفق وسط مياه الطالع •• وفي جانبها الشرقي المطبخ والحمام ودورة المياه ، وعند الجنوب تتصدر غرفتان بينهما ليوان « إيوان » تتوسطه مرآة أنيقة تدعى في دمشق « قنصلية » •• وعند الزاوية الجنوبية الشرقية درج ينتهي الى غرف الدار العليا المخصصة للمعيشة في الشتاء ••

وفي الجهة الشمالية من الباحة كانت القاعة الكبرى • تدخلها من باب خشبي مشغول ، فيواجهك ممشى ضيق ، في نهايته فسقية ماء تنهل من الطالع ذاته ، وعلى جانبها مصطبتان كبيرتان عاليتان •• في صدر كل منهما « كتبيات » خشبية مشغولة ومرسومة ، وقد صفت عليها مزهريات الصيني والكؤوس الكريستالية والزبادي والكازات الزجاجية الأنيقة • أما السقف ، فهو عجمي مشغول بعناية ،

ومزخرف بأشكال طبيعية نباتية ‥ وفي الحق فان جدران الغرفة كلها كانت مغطاة بالخشب المزخرف ، تتناثر في أنحائها أبيات شعرية مكتوبة بخط فارسي جميل .

وقبالة مدرسة الارشاد والتعليم كان المدخل الغربي لدار نظام التي يجري ترميمها الآن ‥ وقد أذهلني يوم رأيتها في الثمانينات ، أن محمصة للقضامة والبزر والفستق قد احتلت مدخلها ‥ أما الأقسام الأخرى ، فقد كانت خربة مهجورة ينعق فيها البوم والغراب.. علماً أن هذه الدار الكبيرة قد أنشئت في أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد رأيت لها صورة حفر « غرافيك » وضعها فنان غربي زار دمشق في أواسط القرن التاسع عشر ‥ وبدت فيها باحة الدار الكبرى ، وبعض غرفها ‥

ولم يكن هذا هو المصير المؤسف لدار نظام وحدها ، فتلك هي دار «آل الكسم» ودار « آل الصواف » ودار « آل القباقيبي » ‥ وسواها كثير ‥

وكانت هذه الدور جميعاً تطل على جادة ناصيف المنحدرة من مصلبة « مئذنة الشحم » باتجاه الجنوب ‥ نحو حي الشاغور .

وعند مطلع هذه الجادة كان جدار المسجد الشرقي ـ مسجد مئذنة الشحم ـ تواجهه تلك المئذنة التاريخية الجميلة التي أخذ الحي اسمه منها ‥ ويقال أيضاً إن الاثنين قبسا اسمهما ، من « وليّ »كان في الحي ويدعى « الشحمي » . وقد سمعت جدتي تتحدث مرة أنها نهضت عند الصباح ، واتجهت نحو البئر الكباس كي تتوضأ لتصلي صلاة الصبح ، فاذا هي ترى هذا الولي بثياب بيضاء ، فحياها ثم لم يلبث أن اختفى . قالت جدتي : إنها لم ترتعد أو ترتعش بل فرحت وتفاءلت واستبشرت ‥ فما أندر ما يظهر الشحمي أمام أحد ‥ وإن ظهوره ليؤكد أنها امرأة صالحة .

‥ عند أسفل جدار الجامع كان اثنان من باعة الخضار ، أحدهما المذكور آنفاً : « أبو عبدو ‥ شدّو مطّو » والثاني « جميل الفحام » وجزار يدعى « المشاعلي » ـ وربما كان جده من حملة المشاعل فاكتسبت الأسرة هذا الاسم ـ ثم ‥ « أبو سعود الدقاق » ومهنة « الدقاق » هذه من المهن التي انقرضت في دمشق ، وكان صاحبها يدق «الكتكت» وهو قشر القنب ‥ يضع أمامه جذع

شجرة غليظة قصيرة ، ويدق عليه بفأس صغيرة ذلك القشر حتى يصبح نتفاً صغيرة تُخلط بمائع الكلس لتقويته ثم تطلى به جدران البيوت ، فتخفي الطين من تحتها ، وتكسب الجدران منظراً أبيض لامعاً ٠

وأود هنا أن أتوقف قليلاً لأتحدث عن المنزل الذي يلي هذه الدكاكين ، لأنه نموذج آخر من بيوت دمشق ٠ كان صاحب البيت هو الخباز « فتوش » نفسه ، وقد دخلته كثيراً لأن صلة قربى تربطني بأهله ، ولأن ابن صاحب الدار كان من زملاء الدراسة : ثمة خلف الباب الدهليز المعروف ، ينحدر قليلاً ، نحو أرض الدار ، وهي صغيرة نسبياً ، وفيها غرفة الضيوف والمطبخ والحمام ودورة المياه٠٠ وفي جانب منها درج حجري طويل ، تحته فسقية ماء صغيرة ، يفضي الى عدة غرف في الأعلى ٠٠ يجيء عدد منها فوق الدكاكين المذكورة ٠ وقد انتبه الرحالة ابن جبير منذ قرون طويلة الى هذا التراكب في بيوت دمشق ، وله عنده تفسيره الاجتماعي والعمراني ٠٠

٠٠ وإذ نتجاوز باب هذه الدار ، نصل الى دكان « عبده الحلاق » ، وكان هذا مختصاً بقلع الأضراس والأسنان إضافة الى مهنته ، وكان يختلف بذلك عن حلاق الحي الثالث « أبو ياسين الهامش » الذي كان مختصاً بالمداواة وبيع « العلق » وتعليقه أحياناً ٠٠

أما الدكان التالية وهي الأخيرة في جادة ناصيف ، فقد كانت للمبيض ٠ والتبييض ، هو احدى المهن الهامة في دمشق القديمة ، فقبل استخدام « الألومنيوم » في صنع أواني الدار من طناجر وصحون ، كانت تصنع من النحاس وإذاً ، فقد كان لا بد من تبييضها ، منعاً لأذى تفاعل النحاس الخالص ، مع ما يطبخ ويوضع في تلك الأواني ٠ ٠

وقد كانت لي وقفات طويلة أمام دكان المبيض التي يغشّي السخام الأسود مختلف جدرانها وأنحائها ٠ وكنت أستطرف في الدكان حفرتين ، الأولى عميقة ، وهي التي ينزل فيها المبيض ، ليعمل ، وبجانبه الكور الذي يعمل بمنفاخ هوائي ، فيوهج الجمر أمامه ، حيث يضع الأواني ويطليها بالقصدير.. أما الحفرة الثانية فكانت غير عميقة ، وهي مخصصة لعمل يسبق التبييض ،

فبعض الآنية التي تراكم عليها الزمن كانت تحتاج الى فرك، فيضعها المبيض تحت قدميه مضيفاً إليها بعض الرماد والرمل الناعم ، ويأخذ يفركها بقدميه في حركة تشبه الرقص ، وقد رفع سرواله الأسود، وضم فضل ثوبه الأعلى الى خصره ، في حين يتشبث بكلتا يديه بعصا غليظة غُرس طرفاها في الجدار على نحو متين . كان الرجل يراني وأنا أتأمل حركاته الراقصة الموقعة كأنه يرقص « سامبا » أو « جيرك » بلغة هذا الزمان ، فيبتسم .. بحنان وعذوبة .. ثم يتابع عمله .

وبين الأماكن التي كنت أمضي وقتأفي الوقوف عندها أتفرج وأتأمل ، دكان الحداد « جرجي بيلونة » . وقد حدث مرة أن التقيت برجل يقاربني عمراً ، فقلت له : أعرف وجهك . لكنه لم يعرفني . وعندما أجهدت الذاكرة قليلا ، ورجعت الى تلك الفترة من الأربعينات، قلت له بثقة : ألم تكن تعمل عند جرجي بيلونه . فقال : بلى .. كنت .. ولكن كيف تذكرني ولا أذكرك قلت : كنت أقف ملياً بجانب دكانكم أتأملكم وأنتم تعملون ، تصنعون السكاكين والخناجر المجدلانية . وكان أكثر ما يشرني في عملكم، تطعيمكم مقبض الخنجر وترصيعه بالحجارة الملونة .. كريمة كانت أو غير كريمة .

وكان هذا شأني مع « الكوا » ..كواء الطرابيش ، وهي أيضاً من المهن الهامة التي انقرضت في دمشق ، فقد مرزمان على الناس ، كان عليهم أن « يتطربشوا » جميعاً كما يقول ابراهيم عبد القادر المازني . وكان ينظر الى من خلا رأسه من طربوش نظرة غير مريحة . والأطرف كما سمعت ، أن معتمر الطربوش القصير ، كان ينظر إليه على أنه من الشباب .. غير الراكزين . ـ وفي مطالع هذا القرن ، كان من لم يبلغ الأربعين من عمره يدعى : ولداً ـ أما الرجل الراكز « المعدَّل » فهو الذي يعتمر الطربوش الطويل ..

أما الكواء صاحب الدكان ، فاسمه « واصف الطرابيشي » ويبدو أن الأسرة كلها كانت عريقة في المهنة ، حتى أخذت اسمها منها ، يؤكد ذلك أن كواء آخر للطرابيش في الحي ، كان من الأسرة ذاتها .. ويحمل اسم الطرابيشي نفسه .

ولست أدري من أخبر واصفاً هذا بأنه يشبه الملك فاروق ، فاذا هو يتشبه به بكل شيء ، شاربيه ، طريقته في ركز الطربوش على رأسه ، وأخيراً ، فانه من

قبل أن يتزوج دعا نفسه « أبا فاروق » ،وأكل أصحابه « حلوتها » في حفلة سخية في عين الخضرة . ذاك أن من يلقب بلقب ما .. كان عليه أن يقيم وليمة لأصحابه في هذه المناسبة ، تتكرس بعدها تسميته باللقب المختار : أبو أحمد . أبو عبده . أبو ياسين .. أبو فاروق .

وأذكر أن أحدهم لقب نفسه قبل الزواج بلقب معين : « أبو فهد » فعندما تزوج ورزق بغلام ، أصر والده ــ أي جد الولد ــ على تسميته باسمه أي « أبو أحمد » ولكن أصحابه ظلوا ينادونه « أبا فهد » فأقام وليمة لتكريس اللقب الجديد. فكان الداخلون الى الوليمة .. يحيّونه قائلين : مرحباً أبا أحمد ، فحين أكلوا وتفكهوا وتحلوا ، وصار عليهم أن يغادروا الوليمة ، عاد كل منهم يودعه عند الباب قائلاً : ديارك عامرة يا أبا فهد ..

وكان في الحي اثنان مهنتهما تأجير وإصلاح الدراجات الهوائية: «البسكليت» والواحد منهما اسمه « بسكليتاتي » ، فكنا نستأجر من أحدهما دراجة نذهب بها الى الغوطة الشرقية .. فاذا استأجرناها طوال الليل : « ليليّة » ذهبنا أبعد من ذلك .. وكان أقصى مكان تذهب إليه هو « السيدة زينب » . وكان حلم الواحد منا أن يحصل على دراجة خاصة به .

* * *

يرتفع حي مئذنة الشحم في جانبه الشرقي رويداً رويداً ، حتى يعلو عند تلتي النجارين والسماكة ارتفاعاً يلفت النظر ، عن مستوى الشارع الذي يتوسط الحي ، ثم ينحدر جنوباً نحو زقاق يدعى « زقاق الناصري » . وفيه مقام « الولي الناصري » .. ما يزال قائماً حتى الآن ، قبالة المنزل الذي ولد فيه الشاعر الكبير نزار قباني .

وهناك مقهى الناصري ، وفرن الناصري وحمام الناصري . فأما المقهى فما يزال على حاله حتى الآن تقريباً ، وإن يكن رواده قد أمسوا قلة قليلة .. وأما الفرن ، فما برح حتى الآن ، وإن يكن صاحبه قد توفي قبل سنوات ، وكان اسمه « اسماعيل منكيرة » إلا أن الكثيرين كانوا يدعونه « هتلر » . وكان هذا هو الآخر معجباً بهتلر ، في أوج عزته وقوته ..وكانت له مواقف في هذا المجال إبان الحرب

العالمية الثانية ، فقد كان مؤمناً بعظمة هتلر وحبه العرب وانتصاره لهم • وكان يقول : انتظروا •• تروا • وكان لـه شاربان مثل شاربي هتلر تماماً : فراشة تحت أنفه • وأما الحمام الذي كانت أمي تأخذني معها إليه ، بين أفراد الأسرة ، فقد غدا مستودعاً • في آخر مرة ذهبت مع أمي الى هذا الحمام ، وكنت في الحادية عشرة ، ولكن شكلي وطولي كانا يوحيان بأكثر من ذلك ، فما إن أبصرتني النساء المستحمات ، حتى اشتعلت ثورة بينهن ،وأخذن يقرعن أجران الحمام بالطاسات ويولولن ، قائلات : المرة الجاية •• جيبي أبوه معك •• وكان أن تداركت الأمر القيمة على الحمام ، فأفردت لنا مقصورة وضعت على بابها ستارة ، ورجت أمي بحب أن لا تعود الى مثلها ••

•• وفي الطريق الى الناصري ، تذكرت واحدة أخيرة من المهن التي انقرضت أيضاً : الرشاش • كان ذاك أبا محمود الأطرش • وكان أطرش حقاً • عرفته تماماً ، وكان ابنه « خيرو » من زملائي في المدرسة • أزرق العينين ، في قامة مربوعة ، منحن قليلاً ، وعلى ظهره ربطت قربة جلدية ملأها ماء ، وراح يرش دروب الحي ، في حين يتبعه كنّاس •• يتولى التنظيف بعده •• ولم يكن أنظف من حينا •• يومذاك ، رغم أن بعض دروبه كان ترابياً •

كانت الطنابر هي وسيلة النقل الأولى في حينا • وكان لها نوعان : واحد مربع الشكل تقريباً بعجلتين ، في مساحة تناهز مترين مربعين، تحيط به من جانبيه دفتان خشبيتان ترتفع الواحدة منهما أقل من نصف متر ، على أن تُحصر البضائع المنقولة بين هاتين الدفتين • وكثيراً ما كان ينقل الآجرُ والتراب والرمل على هذه الطنابر التي يجرها بغل متين •

أما النوع الثاني فقد كان متطاولاً يكاد يبلغ طوله ثلاثة أمتار ، لكنه ضيق نسبياً • وبست عجلات أصغر ، من عجلات النوع الأول ، ويجره في الأغلب ثلاثة خيول ، مربوطة على التوالي ، وكان مخصصاً للنقل السريع ، ذاك أنه كان يمر في الحي ، في مثل لمح البرق •

•• وبين وقت وآخر كانت تمر عربات الركاب يجرها حصانان •• أما السيارات الشاحنة فقد كانت تجوز الشارع المستقيم أحياناً لكنها كانت قليلة •• وأما سيارات الركوب ، فكان مرورها نادراً •

وأذكر أن شيخ حارتنا توفيق القباني، وكان لديه مصنع للسكاكر والملبس في زقاق معاوية بالحي ، وهو من الذين دعموا رجال الثورة السورية مادياً ومعنوياً ، وهو والد الشاعر نزار قباني،أقام وليمة عام ١٩٤٧ للمثل الكوميدي المشهور بشارة واكيم ، لبناني الأصل الذي كان وجوده ضرورياً بلهجته اللبنانية الأصيلة في الأفلام المصرية ٠ وحين ظهرت السيارة التي تقله في مصلّبة الحي ، أصر الشبان على أن يحملوها..ويرفعوها بأيديهم.ولست أدري إن كان ذلك احتفاء بالممثل فحسب ٠٠ أم فرحاً بدخول مثل هذه السيارة الجميلة حينا ٠

٠٠ على أن هؤلاء الشبان أنفسهم كانوا يتشاجرون في كل مساء تقريباً ٠ لماذا ؟ لست أدري ٠ ولكنني كنت أرى بين مساء وآخر ، واحداً منهم وقد طعنه آخر بخنجر أو موس كباس،والرجال مجتمعون٠٠ ورجال الشرطة يخفّون من مخفر الحي القريب لحسم الموقف ٠ الغريب في الأمر أن بعض هؤلاء كانوا من المشاركين في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وخاصة الاضراب المشهور عام ١٩٣٦ ٠ وأدى بعضهم أدواراً مشرفة في شهر أيار ١٩٤٥، يوم اندلعت المظاهرات في مختلف أنحاء سورية ، منادية بالجلاء وانشاء الجيش السوري ٠

أطرف ما في الأمر أن واحداً من هؤلاء وكان يلقب بأبي دعاس ، واسمه تيسير العماوي ــ وقد كان بطل قصة قصيرة لي عنوانها:حكاية مطواة ــ تشاجر مع آخر ، ففر هذا أمامه ٠٠ فلحقه حتى باب توما ٠٠ وهناك ضاع المطارَد في غبشة المساء بين الناس ، فلم يكن من العماوي الذي كانت مطواته بيده ، إلا أن رفعها في الهواء وصاح : العماوي يسحب موسه ويرجع بلا دم ٠٠ وطعن نفسه ٠

ولكن أمسيات الحي لم تكن دامية جميعاً ، فقد كانت تقوم زينات باذخة عند المساء على جانبي الشارع المستقيم أمام مسجد الحي وقبالته ٠٠ فتعلق السجاجيد ، وعند أطرافها أغصان الزيزفون ، يؤتى بها من الغوطة ، وفوقها تعلق أيضاً السيوف والتروس وصورة رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي٠

وكان عيد المولد النبوي الشريف ،وعودة بعض الوجهاء في الحي من الحج مناسبة لاقامة هذه الزينات ، وإذ يخلو الطريق تقريباً من مرور العربات والعجلات ، كان يبدأ الاحتفال ٠٠ فينبري بعض الأقوياء ، بلباسهم التقليدي

الذي كان شائعاً في الحي : الشروال ،والصدرية ، والميتان ، والشملة ، ويتبارون بلعبة الخيزرانات الطويلة «الحكم»، في يمين الواحد منهم خيزرانة وفي يسراه ترس مستدير من القماش الذي يغلف لبادة غليظة مهمتها تلقي الضربات ٠

يبدأ اللعب باستعراض العضلات ٠فيقوم كل واحد بعرض فردي خاص ، يلوح خلاله في الهواء بخيزرانته ، ثم يتلقاها بترسه ٠٠ وربما قفز خلال ذلك ، ثم انثنى نحو الأرض ، ليعود الى القفز من جديد ٠٠ على نحو آخر ٠٠

الاثنان يلعبان : واحد عن يمين الطريق وآخر عن يساره والأنظار موزعة بينهما ٠ حتى إذا انتهى هذا الاستعراض، بدأ اللعب الحقيقي ، فحاول كل منهما تسديد ضربة صائبة بخيزرانته الى جسد الآخر ، فيتلقاها هذا ببراعته ومرونته.. بترسه ٠٠

ولم يكن بد بطبيعة الحال ، من أن تسقط بعض الضربات على الجسد ، لكنها لم تكن ضربات قاسية مؤذية ٠

وفي نهاية كل شوط ، وفي طقس احتفالي تمثيلي ، كان ينهض أحد الوجهاء الكبار فيفصل بين الرجلين ، ويجعل كلاً منهما يقبل شاربي الآخر ٠٠

حينذاك يكون الوقت قد حان ، لممارسة لعبة أكثر جدية ، هي لعبة السيف والترس ٠ وكان يتولاها رجال الحي الكهول ٠٠

كان اللعب يبدأ باستعراض تقليدي للقوة ، فينتحي كل واحد جانباً من الطريق ، ملوحاً بسيفه في الهواء ، في حركات ، تنم عن مهارة وخفة ، ثم يتلقاه بترسه ٠٠ ومن ثم يضرب بطرفه حجارة الطريق السوداء ، فيتناثر الشرر ٠٠

ومثلما كان الشبان يفعلون ، فكذلك كان هؤلاء الكهول ، ينثنون نحو الأرض ثم يهبون قافزين ٠٠ معلنين استعدادهم لبدء اللعب ٠٠

كان الوحيد المسموح له بأن يلقي بتعليقاته المازحة هو مؤذن الحي « أبو كاسم حصرم » فقد كان أكبرهم عمراً ،وأخفهم ظلاً ، ولم تكن تعليقاته جارحة.

كان مثل هذه الاحتفالات يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وخلال ذلك يكون سمر وأحاديث وحكايات يشترك فيها الجميع ٠

وكانت لأهل الحي مطارحهم الخاصة للنزهة ، قلما تجاوزوها الى الربوة أو دمر أو عين الخضرة أو عين الفيجة في الأحوال العادية ٠

كانت تلك المتنزهات ثلاثة مواضع متقاربة : بساتين القراونة جنوب حي الأمين والشاغور ويقصدها الشبان في الأمسيات والليالي المقمرة ، فيحملون الى هناك عدة القصف والسمر : بابور الكاز · ابريق الشاي وكؤوسه · وربما حمل أحدهم من منزله حاكياً « فونوغرافاً »صغيراً نقالاً مع اسطواناته ·· وربما آثر بعضهم أن يشرب العرق بدل الشاي أو القهوة ·

·· الآن درست هذه البساتين ، وكان بينها بستان الذهبي الذي استشهد فيه حسن الخراط عام ١٩٢٥ ، وقام مكانهما يسمى : المنطقة الصناعية ·· حيث يندر أن يرى الانسان غصناً أخضر ·

وحديقة الصوفانية ، غير بعيد عن سور دمشق ، حيث ينقسم أحد فروع بردى قسمين يحيطان بالحديقة من جانبيها ·

وكان لأمي رحمها الله ، وإحدى خالاتي ، ولع خاص في تناول قهوة الصباح في هذه الحديقة ، وكانت تصحبني معها لأحمل السلة التي تحتوي على أدوات القهوة ·· وبعض الطعام للافطار ·

·· وما تزال الحديقة على حالها تقريباً ، غير أن حالة النهر المتردية جعلت زيارتها غير مستحبة ··

·· وكان هناك أخيراً ، ضفاف فرع آخر من بردى، عند جامع الشيخ رسلان.. وقد كان المتنزهون ينتشرون هناك ·· حاملين معهم ، كما هي عادة الدمشقيين ، كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه في مثل هذه النزهة ·· أما نحن الأولاد ، فقد كانت لنا تسليتنا المستحبة ، مع أسراب البط التي كانت تسبح في النهر ذاهبة آيبة ·· تتلقى الطعام الذي نقذفه نحوها ·· وربما جاء بعضنا بشبكة صغيرة ، حاول بها أن يصطاد بعض السمك ··

ما يزال بردى يمر من هناك ·· ولكن لم يبق مكان للنزهة عند الضفاف ·· وتلاشت الأشجار التي كانت تبسط ظلالها الوارفة على المتنزهين ·· واختفت أسراب البط الأبيض تماماً · ومع الروائح غير المستحبة المنبعثة من النهر اختفى السمك أيضاً ·· من يستطيع أن يعثر على سمكة واحدة ·· في نهر بردى ؟

لمحة تاريخية عن قصر العظم

حسن كمال*

القصر الذي سنتناوله في بحثنا اليوم هو واحد من أهم معالم مدينة دمشق التاريخية والأثرية والسياحية .

أقول ذلك لأنه لم يبق فيها أي أثر للقصور التي شيدت عبر العصور المتتالية وذلك لأسباب شتى منها الكوارث التي ألمت بهذه المدينة البطلة . ومنها ضعف المواد التي استعملت في بنائها .

فنحن لا نعرف من قصور بني أمية الا ما بني خارج المدينة ، أما ما بني فيها فلا نعرف عنه شيئاً ، وقد ألف ابن العجائز كتاباً في قصور بني أمية ولكنه لم يصل إلينا ، وكذلك ذكر ابن عساكر عدداً من دورهم كدار هشام ودار عمر بن عبد العزيز ولكنه لم يصف أياً منها ، حتى ولا الخضراء ، دار الأمارة التي بناها معاوية وأقام فيها فترة طويلة من الزمن .

وفي العصر العباسي شاد المتوكل قصراً بين داريا والمزة ، نظم فيه البحتري قصيدة عند ذكره دخول المتوكل لدمشق والمنشآت التي أنشأها فيها . ومن تلك القصيدة هذا البيت :

العيش في ليل داريا إذا بردا والراح تمزجها بالماء من بردى

وبنى خمارويه في الربوة قصراً غير أن أوصافه غابت عن المؤرخين .

★ مدير متحف التقاليد الشعبية بدمشق .

أما السلاجقة فكان مقرهم في قلعةدمشق حتى إذا جاء نور الدين أنشأ في القلعة « دار المسرة » كما أن القلعة غدتسكناً لملوك الأيوبيين في حين أن أمراءهم كانت لهم قصورهم في المدينة كدار الستخاتون ، وقصر الملك الأشرف ٠

وفي زمن المماليك ، كانت لأمرائهم ونوابهم دور وقصور غاية في الابداع منها قصر تنكز الذي بناه في داريا ودارالأمير ابن منجك وكانت في المنيبع، أي في الأرض التي يشغلها حي الحلبوني اليوم، غير أنه لم يصلنا من أوصافها ما يشفي غليل الباحث ٠ ويبقى القصر الأبلق أعظم ما بناه المماليك في دمشق وقد تحدث عنه القلقشندي واصفاً جودة مكانه ومتانة بنيانه وحسن ترتيبه ونظامه ٠ وقد بقي حتى العصر العثماني حين قام السلطان سليمان سنة ١٥٦٠ بهدمه وأخذ أحجاره ليبني مكانه التكية المعروفة باسمه في دمشق ٠ وفي العصر العثماني ارتفعت في دمشق وحماه وحلب أبنية كثيرة على أن أعظمها كان قصر العظم في دمشق ١٧٤٧ وقصر العظم في حماه ١٧٥٠ ، وكلاهما بناهما أسعد باشا العظم في البزورية ٠

وأسعد باشا هذا ينتمي الى أسرة عريقة اشتهرت في القرن الثامن عشر برجالاتها الذين حكموا كوزراء خلال فترة طويلة في سورية ، وقد تناول عدد من المؤرخين الكلام على هذه الأسرة منهم ثريابك في « السجل العثماني » وجودة باشا في « تاريخ الملوك » وابن البرزنجي ، والسويدي البغدادي في «حديقة الوزراء» والبديري الحلاق الدمشقي ٠ وغوستاف لوبون في «حضارة العرب» وغيرهم كثير ٠

ومن هذه الأسر نشأ أخوان باسلان هما قاسم وشقيقه ابراهيم جد الأسرة العظمية في دمشق وحماة ومعرة النعمان ٠٠ وتولى منهم عدد من الوزراء شؤون سورية وضواحيها ٠ وجميعهم تركوا لنا آثاراً رائعة منها بناء المدارس والمكتبات وتشييد الأبنية ، ومن مشاهيرهم أسعد باشا صاحب هذا القصر الذي نحن بصدده ، وأسعد باشا هذا ابن اسماعيل بن ابراهيم الذي نشأ في قونية ٠

ولد أسعد باشا في دمشق سنة ١١١٣ هـ الموافقة لعام ١٧٠١ درس العلوم واللغات وأتقن الفارسية والتركية والعربية وألمّ ببعض العلوم والآداب ، وكان له ولع خاص بالفروسية وإشادة المباني ٠ وكانت أول ولايته على حماه حيث نال

رتبة مير ميران ومن ثم حصل على رتبة الوزارة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م ونقل الى ولاية دمشق خلفاً لعمه سليمان باشا فأدار شؤونها خلال أربعة عشر عاماً ، كما كان أثناءها أميراً للحج ، فبنى الكثير من المنشآت ، في كل المناطق التي خضعت لحكمه ، منها قصره في حماه الذي يعتبر من أروع القصور ، والذي يشغله اليوم متحف حماة ، وقصره في دمشق الذي أقيم فيه متحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدوية منذ عام ١٩٥٤ ، كما أقام جسر الكسوة ، وأكثر من عمارة الخزانات والأبراج على طريق الحج منها في المعظم والفحلتين وقلعة المدائن التي ذكرها شاعره ، الشيخ سليمان بن أحمد المحاسني الدمشقي، وأرخها من سنة ١١٦٨ هـ، ومن أشعاره فيها قوله ·

حصن المدائن قد بناه أسعد   في أمر محمود أطل بقاه

عدا ما أجرى من الخيرات والمبرات في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبعد ولايته في دمشق نقل الى حلب ١١٦٦ هـ / ١٧٥٥ م ثم تولى شؤون سيواس ومن ثم عزل عنها واستدعي الى أنقرة ، اثر تهمة وجهت اليه ، حيث تم خنقه في أحد حماماتها وبذلك انتهى تاريخ هذا الانسان العظيم ، واذا كان أسعد باشا من أعاظم البناة ، الا أن عصره اتسم بالفوضى وظلم الرعية والاهمال لشؤون الحكم ، ولا أدل على ذلك مما كتبه معاصره الحلاق البديري الذي وصف لنا وصفاً دقيقا الحالة الاجتماعية والفوضى وانعدام الأمن التي كانت تسود أيام حكمه ، ومع هذا فقد ترك الكثير من المنشآت ومنها قصره في دمشق الذي لا يعدو أن يكون بيتاً دمشقياً أصيلا ، وللبيت الدمشقي صفات ومميزات قد لا نجدها في غيره من البيوت ، فهو من الخارج يبدو متواضعاً أصمّ لا زخارف فيه ولا فتحات اللهم إلا فتحة الباب الخارجي وأما من الداخل فهو جنة فيحاء لما تحلى به من جمال من الناحية الطبيعية والمعمارية ، إذ يجد المرء فيه كل ما من شأنه أن يغري ساكنيه البقاء فيه ، ويتجلى عنصر المفاجأة في البيت الدمشقي عندما يجتاز المرء الباب الخارجي ليجد نفسه أمام باحة تآخت فيها الطبيعة الغنية مع البناء الآخاذ والماء المنتشر في كل الأرجاء ، فحيثما يممت وجهك في البيت الدمشقي استقبلتك الطبيعة بثمارها وأزهارها والأبنية بزخارفها وجمالها ·

والى جانب ذلك هناك الأواوين الواسعة المطلة على الصحن ، المزخرفة جدرانها بالأبلق ، وهناك القاعات الواسعة ذات السقوف الخشبية المرتفعة والجدران السميكة والفساقي الجارية مياهها في أكثر القاعات • الى جانب الزخارف الرخامية والمرمرية كل هذا نجده موفوراً في البيوت الدمشقية الفخمة •

في ربيع ١٩٢١ أرسل المجمع العلمي ومتحف اللوفر في باريس السيد « أستاش دولوري » الى سورية للتنقيب عن الآثار الاسلامية في دمشق وفي عام ١٩٢٢ اشترى دولوري القصر (قصر أسعد باشا العظم) من أصحابه بـ ٦٠٠٠٠ ليرة سورية جاعلاً منه مقراً له ، وأعلن أنه سينشىء فيه مدرسة لتعليم الصناعات الوطنية التي اشتهرت بها دمشق وفي عام ١٩٢٥ إبّان الثورة السورية احترق القصر وزالت أكثر محاسنه ، ويمكن لزائره القادم إليه من الشارع المستقيم (شارع مدحة باشا) أن ينحدر في سوق البزورية الى آخرها ليجد على يمينه زقاقاً مرصوفاً موصلاً الى القصر الفخم ، وإذا ما اجتاز بابه الخارجي الغربي ، وصل الى دهليز ينتهي بمدخلين الأيمن منهما يقود الى السلاملك والأيسر يقود الى الحرملك والخدملك • وفيما يلي تفصيل ذلك •

من المعروف أن هذا القصر قد تأثر قبل كل شيء في تخطيطه العام بالمناخ وبحاجات صاحبه وبالغرض الذي أنشىء من أجله • وقد أنشىء في الحقيقة للسكن أولاً ولاستقبال رجال الدولة والرعية ثانياً ، واذن فطبيعة العمل والحياة فيه تقتضي أن يكون فيه قسمان : قسم عام لاستقبال الناس وقسم خاص للحريم والأزواج ، يضاف الى ذلك قسم خاص بالخدم والاصطبلات • أما القسم العام فيدعى بالسلملك والقسم الخاص بالحرملك ، وقد روعي بالسلاملك أن يكون فيه مكان يجلس فيه الوالي للناس ويستقبل فيه أرباب الدولة وأصحاب الأمور •

والسلملك هنا مؤلف من صحن مستطيل وفي صدره نحو الجنوب إيوان كبير يطل على الصحن • الذي تتوسطه بركة ماء واسعة • وعلى جانبيه غرفتان واسعتان وغرف أخرى موزعة في الجهات الغربية والشمالية ، وفي شرق الصحن قام بناء حديث عام ١٩٣٥ أعد لسكن مدير المعهد الافرنسي الذي كان يشغل القصر آنذاك • وقد بناه المهندس ايكوشار آنئذ

أما الحرملك فهو أكثر أهمية وأعظم شأناً لأن حياة الأسرة السجينة بين الجدران توجب أن يكون في الدار كل ما من شأنه الترغيب بالبقاء فيها ، لذا كان يعنى أن تكون حسنة الاتجاه وأن يكون فيها قاعات تسطع فيها الشمس وأخرى يجثم فيها الظل وثالثة تجد فيها البرودة هرباً من حر الصيف وأن يكون فيها صحن واسع بلطت أرضه بالرخام تلعب فيها الصبايا ، وبحرة أو بحرات يتدفق منها الماء • وفي أطراف الصحن ووسطه أحواض فيها الأزاهير والأشجار المختلفة أنواعها، كالليمون بنوعيه والبرتقال والكباد ، والنارنج والمشمش الهندي ، والورد والياسمين ، والفل والأزهار الموسمية •

وفي صحن الحرملك الذي تبلغ مساحته ١١٢٥ م٢ يوجد بحرتان إحداهما مستطيلة تقع تجاه الايوان الجنوبي وأخرى مستديرة تقع أمام القاعة الكبرى والى الغرب من الأولى ، وبينهما ممر مائي مستطيل ، تحيط به الحدائق الغناء من كل جانب ، كما يوجد في الحرملك إيوانان أحدهما شمالي كانت تقيم الأسرة في غرفه خلال فصل الشتاء لوفرة الشمس فيه ، أما الايوان الجنوبي وما يحيط به من الغرف من الجانبين فكانت تخصص لقضاء فصل الصيف فيها لانحراف الشمس عنها •

ويضم الحرملك عدداً من القاعات الهامة ولكن يبقى أهمها القاعة الكبرى بطزراتها الثلاث التي تفنن صاحب الدار بها وأغدق على بنائها المال الكثير لتكون درة العمارة الاسلامية في القرن الثامن عشر ، وقد كانت كذلك حقاً •

هذا وقد بنى القسم المطل منها على الباحة بالحجر المزي والأبيض والأسود ، أما من الداخل فقد غشّاها بالمرمر والرخام جاعلاً لها ثلاث طزرات أحدهما وهو الجنوبي واثنان متقابلان هما الشرقي والغربي وجعل في كل طزر تسعة نوافذ والطزران المتقابلان متماثلان وكانت سائر أحجارها منقوشة ومنزلة بالذهب ، وجعل فوق كل شباك قمرية وزخارف منفذة بماء الذهب ومحلاّة بكتابات جميلة تحمل بعض العبارات منها « الخلاق الباقي » هذا غيض من فيض مماكتب وزخرف في الطزرين المتقابلين •

أما الطزر الجنوبي فهو يحمل ما يحمله الطزران الجانبان من الزخارف وانما زاد عليه في صدره سلسبيلاً ينزل منه الماء على منحدر من ألواح القاشاني،

وأبدع في نقش أحجاره المحيطة بـه وتطعيمها بالذهب النافر المنـزل • وعلى حلقة هذا الطزر ، وجد نص يحدد تاريخ انتهـاء عمارتهـا ، بأبيات فيها مديـح لصاحب الدار ، وهي مكتوبة بماء الذهب، وقد اقتطعنا بعضاً منها وهي :

قاعـة أشرقت بشمس الصدارة	وأتى السعـد معلنـاً بالبشارة
قد بناها الوزير أسعـد من قد	أطـد الله في المعالـي فخـاره
مـن خفـوق الريـاح فاح ثناه	والعطايـا مـن جوده مستعارة
يالهـا قاعـة يلـوح لديهـا	كـل يـوم بهـا عزّ الوزارة ١١٦٣

وفي العتبة بحرة رخاميـة مستديرة مؤلفة من ٢٤ عموداً من الرخام ملتصقة بعضها ببعض ، وكل عمودين متقابلين متشابهين ، هذه الأعمدة مثقوبـة مـن مركزها يخرج منها الماء بشدة من مناهل من النحـاس المطلي بالذهب وفي وسـط البحرة كأس من الرخام المخرم يخرج منه الماء من خمسين موضعاً •

هذا وكانت أبواب الشبابيك في هذه القاعة مرصعة بفصـوص من الصـدف ومنزلة بالذهب •

وحول باب القاعة إطار من الحجـر المزي والمرمر المطلي بماء الذهب والمرصع بفصوص من الصدف ، يعلو باب القاعة من الخارج نص محفور على الحجر والنص هو التالي :

بسـم الله الرحمـن الرحيم	سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين
باسـم الله حـل بهـا الهانـي	وحمـد الله مـن حسن البضاعة
وبالتوفيـق أو الاتقـان شيدت	كنـور نـيرّ أبـداً شعاعـه
أمـير الحـج أسعـد في كمـال	حبـاه الله بالاكـرام قاعـة ١١٦٣

وفي الحرملك قاعات أخرى خصصت كل واحدة لواحدة من نسائه وخدمها •

أما الخدملك فله صحن صغير نسبياً جهز ببحرة ، وفيه مطبخـان واسعـان ، وغرفة مجهزة بموقد لغلي القهوة عليـه ، وتحت هـذا القسم قبـوان ، يقـال أن

أحدهما كان يستخدم كسجن ، وقد قمنا بتحويله الى مستودع تحفظ فيه بعض الأواني المعدنية ٠

هذا ويقال أن القصر الذي تبلغ مساحته ٥٥٠٠ م٢ كان فيما مضى دار الذهب التي أنشأها تنكز وكانت دار الفلوس ، وقد بالغ في زخرفتها وسماها دار الذهب وبنى بجانبها دار القرآن والحديث التنكزية ، وفي صدر الاسلام جعلها بعضهم دار خالد بن الوليد كما ذكر بدران في منادمة الأطلال ، أما الحلاق البديري فقد جعلها دار معاوية بن أبي سفيان ٠ وكان معبد جوبيتر يشكل جزءاً من موقع القصر الحالي ودليل ذلك وجود جزء من أبراجه فوق السطح الغربي للقصر لأن هذا المعبد كان بعيد الامتداد في المنطقة ٠

وهنا يتساءل المرء عن الكيفية التي بني فيها القصر ؟٠ مما لا شك فيه أن النصوص كثيرة حول هذا التساؤل غير أن ما أورده البديري يعتبر أكثر صدقاً وأقرب الى الواقع من غيره لأنه عاصر بناءه من البداية حتى النهاية ولنسمعه يقول : « في حوادث ١١٦٣ هـ شهر ربيع الأول حدث ما يلي :

« ٠٠٠ في تلك الأيام أخذ الوزير أسعد باشا دار معاوية رضي الله عنه وأخذ ما حولها من الدور والخانات والدكاكين وهدمهم ، وشرع في عمارة دار السرايا المشهورة التي هي قبلي الجامع الأموي وجدّ واجتهد في عمارتها ليلا نهاراً ٠٠٠ وقطع لها جملة من الخشب اثنا عشر ألف خشبة وذلك عدا الذي أرسلوه له أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها ٠ ورسم على حمامات البلد أن لا يباع قصرمل لأحد بل يرسل لعمارة السرايا ، واشتغلت بها غالب معلمي البلد ونجاريها وكذلك الدهانين ، بل قلّ أن يوجد معلم جيد أو نجار أو دهان كذلك الا والجميع مشتغلون بها ٠وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة. أينما وجد بلاط أو رخام أو غير ذلك مثل عواميد وفساقي يرسل بقلعهم ويرسل القليل من ثمنهم ٠ وكان في قرب تربة البرامكة قصر الزهرانية ، قيل أنه من عمارة الملك الظاهر وهو على ظهر بانياس مطل على المرج ، وكان هذا في مكان منتزه عظيم تهدم غالبه ، وفي قربه مدفن وعليه قبة من حجر فأمر أسعد باشا بهدمها ونقل حجارتها الى داره ٠ وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني ، من السنة نفسها ، عمل حسن أفندي السفرجلاني وليمة لحضرة

أسعد باشا والي الشام ، بالصالحية فيقاعة ابن قرنق وكانت ضيافة عظيمة ، فنظر الباشا الى سروات شاهقات في دارهفطلب من صاحبهم قطعهم لأجل عمارة داره فقطعها ، وقطع له ثلاث سروات ،ليس لهم نظير في الشام ·

كما نقل من قرية بصرى ، أحجاراًوأعمدة من الرخام شيئاً كثيراً ، وأخذ من مدرسة الناصر في الصالحية ، أعمدةغلاظاً جيء بهم محملين على عربات تجرها الأبقار · كما هدم سوق الزنوطيةالذي فوق حارة العمارة وكانت له أقبية معقودة فأمر بفكها ونقلها لداره ···هذا وقد نقل اليها أعمدة من جامع يلبغا ··· وقد أخذ حضرة الباشا قدراًوافياً من ماء القنوات ، فما وصل الى السرايا حتى تقطعت السبل ومياه غالبالجوامع والحمامات ، وبقي النهر مدة مقطوعاً حتى عن البيوت » انتهى النص ·

يعتبر هذا النص دون شك وثيقةتاريخية ذات شأن عظيم تبين الكيفية التي بني وفقها هذا القصر ، وكيف جمعتمواده من خشب وحجارة ورخام من الدور والمدارس القديمة · ويقول ايكوشاران الزائر المدقق في بناء القصر يرى أن هناك قطعاً كثيرة يبدو عليها عدم الانسجام ، لأن كل قطعة منه أخذت من مكان ، ويبدو أن البنائينوالمزوقين بذلوا جهدهمليضفوا على تلك القطع المختلفة روح الانسجام ·

زخارف القصر ونقوشه :

من الملاحظ أن أسعد باشا قد عني بقصره عناية فائقة ليجعل منه قصراً مثالياً إن في فنون العمارة أو في الفنونالزخرفية ، وقد استخدم كل الصنّاع المهرة في كافة الفنون ليأتي القصر آيةفي الجمال والابداع وقد كان كذلك حقاً ، كيف لا وقد استخدم كما قال البديريكل المعلمين الجيدين ، ولو استعرضنا الزخارف التي نفذت في القصر لوجدناهامتعددة الأنواع والأشكال · ففي حقل الرخام والمرمر استخدم أسعد باشاالمادتين في تزيين جدران بعض القاعات كالقاعة الكبرى وباحات القصر وعتبات الغرف والأواوين وفق أشكال هندسية رائعة ، كما استخدم الرخام الملونوالمجزّع المفصص في أماكن كثيرة من

القصر ، كما كانت في بعض الأماكن زخارف محفورة في الرخام ، وقد أحيطت هذه الزخارف بخيوط من ذهب ٠

أما الخشبيات المزخرفة المدهونة بالألوان والمسماة بالعجمي فهي ذات شأن كبير في قصر العظم فهي التي تغشي السقوف والجدران وهي من الزخارف التي امتاز بها العصر التركي ، هذا الخشب يطلى وفق تقنية معقدة بأصباغ مختلفة تمتاز بتوافق ألوانها وانسجام خطوطها ودقة تنفيذها وفي بعض القاعات يتخللها بعض الأشعار، والأحاديث أو الآيات القرآنية ، وقد نجد أبياتاً من نهج البردة حول الجدران ، وفي أطراف السقوف ،وفي القاعات منها :

نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني والحب يعترض اللذات بالألم

أما سقوف القاعات كافة فتتباين من حيث العناصر الزخرفية ، أما الأخشاب المزخرفة التي تغطي الجدران فتغتني بالزخارف النباتية والهندسية والكتابية ذات الألوان التي يربط بينها الانسجام والتوافق ٠

أما الزخارف الحجرية التي تعلو عادة النوافذ وبواطن الأقواس فهي أحجار تتضمن زخارف ذات أشكال هندسية لا تعد ولا تحصى وهي في الواقع تمثل فناً عرفت به دمشق يسمى الأبلق ويتم التنفيذ بحفر الرسوم الهندسية وهذه الحفر والتجويفات تملأ بالاسمنت الملون أو بنوع من المؤونة الملونة حتى اذا جفت ، تم صقلها حتى تصبح على مستوى سطح الحجر ، وتبدو حينئذ وكأنها مرسومة رسماً على الحجر ٠

تلكم هي نظرة سريعة عن القصر من حيث مكانته في تاريخ فن العمارة وما يتبعها من فنون الزخرفة ٠

* * *